نحو تأصيل إسلامي للتاريخ

الأمة المسلمة

قبل بعثة محمد ﷺ

أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ

تاريخ الأمة المسلمة الواحدة

منذ أقدم عصورها وحتى القرن السابع قبل الهجرة

فى مصر و العراق

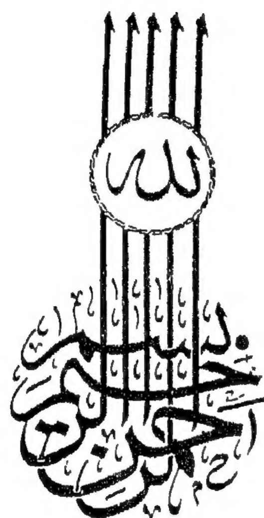
الدكتور جمال عبد الهادى محمد مسعود

الأستاذ المساعد بقسم التاريخ الإسلامى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى (سابقا)

الدكتورة وفاء محمد رفعت جمعة

الأستاذة المساعدة بقسم التاريخ الإسلامى
« طالبات » كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى (سابقا)

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش . م . م


بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

التاريخ فى عصرنا الحاضر يشكل جزءا مما يسمى بالعلوم الإنسانية . وما يسمى بالعلوم الإنسانية ، موضوع بحثها الإنسان « آدم وبنوه » ، وكان من الطبيعى أن تكون محكومة ، منهجا وموضوعا ، ومفهوما ، بالنظام الذى ارتضاه الخالق رب الإنسان للإنسان ، على اعتبار أن الخالق أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير .

وبدلا من أن تكون العلوم — التى موضوع بحثها الإنسان ، كالتاريخ والجغرافيا وعلم النفس وعلم الاجتماع — محكومة وموجهة بالنظام الإسلامى الربانى ، الذى شرعه الله لبنى البشر ، وبلّغه لهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ختاما بمحمد ﷺ ، نجد أنها محكومة منهجا وموضوعا ومفهوما ، بمناهج وتوجهات غير إسلامية تعتمد على أصول جاهلية تحتوى على عداء ظاهر وخفى للاتجاه الدينى عموما وللاتجاه الإسلامى على وجه الخصوص .

وقد حدث ذلك نتيجة الغزو الفكرى الذى حرص — كما قدمنا — على تجاهل رب الكون ، وتزييف وتشويه تاريخ الكون ، وتاريخ بنى آدم عموما والتاريخ الإسلامى على وجه الخصوص والذى يسمى تاريخ الدين الاسلامى ، وتاريخ الأمة الإسلامية الواقع التطبيقى لهذا الدين (١) .

والذين قاموا ويقومون على هذه الغزوة الفكرية تمهيدا للغزوة [illegible] والاقتصادية — والعسكرية — على بنى آدم ، هم أطراف التحالف [illegible] بالنظام العالمى ومنهم المستشرقون الذين يدسون لغير الإسلام يعاونهم جيش كبير ممن [illegible] على [illegible]

---

(١) [illegible] النبى محمد ﷺ تأليف محمد ناصف ، منهج كتابة التاريخ الإسلامى [illegible] بالمقدمة للدكتور [illegible] الهادى والدكتور [illegible] محمد [illegible] الوفاء [illegible] بالمنصورة [illegible] الإسلام [illegible] للمؤلف دار الوفاء للطباعة والنشر [illegible] طبعة [illegible]

وهؤلاء جميعا يهدفون إلى ماحذّر الله سبحانه وتعالى منه أمة محمد المسلمة منذ أربعة عشر قرنا من الزمان : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم** ﴾ (١) ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا** ﴾ (٢) ﴿ **ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء** ﴾ (٣) .

ولذلك فقد جاء كل الإنتاج الاستشراقى فى مجال تاريخ الكون وتاريخ الدين ، والتاريخ الإنسانى على وجه العموم والتاريخ الإسلامى على وجه الخصوص ، معدا لتحقيق ذلك الهدف الذى يحرّص عليه أطراف الكيد الشيطانى والتآمر العالمى .

فالمشتغلون بالتاريخ من المستشرقين ومن سار على نهجهم يتجاهلون الخالق عز وجل ، فهم لا يقرون بأن لهذا الكون خالقا ، متصفا بكل صفات الجلال والكمال ، ومستحقا للعبادة ، ولا يرون فى هذا الكون ، سوى المخلوقات المادية الملموسة ، كالسموات والأرض والنجوم والجبال والشجر ... إلخ . أى أنه لا وجود فى تصورهم الذى انطلقوا منه لكتابة تاريخ البشرية ، للملائكة أو الشياطين ولا وجود للرسالات أو الرسل أو الوحى أو الكتب السماوية ، أو البعث أو الحساب ، أو الثواب أو العقاب ، أو الجنة أو النار ، وأن الكون هكذا وجد ، أوجد نفسه بنفسه (٤) .

كما أن نظرة هؤلاء المشتغلين بالدراسات التاريخية إلى الإنسان الذى أدَّى ويؤدى دورا فى هذه الحياة منذ أقدم الدهور ، على أنه من نسل قردة مذنبين وأن بدايته هى الخلية الحية التى نشأت فى البرك والمستنقعات ، والتى تطورت عبر ملايين السنين مُروراً بجد مشترك للإنسان (٥) هو القرد ونهاية بالإنسان الحالى .

---

(١) البقرة : ١٢٠ . (٢) البقرة : ٢١٧ . (٣) النساء : ٨٩ .

(٤) انظر تاريخ العالم الذى أشرف على إعداده هامرتن ، وتاريخ العالم الذى أشرف على إعداده لانجر ، ومعالم تاريخ الإنسانية لولز وماتسمى بدائرة المعارف الإسلامية وقصة الحضارة لديورانت على سبيل المثال ؛ وكل ما أعد من دراسات فى مجال التاريخ القديم والدراسات الأثرية . فجميعها تسير فى خط معاد للتصور الدينى عموما وللتصور الإسلامى على وجه الخصوص (منهج كتابة التاريخ الإسلامى وبه دراسة عن الغزو الفكرى فى مناهج التاريخ) .

(٥) بهذا يقول رالف لنتون فى كتابه شجرة الحضارة ترجمة الدكتور أحمد فخرى ، ص ٢٧ ــ ٣٠ . والعجيب أن ادولف أرمان فى كتابه ديانة مصر القديمة ، ترجمة الدكتور محمد أنور شكرى ، والدكتور محمد عبد المنعم أبو بكر ص ٤ ، يذهب إلى أبعد من ذلك فيعتبر أن الحيوان هو النموذج السلوكى الذى نسج على منواله الإنسان ، وفى هذا يقول المؤلف « لقد استطاع الإنسان أن يميز نفسه عن الحيوان بصفات عدة استمدها فى أول الأمر مما يحيط الحيوان من =

ماذا يترتب على ذلك التفسير اللاديني لتاريخ الكون والإنسان ؟ :

وبمعنى آخر فإن تاريخ البشر لا يبدأ ــ عند هؤلاء ــ بآدم عليه السلام ، فآدم أسطورة وخرافة ، ورب آدم رب العالمين لا وجود له ....

أى أن الحكمة من خلق آدم وبنيه قد انتفت ، والتكليف الربانى لآدم وذريته ، قد تبدد ، أى أنه لا ضابط للإنسان من دين أو خلق ، أو حلال أو حرام ، ولا عقل يجعله مسئولا عن تصرفاته وبالتالى فلا حساب ولا عقاب ، ولا خطأ ولا صواب ، إنما يجرى على الإنسان مايجرى على الحيوان ، فمثلا إذ عدت دولة على دولة أخرى فروعت أهلها ، وقتلت

= انفعالات : فصراخ الحيوان ، ومناداة الذكر للأنثى ، تطورتا عند الإنسان وجعل منها لغة التخاطب ، كما أن غريزة التجمع عند الحيوان فى قطيع ، هى التى دفعت الإنسان إلى إنشاء الأسرة ، ومنها تكونت الدولة أما ذلك الدافع المُبْهم عند الحيوان ، للإبقاء على النسل فهو الذى أسمى العاطفة ودفع الإنسان إلى الزواج ، وكذلك كان الشعور الغريزى بالخوف والفزع عند الحيوان من كل ماهو مجهول ، سببا دفع الإنسان إلى احترام كل القوى التى تؤثر فى حياته ، دون أن يتعرف كنهها ، ومن هذا الشعور بعينه نشأت الديانة التى لم تكن إلا الاعتقاد المسيطر على ذهن الإنسان من أن هناك قوى تحيط بالإنسان وتؤثر فيه » وهكذا وصل المستشرق ادولف أرمان بالإنسان إلى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان ، ولم نجد من المترجمين وهما من أبناء المسلمين تصحيحا من خلال العقيدة الإسلامية لمفهوم الكاتب المنحرف ادولف أرمان الذى يردد فى كتابه أيضا « أنه لا صلة للأخلاق بالدين ، ص ١٧٧ »

وبحيوانية الإنسان أو أصله الحيوانى تقول « موسوعة تاريخ العالم » جـ ١ ص ٣ : « ينبغى أن يكون التاريخ فى أوسع معانيه سجلا للإنسان وأعماله منذ أن تحول من حيوان إلى إنسان » .

وللأسف أن د / مصطفى زيادة الذى ترجم هذا الجزء من الموسوعة لم يعلق من قريب أو بعيد على فكرة تعارض العقيدة الإسلامية عن الإنسان انظر أيضا نفس المرجع ، ص ٢٥ .

وبنفس الفكرة تقول موسوعة « معالم تاريخ الإنسانية » ، المجلد الأول ص ٦٢ تحت عنوان « القردة وأشباه الإنسان والإنسان » : « كان موضوع أصل الإنسان وعلاقته بالحيوانات الأخرى مثار جدال ونقاش شديد ، طيلة السنوات الأخيرة ، والرأى السائد بين العلماء أنه (أى الإنسان) انحدر من أسلاف أدنى منه مرتبة ، شأنه فى ذلك شأن سائر الثدييات ، وأنه والقردة الكبيرة ، ومنها الشامبانزى والأورانج أو تانج والغوريللا ، كان لها جميعا يوما ما حد مشترك ، وأن هذا الحد قد تطور من أشكال أدنى منه أيضا ، أى من نمط من أنماط الثدييات القديمة ، انحدر هو أيضا من زاحفة ذات هيئة حيوانية ، وهذه نفسها انحدرت أيضا من سلسلة البرمائيات ، وهذه بدورها من الأسماك البدائية ... ولقد صيغ الإنسان فصار إلى هذه الحالة التى تراه عليها اليوم من القوى والمواهب انظر أيضا موجز تاريخ الإنسانية ، ص ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ــ ١٨ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٤٥ ، ٤٦ ، وكذلك تاريخ العالم الذى أشرف على إعداده جون هامرتن ، ص ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ١٦٣ ، P. Rivet , Lorigine de Lhomme. ود / محمد السيد غلاب ، يسرى الجوهرى فى كتابهما الجغرافيا التاريخية عصر ما قبل التاريخ وفجره ، ص ١٩٧ ، يتحدثان عن الإنسان القرد » .

أطفالها ، وسبت نساءها وسلبت خيراتها ، واغتصبت أرضها ، فلا شيء عليها ، طالما تمسك بزمام القوة التي تمكنها من تحقيق أهدافها ، وطالما كان أفرادها من جنس معين .

فالإنسان في ضوء هذه النظرية الحيوانية لم يخلق لغاية سوى غاية الحيوان ، التي تتمثل في الحصول على الطعام والشراب ، والتناسل والتكاثر ، وبالتالي فالصراع بين بني آدم هو صراع على احتياجات الحياة المادية التي هي حق لمن يحصل عليها بأية وسيلة وإن كانت غير مشروعة .

المستشرقون ومن سار على نهجهم حريصون على هدم الإسلام :

وكُتَّاب التاريخ الذين تبنَّوا ذلك التفسير اللاديني لتاريخ البشرية حريصون على هدم الإسلام وكونه عقيدة ، ونظام حياة شامل ، اقتصادي ، وسياسي ، وثقافي ، وتعليمي ، وجهادي ، صالح لكل زمان ومكان ، وبالتَّالي زعزعة ثقة بني البشر في رب الكون ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، مع تشويه تاريخ الأمة المسلمة ــ الواقع التطبيقي لذلك الدين ــ وتزييفه وبعثرته حتى لا تهتدي الأمة المسلمة إلى ذاتها وغايتها . أي الانطلاق من العداء للاتجاه الديني عامة والاتجاه الإسلامي على وجه الخصوص . وتحقيقا لهذا المنطلق فإن المشتغلين بالتاريخ من غير المسلمين ومن سار على نهجهم قد تواصوا بوسائل منها :

التجاهل والتجهيل بالبداية الحقيقية للدين الإسلامي ، وبالبداية الحقيقية لتاريخ الأمه المسلمة الواقع التطبيقي للإسلام والذي تحقق في أمم عاشت على سطح الأرض [1] .

وذلك يعني في تصور هؤلاء المشتغلين بالتاريخ أن الدين الإسلامي لا وجود له قبل رسالة محمد ﷺ وهذا يعني أيضا طبقا لتصورهم المنحرف أن آدم لم يكن مسلما ، وكذلك نوح ولوط وإبراهيم ويعقوب وسليمان وغيرهم من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، معالم تاريخ الإنسانية ، تاريخ العالم ، قصَّة الحضارة ، موسوعة تاريخ العالم ، وكل المراجع والمصادر التي كتبت تحت تقسيم التاريخ القديم والدراسات الأثرية ، (حضارة مصر والشرق القديم) تأليف د. إبراهيم رزقانة وآخرين ، مصر والشرق الأدنى القديم ، تأليف د . نجيب ميخائيل ، فجر الحضارة تأليف ج . هنري برستد ، تطور الفكر والدين في مصر القديمة ، نفس المؤلف . الحيثيون تأليف أ . ر . جرني ، الحضارات السامية القديمة تأليف موسكاتي .

وهذا يعنى أيضا طبقا لتصورهم المنحرف الموجّه ، أنه لم يكن هنالك وجود لقوم نوح المسلمين ، ولا لقوم هود ، ولا لقوم صالح ولا لقوم إبراهيم ولا لقوم يعقوب ولا لقوم موسى ولا لقوم إسماعيل المسلمين عليهم السلام قبل بعثة محمد ﷺ ، وبذلك يعزلون تاريخ الأمة المسلمة التى سبقت رسالة (محمد) ﷺ عن بقية تاريخ الأمة المسلمة والتى تضرب بجذورها إلى عهد آدم عليه السلام ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ (1) ، والتى يمتد تاريخها عبر آلاف السنين .

وقد ترتب على تبنى هذا المنطلق من قبل المستشرقين ، ومن سار على نهجهم فصل هذا الجزء العزيز الغالى الكبير والأساسى من تاريخ الإسلام ، وتاريخ الأمة المسلمة منذ أقدم الدهور بداية بآدم عليه السلام ، وحتى قبيل بعثة محمد ، ﷺ ، وأطلقوا عليه اسم « التاريخ القديم » ، « تاريخ مصر القديمة » ، « العراق القديم » ، « الشرق القديم »(2) بلاد الشام القديم ... وحولوه إلى تاريخ وثنى جاهلى : « مصر الفرعونية » ،« العرب فى الجاهلية ، العرب قبل الإسلام » بل وأطلقوا على هذه الفترة عصور ماقبل التاريخ ، والعصور الحجرية ، التى أثناءها لم يكن الإنسان الحيوان يعرف له ربا ولا يعتنق ديناً ، فنشأت لدى الإنسان عاطفة التدين من مشاهدة الحيوانات التى تخاف من القوى الخفية ، وتخاف البرق والرعد ، فبدأ يتخذ لنفسه آلهة على قدر نضوجه الفكرى (3) ، أى أن الدين من اختراع العقل البشرى .

وترتب على ذلك المنطلق أيضا معالجة تواريخ الأمم التى سبقت بعثة محمد ﷺ ، بما فى ذلك تاريخ أوربا (4) ، على أنه تاريخ وثنى جاهلى محض لا أثر فيه لوجود الله ، ولا لدين هو الإسلام ، طلب الله من البشرية أن تعتنقه ، ولا لنظام ولا لشرع ربانى طلب الله من بنى آدم أن يخضعوا حياتهم له . ولا وجود لرسل أرسلوا من قبل الله عز وجل ، يطلبون من الناس عبادة الله وحده بلا شريك أى انتفاء التكليف الربانى لبنى البشر .

والنموذج لذلك يتضح لنا من كيفية معالجة المستشرقين لما يسمى بالتاريخ القديم ،

---

(1) الأنبياء : 92 .

(2) ديانة مصر القديمة ؛ الشرق الأدنى القديم ، (مصر والعراق) ، حضارة مصر والشرق القديم ، عرب قبل الإسلام .

(3) تطور الفكر والدين فى مصر القديمة .

(4) تاريخ الحضارة الهلينية ، تأليف أ . توينبى ، ترجمة رمزى عبده جرجس .

تاريخ مصر والعراق ، بلاد الشام والجزيرة العربية [١] منذ أقدم الدهور ، التى أسقطت تماما أى دعوة إلى الإسلام حملها رسل الله فى حياة الأمم التى سكنت تلك البلاد وبهذا أصبحت جميع الأمم ، بلا استثناء ، تنظر إلى هذه الفترة من تاريخها ، على أنها خلقت وتركت هملا ، فلم تكن تعرف لها ربا ، ولا ترتضى لنفسها دينا .

ويسير فى نفس الاتجاه السالف الذكر ، علماء الآثار من المستشرقين الذين يحرصون على طمس أية قرينة أثرية أو ملامح تاريخية تؤكد أن الله سبحانه وتعالى قد فطر البشرية على الإسلام . وارتضاه لها دينا وبه بعث الرسل . وعندما تظهر قرينة رغما عنهم ، تؤكد أصالة خط توحيد الله فى حياة البشرية راحوا يعزونها إلى تطور الفكر البشرى .

وأصحاب منطلق التجاهل والتجهيل بالإسلام لا يستندون إلى دليل سوى الجهل والجهل لا يصلح أن يكون دليلا .

وهكذا .... إذا قدِّر للإنسان أن يرجع إلى الموسوعات التاريخية [٢] ، ليتعرف على تاريخ البشرية ، يجد أن كتابها قد تعرضوا لخلق الكون ، وكيفية حدوث ذلك ، وتعرضوا لخلق الإنسان ، وكيفية حدوث ذلك ، وتعرضوا لتاريخ الأديان — ومنها الإسلام — والأساس الذى قامت عليه ، ولكن تعرضهم لهذه الموضوعات لم يكن موفقا بأى حال من الأحوال ، نظراً لأن كل التفسيرات التى قدموها لما طرحوه من موضوعات قد جانبها الصواب ؛ لأنها تمت بمعزل عن القرآن وسنة النبى محمد ﷺ .

ولقد ترتب على ذلك نتائج بعيدة المدى ، مما لا شك فيه أنَّها ليست فى مصلحة بنى آدم ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

والذى يهمنا بالدرجة الأولى الآن ، هو التصحيح ، فلا بد من تعريف الناس بالخالق رب العالمين والتعرض لتاريخ الكون ، وما خلق فيه ؛ لأنّه لا حجة لنا أمام الله إذا عالجنا تاريخا عاما للكون بتجاهل الكون وخالق الكون سبحانه وتعالى ، ولا حجة لنا أمام الله إذا

---

(١) الحضارات السامية القديمة ، وكل ما كتب فى مجال التاريخ القديم ، والدراسات الأثرية .

(٢) ماتسمى بدائرة المعارف الإسلامية ، تاريخ العالم ، موسوعة تاريخ العالم ، معالم تاريخ الإنسانية (انظر أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الإسلام دين الله فى الأرض وفى السماء ، منهج كتابة التاريخ الإسلامى لماذا وكيف ؟) دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، المنصورة .

أخذنا فى رواية تاريخ الإنسان دون التعريف بهذا الكون الذى استخلف فيه الإنسان لأداء دوره المقدر له والمرسوم له من الله رب العالمين ، مع بيان حقيقة العلاقة بين خالق الكون والكون ، وبين خالق الإنسان والإنسان وبين الكون والإنسان ، ليدرك أبناء آدم أن تاريخهم محكوم بنظام دقيق من صنع إله حكيم ، خلق كل شىء فقدره تقديرا ، وأن تمرد بنى آدم على هذا النظام أو محاولة الصدام به أو تجاهله ، يجرهم إلى شقاء دائم فى الدنيا والآخرة .

وقد يثير الحاقدون على الفكرة الإسلامية ، مناقشات عقيمة حول أهمية هذا التاريخ ، فيزعمون أن معالجة هذا الجانب من اختصاص رجل الدين ، فيفصلون بذلك بين التاريخ والدين ، ونسوا أن دراسة التاريخ فرض على الكفاية ، وأنه خادم للعلوم الشرعية (الإسلامية) ، وأن المؤرخين من المسلين الأوائل ، ماعرفوا الفصل بين التاريخ والدين ، وأن هذا الفصام النكد بين التاريخ والدين ، ما عرفته البشرية إلا فى عصرها الحالى ، على أيدى أعداء البشرية من المستشرقين ومن سار على نهجهم .

ويكفينا أن نردهم إلى صوابهم هنا بكلمة بسيطة ، لماذا تسمحون لكتاب التاريخ أن يتعرضوا بمعزل من العقيدة الإسلامية لتاريخ خلق الكون والإنسان والدين ، ويقدموا لنا تفسيرات جاهلية قاصرة غير صحيحة [1] ثم تضعونها على عيونكم ورؤوسكم ، ولا تردونهم

---

(١) إذا رجعنا إلى « موسوعة تاريخ العالم » ، التى أشرف عليها لانجر ، الجزء الأول ، نجد أنه يعالج موضوع الإنسان تحت العناوين التالية ، تحول الإنسان من حيوان إلى إنسان ص ٣ ، القردة وأشباه الإنسان .. ص ٦٢ .

كما أن « تاريخ العالم » الذى أشرف على إعداده جون هامرتن يبدأ بمعالجة تاريخ العالم تحت العناوين التالية :

مافائدة التاريخ ؟ ، عرض موجز لدراستنا الخاصة بما قبل التاريخ ، مولد العالم ، تكوين الأرض والحياة على الأرض قبل أن يكون الإنسان ، تطور الإنسان ، الجماعة البدائية وأصول الأجناس (ص ٤٣) .

وفى ثنايا صفحات هذه الموسوعة نقرأ مقالا لشخص يسمى جينز : « كيف يستطيع علم الفلك والعلوم الطبيعية أن تفسر منشأ الأرض تفسيرا عقليا ؟ (ص ٤٣) .

وفى ثنايا هذه الموسوعة تقرأ مقالا لآثر كيت عن : تطور الإنسان ، كيف يتضافر علم الإنسان وعلم التشريح على إثبات ارتقاء الإنسان ارتقاء بطيئا من الأحياء الدنيا ؟ (ص ٤٣) وأسلاف النوع الإنسانى (الإنسان القرد) ص ١٦٣ كما نقرأ مقالات عن احتراع الزراعة ص ٤٨ ، واختراع الدين ص ٤٩ . (انظر أيضا ولز ، معالم تاريخ الإنسانية ، ص ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٣) .

وهكذا نلاحظ أن الذين اشتغلوا بصناعة التاريخ قد تعرضوا لموضوعات ليس لديهم مقومات البحث فيها ، أو إعطاء تفسيرات صحيحة لها ، لذلك فإن تفسيراتهم إذا نظرنا إليها فى ضوء العقيدة الإسلامية ـــ نرى أنها قد =

إلى صوابهم ، وتقولون لهم : أنتم لستم مؤهلين للخوض فى هذه الموضوعات وتقديم تفسيرات لها ؟ ؟ لماذا لا تقولون لهم : إن تفسيراتكم خاطئة ؟ ؟ وكتاباتكم للتاريخ على هذا الأساس ليس لها سند من الحقيقة ؟ ؟ بدلا من أن تقفوا فى وجه المسلم وتزعموا أن هذا ليس من اختصاص رجل الدين ، وأنه ليس هناك صلة بين التاريخ والدين ؟ ؟ .

المؤلفان

جمال عبد الهادى وزوجه وفاء رفعت

= جانبها الصواب .

وذلك يستلزم منا التصحيح ، وإعطاء معلومات صحيحة عن الموضوعات التى أثاروها ، وهذه الموضوعات لا يملك العالم بأسره فيها خبرا يقينيا واحدا إلا من خلال كتاب الله ، القرآن الكريم ، وسنة نبيه محمد ﷺ .

الباب الأول

أخبار القرون الأولى

عصر ماقبل آدم عليه السلام

﴿كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا﴾

آية ٩٩ سورة طه

الفصل الأول

أخبار القرون الأولى

عصر ماقبل آدم عليه السلام

*** كان الله ولم يكن قبله شى**
*** قل هو الله أحد .**
*** الله خالق كل شى .**
*** الله الخالق يستوى على العرش .**

من الأسئلة التى يطرحها الإنسان ، أى إنسان ، على نفسه ، وعجز العلمانيون من كتاب التاريخ فى الإجابة عليها : من أنا ؟ إلى من أنتسب ؟ من الذى خلقنى ؟ ومن الذى خلق هذا الكون من حولى ؟ ولماذا خلقنى وهذا الكون ؟ وهل هنالك مخلوقات أخرى خلقها الخالق غير مرئية لنا ، وما هى العلاقة بين الخالق والمخلوق ؟ وما هى السنن التى تضبط حقيقة العلاقة بينى وبين الخالق العظيم ؟ وبينى وبين هذا الكون الذى أعيش فيه ؟ وبينى وبين القوى التى أراها ؟ وهل هنالك سنن تضبط حركة الكون وحركة الإنسان ؟

ومن الأسئلة : لماذا هذا الصراع الذى يدور على سطح الأرض ؟ لماذا المظالم التى يتعرض لها الإنسان من أخيه الإنسان ؟ وهل خلق الله القوى ليستبد بالضعيف ؟ ومن الأسئلة : لماذا الموت ؟ وهل بعد الموت من حياة ؟ وأين ؟ وهل من حساب ؟ وما هو مصير الخيرين وما هو مصير الأشرار ؟

وقد أجاب على بعض هذه الأسئلة أساتذة التاريخ القديم من المستشرقين ومن سار على نهجهم ، وزعموا أن الإنسان من سلالة القردة . وقد خُلق بدون خالق ؟ وأنه لا غاية

سوى غاية الحيوان : أن يتزوج ويتناسل ويأكل ويستمتع بالحياة ثم يموت وبعد ذلك فناء .... وزعموا أيضا أن الكون وُجد مصادفة ، هكذا عَبْر عصور حجرية وعصور ماقبل التاريخ !

إجابات قد جانبها الصواب ، تعتمد على الحدس والتخمين والاستنتاج وكلها لا تزيد الإنسان إلا حيرة وضلالة وارتباكا .

لماذا هذه الإجابات الخاطئة الضالة ؟ لأن الأساتذة العلمانيين **قد أعرضوا** عن الهدى الربانى ، عن القرآن الكريم ، عن سنة النبى محمد ﷺ **وأعملوا عقولهم** فى الغيبيات ، فجاءت إجاباتهم خبط عشواء لا أثر فيها للحق (١) .

ومن هنا وجب علينا أن نبين الحق ، ونعطى الإجابات الصحيحة على الأسئلة المطروحة وغيرها اعتمادا على القرآن الكريم وسنة النبى محمد ﷺ والمصادر الأخرى الموثقة ، وهذا ماتجده بين يديك وماتوفيقنا إلا بالله :

إن الإنسان مخلوق كريم ، من سلالة آدم عليه السلام ، الذى خلقه الله رب العالمين الذى خلق الكون ، وخلق الملائكة والجن الذين يروننا ولا نراهم ، وأن الله الخالق قد خلق الخلق ومنهم الإنسان لغاية وهى العبادة ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ (٢) ، وإن هنالك سننا تضبط حركة الكون والإنسان ، وتُنظِّم علاقة الإنسان بهذا الكون الذى ذلله وسخره الله له واستخلفه فيه .

سوف تجد أن الصراع بين الحق والباطل صراع قديم ومستمر ، وأثناءه قد يظلم الإنسان ويستبد به القوى ، ولكن كل شىء مدون ﴿ **مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ (٣) ويأتى اليوم الذى يجازى كل إنسان بما عمل ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾(٤) .

سوف تدرك أن الموت حق ، وأنه لا بد من البعث ، والحساب والعقاب ، ثم إلى

---

(١) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الإسلام دين الله فى الأرض وفى السماء تأليف د . جمال عبد الهادى وروجته دكتورة وفاء محمد رفعت ، منهج كتابة التاريخ الإسلام لماذا ؟ وكيف ؟ لنفس المؤلفين ، دار الوفاء للطباعة والنشر بالمنصورة .

(٢) الذاريات : ٥٦ .　(٣) ق : ١٨　(٤) الزلزلة : ٧ ، ٨

جنة أم إلى نار « والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ، وإنّها لنار أبدا أو لجنة أبدا » سوف تجد الإجابة لكل مايعتمل فى نفسك إذا أقبلت على كتاب الله القرآن الكريم وسنة النبى محمد ﷺ .

« وقد قص الله على نبيه ﷺ خبر مامضى من المخلوقات ، وذكر الأمم الماضين ، وكيف فعل بأوليائه ، وماذا حل بأعدائه ، وبين ذلك رسول الله ﷺ لأمته بيانا شافيا ، فأخبرنا بما نحتاج إليه من ذلك ، وترك ما لا فائدة فيه » .

« ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى قد أغنانا برسولنا محمد ﷺ عن سائر الشرائع ، وبكتابه عن سائر الكتب ، فلسنا نترامى على مابأيديهم (المستشرقين ومن سار على نهجهم) مما وقع فيه خبط وخلط ، وكذب ووضع ، وتحريف وتبديل » .

« فالمحتاج إليه قد بينه لنا رسولنا ﷺ ، وشرحه وأوضحه ، عرفه من عرفه ، وجهله من جهله ، كما قال على بن أبى طالب « كتاب الله فيه خبر ماقبلكم ونبأ مابعدكم ، وحكم مابينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » وقال أبو ذر رضى الله عنه « لقد توفى رسول الله ﷺ وماطائر يطير بجناحيه إلا أذكرنا منه علما » [1] .

وقال عمر بن الخطّاب رضى الله عنه « قام فينا رسول الله ﷺ مقاما فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم ، وأهل النار منازلهم » [2] .

هل كان هنالك شيء قبل خالق هذا الكون ؟

« كان الله ولم يكن شيء قبله » :

« قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ : جئناك لنتفقه فى الدين ، ولنسألك عن أول هذا الأمر ، قال : كان الله ولم يكن شيء قبله » وفى رواية « معه » وفى رواية « غيره » [3] . فالله ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم** ﴾ [1] .

---

(١) البداية والنهاية ، حـ ١ ، ص ٦

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٧ ، رواه البخارى فى كتاب بدء الخلق ، صحيح أبى عبد الله البخارى حـ ٤ ، ص ١٢٩

(٣) نفس المصدر السابق ، حـ ١ ، ص ٩ رواه البخارى ، بدء الخلق ، حـ ٤ ، ص ١٢٩ .

وأين كان رب العالمين قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ :

سئل رسول الله ﷺ : أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ قال : « كان فى عماء مافوقه هواء وماتحته هواء ثم خلق عرشه على الماء » [٢] .

من هو الله ؟ :

عن أُبيّ بن كعب أن المشركين قالوا للنبى ﷺ : يامحمد انسب لنا ربك . فأنزل الله تعالى : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ يعنى الواحد ، الأحد الذى لا نظير له ولا وزير ، ولا شبيه ولا عديل ؛ لأنه الكامل فى جميع صفاته وأفعاله ﴿ **الله الصمد** ﴾ يعنى الذى يصمد إليه الخلائق فى حوائجهم ومسائلهم ، ﴿ **لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد** ﴾[٣] أى لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شىء .

« الله خالق كل شىء » :

« الله يقدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض ، قال الله تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ **الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل** ﴾ [٤] فكل ماسواه تعالى فهو مخلوق له ، مربوب مَدَبَّر ، مكوّن بعد أن لم يكن ، مُحدَثٌ بعد عدمه ، فالعرش هو سقف المخلوقات إلى ماتحت الثرى ، وما بين ذلك من جامد وناطق ، الجميع خلقه ، وملْكه وعبيده ، وتحت قهره وقدرته ، وتحت تصريفه ومشيئته ﴿ **هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم مايلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أين ماكنتم ، والله بما تعملون بصير** ﴾[٥] .

و « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ،

---

(١) الحديد : ٣ ، انظر شرح العقيدة الطحاوية ، ص ١١٣ ، فى ظلال القرآن ، المجلد ٦ / ٣٤٧٨ .

(٢) البداية والنهاية ، حـ ١ صفحة ٨ ، رواه أحمد والترمذى وقال الترمذى:حسن .

(٣) سورة الإخلاص ، خرجه الإمام أحمد والترمذى وابن جرير

(٤) تفسير القرآن العظيم ، حـ ٢ ، ص ٤٣٧ ، الزمر : ٦٢ .

(٥) الحديد : ٤ .

وعرشه على الماء » [١] .

الله الخالق يستوى على العرش [٢] :

قال تعالى : ﴿ **فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾ [٣] وقال تعالى : ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾ [٤] . وقال تعالى : ﴿ **وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ [٥] . والله سبحانه وتعالى ، فوق عرشه ، وعرشه فوق سمواته [٦] . وعرش الرحمن فوق الفردوس ، والفردوس أعلى الجنة وأوسط الجنة [٧] .

« والذى ثبت شرعا أن له قوائم تحمله الملائكة ، وأيضا فإنه فوق الجنة ، والجنة فوق السموات . وفيها مائة درجة مابين كل درجتين كما بين السماء والأرض . والعرش كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات . قال تعالى : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا** ﴾ [٨] .

وقال رسول الله ﷺ : « أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش أن مابين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » [٩] .

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٩ ، رواه مسلم .

(٢) الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة ، بهذه الكلمات ، أغلق مالك رضى الله عنه الطريق أمام أصحاب البدع ، الذين يبحثون عن الكيف .

(٣) المؤمنون : ١١٦ . (٤) الحاقة : ١٧ . (٥) الزمر : ٧٥ .

(٦) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١١ .

(٧) قال رسول الله ﷺ : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن » رواه البخارى .

(٨) غافر : ٧ ؛ المصدر السابق ، ١١ ، ١٢ .

(٩) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٣ ، رواه أبو داود .

الفصل الثانى

الله يخلق السموات السبع والأرضين السبع

طائعين منقادين له سبحانه وتعالى

* الله يسخر البحار لبنى آدم .
* الله يجرى الفلك لبنى آدم .
* الله يجرى الماء العذب لبنى آدم .
* الله يهدى الإنسان بالنجوم ظلمات البر والبحر .

قال تعالى : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ﴾(٢) .

الله سبحانه وتعالى يسخّر البحار لبنى آدم ليأكلوا منها لحما ويستخرجوا منها حلية ــ والله يجرى الفلك عليها لبنى آدم ليبتغوا من فضل الله ويشكروا نعمه ــ والله علّم

---

(١) فصلت : ٩ ــ ١٢ .

(٢) الطلاق : ١٢ . البداية والنهاية ، جـ ١ ص ١٨ ، ١٩

الإنسان كيف يهتدى بالنجوم فى ظلمات البر والبحر ـ كما أجرى له الماء العذب الفرات السائغ الشراب :

قال تعالى : ﴿ **وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم** ﴾ (١) . ﴿ **وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾ (٢) .

« فامتن الله تعالى على عباده ، بما خلق لهم من البحار والأنهار . فالبحر المحيط بسائر أرجاء الأرض وما ينبت منه فى جوانبها الجميع مالح الطعم مر ، وفى هذا حكمة عظيمة لصحة الهواء ، إذ لو كان حلوا لأنتن الجو وفسد الهواء بسبب مايموت فيه من الحيوانات ، فكان يؤدى إلى تفانى بنى آدم ولكن اقتضت الحكمة البالغة أن يكون على هذه الصفة لهذه المصلحة ، ولهذا لما سئل رسول الله ـــ ﷺ ـــ عن البحر قال « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته » . وأما الأنهار فماؤها عذب فرات سائغ شرابها لمن أراد ذلك . ، وجعلها حارية سارحة ينبعها تعالى فى أرض ويسوقها إلى أخرى رزقا للعباد . ومنها كبار ومنها صغار بحسب الحاجة والمصلحة » (٣) .

« ومن نعمة الله على عباده أن كف شر البحر عن أن يطغى عليهم وسخره لهم يحمل مراكبهم ليبلغوا عليها إلى الأقاليم النائية بالتجارات وغيرها وهداهم بما خلقه فى السماء والأرض من النجوم والجبال التى جعلها لهم علامات يهتدون بها فى سيرهم ، وبما خلق لهم فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة العزيزة الثمينة التى لا توجد إلا فيه ، وبماخلق فيه من الدواب الغريبة ، وأحلها لهم حتى ميتتها كما قال تعالى : ﴿ **أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة** ﴾ (٤) وقال النبى ﷺ : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » (٥) .

---

(١) النحل : ١٤ ـــ ١٨ .
(٢) فاطر : ١٢ .
(٣) البداية والنهاية ، جـ ١ ص ٢٢ ، ٢٣ .
(٤) المائدة : ٩٦ .
(٥) رواه الخمسة ، وقال الترمذى حسن صحيح . البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٢٣ .

تفاصيل خلق السموات وما فيها من آيات الله « لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » :

﴿ **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقا ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير** ﴾ (١) .

« وقال تعالى : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا** ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ **تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ، وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذَّكَّر أو أراد شكورا** ﴾ (٣) . والمقصود أنه تعالى يخبر عن خلق السموات وعظمة اتساعها وارتفاعها وأنَّها فى غاية الحسن والجمال ، والإتقان ، فالله سبحانه وتعالى هو الذى أحكم خلقها وزين بالكواكب أفقها ، وأنه صان حوزتها عن حلول الشياطين بها ﴿ **إنا زيَّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد** ﴾ (٤) كما أنه جعل النجوم ليهتدى بها فى ظلمات البر والبحر . ﴿ **وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر** ﴾ (٥) » .

وذكر تعالى أنه خلق سبع سموات طباقا أى واحدة فوق واحدة متفاصلات بينهن خلاء ؛ لما ورد عن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون كم بين السماء والأرض ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « بينهما مسيرة خمسمائة عام . ومن كل سماء إلى سماء خمسمائة سنة وكثف كل سماء خمسمائة سنة » (٦) وفى الصحيحين من حديث أنس فى الإسراء قال فيه : « ووجد فى السماء الدنيا آدم فقال جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه فرد السلام . وقال مرحبا وأهلا بابنى نعم الابن أنت » إلى أن قال : « ثم عرج بنا إلى السماء الثانية » .

---

(١) تبارك : ١ — ٥ . (٢) نوح : ١٥ — ١٦ . (٣) الفرقان : ٦١ — ٦٢ .
(٤) الصافات . ٦— ٧ ، البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٣٠ .
(٥) الأنعام : ٩٧ . (٦) رواه أحمد وأبو داود ، وابن ماجه والترمذى وحسنه .

وكذا ذكر فى الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة . فدل على التفاصيل بينها لقوله : ثم عرج بنا حتى أتينا السماء السابعة ، فاستفتح ، فقبل من هذا ، (الحديث) [1] .

الله خلق الأنهار التى ورد ذكرها فى أحاديث محمد ﷺ :

قال تعالى : ﴿ **الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾ [2] .

ولما ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ سدرة المنتهى قال : « وإذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران . فأما الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات » [3] .

وفى الحديث أيضا : « سيحان وجيحان والفرات والنيل كلها من أنهار الجنة » [4] .

« وكأن المراد والله أعلم من هذا أن هذه الأنهار ، تشبه أنهار الجنة ، فى صفائها ، وعذوبتها ، وجريانها » [5] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٣١ (٢) إبراهيم . ٣٢ ـ ٣٤ .

(٣) وفى لفظ فى البخارى وعنصرهما أى مادتهما أو شكلهما وعلى صفتهما ونعتهما ، البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٢٦

(٤) رواه مسلم

(٥) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٢٦ ؛ ويضيف الإمام الحافظ ابن كثير « ومن جنس تلك فى هذه الصفات ونحوها كما قال ﷺ فى الحديث الآخر « العجوة من الجنة وفيها شفاء من السم » ، أى تشبه ثمر الجنة ، لا أنها مجتناه من الجنة ، فإن الحس يشهد خلاف ذلك فتعين أن المراد غيره وكذا قوله ﷺ « الحمى من فيح جهنم ، فأبردوها بالماء » وهكذا هذه الأنهار ، وأصل منبعها مشاهد فى الأرض

الفصل الثالث

الله خالق كل شىء

المبحث الأول

منْ خلق الله فى الكون الملائكة

الله خلق الملائكة بصفات معينة وحدد لهم مهمات معينة :

قال الله تعالى . « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون »[1] وقال تعالى : « تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم »[2] وقال تعالى . « وإنّ عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ماتفعلون »[3] وقال تعالى « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »[4] وقال تعالى : « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق مايشاء إن الله على كل شىء قدير »[5] وقال تعالى . « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون »[6] وقال تعالى : « من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين »[7] والآيات فى ذكر الملائكة كثيرة جدا ، يصفهم تعالى بالقوة فى العبادة ، وفى الخلق وحسن المنظر ، وعظمه الأشكال وقوة الشكل فى الصور المتعددة

---

(١) الأنبياء : ٢٦ — ٢٨ (٢) الشورى ٥ (٣) الانفطار . ١٠ — ١٢

(٤) الرعد : ٢٣ — ٢٤ (٥) فاطر ١

(٦) التحريم ٦ ، البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٤٠ ، ٤١ . (٧) البقرة . ٩٨

كما قال تعالى ﴿ **ولمَّا جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق به ذرعا وقال هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات** ﴾ [١] أى أن الملائكة بدت لهم فى صورة شباب حسان ؛ امتحانا واختباراً ، حتى قامت على قوم لوط الحجة ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

« وكذلك كان جبريل يأتى إلى النبى ﷺ فى صفات متعددة ، فتارة يأتى فى صورة دحية بن خليفة الكلبى ، وتارة فى صورة أعرابى (رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر) وتارة فى الصورة التى خلق عليها . له ستمائة جناح ، مابين كل جناحين ، كما بين المشرق والمغرب كما رآه على هذه الصفة مرتين . مرة منهبطا من السماء إلى الأرض ، وتارة : ﴿ **عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى** ﴾ [٢] وهو قوله تعالى : ﴿ **علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى** ﴾ [٣] أى جبريل كما ذكره ابن كثير عن غير واحد من الصحابة .

وذكر ابن كثير : أن سدرة المنتهى فى السماء السابعة ، وفى رواية فى السادسة ، أى أصلها وفروعها فى السابعة ، فلما غشيها من أمر الله ماغشيها ، قيل : غشيها نور الرب جل جلاله ، وقيل غشيها فراش من ذهب ، وقيل : غشيها الملائكة مثل الغربان . وقيل : غشيها من نور الله تعالى فلا يستطيع أحد أن ينعتها . وذكر ابن كثير أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « ثم رفعت لى سدرة المنتهى فإذا نبقها كالقلال . وفى رواية كقلال هجر وإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا يخرج من أصلها نهران ..... » [٤] إلخ .

« وفيه : ثم رفع إلىّ البيت المعمور وإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ماعليهم . وذكر أنه وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مُستندا ظهرُه إلى البيت المعمور » . واسم البيت فى السماء بيت العزة . واسم الملك الذى هو مقدم الملائكة فيها إسماعيل . فعلى هذا يكون السبعون ألف من الملائكة الذين يدخلون فى كل يوم إلى البيت المعمور ثم لا يعودون إليه . آخر ماعليهم (أى لا يحصل لهم نوبة إلى آخر الدهر) يكونون من سكان السماء السابعة وحدها . ولهذا قال تعالى : ﴿ **ومايعلم جنود ربك إلا هو** ﴾ وقال رسول الله ــ ﷺ ــ : « إنِّى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون

---

(١) هود : ٧٧ ــ ٧٨ .
(٢) النجم : ١٤ ــ ١٥
(٣) النجم : ٥ ــ ٨ .
(٤) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٤١ .

أطّت السماء وحق لها أن تئِطّ ، مافيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد ، لو علمتم مما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل » (١) .

« ودل هذا الحديث وغيره على أنه ما من موضع فى السموات السبع إلا وهو مشغول بالملائكة وهم فى صنوف من العبادة . منهم من هو قائم أبدا ، ومنهم من هو راكع أبدا ، ومنهم من هو ساجد أبدا ، ومنهم من هو فى صنوف أخر والله أعلم بها . وهم دائمون فى عبادتهم وتسبيحهم وأذكارهم وأعمالهم التى أمرهم الله بها ، ولهم منازل عند ربهم كما قال تعالى : ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم . وإنّا لنحن الصافون . وإنّا لنحن المسبحون** ﴾(٢) . وقال ﷺ : « ألا تصفّون كما تصف الملائكة عند ربها » . قالوا : وكيف يصفون عند ربهم ؟ قال : « يكملون الصف الأول ويتراصون فى الصف » . وقال : فضلنا على الناس بثلاث . جعلت لنا الأرض مسجدا وتربتها لنا طهورا وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة . وكذلك يأتون يوم القيامة بين يدى الله عز وجل صفوفا ، كما قال تعالى : ﴿ **وجاء ربك والملك صفا صفا** ﴾ (٣) .

« وقد ورد فى صفة جبريل عليه السلام أمر عظيم قال الله تعالى : ﴿ **علمه شديد القوى** ﴾ (٤) قالوا : كان من شدة قوته أن رفع مدائن لوط وكن سبعا بمن فيها من الأمم وكانوا قريبا من أربعمائة ألف ، ومامعهم من الدواب والحيوانات ، ولتلك المدن من الأراضى والمعتملات والعمارات ، وغير ذلك . رفع ذلك كله على طرف جناحه حتى بلغ بهن عنان السماء ، حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ، وصياح ديكتهم ، ثم قلبها ، فجعل عاليها سافلها ، فهذا هو شديد القوى » .

« وقوله ﴿ **ذو مرة** ﴾ (٥) أى خلق حسن ، وبهاء وسناء كما قال فى الآية الأخرى ﴿ **إنه لقول رسول كريم** ﴾ (٦) أى جبريل رسول من الله كريم ، أى حسن المنظر ، ذو قوة أى له قوة وبأس شديد ، ﴿ **عند ذى العرش مكين** ﴾ (٧) أى له مكانة ومنزلة عالية

---

(١) رواه أحمد ، وقال الترمذى : حسن غريب .
(٢) الصافات : ١٦٤ ـــ ١٦٦ .
(٣) الفجر ٢٢ ، البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٤٣ . البخارى .
(٤) النجم : ٥
(٥) النجم : ٦
(٦) التكوير : ١٩ .
(٧) التكوير : ٢٠ .

رفيعة عند الله ، ذى العرش المجيد ﴿ مطاع ﴾[1] أى مطاع فى الملأ الأعلى ﴿ أمين ﴾[2] ، أى ذى أمانة عظيمة ؛ ولهذا كان هو السفير بين الله وأنبيائه عليهم السلام ، الذى ينزل عليهم بالوحى ، فيه الأخبار الصادقة والشرائع العادلة وقد كان يأتى إلى رسول الله ﷺ ينزل عليه فى صفات متعددة وقد رآه على صفته التى خلقه الله عليها مرتين . له ستمائة جناح كما روى البخارى » .

« وقد رأى رسول الله — ﷺ — جبريل وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه التهاويل[3] من الدر والياقوت ما الله به عليم . وقال رسول الله — ﷺ : « أتانى جبريل فى خَضِرٍ تعلق به الدر »[4] .

وقد قال رسول الله ﷺ لجبريل : « ألا تزورنا أكثر مما تزورنا » قال : فنزلت : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له مابين أيدينا وما خلفنا ﴾[5] وكان رسول الله — ﷺ — أجود الناس ، وكان أجود مايكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن ، فرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة[6] . وقال رسول الله — ﷺ — : « نزل جبريل فأمَّنى ، فصليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، يحسب بأصابعه خمس صلوات »[7] .

« ومن صفة إسرافيل : وهو أحد حملة العرش ، وهو الذى ينفخ فى الصور بأمر ربه نفخات ثلاثة . أولاهن نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة البعث . والصور قرن ينفخ فيه . كل دارة منه كما بين السماء والأرض . وفيه موضع أرواح العباد حين يأمره الله بالنفخ للبعث فإذا نفخ تخرج الأرواح تتوهج فيقول الرب جل جلاله : « وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى البدن التى كانت تعمره فى الدنيا فتدخل على الأجساد فى قبورها فتدب فيها كما يدب السم فى اللديغ فتحيى الأجساد وتنشق عنهم الأجداث فيخرجون عنها سراعا إلى مقام المحشر . ولهذا قال رسول الله — ﷺ — : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له » فقالوا : كيف نقول يارسول الله ؟

---

(١) التكوير ٢٠ (٢) التكوير ٢١
(٣) [illegible] الألوان (٤) [illegible] جـ ١ ، ص ٤٤
(٥) مريم ٦٤ البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٤٥ ، رواه البخارى .
(٦) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٤٥ ، البخارى . (٧) [illegible] ص ٤٥ ، البخارى .

قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » [1] ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صاحب الصور فقال : « عن يمينه جبريل وعن يساره ميكائيل عليه السلام » .

« وأما ميكائيل فهو موكل بالقطر والنبات وهو ذو مكانة من ربه عز وجل ومن أشراف الملائكة المقربين . وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجبريل : « ما لى لم أر ميكائيل ضاحكا قط ؟ فقال : ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار » [2] .

« فهؤلاء الملائكة المصرح بذكرهم فى القرآن وفى الصحاح هم المذكورون فى الدعاء النبوى : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل » فجبريل ينزل بالهدى على الرسل لتبليغ الأمم . وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق فى هذه الدار . وله أعوان يفعلون مايأمرهم به بأمر ربه . يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب جل جلاله . وما من قطرة تنزل من السماء إلّا ومعها ملك يقررها فى موضعها من الأرض » .

« وإسرافيل موكل بالنفخ فى الصور للقيام من القبور . والحضور يوم البعث والنشور ليفوز الشكور . ويجازى الكفور . فذاك ذنبه مغفور وسعيه مشكور ، وهذا قد صار عمله كالهباء المنثور »[3] .

« وأما ملك الموت فليس بمصرح باسمه فى القرآن ولا فى الأحاديث الصحاح . وقد قال الله تعالى : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾ [4] وله أعوان يستخرجون روح العبد من جثته حتى تبلغ الحلقوم فيتناولها ملك الموت بيده فإذا أخذها لم يدعها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها منه فيلقوها فى أكفان تليق بها ثم يصعدون بها فإن كانت صالحة فتحت لها أبواب السماء وإلا غلقت دونها وألقى بها إلى الأرض [5] قال الله تعالى : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين** ﴾ [6] .

« ومن الملائكة المنصوص عليها فى القرآن هاروت وماروت » .

« ومن الملائكة المسمّى فى الحديث ، منكر ونكير عليهما السلام . وهما فتّانا القبر ،

(1) البداية والنهاية جـ ١ ، ص ٤٥ ، رواه أحمد والترمذى
(2) رواه أحمد
(3) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٤٦
(4) السجدة ١١
(5) المرجع السابق ، ص ٤٧ .
(6) الأنعام ٦١ ــ ٦٢

موكلان بسؤال الميت فى قبره ، عن ربة ودينه ونبيه ، ويمتحنان البر والفاجر ، وهما أزرقان أفرقان ، لهما أنياب وأشكال مزعجة ، وأصوات مفزعة ، أجارنا الله من عذاب القبر ، وثبتنا بالقول الثابت آمين » .

« وثبت أن عائشة رضى الله عنها قالت للنبى : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ . قال : « لقد لقيت من قومك وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ماأردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت ، فإذا فيها جبريل ، فنادانى ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا به عليك ، وقد بعث لك ملك الجبال ؛ لتأمره بما شئت فيهم . فنادانى ملك الجبال ، فسلم على ، ثم قال : يامحمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . فقال النبى — ﷺ — : بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا » [1] .

الملائكة مهيأون للقيام بواجبات معينة :

فمنهم حملة العرش ، ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش . وهم الملائكة المقربون . ومنهم جبريل وميكائيل عليهما السلام . وقد ذكر الله تعالى عنهم أنهم يستغفرون للمؤمنين بظهر الغيب .

ولمّا كانت سجاياهم هذه السجية الطاهرة كانوا يحبون من اتصف بهذه الصفة فثبت فى الحديث عن الصادق المصدوق أنّه قال : « إذا دعا العبد لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ولك بمثل » [2] .

« ومنهم سكان السموات السبع يعمرونها ، عبادة دائبة ليلا ونهارا ، وصباحا ومساء كما قال : ﴿ **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾ [3] فمنهم الراكع دائما ، والقائم دائما ، والساجد دائما ، ومنهم الذين يتعاقبون ، زمرة بعد زمرة إلى البيت المعمور . ومنهم الموكلون بالجنان ، وإعداد الكرامة لأهلها ، وتهيئة الضيافة لساكنيها من ملابس ومصاغ

---

(١) رواه مسلم ، البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٤٩ .
(٢) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٤٩ .
(٣) الأنبياء : ٢٠ .

ومآكل ومشارب ، وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

« وخازن الجنة يقال له رضوان . ومنهم الموكلون بالنار ، وهم الزبانية ، ومقدموهم تسعة عشر ، وخازنها مالك ، وهو مقدم على جميع الخزنة . وقال تعالى : ﴿ **ونادوا يامالك ليقض علينا ربك ، قال إنكم ماكثون . لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون** ﴾ » (١) .

« ومنهم الموكلون بحفظ بنى آدم كما قال تعالى : ﴿ **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** ﴾ » (٢) .

« ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد كما قال تعالى : ﴿ **عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾(٣) ﴿ **وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ماتفعلون** ﴾ . وقال رسول الله ﷺ : « لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا كلب ولا جنب » (٤) .

« والملائكة يتعاقبون ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم ، فيسألهم وهو أعلم ، فيقول : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » (٥) .

« والمقصود أن كل إنسان له حافظان ملكان اثنان ، واحد من بين يديه وآخر من خلفه ، يحفظانه من أمر الله بأمر الله عز وجل . وملكان كاتبان عن يمينه وعن شماله وكاتب اليمين أمير على كاتب الشمال » .

« وقال محمد ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة » قالوا وإياك يارسول الله ؟ قال : « وإياى ولكن الله أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بخير » (٦) . وإذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون

---

(١) الزخرف : ٧٧ ــ ٧٨ .
(٢) الرعد : ١١ .
(٣) ق : ١٧ ــ ١٨ ، البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٥٠ .
(٤) فى الصحاح والسنن .
(٥) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٥١٢ ، رواه مسلم .
(٦) رواه مسلم ، نفس المرجع ، ص ٥٢ .

الأول فالأول فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يسمعون الذكر [١] . ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر . يقول الصحابى أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿ **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا** ﴾ [٢] .

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال : « إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا فإنَّ منْ وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ماتقدم من ذنبه » . وقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « إنّ لله ملائكة سياحين فى الأرض فضلا عن كتاب الناس فإذا وجدوا أقواما يذكرون الله تنادوا هلُمُّوا إلى بُغيتكم » [٣] .

وقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « ما اجتمع قوم يذكرون الله ، إلَّا حَفَّتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » [٤] ، « وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » [٥] . وقال ﷺ : « إن لله ملائكة سياحين فى الأرض ليبلغونى عن أمتى السلام » [٦] . وقال ﷺ : « خُلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار ، وآدم مما وصف لكم » [٧] .

---

(١) رواه البخارى

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٥٢ . الإسراء : ٧٨ .

(٣) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٥٣ .

(٤) رواه أحمد ومسلم والترمذى .

(٥) المصدر السابق ، ص ٥٤ ، مسند أحمد وصحيح مسلم

(٦) مسند الإمام أحمد عن أبى الدرداء مرفوعا

(٧) مسند الإمام أحمد

المبحث الثانى

الله سبحانه وتعالى خلق الجان
ـــ الصالحون ودون ذلك ـــ من مارج من نار

يقول الله تعالى : ﴿ **وخلق الجان من مارج من نار** ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ **والجّان خلقناه من قبل من نار السموم** ﴾ [2] .

« والمقصود أن الجان خلقوا من النار ، وهم كبنى آدم ، يأكلون ، ويشربون ، ويتناسلون ، ومنهم المؤمنون ، ومنهم الكافرون ، كما أخبر تعالى عنهم فى سورة الأحقاف فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين** ﴾ [3] ﴿ **فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا . وأنه تعالى جد ربنا مااتخذ صاحبة ولا ولدا . وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا . وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا** ﴾ [4] . إلخ الآية . هؤلاء النفر ، كانوا من الجن مرّوا بالنبى ـــ ﷺ ـــ فوقفوا ، فاستمعوا ، لقراءته . ثم اجتمع بهم النبى ـــ ﷺ ـــ ليلة كاملة فسألوه عن أشياء أمرهم بها ، ونهاهم عنها ، وسألوه الزاد فقال لهم « كل عظم ذُكِرَ اسمُ الله عليه تجدونه أوفر مايكون لحما وكل روثة علف لدوابكم » . ونهى النبى ـــ ﷺ ـــ أن يستنجى بهما وقال : « إنهما زاد إخوانكم الجن » . ونهى عن البول فى السرب ؛ لأنها مساكن الجن . وقد قرأ عليهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ سورة الرحمن ، فما جعل يمر فيها بآية ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ ، إلا قالوا : ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد » .

ووصى أحد الصحابة ابنه بما سمعه من رسول الله ﷺ : « إنى أراك تحب الغنم

---

(1) الرحمن : ١٥ .
(2) الحجر : ٢٧ .
(3) الأحقاف : ٢٩ .
(4) الجن : ١ ـ ٥ .

البادية ، فإذا كنت فى غنمك وباديتك ، فأذنت بالصلاة ، فارفع صوتك بالنداء ؛ فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شىء ، إلا شهد له يوم القيامة » (١) .

وأما كافرو الجن فمنهم الشياطين ، ومقدمهم الأكبر إبليس ، عدو آدم أبى البشر وقد سلطه وذريته على آدم وذريته . وتكفل الله عز وجل بعصمة من آمن به وصدق رسله واتبع شرعه منهم . كما قال تعالى : ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين** ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ **ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلّا فريقا من المؤمنين . وما كان له عليهم من سلطان إلّا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ** ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ **يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾ (٤) .

« والمقصود أن إبليس أنظره الله إلى يوم القيامة محنة لعباده واختبارا منه لهم كما قال تعالى : ﴿ **وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرةِ ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ** ﴾ (٥) .

« فإبليس لعنه الله حى الآن ، مُنْظَرٌ إلى يوم الوقت المعلوم بنص القرآن . وله عرش على وجه البحر ، وهو جالس عليه ، ويبعث سراياه ، يلقون بين الناس الشر والفتن . والدليل ما رواه رسول الله ـ ﷺ ـ : « عرش إبليس فى البحر ، يبعث سراياه كل يوم ، يفتنون الناس ، فأعظمهم عنده منزلة . أعظمهم فتنة للناس » (٦) .

« يجىء أحدهم فيقول : مازلت بفلان ، حتى تركته وهو يقول : كذا وكذا . فيقول إبليس : لا والله ماصنعت شيئا . ويجىء أحدهم فيقول : ماتركته ، حتى فرقت بينه وبين أهله . قال : فيقربه ويدنيه ويقول : نعم أنت » (٧) .

« والسحر المتلقى عن شياطين الإنس والجن ويتوصل به إلى التفرقة بين المتآلفين غاية التآلف ، المتوادين والمتحابين ؛ ولهذا يشكر إبليس سعى من كان السبب فى ذلك .

---

(١) البداية والنهاية ، حـ ١ ، ص ٥٧ ، رواه البخارى .

(٢) الحجر : ٤٢

(٣) سبأ : ٢٠ ــ ٢١

(٤) الأعراف : ٢٧ .

(٥) سبأ : ٢١ .

(٦) مسند الإمام أحمد .

(٧) صحيح مسلم .

فالذى ذمه الله يمدحه والذى يغضب الله يرضيه لعنه الله » [1] .

وقد أنزل الله سورتى المعوذتين ، مطردة لأنواع الشر ، وأسبابه ، وغاياته وقال الرسول ﷺ : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » [2] .

وحذر محمد ـ ﷺ ـ الأمة من الشيطان : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس ، وإن نسى التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخناس » [3] .

وقال : « إن أحدكم إذا كان فى المسجد ، جاء الشيطان ، فأيس به كما يئس بدابته ، فإذا سكن له زنقه أو ألجمه » وقال أبو هريرة : وأنْتُمْ ترونه ذلك ، أمَّا المزنوق فتراه مائلا كذا لا يذكر إلَّا الله . وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله عز وجل » [4] .

وقال رسول الله ﷺ : « العين حق ، ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم » [5] . وقال : « يأتى الشيطان أحدكم ، فيقول : من خلق كذا ، من خلق كذا ، حتى يقول : من خلق ربك ، فإذا بلغه فليستعذ بالله وَلْيَنْتَهِ »[6] .

---

(١) البداية والنهاية ، حـ ١ ، ص ٥٩ .

(٢) رواه البخارى ومسلم ، المصدر السابق ، ص ٥٩ . (٣) رواه الحافظ أبو يعلى ، البداية والنهاية . حـ ١ ، ص ٦٠ .

(٤) رواه أحمد ، البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٦٠ (٥) رواه أحمد .

(٦) رواه مسلم .

المبحث الثالث

الله سبحانه وتعالى يعلم رسوله محمدا ﷺ والمسلمين كيفية اتقاء كيد الشيطان

قال تعالى : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم** ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾ (٣).

وكان محمد ﷺ يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » . كما أوصى رسول الله ﷺ :

« من يدخل الخلاء أن يقول : « أعوذ بالله من الخبث والخبائث » وأوصى من أتى الغائط فليستتر فإن لم يجد إلّا أن يجمع كثيبا فليستدبره فإن الشيطان يلعب بمقاعد بنى آدم (٤) . كما أوصى ﷺ من يغضب أن يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» . كما أوصى أن لا يأكل أحدكم بشماله ولا يشرب بشماله فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله (٥) .

« إذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء ههنا . وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال : أدركتم المبيت . وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء » .

« إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يبرز وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يغيب ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإنها تطلع بين قرنى

---

(١) الأعراف : ٢٠٠ . (٢) المؤمنون : ٩٧ — ٩٨ . (٣) النحل : ٩٨

(٤) مسند أحمد . (٥) مسند أحمد .

الشيطان »[1] .

* « إذا استجنح الليل أو كان جنح الليل فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ فإذا ذهب ساعة من العشاء فحلوهم وأغلق بابك واذكر اسم الله وأطفىء مصباحك واذكر اسم الله وأوك سقاءك واذكر اسم الله وخمِّر إناءك واذكر اسم الله ولو تعرض عليه شيئا »[2] .

* « ولو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال : اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنى فإن كان فيها ولد لم يقربه الشيطان ولم يسلط عليه »[3] .

* « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد . يضرب على كل عقدة مكانها عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة . فإن توضأ انحلت عقدة . فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان »[4] .

« إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ ، فليستنثر ثلاثا ، فإن الشيطان يبيت على خيشومه »[5] .

« إذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط فإذا قضى أقبل فإذا ثوب بها أدبر فإذا قضى أقبل حتى يخطر بن الإنسان وقلبه . فيقول : اذكر كذا وكذا حتى لا يدرى أثلاثا صلى أم أربعا فإذا لم يدر أثلاثا صلى أم أربعا سجد سجدتى السهو »[6] .

« راصوا الصفوف فإن الشيطان يقوم فى الخلل »[7] .

* « إذا مر بين يدى أحدكم شىء فليمنعه ، فإن أبى فليمنعه ، فإن أبى فليقاتله فإنّما هو الشيطان »[8] .

* « فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل »[9] .

« وذلك يعنى أن الشيطان لا يألو الإنسان خبالا جهده وطاقته فى جميع أحواله وحركاته وسكناته [10] .

---

(١) مسند أحمد . (٢) مسند أحمد . (٣) البخارى .
(٤) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٦٣ . (٥) صحيح مسلم ، البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ٦٣ .
(٦) البخارى ، المصدر السابق ، ص ٦٣ . (٧) مسند الإمام أحمد . (٨) البخارى .
(٩) فقرة من حديث رواه أبو سعيد الخدرى . (١٠) المصدر السابق ، ص ٦٥ .

* وقال رسول الله ﷺ : « إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة . فأما لمة الشيطان ، فإيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق . وأما لمة الملك ، فإيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك ، فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى ، فليتعوذ بالله من الشيطان ... » (١) .

* « والشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة . والشيطان لا يقرب إنسانا قرأ آية الكرسى ليلته حتى يصبح » .

* « ومن قال : لا إله إلا الله وحد لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، كانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى » (٢) .

* « إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع فإن الشيطان يدخل » .

* « الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان ، فإذا حلم أحدكم حلما يخافه ، فليبصق عن يساره ، وليتعوذ بالله من شرها ، فإنها لا تضره » (٣) .

* « لا يشمرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدرى أحدكم لعل الشيطان أن ينزع فى يده فيقع فى حفرة من النار » (٤) .

* « قال : الملائكة تحدث فى العنان (الغمام) بالأمر يكون فى الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها فى أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كلمة » (٥) .

* « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ قال : فعصاه وأسلم قال : وقعد له بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر وتدر أرضك وسماءك ؟ وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد ، وهو جهد النفس والمال ، فقال : أتقاتل ، فتقتل ، وتنكح المرأة ، ويقسم المال ؟ قال : فعصاه وجاهد . قال رسول الله ﷺ : فمن فعل ذلك منهم ، كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، وإن قتل كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، وإن كان غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، وإن وقصته دابته كان حقا على الله أن يدخله الجنة » (٦) .

---

(١) الترمدى والنسائى وابن حبان فى صحيحه . (٢) رواه البخارى (٣) رواه البخارى .
(٤) مسند الإمام أحمد . (٥) البخارى . (٦) مسند أحمد

المبحث الرابع

أهمية المعلومات الواردة فى الباب الأول

أنباء ما قد سبق

إن هذه الأنباء التى قدمناها هى ضرورية لبنى الإنسان على وجه العموم وللمسلم على وجه الخصوص للتصدى والرد على الهجمة الشيطانية الشرسة التى شوهت وزيفت كل مايتعلق بخالق هذا الكون وهو الله رب العالمين ، وزيفت كل مايتعلق أيضا بتاريخ الكون ومافيه من مخلوقات ، بما فى ذلك تاريخ الإنسان . وهى ضرورية أيضا ؛ لأنها تؤكد أنه ليس للبشرية مصدر موثق عن أخبار القرون السابقة ، إلَّا من كتاب الله الكريم ، وما أخبر به المعصوم محمد ﷺ ، فمن الأنباء التى قص الله سبحانه وتعالى جانبا منها على سيدنا محمد ﷺ ، أنباء عن تاريخ الكون وتاريخ البشرية منذ بدء الخلق ودورها على سطح الأرض إلى أن ينزل أهلُ الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم .

من خلال هذا العرض يدرك الدارس للتاريخ أن الله سبحانه وتعالى ، هو الأوّل ، فليس قبله شىء ، وهو الآخر فليس بعده شىء ، ويعرف أيضا الإجابة على تساؤلات ، عجزت البشرية عن طرحها ، أو الإجابة عليها إجابات صحيحة حينما نحَّت كتاب الله الكريم وسنة النبى وراء ظهرها .

ومن خلال الكتاب والسنَّة يدرك القارىء ، والدارس لتاريخ الكون والبشرية ، ويدرك الذى يؤدى دورا فى تاريخ البشرية ، أن لهذا الكون إلهاً خالقا مدبرا حكيما خبيرا ، خلق كل شىء ، وقدّر مقادير الخلائق قبل زمن طويل لا يعلمه إلا الله . ومعنى ذلك أن الإنسان مخلوق ، وكل شىء فى الكون مخلوق مربوب ، يسير فى فلك ليس من صنعه ، ولا من وضعه ، إنما هو من صنع ووضع الله الحكيم الخبير .

إن استشعار المؤرخ أو قارىء التاريخ ، أو الذى يلعب دورا فى تاريخ البشرية ،

سواء أكان حاكما أم محكوما فردا أم أمة أنه عبد لخالق هذا الكون بما فيه ، وأنه مستخلف لأداء دور معين ، نذره له الله سبحانه وتعالى ، وهو العبادة بمعناها الشامل الكامل ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾[1] ، وأنه محكوم بنظام ربانى يجعله موضع الاختبار على هذه الأرض ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾[2] ، إن استشعاره ذلك ، قد يمنعه من الانحراف ، قد يمنعه من الظلم ، قد يمنعه من القتل ، قد يمنعه من ارتكاب الفواحش ، قد يدفعه إلى الصدع بكلمة الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إن كان من المهتدين .

وعدم استشعار الفرد للأمانة التى وضعها الله فى عنقه ، ومروقه عن حَمْلها ، قد تدفعه إلى ارتكاب جرائم لا حد لها فى حق الأفراد أو فى حق الأمم وهذا ما سنتعرض له عند معالجة تاريخ الأمم والأفراد ، إن شاء الله .

إن قراءة الإنسان للخبر الوارد فى القرآن الكريم والحديث عن العرش وقد حملته الملائكة وحف به آخرون يسبحون بحمد ربهم شيء يدير الرؤوس ، ويؤكد للإنسان أنه وكلّ ما فى هذا الكون ، مقهور للقوة القادرة ، قوة الرحمن العظيم ، إن إدراك المؤرخ المسلم لهذه الحقيقة الكونية الضخمة ، خلق السماوات وخلق الأرضين السبع ، وتقدير الأوقات فيها ، وأن الله على كل شيء قدير وأنه بكل شيء عليم ، كفيل بأن يوجهه إلى قول كلمة الحق، مهما كانت مرّة ومهما ترتب عليها ؛ لأنه لا يملك أن يكتمها ــ وخاصة ذلك الذى يكتب التاريخ الحديث ــ ؛ لأنه يدرك جيدا أن رزقه ليس بيد أحد ﴿ **وفى السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾[3]. إن ذلك الإدراك كفيل بتوجيه المؤرخ المسلم ، أن لا يتردد فى النصح للأمة وأن يوجهها إلى الخير ، وينبهها إلى ماتتعرض له من دسائس ومؤامرات .. إن إحجام المؤرخ المسلم عن واجب الدعوة إلى الله وواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعد إدراك هذه الحقائق الكونية الكبرى التى تدل على أن لهذا الكون خالقا مهيمنا ومسيطرا بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، تعنى أن المؤرخ قد جعل لله أندادا رغم علمه بأنه رب العالمين .

إن استشعار بنى الإنسان أنه مخلوق متميز ، خلق الله سبحانه وتعالى الكون بما فيه ، واستخلفه فيه ، فأجرى الله له البحار ، منها العذب ، ومنها الملح الأجاج ، ومنها

(١) الأنعام : ١٦٢ ــ ١٦٣ .　(٢) تبارك : ٢ .　(٣) الذاريات . ٢٢ ــ ٢٣

يستخرج الأسماك ليأكلها ، ويستخرج الحلية للباسه ، وعليها وعلى الفلك يحمل من أقصى الدنيا إلى أولها ، وحتى لا يضل الطريق علمه الله كيف يهتدى بالنجوم ، كل ذلك كفيل بِحَمْلِه على التفكير عن السبب الذى من أجله سخّر الله له كل شىء ، وإذا ما فكر بحيدة تامة أدرك أنه لم يخلق عبثاً ، ولكن لينظر الله سبحانه وتعالى ، هل يشكر الإنسان أم يكفر ويدرك أيضا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى سخّر كل ما فى هذا الكون للإنسان ، وليس كما يزعم أصحاب المذهب المادى للتاريخ بأن الإنسان هو الذى قهر الطبيعة وأخضعها لسلطانه .

إن استشعار الإنسان ، الذى يلعب دورا فى تاريخ البشرية لقدرة الله التى لا تحدها حدود مُهِمٌّ ، هذه القدرة يمكن أن يستشعرها وهو يقرأ عن خلق السموات وما فيها من المخلوقات الأخرى . والشىء الذى يدير الرؤوس ويقهر نفس الإنسان فيقر لله بالألوهية والربوبية ، آدم عليه السلام الذى قضى ومات منذ زمن بعيد ، وقابله سيدنا محمد ﷺ ، فى السماء الدنيا فسلم عليه ، فقال له : « مرحبا وأهلا بابنى نِعْمَ الابن أنت » . ماذا يعنى ذلك ؟ إنه يعنى أن الموت لا يعنى الفناء والدمار ، إنما هو مرحلة تؤدى إلى غيرها من حيث الثواب والعقاب ، إن استشعار الإنسان لهذه الحقيقة بصدق وإخلاص ، كفيل بِقَهْرِه على الاستسلام لنظام الله وشرعه .

وإذا استمر الإنسان فى التعرف على تاريخ المخلوقات ، يجد أن الله سبحانه وتعالى قد خلق خلقا آخر من نور ، وهم العباد المكرمون ، ومنهم الحافّين من حول عرش الرحمن ، يسبحون بحمد ربهم ، ومنهم الحفظة على الإنسان ، ومنهم الملائكة الغلاظ الشداد ، الذين لا يعصون الله ماأمرهم ، ويفعلون مايؤمرون ، ومنهم جبريل ، عليه السلام ، الموكل بحمل رسالة الله ، سبحانه وتعالى ، إلى الرسل ، ومنهم ميكائيل ، إلى غير ذلك من الملائكة عليهم السلام ، وكل منهم له عمل معين محدد ، فمنهم الراكع ومنهم القائم ومنهم الساجد ، وكلهم يسبحون بحمد ربهم .

استشعار الإنسان المسلم لهذا الأمر يجعله يدرك أن الكون ليس مخلوقا عبثا ، والإنسان ليس متروكا بلا ضابط أو حساب ولكن كل شىء مخلوق بقدر ، وأنه مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وأنه ليس وحده فى هذا الكون ، وإن كل شىء محصى عليه ﴿ **كفى**

بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ (١) إذن لماذا يتمرد على شرع الله ؟ لماذا يتكبر على عبادة الله ؟ لماذا يمرق من الإسلام ؟ لماذا يقتل ؟ لماذا يدمر ؟ لماذا يستعلى فى الأرض بغير الحق ؟ السبب لأنه سلك طريق الضلال ، وتنكب طريق الهداية ، رغم علمه بأن كل شيء محصى عليه ، وأن هناك من يراقبه ويدون حركاته وسكناته .

إن بنى الإنسان إذا قرأوا عن السماء التى حق لها أن تئط ، لأنه ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد لله الواحد القهار .

إن الإنسان إذا قرأ عن خلق جبريل ، عليه السلام ، الذى رفع مدائن قوم لوط بما فيها على طرف جناحه ، حتى بلغ بها عنان السماء ، ثم قلبها ، فجعل عاليها سافلها

إن الإنسان إذا قرأ عن إسرافيل عليه السلام وهو ينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا ماشاء الله .

إن الإنسان إذا قرأ عن نزول الأرواح إلى الأجساد فى القبور ، فتدب فيها الحياة كما يدب السمّ فى اللديغ فتحيا الأجساد بإذن الله ، وتنشق عنهم الأجداث فيخرجون منها سراعا إلى مقام المحشر .

إن الإنسان إذا قرأ عن الموت وملك الموت ، وأعوانه الذين يستخرجون روح العبد من جثته حتى تبلغ الحلقوم .

إن الإنسان إذا قرأ عن فتنة القبر ، عن منكر ونكير ، عن عذاب القبر ، إن الإنسان إذا قرأ هذا بفكر مفتوح — فى تصورنا — لا يسعه إلا التسليم بأنه عبد لإله واحد قهار . لا أقول كل إنسان إنما على الأقل جزء ليس بالصغير سيعقل ذلك ، لماذا ؟ لأن فريقا كبيرا من بنى الإنسان مضلل ، يدرسون له تاريخ الإنسان مجرداً من أية إشارة إلى الخالق المعظم ، مجرداً من أية علاقة بالكون وماهو مخلوق فيه كأنه هو صاحب الأمر والنهى ، كأنه مطلق اليد فى الكون وفى مخلوقات الله ، يعبث ، يقتل ، يدمر ، يضيع الأمانات .. لا يدرى أنه أحد المخلوقات فى هذا الكون ، وأنه مستخلف بشروط ، وأنه مأخوذ عليه العهد بعبادة الله الواحد القهار مع الالتزام بنظامه وشرعه .

وإذا ما قرأ الإنسان قصة خلق الجان ، وقصة مروق إبليس عن طاعة الله ،

---

(١) الإسراء : ١٤ .

وتسليطه على بنى الإنسان ، يدرك أنه محارب من جانب عدو لعين ، يرى الإنسان هو وقبيله من حيث لا يراهم . وأن هنالك صراعا بين حزب الله وحزب الشيطان ، ولذلك فإن الله قد سلح الإنسان بسلاح الدعاء الذى لا غنى عنه إذا أراد الإنسان الانتصار على عدوه من شياطين الجن والإنس ، إذا ما أردك الإنسان ذلك التاريخ ، من المؤكد إن لم يستجب لداعى الله فإن الحجة تكون قد لزمته ، ونكون قد أعذرنا إلى الله وأدينا واجب البلاغ ، وأقام الله بنا الحجة على بنى البشر ﴿ **بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾[1] .

(١) المائدة : ٦٧ .

الباب الثانى

تاريخ الأمة الواحدة (المسلمة)

فى أرض الرافدين (دجلة والفرات)

الفصل الأول

تاريخ الأمة الواحدة (المسلمة)

تمهيد :

تكلمنا فى بحث سابق[١] عن بداية التاريخ الإسلامى وقد توصلنا فيه إلى جملة من النتائج منها :

أولا : أن تاريخ الدين الإسلامى يبدأ بخلق الكون كله مسلما منقادا طائعا لله رب العالمين[٢] .

ثانيا : أن تاريخ الأمة المسلمة الواقع التطبيقى لدين الإسلام ، يبدأ بخلق آدم ــ عليه السلام ــ الذى أُنزل من الجنة إلى الأرض ليشكل هو وزوجته وبنوه نواة المجتمع الإسلامى الأول[٣] . أى أن عمر الأمة المسلمة ورصيدها من عقيدة التوحيد ونظام الإسلام وشرعه ، ومن التجربة والخبرة ، يضرب بجذوره[٤] فى أعماق الزمن ، على مدى آلاف من السنين ،

---

(١) أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ ، الإسلام دين الله في الأرض وفي السماء ، ط . دار الوفاء بالمنصورة ، مصر ص ٢٨ ــ ٤٤ ، ط . دار طيبة ، الرياض ١٤٠٥ هـ ، ص ١٦ ــ ٣٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦ ــ ٢٢

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٤) وهذا يكشف الدور الخطير الذى لعبه المستشرقون ومن سار على نهجهم حينما حولوا هذه الفترة الزمنية الكبيرة من تاريخ الأمة المسلمة إلى تاريخ وثني جاهلي محض لا أثر فيه للرسالات السماوية . إذ أن المستقر عليه في حقل الدراسات التاريخية في دور العلم المعاصرة ، أن تاريخ البشرية ينقسم إلى تاريخ قديم ووسيط وحديث ووضع تاريخ آدم عليه السلام وتاريخ الرسل من بعده حتى بعثة محمد ، ﷺ ، في الفترة التي تسمى بالتاريخ القديم ، وأطلقوا على فترة تاريخ آدم عليه السلام اسم العصور الحجرية ، أو عصور ما قبل التاريخ واعتبروها تاريخا وثنيا جاهليا محضا لا أثر فيه لدعوة الرسل ، وزعموا أن تاريخ الأمة الإسلامية لا يبدأ فقط إلا ببعثة محمد ، ﷺ ، التى جعلوها فى الفترة التى تسمى بالعصر الوسيط . أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الإسلام دين الله في الأرض وفي السماء ، منهج كتابة التاريخ الإسلامي لماذا ، وكيف ؟ ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة .

لا يعلم عددها إلا الله سبحانه وتعالى وبهذا نستطيع أن نفهم حديث رسول الله محمد ، ﷺ : « مثلي في النبيين ، كمثل رجل بنى دارا ، فأحسنها ، وأكملها وأجملها ، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ، ويعجبون منه ويقولون ، لو تم موضع هذه اللبنة ، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة »[1]. أى أن الإسلام عبارة عن صرح عظيم كان يقوم كل نبي بداية بآدم عليه السلام بوضع لبنة في بنائه ، حتى اكتمل ببعثة محمد ، ﷺ ، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾[2] .

وسنحاول على الصفحات التالية ، أن نعالج تاريخ الأمة المسلمة بداية بتاريخ آدم — عليه السلام — وحتى عصرنا الحاضر بشيء من التفصيل ، وماتوفيقنا إلا بالله سبحانه وتعالى .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد .

(٢) المائدة : ٣ ؛ « هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبى غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الجن والإنس فلا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرَّمه ، ولا دين إلا ماشرعه وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف كما قال تعالى : ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا** ﴾ أى صدقا فى الأخبار وعدلا فى الأوامر والنواهى فلما أكمل لهم الدين تمَّت عليهم النعمة ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ أى فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذى أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام ، وأنزل به أشرف كتبه . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ وهو الإسلام : أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد كمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً . تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ١٢ .

المبحث الأول

آدم وزوجه وبنوه بتوجيه من الله رب العالمين يشكلون نواة المجتمع المسلم الأول على الأرض

في يوم من أيام الجمع ..

و في زمن موغل في القدم ، لا يعلمه إلا الله عز وجل ، أخبر الله سبحانه وتعالى الملائكة ، أنه جاعل في الأرض خليفة . وهنا سأل الملائكة رب العالمين سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك ، فأجابهم سبحانه وتعالى : ﴿ **إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾[١] .

وقد خلق الله سبحانه وتعالى آدم من تراب ، بطول ستين ذراعا[٢] ، « كأنه نخلة سحوق » ، ونفخ فيه من روحه ، وهذا دليل على عظم شأن الإنسان عند ربه وخالقه سبحانه وتعالى .

ثم خلق الله سبحانه وتعالى حواء لتكون زوجة لآدم ـــ عليه السلام ـــ وسمح لهما بالحياة في الجنة ، والاستمتاع بكل شيء فيها ، بشرط ألا يأكلا من شجرة معينة من شجر الجنة[٣] .

كما أن الله ـــ عز وجل ـــ قد نبه آدم عليه السلام إلى عداوة الشيطان له ولذريته : ﴿ **إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنّكما من الجنة فتشقى** ﴾[٤] .

---

(١) النقرة : ٣٠ ، انظر الوثائق من الكتاب والسنة صفحة ٤٢٢ في كتابنا الذى بين يديك

(٢) انظر الوثائق ، ص ٤٢٢ . (٣) الوثيقة ،ص ٤٢٥ . (٤) طه : ١١٧ .

ورغم هذا التحذير ، فقد خالف آدم عليه السلام وزوجه أَمْرَ الله سبحانه وتعالى نتيجة كيد الشيطان لهما ، وأكلا من الشجرة ، فأخرجهما الله سبحانه وتعالى من « اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة ، وأمرهما بالنزول إلى الأرض لتكون لهما قرارا وأرزاقاً وآجالا إلى حين »[1] .

واستشعر آدم — عليه السلام — الندم على ما اقترفت يداه ، فتاب إلى الله ، فتاب الله عليه : ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم** ﴾[2] .

وحينما نزل آدم عليه السلام وزوجه إلى الأرض — والشيطان مُسلَّط عليهما — كان الله قد أخذ عليهما العهد : ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعا ، فإمّا يأتينكم منّي هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون** ﴾[3] . وبنزول آدم وزوجه إلى الأرض ، بدأ قيام المجتمع المسلم الأول .

وهنا يحتاج الأمر إلى وقفة :

وهكذا يدرك الإنسان بالرجوع إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة ، أنّه مخلوق مكرم بنفخة من روح الله ، وأنه من سلالة نبى كريم هو آدم عليه السلام ، الذى خلقه الله عز وجل ، لغاية هى العبادة ﴿ **وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[4] وأن الخالق العظيم قد أسكنه الجنة هو وزوجه فى الفترة الأولى من فترات حياته ، وأنه قد ارتضى له ولزوجه ولذريته من بعده الإسلام دينا ؛ الإسلام الذى يقوم على الإيمان بالله رب العالمين ، والعمل بأوامره والانتهاء عمّا نهى عنه : ﴿ **وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾[5] تحذير من المولى عز وجل لآدم عن مخالفة نهيه « ولا تقربا » ومخالفة أوامر الله ونواهيه ظلم ، كما وقع من الشيطان .

كيف ؟ حينما خلق الله آدم عليه السلام ، أمر الملائكة بالسجود له ، فسجدوا وأمر

---

(١) الوثيقة ، ص ٤٢٦ .

(٢) البقرة ، ٣٧ .

(٣) البقرة . ٣٨ — ٣٩

(٤) الذاريات : ٥٦ .

(٥) البقرة : ٣٥ .

إبليس بالسجود فعصى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه** ﴾[1] لقد فسق عن أمر ربه حينما رفض الامتثال لأمر الله وقال : ﴿ **أأسجد لمن خلقت طينا** ﴾[2] . لقد نسى اللعين أن الأمر صادر من الله الخالق ، والمخلوق مطالب بالامتثال لأوامر الله ، تنفيذ أمر الله أمر تعبدى .. عبادة .. لا يجب أن يُعمل فيها العقل . لقد رفض إبليس الانصياع لأمر الله تكبُّراً فطرده الله من الجنة ﴿ **قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين** ﴾[3] . إن الكبر قد أدى إلى طرد إبليس من الجنة وأدى به إلى الشقاء فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

وهكذا يؤدى الكبر بصاحبه ﴿ **سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق** ﴾[4] .

لقد أصبح الشيطان شريدا طريدا شقيا ، وبدأ الشيطان يخطط وينفذ .. يخطط لاجتيال آدم وزوجه وذريته عن دين الله الإسلام[5] : ﴿ **قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾[6] .. ﴿ **ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** ﴾[7] ﴿ **وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين** ﴾[8] ... وفى ذلك كله هو كاذب ... لماذا يكذب ؟ ليغرى آدم بعصيان أمر ربّه ، ليخرجه من الجنة فيشقى ... إن الشيطان لم يقل لآدم إن هنالك خالقا غير الله ، أو رازقا غير الله ، إطلاقا ، إنما دخل له من باب قد يخفى على الإنسان : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما** ﴾[9] .

ووسوس الشيطان لآدم وزوجه ليوقعهما فى المعصية ﴿ **فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماورى عنهما من سوءاتهما** ﴾[10] ، ﴿ **فدلاهما بغرور** ﴾[11]. إذن الشيطان حريص على تجريد الإنسان من لباسه حريص على خروج الإنسان عاريا .. خروج المرأة عارية .. والله حريص على أن يستر الرجل عورته وتستر المرأة عورتها ﴿ **يابنى آدم قد أنزلنا**

---

(١) الكهف : ٥٠ .
(٢) الإسراء : ٦١ .
(٣) الأعراف : ١٣ .
(٤) الأعراف . ١٤٦ .
(٥) حلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم .
(٦) طه : ١٢٠ .
(٧) الأعراف . ٢٠ .
(٨) الأعراف : ٢١
(٩) طه : ١١٥ .
(١٠) الأعراف : ٢٠ .
(١١) الأعراف : ٢٢ .

عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ﴾[1] . والله سبحانه وتعالى خلق آدم مستوراً وخلق حواء مستورة وذلك دليل على وجوب ستر العورة ، وأن سترها من التقوى ومن الإيمان لأنه امتثال لأمر الله ﴿ **يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾[2] .

ونسى آدم : ﴿ **فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى** ﴾[3] ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما** ﴾[4] أى على مواصلة الخطأ .

وهكذا ندرك أن الذين يعرون المرأة ويحرصون على تجريدها من حجابها الذى شرّفها الله به إنما هم من أعوان الشيطان وأنصاره ، وذلك يعنى أنهم مطرودون من رحمة الله فى الدنيا والآخرة .

وهكذا ندرك أن عدم ستر العورة دليل على عدم الالتزام بأوامر الله عز وجل .

إن الخطيئة أدت إلى تعرية آدم وزوجه فانزعجا ، لأن الحياء من الإيمان ، والفطرة ترفض العرى والتعرى : ﴿ **وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾[5].

إذن هى حرب تُعْلن من شياطين الجن والإنس على المؤمنين الموحدين في كل شيء حتى اللباس الذى يرتدونه ، لأنهم لا يريدون للمرأة أن تستر جسدها وتحفظ عرضها وتصلى فرضها .

ماذا حدث بعد ذلك ؟ لقد انتبه آدم للخطأ الذى وقع فيه فأدرك أنه قد ظلم نفسه وزوجه بارتكاب هذه المعصية عصيان أمر الله ولكنه تعلم فى مدرسة الإسلام أن باب التوبة مفتوح للعبد مالم يغرغر ﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا** ﴾[6] ظلموا أنفسهم حقيقة . لماذا ؟ لأنهم كانوا يعيشون فى الجنة ، لا كد ولا جوع ولا عرى : ﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾[7] ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** [8] .

---

(1) الأعراف : ٢٦ .
(2) الأحزاب : ٥٩
(3) طه : ١٢١ .
(4) طه : ١١٥ .
(5) الأعراف : ٢٢ .
(6) الأعراف : ٢٣
(7) طه : ١١٨ ، ١١٩ .
(8) طه . ١٢٣ .

إن هذه الآيات الكريمة تفسر لنا الشقاء الذى يقع فيه البشرية اليوم . إن البشرية جائعة ، قطاع ضخم من بنى البشر لا يجد لقمة الخبز ، وقطاع ضخم يستحديها ، وقطاع ضخم يقترض لشرائها .... إن البشرية ظمأى ، حتى قطرة الماء عزّت وشحّت ... إن البشرية نزعت ثوب الحياء فصارت تتحول فى الشوارع والطرقات وعلى الشواطىء عارية دون استبقاء أدنى شىء من الحياء .

إن البشرية قد ضلت الطريق لحل مشاكلها ... إن البشرية المُتخم فيها والجائع يعيش حالة من الشقاء المضنى ، والسبب واحد وواضح إنّها تنكبت الطريق إنها مرقت من دين الله ، إنها جعلت كتاب الله وسنة نبيها وراء ظهرها ، إنها تنكرت لإسلامها لدينها .. إنها أحلت الحرام وحرمت الحلال .

وصدق الله القائل :

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[1] .

ورغم ذلك ينبه الله الخطائين ويطالبهم بالتوبة كما ينادى العصاة من بنى آدم كل ليلة **﴿ ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾**[2] **﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾** . وهكذا يجب أن يسارع العاصى الذى ظلم نفسه بالتوبة كما تاب آدم وزوجه :

﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[3] **﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾**[4] وكانت التوبة . ولكن لابد من النزول إلى الأرض **﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا ، فإمّا يأتينّكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾**[5] ونزل آدم إلى أرض الهند واستوحش العبادة .. استوحش أصوات الملائكة الذين يسبحون ، الذين يعبدون الله رب العالمين . عانى الحرمان من الدخول إلى

---

(١) طه : ١٢٤ ــ ١٢٦ .
(٢) الأعراف ٢٢
(٣) الأعراف ٠ ٢٣
(٤) البقرة : ٣٧
(٥) البقرة ٠ ٣٨ ـ ٣٩ .

البيت المعمور ... فأذن الله له ببناء بيت له فى الأرض ، فبناه ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا** ﴾ .

ماهو مصير الشيطان ؟ ماذا فعل الله به ؟ ﴿ **قال اخرج منها منه مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين** ﴾[1] وفى آية أخرى ﴿ **فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين** ﴾[2] وهكذا تكون عقوبة كل من يحارب الناس ويحاول أن يجتالهم من دين الإسلام ويصرفهم عن دعوة الله عز وجل .

﴿ **قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾[3] الشيطان يطلب من الله عز وجل ؟... نعم . لماذا ؟ ليتوب ؟ بالقطع لا ! إذن لماذا يطلب المهلة ؟ ليكيد للإنسان ! ليجتاله عن دينه ! ليأخذه معه إلى النار ، كى يؤنس وحشته فى جهنم لو كان ذلك ممكنا ! ﴿ **أنظرنى إلى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين . قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾[4] .

تحدٍّ للقدرة القادرة !! ، كما يفعل الطغاة فى كل زمان ، كما يفعل المتجبرون فى كل زمان تماما ، كما يفعل الذين لا يخافون الله ، تحدٍّ للعزيز الجبار ، جرأة أدت إلى طرده من الجنة وإدخاله فى النار وهكذا نجد الشيطان يعلنها حربا ضارية على آدم وزوجه وذريته ، رغم أنهم لم يفعلوا شيئا ضده ، لم يرفعوا سيفا فى وجهه ؟ والسبب هوالحسد والغيرة ... إنه لا يطيق أن يرى الحق وجنده أمامه ؟ لأنه يذكره بجريمته ولذلك فقد أعلنها حرباً على آدم وذريته إنه لايريد منهم أن يكونوا عبيدا لله ، ولكنه يريدهم أن يكونوا عبيدا له ... وهكذا يريد الطواغيت فى كل زمان ومكان من بنى آدم ... وهذا هو سبب الصراع الذى يجرى على سطح الأرض منذ القدم .. شيطان يريد أن يجتال الإنسان عن دينه ، يريد أن يغتصب كل شىء من الإنسان حتى روحه ... وإنسان يحاول أن يفر من شركه ...

شيطان يحارب الإنسان فى منزله فى مدرسته فى جامعته فى الشارع ، وهو يقظ وهو نائم ، وهو على جميع أحواله .

---

(١) الأعراف : ١ٸ .
(٢) الحجر : ٣٤ ــ ٣٥ .
(٣) الحجر : ٣٦
(٤) الأعراف : ١٤ ــ ١٧ .

وجَنَّد لذلك جنداً له من الإنس وسخر لنفسه كل وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية لاجتيال الناس عن دينهم .

هذه هى حقيقة المعركة التى بدأت فى الجنة ، واستعر أوارها على الأرض بعد أن طُرد أطرافها من الجنة ، وهى مستمرة ، وستظل كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون** ﴾[1] .

المجتمع المسلم الأول في قمة التقدم الروحي والمادى :

لقد اقترنت حياة المجتمع الإسلامى الأول في حياة آدم عليه السلام ـــ والقائم على توحيد الله سبحانه وتعالى بتقدم مادى شمل جنبات الحياة كلها نتيجة لتعليم الله سبحانه وتعالى لآدم ، واستخلافه في الكون المسخر له ولبنيه من بعده . إنّ آدم وذريته في ذلك التاريخ كانوا في قمة التقدم الحضارى بشقيه الروحي والمادى . الشق الروحى الذى يقوم على الإيمان الكامل بالله سبحانه وتعالى مع إخضاع الحياة لنظام الله وشرعه ، والشقّ المادى الذى يتمثل في تسخير الكون بما فيه لآدم وزوجه وبنيه من بعده .

وقد بينا ذلك في بحثنا السابق[2] ، ونوجز ما ذكرناه على النحو التالى :

أولا : إن الله سبحانه وتعالى قد علم آدم كل شيء ، ومن ذلك أولا : كيف يحيك ثيابه ، وكيف يستر جسده وجسد زوجه ، وبالتالى فقد علم آدم زوجه وأبناءه ، كيف يحيكون ثيابهم .

ثانيا : إن الله سبحانه قد علم آدم الألسنة كلها بما في ذلك اللسان العربي .

ثالثا : إن الله سبحانه وتعالى قد سخر له الكون ، وذلل له الأرض وما عليها .

رابعا : كما أنه سبحانه وتعالى خلق لآدم وذريته الأنعام وأعلمهم كيف يستفيدون منها ، من لحومها وألبانها وأصوافها وأوبارها وكيف يستخدمونها في أسفارهم ، لحملهم وحمل أثقالهم ، وعَلَّمهم قبل ذلك كيف يرعونها[3] .

---

(١) الأنبياء . ١٨ .

(٢) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ط دار الوفاء ٩٦ ـــ ١٠٢ ، ط طيبة ، ص ٨٥ وما بعدها .

(٣) وفي هذا رد على المستشرقين ومن سار على نهجهم الذين يزعمون أن الإنسان هو الذى استأنس الحيوانات البرية من تلقاء نفسه ، وأنه تعلم الرعي بحكم المرحلة التي كان يعيشها أيضا من تلقاء نفسه .

خامسًا : وعلم الله سبحانه وتعالى آدم وبنيه صناعة السفن وركوب البحر بعد تذليله لهم .

سادسا : كما علم الله آدم وذريته كيفية الاستفادة مما خلق ، من مخلوقات في أعماق البحار ، لقد علّمهم كيف يصطادون الأسماك ، ليتخذوا منها طعاما طريا ، كما علمهم كيف يستخرجون الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان للزينة والتجارة .

سابعا : لقد فسر الله سبحانه وتعالى لآدم وذريته الظواهر الكونية ، مثل نصب الجبال الراسيات في الأرض لئلا تضطرب وتميل بأبناء آدم ، كما أعلمهم أنه قد جعل فيها أنهارا وطرقا ومسالك لعلهم يهتدون ، كما علمهم كيف يهتدون بالنجوم وغيرها من الظواهر الكونية كالطرق والجبال والأنهار وهم يضربون في جنبات الأرض ، وهذا كله دليل على فضل الله سبحانه وتعالى على آدم وبنيه ، ودليل على التقدم المادى الذى كانوا عليه والذى كان يقوم على قاعدة توحيد الله سبحانه وتعالى .

ثامنًا : لقد علم الله آدم وبنيه كيف يستفيدون من كـل ما خلقه لهم من أشياء ، تعرف ربها وخالقها وسيدها وتسجد له سجود خضوع وانقياد .

تاسعا :بل إن الله عز وجل قد أخبر آدم عليه السلام وبنيه أنه علم النحل ، كيف تتخذ من الجبال والشجر بيوتا ، وكيف تطعم مما خلق لها من الأزهار والثمار ، ليحيلها الله سبحانه وتعالى في بطونها إلى عسل تخرجه فيكون منه شراب فيه شفاء لآدم وبنيه .

عاشرًا : لقد خلق الله الحديد ، وجعل فيه منافع لبنى آدم وعلمهم كيف يستفيدون منه ، في صناعة الدروع ليتقوا بها شر أعدائهم في الحرب : ﴿ **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** ﴾[1] .

حادى عشر : أن الله قد أخبر آدم أنّه قد أنبت في الأرض من كل الثمرات والزروع بميزان وحكمة ، كما أعلمه أنه ما من شيء إلا خزائنه بيد الله عز وجل ، لأنه هو الرزاق ذو القوة المتين .

ثانى عشر : لقد علم الله آدم كل شيء ، ومن ذلك تفسير الظواهر الكونية ، مثل نزول المطر ، فالله يرسل الرياح تلقح السحاب فيدر ماء ، وتلقح الشجر فينفتح عن أوراقه وأكمامه ، فالريح كالفحل للسحاب والشجر[2] .

---

(١) الحديد : ٢٥

(٢) هذه هي حقيقة الفترة التي تسميها مناهج التاريخ ومراجعه في المدارس والجامعة على امتداد رقعة العالم ، باسم التاريخ =

آدم عليه السلام يهبط من الجنة إلى أرض الهند :

ذكر الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى أن : آدم عليه السلام قد أهبط إلى أرض الهند وأن ذلك مما لا يدفع بصحته علماء الإسلام وأهل التوراة والإنجيل ، والحجة قد ثبتت بأخبار بعض هؤلاء[1] .

= القديم ، وأطلقت عليها اسم العصور الحجرية ، أو عصور ما قبل التاريخ ، وأن الإنسان كان فيها بدائيا يعيش معيشة لا تختلف عن معيشة الحيوان ، وأنه لم يكن يعرف له ربا ولا دينا .(انظر موسوعة تاريخ العالم ، ومعالم تاريخ الإنسانية ، وقصة الحضارة) .

ولقد بينا فساد هذه الموسوعات والمناهج والمراجع والمصادر فى كتابنا أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الرسالة الأولى ، ط دار طيبة ، وطبعة دار الوفاء ، وهدف هذه الموسوعات التاريخية التى بينا فسادها كما هو واضح فيها وفى غيرها ممن نهج نهجها ، هو هدم التدين ، وهدم الإسلام ، وتربية أجيال لا تؤمن بالله ولا برسوله ولا باليوم الآخر . وقد نجحوا فى ذلك أيما نجاح : ﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ .

تراجع الأدلة الشرعية لهذه الأقوال التي أوردناها في صفحة (٨٥) إلى (٩٢) من " أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ ، الرسالة الأولى ، ط . دار طيبة ، ط دار الوفاء ، ٩٦ — ١٠٢ .

(١) تاريخ الرسل والملوك ، ح ١ ، ج ٤ ، ص ١٢٢ .

المبحث الثانى

معالم ترسيها سيرة آدم عليه السلام فى حياة الأمة المسلمة

إن آدم عليه السلام هو أبو البشر : « كلكم لآدم وآدم من تراب » . وقد فطره الله وزوجته وبنيه على الإسلام . وذلك يعنى أن البشرية فى الأصل مفطورة على توحيد الله رب العالمين ، وأن الشرك عارض فى حياتها . وهذا يبين لنا فساد الدراسات التاريخية والاجتماعية التى زعمت أن الشرك هو الأصل فى حياة البشرية ، التى تطورت فى عقيدتها حتى وصلت إلى التوحيد من تلقاء نفسها أى أن الدين من اختراع العقل البشرى[1] . وقد بينا فساد هذه التصورات فى أبحاثنا[2] .

إذن البشرية كلها ترجع فى أصلها إلى آدم عليه السلام وزوجه ﴿ **كان الناس أمة واحدة** ﴾[3] .

والغاية التى من أجلها خلق آدم وزوجه وبنوه وذريتهم هى العبادة بمفهومها الشامل ﴿ **وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون** ﴾[4].

وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

إن الدرس الأول فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تلقّاه آدم عليه السلام على يد الله رب العالمين ﴿ **وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾[5] ولله المثل الأعلى ومن هنا تأتى أهمية الأمر بالمعرف والنهى عن المنكر .

---

(١) موسوعة تاريخ العالم ، قصة الحضارة ؛ تطور الفكر والدين فى مصر القديمة ، تأليف جيمس هنرى برستد.

(٢) للمؤلف أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الإسلام دين الله فى الأرض وفى السماء ، طبعة دار الوفاء،المنصورة .

(٣) البقرة : ٢١٣ .

(٤) الذاريات : ٥٦ .

(٥) البقرة : ٣٥ .

وجوب نصب الخليفة :

« استدل الإمام القرطبي وغيره بهذه الآية : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل في الأرض خليفة** ﴾[1]. على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس ، ويقطع تنازعهم ، وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ، ويقيم الحدود ، ويزجر عن تعاطي الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا يمكن إقامتها إلا بالإمام وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ، ص ٢٦٤ .

. « والإمامة تنال بالنص ، كما يقول طائفة من أهل السنة ، فى أبى بكر ؛ أو بالإيماء به ، كما يقول آخرون منهم ؛ وباستخلاف الخليفة آخر بعده : كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب ؛ أوبتركها شورى فى جماعة الصالحين كذلك كما فعله عمر ؛ أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور ، وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع والله أعلم . أو بقهر أحد الناس على طاعته فتجب لئلا يؤدى ذلك إلى الشقاق والاختلاف ، وقد نص الشافعي : وهل يجب الإشهاد على عقد الإمامة ؟ فيه خلاف فمنهم من قال · لا يشترط ، وقيل : بلى ويكفى شاهدان ، وقال الجبائى : يجب أربعة وعاقد ومعقود له كما ترك عمر رضى الله عنه الأمر شورى بين ستة ، فوقع الأمر على عاقد وهو عبد الرحمن بن عوف ، ومعقود له هو عثمان ، واستنبط وجوب الأربعة الشهود من الأربعة الباقين وفى هذا نظر والله أعلم » .

« ويجب أن يكون ذكراً حُرّاً بالغا عاقلا مسلماً مجتهداً بصيراً سليم الأعضاء خبيرا بالحروب والآراء قرشيا على الصحيح . ولا يشترط الهاشمى ولا المعصوم من الخطأ خلافا للغلاة الروافض ؛ ولو فسق الإمام فهل ينعزل أم لا ؟ فيه خلاف والصحيح أنه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة والسلام « إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله فيه برهان » . وهل له أن يعزل نفسه ؟ فيه خلاف ، وقد عزل الحسن بن على رضى الله عنه نفسه وسلّم الأمر إلى معاوية لكن هذا لعذر وقد مُدِح على ذلك ! فأما نصب إمامين فى الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام « من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائنا من كان » وهذا قول الجمهور ، وقد حَكَى الإجماع على ذلك ، غير واحد ، منهم إمام الحرمين . وقالت الكرامية: يجوز اثنان فأكثر كما كان على ومعاوية إمامين واجبى الطاعة قالوا:

---

(١) البقرة ٣٠ .

وإذا جاز بعث نبيين فى وقت واحد وأكثر جاز ذلك فى الإمامة لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبى إسحاق أنه جوّز نصب إمامين فأكثر إدا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما وتردد إمام الحرمين فى ذلك » (تفسير القرآن العظيم ، ج ١ ، ص ٧٢) .

* « إن آدم عليه السلام ، كان خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره ؛ لأنه أول رسول إلى الأض ، كما فى حديث أبي ذر ، قال : قلت : يا رسول الله ، أنبيًا كان مرسلا ؟ قال : « نعم » الحديث . ويقال : لمن كان رسولا ولم يكن في الأرض أحد ؟ فيقال: كان رسولا إلى ولده ، وكانوا أربعين ولدافى عشرين بطنا، في كل بطن ذكر وأنثى ، وتوالدوا حتى تكاثروا »[١] .

* « إن أكمل صورة للخلق الإنسانى هي « آدم عليه السلام » ، أو هي صورة أهل الجنة. كما بين حديث رسول الله ﷺ : « وأزواجهم الحور العين على خَلْقِ رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء » وكرم الله آدم عليه السلام بأربعة أمور : خلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة وعلمه كل شيء » .

هذه الحقيقة تكشف لنا التزييف الذى تعرض له تاريخ الإسان على يد المستشرقين ومن سار على نهجهم ، من أن بداية الخلق الإنساني هي الخلية الحية التي نشأت في البرك والمستنقعات [٢] ، وأن الإنسان من سلالة القردة .

كما تبين لنا فساد مناهج وتصورات ومراجع ومصادر ماتسمى بالعلوم الإنسانية (التاريخ ـــ الجغرافيا ـــ علم النفس الاجتماعى وغيرها) التى تبحث في تاريخ الإنسان على أنه من سلالة القردة كما زعم دارون فى كتابه « أصل الإنسان » الذى نشر عام ١٨٧١ ، لأنه شتان بين من يعالج تاريخ الإنسان على أنه مخلوق مكرّم بنفخة من روح الله وبين من يعالج تاريخ الإنسان على أنه من سلالة القردة . وذلك يعنى أيضا فساد الدراسات النفسية التى تتعامل مع الإنسان فى معامل التحليل النفسى على أنه جماد (جسد فقط) بغير

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

(٢) معالم تاريخ الإنسانية ، ح ١ ، ولقد نبها إلى هذا التشويه والتزييف في كتابنا . أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ ، الرسالة الأولى ، ص ١٥ ، ١٦ ، صفحة ٦ من رسالتنا التى بين يديك .

روح ، وفساد الدراسات التى تزعم بأن الغرائز الحيوانية هى التى توجّه حركة الإنسان كما زعم فرويد ودوركايم وأعوانهم من شياطين البشر . ويتضح أيضا فساد كل المبادىء السياسية والاقتصادية والثقافية والتعليمية وغيرها التى تقوم على أساس أن الإنسان من سلالة القردة ، وأنه مادة مجردة من الروح .

كما يجب أن تراجع نظرية فرويد فى البحوث النفسية ونظرية دوركايم فى علم الاجتماع ونظرية ماركس الاشتراكية والشيوعية ونظرية فريزر فى علم مقارنة الأديان ، ويُبَيّن فسادها وتستبعد من المناهج والمراجع التعليمية التى تدرس فى المدارس والجامعات ، لأنها تقوم على منهج معادٍ للدين وعلى أساس أن الإنسان من سلالة الحيوان .

وإذا اتضح ذلك فيجب على المشتغلين بالعلوم الإنسانية وغيرها أن يراجعوا ما كتبوا عن حقيقة خلق الإنسان فى ضوء العقيدة الإسلامية ، ويقوموا بتصحيحهاالتصحيح الواجب [١] .

آدم عليه السلام تكلم بالألسنة كلها ومنها العربية :

ولقد أورد الإمام القرطبي مسائل مهمة عند تفسير قول الله تعالى : ﴿ **وعلمَ آدم الأسماء كلها** ﴾ [٢] ، فقال :

« واختلف في أول من تكلم باللسان العربي ، فروى عن كعب الأحبار : أن أول من وضع الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها وتكلم بالألسنة كلها آدم عليه السلام » .

« فإن قيل قد روى عن كعب الأحبار من وحه حسن قال : أول من تكلم بالعربية جبريل عليه السلام ، وهو الذى ألقاها على لسان نوح عليه السلام ، وألقاها نوح على لسان ابنه سام ، ورواه ثور بن زيد عن خالد بن معدان عن كعب . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن عشر سنين » . وقد روى

---

(١) انظر ما كتبه محمد قطب ــ بارك الله فى عمره ــ فى مؤلفاته : التطور والثبات فى حياة البشرية ، الإنسان بين المادية والإسلام ، دراسات فى النفس الإنسانية ، أ.د. محمد رشاد خليل ، عن علم النفس الإسلامى .

(٢) البقرة : ٣١ .

أيضا : أن أول من تكلم بالعربية يعرب بن قحطان . وقد روي غير ذلك » .

« قلنا (الكلام للقرطبي) : الصحيح أن أول من تكلم باللغات كلها من البشر آدم عليه السلام ، والقرآن يشهد له ، قال الله تعالى : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ . واللغات كلها أسماء فهي داخلة تحته ، وبهذا جاءت السنَّة قال ﷺ : « وعلم آدم الأسماء كلها حتى القصعة والقصيعة » . وما ذكروه يحتمل أن يكون المراد به أن من تكلم بالعربية من ولد إبراهيم عليه السلام إسماعيل عليه السلام ، وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولا على أن المذكور أول من تكلم من قبيلته بالعربية بدليل ماذكرنا ، والله أعلم . وكذلك جبريل أول من تكلم بها من الملائكة ، وألقاها على لسان نوح بعد أن علمها الله آدم أو جبريل على ماتقدم ، والله أعلم » [1] .

آدم وزوجه هما الشخصان الوحيدان اللذان قدّر لهما أن يعيشا في الجنة ، ثم نزحا إلى الأرض ، ومكابدة الحياة ومشقاتها :

ولا بد أن آدم الذى شاهد الجنة وعاش فيها ، قد حكى ذلك لأبنائه ، وشتان بين من شاهد وعاين ، ومن سمع ، وشتان بين حياة الجنة وحياة الأرض التي يكابد الإنسان فيها . ومما لا شك فيه ، أن أبناء آدم في ذلك الوقت بعدما سمعوا من أبيهم كانوا يرنون بأبصارهم إلى هذه الجنة التي يسمعون عنها ، ولا بد أن أرواحهم كانت ترفرف حولها ، وتتمنى الوصول إليها . وفهموا أن السبيل إلى ذلك إطاعة أوامر الله وتطبيق نظامه وشرعه ، وعمل كل مايقربهم إلى هذه الجنة وكل ما يبعدهم عن النار . ولذلك لا عجب أن تسمع عن رسول الله ﷺ أن بعد آدم جاءت عشرة قرون يقول ابن عباس رضي الله عنه « كلهم على الإسلام » .

* إن الأمور لا تؤخذ بظواهرها ، وأوامر الله المشرع الحكيم لا تعرض على العقل ليُبدى فيها رأيا بالقبول أو الرفض ، وإنَّما لا بد من الاستسلام لأوامر الله سبحانه وتعالى ابتداء دون عرضها على العقل . نستقي هذا الفهم من مسألة إعلان الله سبحانه خلق آدم عليه السلام . فظاهر أمر المسألة كما فهمه الملائكة سوف يؤدى إلى الإفساد في الأرض وسفك الدماء . ومن هنا كان استفسار الملائكة : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، ج ١ ، ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

الدماء ؟ ﴾[1] ولذلك جاء البيان الرباني ﴿ **إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾ .

ومن هنا نخلص إلى أنَّ بني آدم مطالبون بالاستسلام لله رب العالمين في الصغيرة والكبيرة ، وأن يدخلوا في « السلم كافة » ، لأن الله أعلم بما يصلح أحوالهم : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ [2] . دون أن يُعْمِلُوا عقولهم في أوامر اللطيف الخبير .

* الواجب على من سئل عن مسألة أن يقول إن لم يعلم : « الله أعلم ولا أدري » ، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء ، لكن قد أخبر الصادق : أن بموت العلماء يقبض العلم ، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون . وأما ما ورد في الأخبار عن النبي ﷺ وأصحابه والتابعين بعدهم في معنى الآية : ﴿ **قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** ﴾ [3] :

« فروى البُسْتِيّ في المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : أيّ البقاع شرّ ؟ قال : « لا أدرى حتى أسأل جبريل » فسأل جبريل ؛ فقال:لا أدرى حتى أسأل ميكائيل ؛ فجاء فقال : خير البقاع المساجد، وشرُّها الأسواق . وقال الصّديق للجدَّة : ارجعى حتى أسأل الناس . وكان عليّ يقول : وأبردها على الكبد ؛ ثلاث مرات . قالوا وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أن يُسأل الرجلُ عما لا يعلم فيقول : الله أعلم . وسأل ابن عمر رجلاً عن مسألة فقال : لا علم لي بها ؛ فلما أدبر الرجل . قال ابن عمر : نِعم ما قال الرجلُ ، سُئل عما لا يعلم فقال لا علم لي به ! ذكره الدّارمي في مسنده . وفى صحيح مسلم عن أبي عقيل يحيى بن المتوكل صاحب بُهَيّة [4] قال : كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيى بن سعيد ، فقال يحيى للقاسم : يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيمٌ أن يُسأل عن شيء من أمر هذا الدين فلا يوجد عندك منه عِلْمٌ ولا فَرَج ، أو عِلْمٌ ولا مَخْرَجٌ ؟ فقال له القاسم : وعمَّ ذاك ؟ قال : لأنك ابن إمامىْ هدى : ابن أبي بكر وعمر [5] . قال : يقول له القاسم : أقبحُ من ذاك عند من عَقل عنّ الله أن

---

(١) البقرة : ٣٠ . (٢) الملك ١٤ . (٣) البقرة ٠ ٣٢ .

(٤) بهيّة (بالتصغير) ٠ مولاة أبى بكر رضى الله عنه ، تروى عن عائشة . وروى عنها أبو عقيل المذكور

(٥) القاسم هذا ، هو ابن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وأم القاسم هى أم عبد الله بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ؛ فأبو بكر جده الأعلى لأمه ، وعمر جدّه الأعلى لأبيه ، وابن عمر جدّه الحقيقى لأبيه . رضى الله عنهم أجمعين . (عن شرح النووى على صحيح مسلم) .

أقول بغير علم أو آخذ عن غير ثقة . فسكت فما أجابه . وقال مالك بن أنس : سمعت ابن هُرْمُز يقول : ينبغي للعالم أن يُورّث جلساءه من بعده لا أدرى حتى يكون أصلا في أيديهم ؛ فإذا سُئل أحدهم عما لا يدرى قال : لا أدرى . وذكر الهيثم بن جميل قال : شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها : لا أدري » .

« قلت : ومثلهُ كثيرٌ عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ، وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسةُ وعدم الإنصاف فى العلم . قال ابن عبد البرّ : من بركة العلم وآدابه الإنصافُ فيه ، ومن لم يُنصف لم يفهم ولم يتفهّم . روى يونس بن عبد الأعلى قال سمعت ابن وَهْب يقول : سمعت مالك بن أنس يقول : ما فى زماننا شىء أقلّ من الإنصاف » .

« قلت : هذا فى زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذى عمّ فينا الفساد وكثر فيه الطّغام ! وطُلب فيه العلم للرياسة لا للدّراية ؟ بل للظهور فى الدنيا وغلبة الأقران بالمِراء والجدال الذى يُقْسى القلب ويُورث الضّغن ؛ وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى . أين هذا مما رُوى عن عمر رضىَ الله عنه وقد قال : لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية ولو كانت بنت ذى العَصَبَة ـ يعنى يزيد بن الحُصين الحارثى ـ فمن زاد ألقيت زيادته فى بيت المال ؛ فقامت امرأة من صَوْب النساء طويلة فيها فَطَس[1] فقالت : ماذلك لك ! قال : ولم ؟ قالت: لأن الله عز وجل يقول : ﴿ **وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً** ﴾ [2] فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ ! وروى وكيع عن أبى معشر عن محمد بن كعب القُرْظي قال : سأل رجل عليًا رضى الله عنه عن مسألة فقال فيها ؛ فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ؛ فقال علىّ : أصبتَ وأخطأتُ ، وفوق كل ذى عِلْمٍ عليم . وذكر أبو محمد قاسم بن أصبغ قال : لمّا رحلت إلى المشرق نزلت القَيْرَوَان فأخذت على بكر بن حماد حديث مسدّد ، فقرأت عليه يوما حديث النبىّ ﷺ : « أنه قدم عليه قوم من مُضَرَ مِن مُجْتَابِى[3] النِّمَار » فقال : إنما هو مُجْتابى الثّمار ؛ فقلت: إنما هو مُجْتابى النمار ؛ هكذا قرأته على كل من قرأته عليه

---

(١) الفطس (بالتحريك) : انخفاض قصبة الأنف وتطامنها وانتشارها . انظر الجامع لأحكام القرآن ، ج ٣ ، صفحة ١٦٦٩.

(٢) النساء : ٢٠ .

(٣) مشققة مخططة .

بالأندلس والعراق ؛ فقال لى : بدخولك العراق تُعارضنا وتفخر علينا ! أو نحو هذا . ثم قال لى : قم بنا إلى ذلك الشيخ ــ لشيخ كان فى المسجد ــ فإن له بمثل هذا علماً ؛ فقمنا إليه فسألناه عن ذلك فقال : إنما هو مُجْتابى النّمار[1] كما قلت . وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة ، جيوبُهم أمامهم . والنّمار جمع نمرة[2] . فقال بكر بن حماد وأخذ بأنفسه : رَغِمَ أنْفِى للحق ، رَغِم أنفى للحق . وانصرف . وقال يزيد بن عبد الملك فأحسن :

إذا ما تحدثتُ فى مجلسٍ تَناهَى حديثى إلى ما عَلمتُ
ولم أعْدُ علمى إلى غيرِه وكان إذا ماتناهَى سَكتُّ »

(انتهى كلام الإمام الطبرى)

العبد التائب يحظى برحمة الله :

أهمية الرحمة والرفق بالخلق وإن أخطأوا ، نستمد ذلك من رحمة الله الواسعة ورفقه بخلقه ــ ولله المثل الأعلى ــ لقد خالف آدم ربه ، وأكل من الشجرة ، فإذا بالله العزيز الحكيم يؤنبه فيتوب ، فيتوب الله عليه : ﴿ **ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين** ﴾[3] . ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾[4] .

وهذا درس لنا ، قد يخطىء إنسان ، وقد يسقط ، فلا تُعنِّفه ، ولا تتركه ، بل تُذكره الله ، وتُذكره عداوة الشيطان له ولبنيه ، لعله يرجع ويتوب .

إنَّ الكِبْر يعزل الإنسان عن رحمة ربه :

﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾[5] .

ولقد فسر الإمام القرطبي هذه الآية بقوله : « الاستكبار : الاستعظام ، فكأنه كره

---

(١) مجتابى النمار ، أى لابسها . يقال : اجتبت القميص والظلام دخلت فيهما .
(٢) وهى كل شملة مخططة من مآزر الأعراب ؛ كأنما أخذت من لون النمر
(٣) الأعراف : ٢٢ . (٤) البقرة : ٣٧ . (٥) البقرة : ٣٤ .

السجود في حقه واستعظمه في حق آدم ، فكان ترك السجود لآدم تسفيها لأمر الله وحكمته . وعن هذا الكبر عبر عليه السلام بقوله : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » . وفي رواية فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا . قال : « إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس » . أخرجه مسلم . ومعنى بطر الحق : تسفيهه وإبطاله . وغمط الناس : الاحتقار لهم والازدراء بهم . ويروى : وغمصه : وغمضه : استصغره ولم يره شيئا . وغمضت عليه قولا قاله ، أى عبته عليه . وقد صرح اللعين بهذا المعنى فقال : ﴿ **أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾ [1] . ﴿ **أأسجد لمن خلقت طينا** ﴾ [2] . ﴿ **لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون** ﴾ [3] . فكفَّره الله بذلك .

فكل من سفه شيئا من أوامر الله تعالي أو أمر رسوله عليه السلام كان حكمه حكمه ، وهذا ما لا خلاف عليه » .

ومن بقية شروح الإمام القرطبي تتضح : أن بدء الذنوب الكبر ، ثم حرَّض آدم على الأكل من الشجرة ، ثم الحسد ، إذ حسد ابن آدم أخاه [4] .

« إذن الكبر يعزل المرء عن رحمة الله ، وكان حقا على الله أن يذل المتكبر في الدنيا والآخرة : ﴿ **فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين** ﴾ [5] . والكبر هو الذى أدى بالشيطان إلى الكفر : ﴿ **ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ، أستكبرت أم كنت من العالين** ﴾ [6] ، أى استكبرت ولا كبر لك ، ولم أتكبر أنا حين خلقته بيدى والكبر لي ؟ فلذلك قال : ﴿ **وكان من الكافرين** ﴾ » [7] .

حب السلطان وكراهية الموت :

إن شهوة الملك والرغبة في الخلد مذخورة في نفس الإنسان ، وحينما حركها الشيطان في نفس آدم عليه السلام : ﴿ **ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا**

---

(١) ص : ٧٦
(٢) الإسراء : ٦١
(٣) الحجر : ٣٣ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ، ح ١ ، ص ٢٩٦ .
(٥) الأعراف : ١٣ .
(٦) ص : ٧٥ .
(٧) تفسير القرطبي ، ح ١ ص ٢٩٧ .

ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ [1] استجاب .

لقد أتاهما الشيطان من حيث أحبا : « **حبك الشيء يعمي ويصم** » [2] .

وهذا يفسر لنا المجازر التى تقع فى صفوف بنى البشر ، وهذا يفسر لنا أسباب الحروب التى اصطلت البشرية بويلاتها ، إنها الرغبة فى السلطة ، إنها الرغبة فى الزعامة ، الرغبة فى الاستحواذ على ثروات الآخرين ، الرغبة فى الخلد فى المناصب والمراكز .

اليقظة والحذر من الشيطان :

يقول الله عز وجل : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما** ﴾ [3] .

« ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم وعلو منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكر النهي تضييعا صار به عاصيا ، أى مخالفا . قال أبو أمامة : « لو أن أحلام بني آدم منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة وضعت في كفة ووضع حلم آدم في كفة أخرى لرجحهم » . وقد قال الله تعالى : ﴿ **ولم نجد له عزما** ﴾ .

وهذا يستوجب من المسلم أن يكون حذرا أيضا من شياطين الإنس والجن ، فلا يغتر بقسمهم بالله عز وجل ، كما فعل الشيطان مع آدم وهو يحضه على المعصية ، في ثوب الناصح الأمين وهو العدو الأثيم : ﴿ وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ﴾ [4] .

ولذلك فقد حذر الله سبحانه وتعالى آدم وبنيه من الشيطان :

قال تعالى : ﴿ **يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾ [5] . وذلك يعنى أن شياطين الإنس والجن فى موقع يمكنهم من تتبع عورات الناس ونقاط الضعف فيهم ، والتخطيط للإيقاع بهم واجتيالهم عن

---

(١) الأعراف : ٢٠ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ، ج ١ ، ص ٣٠٧ .
(٣) طه : ١١٥
(٤) الأعراف . ٢١
(٥) الأعراف ٢٧ .

دينهم .

فلنحذر ولنكن يقظين : ﴿ **يآدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى** ﴾ (١) . وكما حذرنا الله سبحانه وتعالى ، ولله المثل الأعلى ، يجب أن يُذكِّر المسلم البشرية بعداوة الشيطان لها ، ويحذرها من الوقوع فى براثنه ، مع محاولة استنقاذها من ظلمات الشرك ، لأن ذلك واجب فى رقبته حيال البشرية التى تتعرض فى ليلها ونهارها لكيد الشيطان .

وشياطين الإنس والجن يتحدون المؤمنين الموحدين بل إنهم يتطاولون على الله رب العالمين . إن الشيطان قد طلب من الله عز وجل مهلة : ﴿ **قال أنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾ فيجيبه المولى عز وجل : ﴿ **إنك من المنظرين** ﴾ (٢) .

لماذا طلب المهلة ؟ ليكيد للإنسان ، ليصحبهم معه إلى جهنم : ﴿ **فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ (٣) ، ﴿ **قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا** ﴾ (٤) .

إنه تحد خطير لا بد وأن ينتبه إليه أصحاب الدعوات ،... العلماء ورثة الأنبياء ، بل بنو البشر عموما ، لأن شياطين الإنس والجن يتكاتفون ويعملون من أجل احتيال المسلم عن دينه والله يقول : ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة** ﴾ (٥)

أما الشياطين فلهم تحذير ، إنهم لن يفلتوا من عقاب الله ، فهم فى قبضة الله وتحت قهره وسلطانه ، وسيأتى الوقت الذى يدفعون فيه الثمن غاليا : ﴿ **قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً** ﴾ (٦) .

إن ستر العورة بالنسبة للرجل والمرأة واجب ، حسب الحد الذى حدده الشارع الحكيم : ﴿ **قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى** ﴾ (٧) .

---

(١) طه . ١١٧ .
(٢) الأعراف : ١٤ ــ ١٥ .
(٣) الأعراف ١٦ ــ ١٧ .
(٤) الإسراء : ٦٢ .
(٥) التوبة : ٣٦ .
(٦) الإسراء : ٦٣ .
(٧) الأعراف : ٢٦ .

والذين يكشفون عوراتهم ، سواء كانوا رجالا أو نساء ، فهؤلاء يخالفون أوامر الشارع الحكيم ، ويطيعون أوامر الشيطان : ﴿ **ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما** ﴾[1] .

وذلك يعني أن الجاهلية التي عرّت المرأة وجعلتها تكشف عن مفاتنها ، وحضتها على الاختلاط بالرجال ، تخالف أمر الله سبحانه وتعالى .

ذلك يعني أن الجاهلية التي وضعت المرأة في محلات البيع والشراء ، وفي دواوين العمل مزاحمة للرجل تخالف شريعة الله .وذلك يعني أن الجاهلية التي سمحت للشباب أن يختلط بالفتاة في الجامعات والمدارس ، في الفصل الدراسي تخالف شريعة الله . وذلك يعني أن الجاهلية التي تعتبر المرأة غير المحجبة متحررة ومتقدمة ، وتعتبر الحجاب من بقايا التخلف والرجعية ، أيضا تخالف شريعة الله .

إذن فستر العورة دليل الامتثال لأوامر الله : ﴿ **إنَّ لك ألا تجوع فيها ولا تعرى** ﴾[2] والعرى قرين المعصية والفطرة الفاسدة ، التى تتمرد على أوامر العزيز الحكيم التى توجب ستر العورة ، وهي دليل على أن شياطين الإنس حريُصون كل الحرص على تجريد الإنسان من ثيابه ، بل إنهم يبذلون كل الجهود لكى يسير الإنسان عاريا فيفقد بذلك أخص خصائص إنسانيته ، وقد قطعوا فى ذلك شوطا كبيرا ، والدليل نوادى العراة ، والدليل الشواطىء التى يتجرد فيها الناس من ثيابهم ، وهذا دلبل على أن الذى يتعرى ويتجرد من ثيابه إنما هو مطيع للشيطان ، إذن فالعرى دليل التأخر وليس دليل التمدن ، إنه دليل الانتكاسة والارتكاسة ، والذين يتعرون دليل على أنهم عبيد للشيطان ، وليس دليلا على حريتهم التى يتشدقون بها ، فالحرية الحقيقية تتحقق فى ستر العورة التزاما لأوامر العزيز الحكيم .

* إن باب التوبة مفتوح لآدم وبنيه ، فقد أخبر رسول الله محمد ﷺ : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »[3]. فآدم عليه السلام ، خالف أمر ربه ، وأكل من الشجرة ، ثم أدرك أنه قد عصى ، فتاب ، فتاب الله عليه . وهذه رحمة من الله لبنى آدم ، فهو سبحانه

---

(١) الأعراف ٠ ٢٧
(٢) طه ٠ ١١٨ .
(٣) رواه الترمذى .

وتعالى « يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » [1] .

وقد قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط : أحدها : أن يقلع عن المعصية . والثاني : أن يندم على فعلها . والثالث : أن يعزم أن لا يعود إليها أبدا : ﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ [2] . فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته ، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة ، هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها .

« ولعل في تجربة آدم عليه السلام ، تربية لهذا الخليفة وإعدادا ، لقد كان إيقاظا للقوى المذخورة في كيانه ، كانت تدريبا له على تلقي الغواية ، وتذوق العاقبة ، وتجرع الندامة ، ومعرفة العدو ، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين » .

« إن قصة الشجرة المحرَّمة ، ووسوسة الشيطان باللذة ، ونسيان العهد بالمعصية ، والصحوة من بعد الشدة ، والندم وطلب المغفرة ـ إنها هي هي تجربة البشرية المتجددة المكرورة » .

« لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقره في الأرض مزودا بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلا استعدادا للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيرا » [3] .

قيمة آدم وبنيه عند رب العالمين :

« إن الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية ... إنه إنسان بنفخة من روح الله : ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** ﴾ [4] . وهو بهذه النفخة مستخلف في الأرض : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ [5] ... ولأن الإنسان بهذا القدر من الكرامة والسمو ، جعل الله الآصرة التي يتجمع عليها البشر هي الآصرة المستمدة من النفخة الإلهية الكريمة ... جعلها آصرة العقيدة في الله ، فعقيدة المؤمن هي وطنه ، وهي قومه ، وهي أهله ... ومن ثم يتجمع البشر عليها وحدها ، لا على أمثال ما تتجمع عليه البهائم من كلأ ومرعى وقطيع وسياج » .

---

(١) رواه مسلم . (٢) الأعراف : ٢٣ . (٣) في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٥٩
(٤) الحجر : ٢٩ . (٥) البقرة : ٣٠ .

« والمؤمن ذو نسب عريق ، ضارب في شعاب الزمان . إنه واحد من ذلك الموكب الكريم الذى يقود خطاه ذلك الرهط الكريم من الأنبياء والرسل بدايته بآدم عليه السلام ، ونهايته محمد ﷺ : ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾ [1] » .

* « إن الله سبحانه وتعالى قد خلق آدم ، ووهبه الهدى : ﴿ **فإمَّا يأتينكم مني هدى** ﴾ . وذلك يعني أن المنهج الإلهي ليس عدوا للإبداع الإنساني ، إنما هو منشيء هذا الإبداع وموجه له الوجه الصحيح ... لذلك كي ينهض الإنسان بمقام الخلافة في الأرض ، هذا المقام الذي منحه الله له ، وأقدره عليه ، ووجه من الطاقات المكنونة ما يكافيء الواجب المفروض عليه فيه . وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه ، ونسق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع على أن يكون الإبداع نفسه عبادة لله ، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام . والتقيد بشرطه في عقد الخلافة ، وهو أن يعمل ويتحرك في نطاق ما يرضي الله » [2] .

* « لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء ، ولا للفلتة العارضة : ﴿ **إنَّا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ [3] ﴿ **وخلق كل شيء فقدره تقديرا** ﴾ [4] وكل أمر لحكمه .

* إن البشرية ـــ وهي من صنع الله ـــ لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله ، ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذى يخرج من يده سبحانه وتعالى ، وقد جعل في منهجه وحده مفاتح كل مغلق ، وشفاء كل داء : ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾ [5] . ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هي أقوم** ﴾ [6] ، ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد القفل إلى صانعه ، ولا أن تذهب بالمريض إلى مبدعه ، ولا تسلك في أمر نفسها ، وفي أمر إنسانيتها ، وفي أمر سعادتها أو شقوتها ... ما تعودت أن تسلكه في أمر الأجهزة والآلات ... المادية الزهيدة التي تستخدمها في حاجاتها اليومية الصغيرة .... وهي تعلم أنها تستدعي لإصلاح الجهاز مهندس المصنع الذى صنع الجهاز . ولكنها لا تطبق هذه القاعدة على الإنسان نفسه ، فترده إلى المصنع الذى منه

---

(١) فى ظلال القرآن ، ح ١ ، ص ١٢ ؛ وفى هذا ردّ ودليل على فساد الدراسات التاريخية التى جعلت الإنسان حيوانا انحدر من سلالة القردة (موسوعة تاريخ العالم ، قصة الحضارة) والآية · المؤمنون ، ٥٢ .

(٢) فى ظلال القرآن ، ح ١ ، ص ١٦ (٣) القمر . ٤٩ .

(٤) الفرقان : ٢ (٥) الإسراء : ٨٢ . (٦) الإسراء : ٩

خرج ، ولا أن تستفتي المبدع الذى أنشأ هذا الجهاز البشري ، الجهاز الإنساني العظيم الكريم الدقيق اللطيف ، الذى لا يعلم مساربه ومداخله إلا الذى أبدعه وأنشأه : ﴿ **إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ (١) .

« ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية الضالة ، البشرية المسكينة الشاردة ، البشرية التي لن تجد الرشد ، ولن تجد الهدى ، ولن تجد الراحة ، ولن تجد السعادة ، إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى صانعها الكبير ، كما ترد الجهاز الزهيد إلى صانعه الصغير » (٢) .

« ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة** ﴾ إذن هي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود ، زمام هذه الأرض ، وتطلق فيها يده ، ويكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين ، والتحليل والتركيب ، والتحويل والتبديل ، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات ، وكنوز وخامات ، وتسخير هذا كله ــ بإذن الله ــ في المهمة الضخمة التى وكلها الله إليه » .

« إذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة ، والاستعدادات المذخورة كفاء ما في هده الأرض من قوى وطاقات ، وكنوز وخامات ، ووهب مں القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية » .

« وإذن فهنالك وحدة أو تناسق بين النواميس التي تحكم الأرض وتحكم الكون كله ، والنواميس التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته ، كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك ، وكي لا تتحطم طاقة الإنسان على صفحة هذا الكون الضخمة » .

« وإذن فهي منزلة عظيمة ، منزلة هذا الإنسان ، في نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة ، وهو التكريم الذى شاءه له خالقه الكريم » (٣) .

---

(١) الملك : ١٣ ــ ١٤ .

(٢) في ظلال القرآن ، ج١ ، ص ١٥ . وهذا يستلزم ممن يسمون بعلماء النفس والاجتماع أن يراجعوا الأساس الذى أقاموا عليه دراساتهم والذى وضعه دارون وفرويد ودوركايم وغيرهم من أصحاب النظريات المعادية للدين (انظر مذاهب فكرية معاصرة تأليف محمد قطب) .

(٣) في ظلال القرآن ، ح ١ ، ص ٥٦ .

المبحث الثالث

مجتمعات بشرية

بين آدم ونوح عليهما السلام عمرها عشرة قرون [1] على الإسلام

أثبتنا بالوثائق ، أن آدم عليه السلام ، قد قام بعد نزوله من الجنة إلى الأرض ، بتكليف من الله عز وجل ، بإقامة المجتمع المسلم ، وقام آدم عليه السلام بتنفيذ التكليف الرباني فأقام المجتمع الإسلامي المتحضر بمعنى ، أنه كان متقدما في المجال المادى ، وهذا التقدم المادي كان منضبطا بضوابط العقيدة والشريعة الإسلامية . وفي هذا المجتمع كان آدم عليه السلام أول خليفة مسلم يباشر مهمته التي من أجلها خلقه الله عز وجل ، وهي العبادة بمفهومها الشامل : ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت** ﴾ [2] .

ولم ينس آدم عليه السلام ــ كراع للمجتمع المسلم ــ أن يربي الناس على مفاهيم الإسلام ، يبين لهم معالم الدين ويبين لهم معالم الحلال والحرام ، ويبين لهم الحدود ، ويربيهم على الخلق الكريم والسلوك السوى لتزكوا نفوسهم وأخلاقهم .

ولم ينس أن يبين لهم لماذا خلقوا ، وأنهم سيموتون ، ويبعثون ويحاسبون ، وأن الفائز

---

(١) وهو العصر الذى يقابل العصر الذى سماه المستشرقون : باسم عصور ما قبل التاريخ ، أو العصور الحجرية (العصر الحجرى القديم ، العصر الحجرى الحديث ، والعصر الحجرى النحاسى) .
وزعموا أن الإنسان من سلالة القردة التى تطورت عبر ملايين السنين من الخلية الحية التي نشأت في البرك والمستنقعات ، حتي انتهت إلى الشكل الإنساني .
كما أنكروا الخالق عز وجل ، وزعموا أن الإنسان لم يكن يعرف ربه أو دينه . وكان إدراكه لا يتجــاور إدراك طفل صغير ثم نما بمرور الزمن (انظر : موسوعة تاريخ العالم ، تاريخ العالم ، موجز تاريخ الإنسانية ، قصة الحضارة ، وكتب التاريخ القديم المقررة فى دور العلم باللغة العربية) .

(٢) الأنعام : ١٦٢ ـــ ١٦٣

من انتهى به المطاف إلى الجنة ، وأن الخاسر من انتهت به حياته وأعماله إلى النار .

ولم ينس أيضا أن ينبههم إلى عدوهم الأول ، وخطورة دوره ، أنَّه الشيطان اللعين ، الذى يرى الناس هو وقبيله من حيث لا يراه الناس ، ويبين لهم كيف يتقون شره ووسوسته ، وهي أن يكونوا عبادا لله ، فإذا كانوا عبادا لله حقيقة ، فلن يجد الشيطان إليهم سبيلا : ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾ [1] .

ومن المؤكد أنه قد طرح أمامهم تجربته كاملة في الجنة ، وقصته مع إبليس اللعين ، وكيف أنه أخطأ ، فندم وتاب ، فتاب الله عليه ، حتى يعي أبناؤه التجربة ، ولكي يعرفوا كيف يتقون كيد ذلك الشيطان اللعين .

ومن المؤكد أيضا ، أنّ آدم عليه السلام وزوجه ، قد حدثوا أبناءهم عن الجنة وما فيها ، فكانت ترفرف حولها الأرواح ، وترنو بأبصارها إلى ذلك المرتقى السامق ، على أمل أن تكون من أصحاب اليمين .

وكان أثر المربّى وهو آدم وزوجه واضحا في الأجيال المسلمة التى تربت على يديه وعهده ؛ فعاشت لا يجد الشيطان سبيلا إلى قلوبها ، لأنها وعت الدرس كاملا ، وأدركت أن طاعة الله ستؤدى بها فى النهاية إلى الجنة التي عاش فيها أبوهما وأمهما لفترة من الزمان ، وعرفت أن طاعة الشيطان تعنى طردها من رحمة الله .

ولقد استمرت المجتمعات الإسلامية قائمة على أمر الله ، مخضعة حياتها لنظام الله وشريعته ، لمدة عشرة قرون ، وقع فيها انحراف خطير ، يتمثل فى قتل أحد ابني آدم على يد أخيه .

---

(١) الحجر : ٤٢ .

المبحث الرابع

قصة ابني آدم عليه السلام

أولا : مقتل أحد ابني آدم وبداية الانحراف فى المجتمع المسلم الأول :

دون القرآن الكريم هذا الخبر في قول الله تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ، إذ قربا قربانا** (١) ، **فتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتَقَبَّل من الآخر ، قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين . إني أريد أن تبوء بإثمي** (٢) **وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له** (٣) **نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه** (٤) ، **قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخي فأصبح من النادمين** ﴾(٥) .

إننا بهذا الخبر الوارد في القرآن الكريم ، أمام مجتمع لا شرك فيه ، عقيدة الأخوين سليمة ، كل منهما يريد نيل رضاء الله عز وجل ، فقدم كل منهما قربانا ، تقبل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، ..

لقد تقبل الله من الأول لأنه من المتقين ، ولم يتقبل من الآخر لأنه لم يكن كذلك وهذا دليل على أن الشيطان قد أفسد عمله (قربانه) ولذلك لم يتقبله الله منه وهنا نلمح أيضا الشيطان اللعين ، يتسلل إلى قلب هذا الأخ الذى لم يتقبل منه ، من مدخل الحسد والغيرة ، كيف يتقبل الله من أخيه ولم يتقبل منه ؟ ولم يقف الشيطان عند هذا الحدّ ،

---

(١) مايتقرب به من البر إليه تعالى .
(٢) ترجع بإثم قتلى .
(٣) فزينت له وسهّلت عليه .
(٤) جيفته أو عورته .
(٥) المائدة ٢٧ — ٣٢ .

وهو تحريك شهوة الحسد والغيرة فى قلب الأخ على أخيه ، ولكن استمر في دوره وما زال به حتى قبل الأخ أن يقتل أخاه ، وبعدها أصبح من الخاسرين النادمين .

ثانيا : معالم ترسيها قصة ابنى آدم عليه السلام :

وجوب الدعوة إلى الله :

لقطة من مجتمع مسلم ، وقع فيه انحراف ، يتمثل فى أخ يقتل أخاه ، والسبب أن الله سبحانه وتعالى قد تقبل طاعة الأخ المقتول ورفض طاعة الأخ القاتل .

منها نلمح أن مدار قبول الأعمال على النية والإخلاص وأن يكون العمل صوابا : ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ .

وعدم قبول العمل دليل على أنه لم تتوفر فيه الشروط الشرعية ، وكان من المفروض على صاحب العمل غير المتقبل من الله عز وجل ، أن يتوب ، والتوبة لها شروط : أن يقلع عن الذنب ، وأن يندم على فعله ، ويعزم على ألا يرجع إليه مرة أخرى ، ولكن الأخ الذى لم يُتقبل منه تمادى فى غَيِّه ، وأعقب معصيته الأولى بمعصية أشد وأكبر ، ألا وهى قتل أخيه ﴿ **فأصبح من النادمين** ﴾ .

درس في الدعوة باللسان دون استخدام اليد ، مع من ؟ مع أخ مسلم ! درس للبشرية من أخ يحاول أن ينقذ أخاه من النار لقد حرص الأخ الصالح على أن يدعو أخاه إلى الله فعلَّمه : ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ .

لقد حرص الأخ الصالح أن يدفع أخاه بالتى هي أحسن : ﴿ **لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك** ﴾ والسبب ؟ ﴿ **إنّى أخاف الله رب العالمين** ﴾ لقد حرص الأخ الصالح أن يحذر أخاه من الوقوع فى حرمة الاعتداء عليه فيكون من أصحاب النار : ﴿ **وذلك جزاء الظالمين** ﴾ .

فى هذا الدرس دعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . لقد كان في الإمكان أن يحفظ الأخ التقي حياته ، بأن يصمت ولا يتكلم ولا يعلق ، ولكن ما موقفه حينذاك بين يدي الله عز وجل وخاصة أنه يعلم الطريق الذى يجب أن يسلكه الإنسان ليتقبل الله عمله : ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ .

والله يقول : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا** ﴾ (١) .

روى الطبراني في الكبير عن علقمة أن رسول الله محمد ﷺ قال للأشعريين وهم قوم علماء ولهم جيران حُفاة جهال ولا يعلمونهم ولا يقومون بإرشادهم والنصح لهم فنهرهم : « ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمروبهم ولا ينهونهم وما بال أقوام لا يتفقهون من جيرانهم ولا يتعلمون ولا يتعظون ولا يأتمرون . والله ليعلمن قوم جيرانهم ويعظونهم ويفقهونهم ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون ويأتمرون وينتهون أو لأعاجلنهم العقوبة » . ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ **لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ (٢) .

لذلك لم يكن بإمكان الأخ التقى أن يصمت ولا يبين لأنه مكلف بالدعوة إلى الله .

إن الأخ التقى يخشى أن يستفحل أمر المنكر فينزل عذاب الله فيشمل الصالح والطالح : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ ؛ لأنهم لم يقوموا بواجب الدعوة إلى الله . ولم يقوموا بواجب الأمر بالمعروف .

روى الطبراني ورجاله ثقات عن أبي عميرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى تعمل الخاصة بعمل تقدر العامة أن تغيره ولا تغيره . فذاك حين يأذن الله في هلاك العامة والخاصة » .

وروى الطبراني فى الأوسط عن جابر مرفوعا أن الله عز وجل أوحى إلى ملك « اقلب مدينة كذا على أهلها ، فقال الملك : إن فيها عبدك فلانا لم يعصك طرفة عين . قال : اقلبها عليه وعليهم إن وجهه لم يتمعر فىَّ ساعة قط » أى لم يحمرّ وجهه بإنكار المنكر غضبا لله ، ومن هنا كان لا بد وأن يقوم الأخ الصالح بواجب الدعوة لله تعالى .

قدم الله سبحانه وتعالى نموذجين موغلين فى القدم لمن يسلم نفسه تماما لله ... ولمن

---

(١) البقرة : ١٥٩ ـــ ١٦٠ .

(٢) المائدة : ٧٨ ـــ ٧٩ .

يسلم جزءاً منه للشيطان :

ـــ نموذج الأخ الصالح الذى يتلقى من الله .

ـــ ونموذج لأخيه الذى يتلقى من الشيطان فى جزء من أموره .

الاثنين تقربا إلى الله أى أن كلا الاثنين لا يشركان بالله .

الأخ الصالح يقظ لكل صغيرة وكبيرة من السلوكيات يرد الأمور كلها إلى الله ... ومقياس رضاء الله من تلك السلوكيات هو القبول .... ومقياس سخط الله هو عدم القبول .

لاحظ أن قربانه قد قبله الله وقربان اخيه رفضه الله ... فبادر بتنبيه أخيه أن عمله هذا مع أنه مقدم إلى الله ولكن ينقصه التقوى ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ .

وكان رأيه فى أخيه صحيح أى أنه تنقصه التقوى فكانت هذه الملاحظة من الأسباب التي دفعت غير التقي إلى التهديد بالقتل فأفهمه التقي أنه ليس من شرع الله ولا من التقوى ولا من خشية الله قتل المسلم لأخيه ﴿ **لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ، ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين** ﴾ .

فهو هنا يتلقى من الله وكان يستطيع أن يدافع عن نفسه بأن يهدد بالقتل ثم يقتل أيضا لكن رسول الله ﷺ يقول : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

أما الأخ الآخر فهو غير خاضع تماما لله فقد أسلم جزءا من نفسه إلى الشيطان .

فقد قرب قربانا إلى الله وقلبه به حسدٌ على أخيه والذى زرع هذا الحسد الشيطان ، فقد زين له أن أخاه أفضل منه ... ثم كان الرفض الإلهى لقربانه وقبول الله لقربان أخيه .... استغلها الشيطان فرصة لتأكيد أفضلية أخيه عليه وكان نتيجة سماعه لهذا اللعين أنه رفض حتى الاستماع إلى نصيحة أخيه الذى نبهه إلى شرط من شروط القبول وهو التقوى ....

وكانت هذه النصيحة سببا فى تمادى الأخ غير التقي فى غيه فهدد أخاه بالقتل ﴿ **لأقتلنك** ﴾ .

نبهه أخوه أنه يجب أن يخشى الله فيما يفعل .... لكن الأخ غير التقى أسلم نفسه

إلى الشيطان وتلقى منه الأوامر وشرَّع من عند نفسه شريعة قتل الأخ لأخيه .... ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ .

« من قتل نفساً واحدة وانتهك حرمتها فهو مثل من قتل الناس جميعاً » :

« وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل » . وهذا نص على التعليل ، وبهذا الاعتبار يكون على إبليس كفل من معصية كل من عصى بالسجود ، لأنه أول من عصى به ، وكذلك كل من أحدث في دين الله ما لا يجوز من البدع والأهواء ، قال ﷺ : « من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » . وهذا نص في الخير والشر ، وقال ﷺ : « إن لأخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون » . وهذا ما لم يتب الفاعل من تلك المعصية » [1] .

« من قتل نفسا وانتهك حرمتها فهو مثل من قتل الناس جميعا ، ومن ترك قتل نفس واحدة وصان حرمتها واستحياها خوفا من الله فهو كمن أحيا الناس جميعا » [2] .

* « الحسد مدخل من مداخل الشيطان إلى القلب ، لأنه قد يحمل الشخص على إهلاك نفسه بقتل أقرب الناس إليه قرابة ، وأمسهم به رحما ، وأولاهم بالحنو عليه ودفع الأذية عنه ، فحينما حسد أحد ابني آدم أخاه ، كان بذلك قد أعطى الشيطان فرصة ليستقر في سويداء قلبه ، ويقدم على ارتكاب جريمته . ولخطورة هذا الأمر ، نهى رسول الله ﷺ الأمة عن الحسد . عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولاتباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم . المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ههنا ، التقوى هاهنا ، ــ ويشير إلى صدره ــ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وعرضه ، وماله . إن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ١٤٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٦

الله لا ينظر إلى أجسادكم ، ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . رواه مسلم » .

* إن عداء الجاهلية لأولياء الله يعرضها لحرب من الله سبحانه وتعالى ، فما بالنا بمن يقتل أولياءه ، أو يعذبهم ، ويعتدى على أعراضهم وأموالهم ؟ ؟

روى البخارى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى قال : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدى بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ، ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته »(١) .

« وفي الخبر : « إذا كانت الفتنة فكن كخير ابنى آدم » . وروى أبو داود عن سعد ابن أبي وقاص قال : قلت يا رسول الله ، إن دخل عليَّ بيتي وبسط يده (إليَّ) ليقتلني ؟ قال : فقال رسول الله : « فكن كخير ابني آدم » — وتلا هذه الآية — : ﴿ **لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني** ﴾ . « قال مجاهد : كان الغرض عليهم حينئذ ألا يستل أحد سيفا ، وألا يمتنع ممن يريد قتله . قال علماؤنا : وذلك مما يجوز التعبد به ، إلا أن في شرعنا يجوز دفعه إجماعا . وفي وجوب ذلك عليه خلاف والأصح وجوب ذلك ، لما فيه من النهي عن المنكر »(٢) .

* بعث الله الغراب حكمة ، ليرى ابن آدم كيفية المواراة ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ **ثم أماته فأقبره** ﴾ . فصار فعل الغراب في المواراة سمة باقية في الخلق ، فرض على جميع الناس على الكفاية ، من فعله منهم سقط فرضه عن الباقين . وأخص الناس به الأقربون الذين يلونه ، ثم الجيرة ، ثم سائر المسلمين .

وكما أورد الإمام القرطبي :

« ويستحب في القبر سعته وإحسانه ، لما رواه ابن ماجه عن هشام بن عامر رضي

---

(١) رواه البخارى ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ١٣٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .

الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « احفروا وأوسعوا وأحسنوا » . وروى عن الأدرع السلمي قال : جئت ليلة أخرى إليه ﷺ ، فإذا رجل قراءته عالية ، فخرج إليه ﷺ فقلت : يا رسول الله ، هذا مراء ، قال : فمات بالمدينة ففرغوا من جهازه ، فحملوا نعشه ، فقال رسول الله ﷺ : « ارفقوا به رفق الله به إنه كان يحب الله ورسوله » . قال : وحضر حفرته فقال : « أوسعوا له وسع الله عليه » . فقال بعض أصحابه : (يارسول الله) لقد حزنت عليه ؟ فقال : « أجل إنه كان يحب الله ورسوله »[1].

« اللحد أفضل من الشق ، فإنه الذى اختاره الله لرسوله ﷺ ، واللحد هو أن يحفر في جانب القبر إن كانت تربته صلبة » .

« وروى ابن ماجه عن سعيد بن المسيب قال : حضرت ابن عمر في جنازة ، فلما وضعها في اللحد قال : بسم الله ، وفي سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله ﷺ . فلما أخذ في تسوية (اللبن على) اللحد قال : اللهم أجرها من الشيطان ، ومن عذاب القبر ، اللهم جاف الأرض عن جنبيها ، وصعّد روحها ، ولقنها منك رضوانا »[2] .

---

(١) أخرجه عن أبى بكر بن أبي شيبة عن زيد بن الحباب عن موسى بن عبيدة عن سعيد بن أبي سعيد ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ٢ ، ص ١٤٤ .

الفصل الثانى

بعثة نوح عليه السلام فى أرض الرافدين

المبحث الأول

عصر قبيل بعثة نوح عليه السلام
ملامح الانحرافات التى أصابت المجتمع

في أعقاب تلك القرون العشرة الصالحة التي قامت حياة أهلها على الإسلام منذ عهدُ آدم وإلى قبيل ميلاد نوح عليه السلام حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الطاغوت والانحراف عن نظام الله وشرعه ، والكفر باليوم الآخر .

وعبادة الطاغوت يلمحها الباحث في التوجه بالعبادة إلى ودّ وسواع ، ويغوث ويعوق ونسر . وهؤلاء كانوا رجالا مسلمين صالحين في المجتمع الإسلامي ، وكان لهم أتباع يرون فيهم القدوة والأسوة والمثل الأعلى التي سمعوها ورأوها فيمن قبلهم ، فلما مات هؤلاء ، قال أصحابهم الذين كانوا يرون فيهم القدوة : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروا لهم صورا ، فلما ماتوا وجاء آخرون ، دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدون ، وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم[1] .

وهكذا استطاع الشيطان ، أن يجتال ذلك الجيل الأخير من القرون الصالحة ، وذلك

---

(١) رواه البخارى من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى · ﴿ **وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسرا** ﴾ . قال · هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت (البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ١٠٥ ، تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٤٢٦ – ٤٢٧) .

لغفلتهم وعدم يقظتهم ، ونسيانهم لعهدهم مع ربهم ومع أبيهم آدم عليه السلام .

ولم يقف أمر هذا الجيل عند هذا الانحراف من عبادة الطاغوت ممثلة في الصور والتماثيل ، إنما تعداه إلى جنبات الحياة كلها .

هذه هي صورة ذلك الجيل الذى مكن الله سبحانه وتعالى له في الأرض بعد آدم عليه السلام تمكينا ماديا ، وضرب بسهم وافر في مجال التقدم العلمي ، في مجال الفلك ، والطب ، وصناعة المراكب ، ولكن مع التقدم العلمي كانت هنالك ارتكاسة فكرية في مجال الإيمان بالله واليوم الآخر . لقد كفروا بالله عز وجل ، واستكبروا عن قبول الحق ، والكبر يعزل الإنسان عن رحمة ربه وهدايته ، يصور هذه الحقيقة قول الله عز وجل عن القوم الذين بعث فيهم نوح عليه السلام : ﴿ **وأصروا واستكبروا استكبارا** ﴾[1]. وقد رأينا فيما سبق كيف طرد الله إبليس من الجنة من أجل الكبر .

ومن ملامح الانحرافات التي أصابت ذلك المجتمع :

* **رفض إخضاع الحياة لنظام الله وشرعه** ، والإعراض بل والتصدى لكل دعوة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . ومن أساليب التصدى :

ـــ تشويه سمعة الداعية ، تماما كما فعلوا مع نبيهم نوح عليه السلام ، لقد اتهموه بالضلالة : ﴿ **إنّا لنراك في ضلال مبين** ﴾[2] . واتهموه بالكذب : ﴿ **بل نظنكم كاذبين** ﴾ . وقالوا : إنه بشر ، ولا يجوز في عرفهم لبشر أن يحمل رسالة السماء : ﴿ **ما نراكَ إلّا بشرا مثلنا** ﴾[3] .

وزعموا أن الذين اتبعوه هم الفقراء ، وفي تصورهم أن دعوة أتباعها هم الفقراء ، لا تستوعب علية القوم :

﴿ **وما نراك اتبعك إلّا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾[4] .

ـــ واتهموه بالجنون : ﴿ **إنْ هو إلّا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين** ﴾[5] .

---

(١) نوح : ٧ . (٢) الأعراف : ٦٠ . (٣) هود : ٢٧ .
(٤) هود ٢٧ . (٥) المؤمنون : ٢٥ .

* ووصل الأمر بالجاهلية إلى حد التآمر على حياة الدعاة ، تماما كما فعلوا مع نبيهم نوح عليه السلام ، إذ هددوه بالقتل : ﴿ **قالوا : لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين** ﴾ [1] .

لقد تفشى الشرك بالله في حياة المجتمع ، ورفض الناس إخضاع الحياة لنظام الله وشرعه ، فعاقبهم الله بالتضييق في الأرزاق . إن الله سبحانه وتعالى قد ضيق عليه في الأرزاق إمضاء لسنة ربانية : ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا** ﴾[2] .

﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا** ﴾[3] .

* التواصي بالكفر بالله ، والتواصي بالفجور ، أى يوصي بعضهم بعضا بالانحراف عن نظام الله وشرعه : ﴿ **إنك إن تذرهم يُضِلُّوا عبادك ولا يلدوا إلّا فَاجِراً كفارا** ﴾[4] .

أى أنهم يضعون الخطط لإضلال المجتمع ، ويدخل في ذلك ، إفساد مناهج التعليم ، لتربية المجتمع والأبناء على الانحراف عن دين الله .

إنهم بخططهم ، يزينون الفاحشة ويحضون عليها ، تماما كما يحدث في عالمنا المعاصر ، فالإذاعة المرئية والمسموعة والمقروءة حريصة على إشاعة الفاحشة في المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية .

إنَّهم يخططون ، لإضلال الناس ، ولتحقيق ذلك نراهم يكممون أفواه الدعاة ، ويطاردونهم ، ويحاصرونهم ، بل ويُخَوِّفون الناس من الدين والمتدينين ،بل ويربون الأطفال على السخرية من الدين والمتدينين ومن الإيمان وأهله : ﴿ **وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه** ﴾[5] . وهكذا نرى الأبناء منذ نعومة أظافرهم ينشأون على معصية الله عز وجل ، والفسق والفجور ، وعلى كراهية الدين والمتدينين .

ومن هنا يبدو الواجب الأول في رقاب المسلمين ، أن يسعوا إلى جهاد المشركين واستئصال شأفتهم ، إذا لم يسلموا لله رب العالمين ، لأن وجودهم ضرر وبلاء على بني آدم المسلمين ، إنهم يفسدون في الأرض ، إنهم يدمرون الأمم والشعوب .

ومن هنا نفهم دعوة نوح عليه السلام ، التي منها : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من**

---

(١) الشعراء : ١١٦ . (٢) طه : ١٢٤ . (٣) الطلاق : ٨ـ٩ .
(٤) نوح : ٢٧ (٥) هود : ٣٨ .

الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾[1] .

وهذا يَجْعَلُ التبعة ثقيلة في رقاب أصحاب الدعوات ، إن الكفران والضلال له دول تنافح عنه وتسعى لنشره ، وتخطط لسيطرته ، فما بال أصحاب هذا الدين ، لا يتحدون ، ولا يتجمعون والله يقول : **﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾**[2] .

عجيب أن ينشغل المسلمون بعضهم ببعض عن عدوهم ، إنه عدم الفهم ، إنه عدم الإدراك نتيجة ضعف العقيدة ، نتيجة عدم الفقه بأمر هذا الدين . ومن هنا كان أول أصلٍ من الأصول التى يجب على العبد تعلّمها معرفة العبد ربه .

* لقد كان المجتمع طبقيا ، بمعنى أن طبقة « الملأ » وهم أصحاب الجاه والمال والسلطان هم الذين يمسكون بناصية الأمور داخل المجتمع ، ويسخرون بقية الطبقات في خدمتهم ، بل وكانوا يطلقون على الطبقة الفقيرة لفظة « الأراذل » : **﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾**[3] .

هذه الطبقة اختلّت المعايير لديها ، فكانت تتصور أن أصحاب الجاه أفهم ، وأصحاب السلطان أعلم ، وبالتالى ـــ حسب معاييرهم المُختَلّة ـــ فإن الرسالة كان من الواجب أن تكون فيهم .

هذه الطبقة كانت حريصة ، كما هو الحال في الجاهليات المعاصرة ، على الوقوف في وجه دعوة الإسلام ، ومحاولة صد الناس عنها بكافة الطرق والوسائل ، مستخدمة في تلك كل الإمكانيات المتاحة لها .

وهي حريصة على المكر بالصف المسلم وتدبير المؤامرات للإيقاع به : **﴿ ومكروا مكرا كبارا ﴾**[4] . وهذا هو سمت الجاهلية المعاصرة .

هذه الطبقة تنظر إلى المؤمنين بازدراء : **﴿ ولا أقول للذين تزدرى أعينكم ﴾**[5] . وهو نفس موقف الجاهلية المعاصرة الماكرة من المؤمنين الموحدين ، تلفق التهم الكاذبة ، والقضايا ضد الصف المسلم ، وتقوم بإشاعة الأخبار الكاذبة عنهم ، لإثارة الجماهير ضدهم ، ولصدهم عن سبيل الله ، وصدق الله إذ يقول : **﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه**

---

(1) نوح . ٢٦ ـــ ٢٧ . (2) التوبة : ٣٦ . (3) هود : ٢٧ .
(4) نوح . ٢٢ . (5) هود : ٣١ .

الجبال ﴾[1] .

هذه الطبقة ، طبقة الملأ ، وسمها الله سبحانه وتعالى بالظلم : ﴿ **ولا تخاطبني في الذين ظلموا** ﴾[2] ، ﴿ **بعدا للقوم الظالمين** ﴾[3] . وما أكثر الظلمة في عالمنا المعاصر ، الذي يسمى زورا وبهتانا عصر الحريات ، وهو عصر تطارد فيه الكلمة ، الكلمة الطيبة فقط ، أما الكلمة الخبيثة فيعان أصحابها ، وتفتح لها الجرائد والمجلات صفحاتها ، بل ويسمح لها أن تعبر عن نفسها في الإذاعة المرئية والمسموعة ، بل وعبر مناهج التربية والتعليم ، التربية على الفاحشة وتعليم الخطيئة .

هذه الطبقة قد وصفها الله بالعمى : ﴿ **إنهم كانوا قوما عمين** ﴾[4] وما أكثر العمى الذين لهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، ولهم قلوب لا يفقهون بها فى عالمنا المعاصر ويتسلطون على دولاب الحياة ويمسكون بقياد البشرية ، هذه الطبقة قد وصفها الله عز وجل ، بالجهل ﴿ **ولكنى أراكم قوما تجهلون** ﴾[5] وما أكثر الجهلة ، وإن حملوا أعلى الدرجات العلمية ، الذين تُسند إليهم أمور الأمم وهذا دليل على قرب الساعة : « إذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة » قال : كيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » (رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة) .

هذه الطبقة التى ترفض إفراد الله وحده بالعبادة ، قد وصفها الله عز وجل بأنها كارهة للحق ﴿ **وأنتم لها كارهون** ﴾[6] وماأكثر الذين يكرهون الحق .

هذه الطبقة التى تتسلط على دولاب الحياة فى المجتمعات الجاهلة ، سمتها الإجرام : ﴿ **وأنا برىء مما تجرمون** ﴾[7] .

فكيف يسلم المسلمون الموحدون أصحاب الدعوة قيادهم وقياد البشرية لمثل هذه الطبقة ؟

وكانت هذه الطبقة طبقة الملأ حريصة على السخرية من الدعوة وصاحبها : ﴿ **وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه** ﴾[8] .

---

(1) إبراهيم : ٤٦ . (2) هود ٠ ٣٧ . (3) هود : ٤٤ .
(4) الأعراف : ٦٤ (5) هود : ٢٩ . (6) هود : ٢٨
(7) هود : ٣٥ . (8) هود : ٣٨ .

ومن ملامح تلك الانحرافات أيضا التي قامت نتيجة انحراف الناس عن الإسلام ، أن ذلك الجيل لم يكن يطق سماع كلمة « لا إله إلا الله » ، يصور هذه الحقيقة قول الله تعالى عن قوم نوح عليه السلام ، وهو يدعوهم إلى إفراد الله وحده بالعبادة : ﴿ **رب إني دعوت قومي ليلا** ونهارا . **فلم يزدهم دعائي إلا فرارا . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في** آذانهم ، **واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا** ﴾[1] .

والجاهلية الآن تتفنن في أساليب منع الناس عن سماع هذه الدعوة ، دعوة لا إله إلا الله خشية التأثر بها . ومن هنا قام التخطيط المنظم ، لتجريد مناهج التعليم ، وبرامج الإعلام وغيرها من القيام على قاعدة العقيدة ، بل وذهب الأمر إلى أبعد من ذلك حينما أقصيت المناهج الإسلامية ، ووضع بدلاً منها مناهج لا دينية .

وهكذا أدركنا أن التقدم المادى لا يعني بأية حال من الأحوال تقدما حضاريا ، لأنه افتقد السمت الذى يقوم عليه التقدم الحضارى ، وهي العقيدة الإسلامية التي تقوم على إفراد الله وحده بالعبادة .

في ظل هذه الظروف ، والمجتمع هكذا بعث نبي الله نوح عليه السلام ، ومن خلال بعثته نلمح أول رسول إلى أهل الأرض يحمل منهج الله لإعادة الناس إلى ربهم الحق ، ودينهم الحق : ﴿ **اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ .

---

(١) نوح : ٥ ـ ٧ .

المبحث الثانى

سيرة نوح عليه السلام

أبو البشر الثاني يدعو أهل الرافدين ومن حولها إلى الإسلام

﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليَّ ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[1] .

وهذا نموذج للدراسة والتأسي يسوقه الله تعالى لبني آدم ، الذين يريدون أن يعتسفوا الطريق ، ويختصروا المراحل ، ويستعجلوا قطف الثمرة قبل نضوجها ، بعد أن عيل صبرهم ، وفقدوا سيطرتهم على أنفسهم ، بسبب قلة إيمانهم ، هذا النموذج يعلمهم الصبر ويعلمهم كيف يبنون الإيمان الصحيح في قلوبهم وقلوب غيرهم .

هذا نموذج لرسول كريم من أولى العزم ، بعثه الله في خضم ردة شاملة عن دين الله ، بعد عشرة قرون من الحياة في ظل الإسلام ، فانطلق يؤدى واجب الدعوة بكل الوسائل لا يخشى في الله لومة لائم ، ولا يخشى تهديدا أو وعيدا . وثابر على ذلك ، على مدار ألف سنة إلا خمسين عاما ، وفي النهاية ﴿ **وما آمن معه إلّا قليل** ﴾[2] .

إلى من ينتسب نوح عليه السلام ؟ متى ولد ؟ كم قرن عاش ؟ متى بعث ؟ وإلى من ؟ وإلى أى دين دعا ؟ وما هي مصادر معلوماتنا عنه ؟ وما هي الدروس والمعالم التي

---

(١) يونس : ٧١ — ٧٢ « أى وأنا متمثل ماأمرت به من الإسلام لله عز وجل ، والإسلام هو دين الأنبياء جميعا من أولهم إلى آخرهم ، وإن تنوعت شرائعهم ، وتعددت مناهجهم ، كما قال تعالى : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** ﴾ » تفسير القرآن العظيم ج ٢ ، ص ٤٢٥

(٢) هود : ٤٠ .

ترسيها سيرته في حياة بني آدم ؟

ينتسب نوح عليه السلام إلى آدم أبي البشر . وكان بين آدم ونوح عشرة قرون [1] ، كلهم على الإسلام ، أى أن البشرية كانت مستسلمة لنظام الله وشرعه .

وقد بعث الله تعالى نوحا — كما قلنا — لما عبدت الأصنام والطواغيت ، وشرع الناس في الضلالة والكفر ، فبعثه الله رحمة للعباد ، فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة .

واختلفوا في مقدار سنه يوم بعث فقيل : كان ابن خمسين سنة . وقيل : ابن ثلاثمائة وخمسين سنة ، وقيل : ابن أربعمائة وثمانين سنة [2] .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى قصة نوح وما كان من قومه ، وما أنزل الله بمن كفر به من العذاب بالطوفان ، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة في غير ما موضع من كتابه العزيز :

في سورة القمر والأعراف وهود ويونس والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات ونوح .

كما ورد مضمون هذه السيرة « سيرة نوح عليه السلام » في مواضع متفرقة من القرآن والحديث والآثار ، في سورة النساء : ﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده** ﴾ . وسورة الأنعام وفي سورة إبراهيم : ﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب** ﴾ .

وفي سورة الإسراء : ﴿ **ذرية من حملنا مع نوح ، إنه كان عبدا شكورا** ﴾ .

---

(١) كما أورد ذلك الحافظ أبو حاتم ابن حبان فى صحيحه : « أن رجلا قال : يا رسول الله ، أنبي كان آدم ؟ قال : نعم مكلم قال : فكم بينه وبين نوح قال : عشرة قرون » وفي صحيح البخارى عن ابن عباس قال : « كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام » . فإذا كان المراد بالقرن مائة سنة ، فبينهما ألف سنة لا محالة . لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام ، إذ قد يكون بينهما قرون متأخرة لم يكونوا على الإسلام . وإذا كان المراد بالقرن . الجيل من الناس كما فى قوله تعالى : ﴿ **وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح** ﴾ . فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين والله أعلم . (البداية والنهاية ، ج ١ . ص ١٠١) .

(٢) البداية والنهاية ، ج ١ ص ١٠١ .

وفي سورة الأحزاب ، وسورة (ص) ، وسورة غافر ، وسورة الشورى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه** ﴾ .

وفى سورة (ق) ، والنجم : ﴿ **وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى** ﴾ . وفي الحديد ، والتحريم .

نوح عليه السلام في سورة الأعراف [1] :

﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ﴾ ...

« على سنة الله في إرسال كل رسول من قومه ، وبلسانهم ، تأليفا لقلوب الذين لم تفسد فطرتهم ، وتيسيرا على البشر في التفاهم والتعارف . وإن كان الذين فسدت فطرتهم يعجبون من هذه السنة ، ولا يستجيبون ، ويستكبرون أن يؤمنوا لبشر مثلهم ، ويطلبون أن تبلغهم الملائكة ، وإن هي إلّا تعلة . وما كانوا ليستجيبوا إلى الهدى مهما جاءهم من أى طريق .

﴿ **لقد أرسلنا نوحا إلى قومه** ﴾ فخاطبهم بتلك الكلمة الواحدة التى جاء بها كل رسول ﴿ **فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره** ﴾ .

فهي الكلمة التى لا تتبدل ، وهي قاعدة هذه العقيدة التى لا توجد إلا بها ، وهي عماد الحياة الإنسانية الذى لا تقوم على غيره ، وهى ضمان وحدة الوجهة ووحدة الهدف ووحدة الرباط . وهي الكفيل بتحرر البشر من العبودية للهوى ، والعبودية لأمثالهم من العبيد ، وبالاستعلاء على الشهوات كلها وعلى الوعد والوعيد »[2] .

« إنّ دين الله منهج للحياة ، قاعدته : أن يكون السلطان كله في حياة الناس كلها لله . وهذا هو معنى عبادة الله وحده ، ومعنى ألّا يكون للناس إلهٌ غيره ... والسلطان يتمثل في الاعتقاد بربوبيته لهذا الوجود وإنشائه وتدبيره بقدرة الله وقدره . وعلى نفس المستوى يتمثل فى الاعتقاد بربوبية الله في التقدم بشعائر العبادة له وحده ... كلها حزمة واحدة ...

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ فى ظلال القرآن ، ح ٣، ص ١٣٠٨ .

(٢) ظلال القرآن ج ٣ ص ١٣٠٨ .

غير قابلة للتجزئة ، وإلّا فهو الشرك ، وهو عبادة غير الله معه ، أو من دونه .

ولقد قال نوح لقومه هذه القولة الواحدة وأنذرهم عاقبة التكذيب بها في إشفاق الأخ الناصح لإخوانه ، وفي صدق الرائد الناصح لأهله :

﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ ...

وهنا نرى أن ديانة نوح ... كانت فيها عقيدة الآخرة . عقيدة الحساب والجزاء في يوم عظيم ، يخاف نوح على قومه ما ينتظرهم فيه من عذاب ... وهكذا تتبين مفارقة منهج الله وتقريره في شأن العقيدة ، ومناهج الخابطين في الظلام من « علماء الأديان » وأتباعهم الغافلين عن منهج القرآن » وكتاب التاريخ القديم الذين تبنوا منهجهم .

« فكيف كان استقبال المنحرفين الضالين من قوم نوح لهذه الدعوة الخالصة الواضحة المستقيمة ؟ [(١)] :

﴿ قال الملأ من قومه إنّا لنراك في ضلال مبين ﴾ .

كما قال مشركو العرب لمحمد ـ ﷺ ـ إنّه صبأ ، ورجع عن دين إبراهيم ! !

وهكذا يبلغ الضال من الضلال ، أن يحسب من يدعوه إلى الهُدى هو الضال !

بل هكذا يبلغ التبجح الوقح بعد ما يبلغ المسخ فى الفطرة ... هكذا تنقلب الموازين » وتبطل الضوابط ، ويحكم الهوى ، ما دام أن الميزان ليس هو ميزان الله الذى لا ينحرف ولا يميل .

ومادا تقول الجاهلية اليوم عن المهتدين بهدى الله ؟ إنّها تسميهم الضالين . وتَعِدُ من يهتدى منهم ، ويرجع بالرضى والقبول ... أحل من يهتدى إلى المستنقع الكريه ، وإلى الوحل الذى تتمرغ فيه الجاهلية !

وماذا تقول الحاهلية اليوم للفتاة التي لا تكشف عن لحمها ؟ وماذا تقول للفتى الذى يستقدر اللحم الرخيص ؟ إنّها تسمي ترفعهما هذا ونظافتهما وتطهرهما (رجعية)

---

(١) فى ظلال القرآن ح ٣ ص ١٣٠٩ .

وتخلفا وجمودا وريفية ! وتحاول الجاهلية بكل ما تملكه من وسائل التوجيه والإعلام أن تغرق ترفعهما ونظافتهما وتطهرهما في الوحل الذى تتمرغ فيه في المستنقع الكريه » [١] .

« وماذا تقول الجاهلية لمن ترتفع اهتماماته عن جنون مباريات الكرة ، وجنون الأفلام والسينما والتلفزيون وما إليه ، وجنون الرقص والحفلات الفارغة والملاهي ؟ إنَّها تقول عنه إنه : (جامد) . ومغلق على نفسه ، وتنقصه المرونة والثقافة ! وتحاول أن تجره إلى تفاهة من هذه ينفق فيها حياته ...

إن الجاهلية هي الجاهلية .... فلا تتغير إلَّا الأشكال والظروف !

وينفي نوح عن نفسه الضلال ، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها ، فهو لم يبتدعها من أوهامه وأهوائه . إنَّما هو رسول من رب العالمين . يحمل لهم الرسالة . ومعها النصح والأمانة . ويعلم من الله ما لا يعلمون ، وهو موصول به ، وهم عنه محجوبون :

﴿ قال ياقوم ليس بي ضلالة ولكنِّى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى ، وأنصح لكم ، وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

ونلمح هنا فجوة في السياق ... فكأنما عجبوا أن يختار الله رسولا من البشر ، من بينهم ، يُحَمِّلَهُ رسالة إلى قومه ، وأن يجد هذا الرسول فى نفسه علماً عن ربِّه لا يجده الآخرون ، الذين لم يُختاروا هذا الاختيار ... هذه الفجوة في السياق يدل عليها ما بعدها » [٢] .

﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون ﴾ .

« وما من عجب في هذا الاختيار . فهذا الكائن الإنساني شأنه كله عجب ... إنه يتعامل مع العوالم كلها ، ويتصل بربه بما ركب في طبيعته من نفخة من روحه ... فإذا اختار الله من بينهم رسوله ـــ والله أعلم حيث يجعل رسالته ـــ فإنَّما يتلقى هذا المختار عنه ، بما أودع في كيانه من إمكانية الاتصال به والتلقي عنه ، بذلك السر اللطيف الذى

---

(١) فى ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ١٣٠٨ .

(٢) فى ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ١٣٠٩ .

به معنى الإنسان ، والذى هو مناط التكريم العلوى لهذا الكائن العجيب التكوين .

ويكشف لهم نوح عن هدف الرسالة : ﴿ **لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون** ﴾ ...

فهو الإنذار لتحريك القلوب بمشاعر التقوى ليظفروا في النهاية برحمة الله .... ولاشيء وراء ذلك لنوح ، ولا مصلحة ، ولا هدف ، إلا هذا الهدف السامي النبيل ....

ولكن الفطرة حين تبلغ حدا معينا من الفساد ، لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر ، ولا ينفع معها الإنذار ولا التذكير »[1] .

﴿ **فكذبوه ، فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوما عمين** ﴾ ....

ولقد رأينا من عماهم عن الهدى والنصح المخلص والنذير ... فبعماهم هذا كذَّبوا ..... وبعماهم لاقوا هذا المصير [2] .

نوح عليه السلام في سورة هود [3] :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، إنى لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله** ﴾ فهذا هو قوام الرسالة ، وقوام الإنذار . ولماذا ؟

﴿ **إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين** ﴾ .

« الشبهات ذاتها والاتهامات ذاتها ، والكبرياء ذاته ، والاستقبال الغبى الجاهل المتعافي ! .

---

(١) فى ظلال القرآن ح ٣ ص ١٣٠٩ .

(٢) فى ظلال القرآن ح ٣ ص ١٣١٠ .

(٣) فى ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ١٨٧٢ .

إنها الشبهة التى وقرت فى نفوس جهال البشر . إن الجنس البشرى أصغر من حمل رسالة الله ، فإن تكن رسالة فليحملها مَلَكٌ أو مخلوق آخر ، وهى شبهة جاهلة ، مصدرها عدم الثقة فى هذا المخلوق الذى استخلفه الله في أرضه ، وهي وظيفة خطيرة ضخمة لابد أن يكون الخالق قد أودع في هذا الإنسان ما يكافئها من الاستعداد والطاقة ، وأودع في جنسه القدرة على أن يكون من بينه أفراد مهيأون لحمل الرسالة ، باختيار الله لهم .

وشبهة أخرى جاهلة كذلك ، هي أنه إذا كان يختار رسولا ، فلم لا يكون من بين هؤلاء الملأ الكبراء في قومهم ، المتسلطين المتعالين ، وهو جهل بالقيم الحقيقية لهذا المخلوق الإنساني والتي من أجلها استحق الخلافة في الأرض ، بعمومه ، واستحق حمل رسالة الله بخصوصية في المختارين من صفوته ، وهذه القيم لا علاقة لها بمال. أو جاه أو سلطان في الأرض ، إنما هي في صميم النفس ، واستعدادها للاتصال بالملأ الأعلى ، بما فيها من صفاء وتفتح وقدرة على التلقي ، واحتمال للأمانة وصبر على أدائها ومقدرة على إبلاغها إلى آخر صفات النبوة الكريمة ، وهي صفات لا علاقة لها بمال أو جاه أو استعلاء ؟ »[1] .

« ولكن الملأ من قوم نوح ، كالملأ من قوم كل نبى تعميهم مكانتهم الدنيوية عن رؤية هذه الخصائص العلوية ، فلا يدركون مبررا لاختصاص الرسل بالرسالة ، وهي في زعمهم لا تكون لبشر ، فإن كانت فهي لأمثالهم من الوجهاء العالين في الأرض : ﴿ **ما نراك إلا بشرا مثلنا** ﴾ هذه واحدة ... أما الأخرى فأدهى : ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ، بادى الرأى** ﴾ ! ! وهم يسمون الفقراء من الناس (أراذل) . كما ينظر الكبراء دائما إلى الآخرين الذين لم يؤتوا المال والسلطان ، وأولئك هم أتباع الرسل السابقون غالبا ، لأنهم بفطرتهم أقرب إلى الاستجابة للدعوة التي تحرر الناس من العبودية للكبراء . وتصل القلوب بإله واحد قاهر عال على الأعلياء . ولأن فطرتهم لم يفسدها البطر والترف ، ولم تعوقها المصالح والمظاهر عن الاستجابة ، ولأنهم لا يخافون من العقيدة في الله أن تضيع عليهم مكانة مسروقة لغفلة الجماهير واستعبادها للخرافات الوثنية في شتى صورها . وأول صور الوثنية الدينونة والعبودية والطاعة والاتباع للأشخاص الزائلة بدلا من الاتجاه بهذا كله لله وحده دون شريك ، فرسالات التوحيد هي حركات التحرير الحقيقية للبشر في كل طور وفي كل أرض ومن ثم كان يقاومها الطغاة ، ويصدون عنها الجماهير . ويحاولون تشويهها واتهام

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٤ ص ١٨٧٢ .

الدعاة إليها ببشريتهم للتشويش والتنفير : ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى** ﴾ أى دون تردد أو تفكير ... فإذا كان الأراذل يؤمنون فما يليق إذن بالكبراء أن يؤمنوا إيمان الأراذل ... ﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾ . يدمجون الداعي بمن تبعوه من الأراذل ، وما نرى لكم علينا من فضل يجعلكم أقرب إلى الهدى ، أو أعرف بالصواب . فلو كان معكم خير أو صواب لاهتدينا إليه ولم تسبقونا أنتم إليه . وهم يقيسون الأمور ذلك القياس الخاطىء : أى قياس الفضل بالمال . والفهم بالجاه . والمعرفة بالسلطان . فذو المال أفضل ، وذو الجاه أفهم ، وذو السلطان أعرف ، من هذه المفاهيم وتلك القيم التي تسود دائما حين تغيب عقيدة التوحيد عن المجتمع ، أو تضعف آثارها فترتد البشرية إلى عهود الجاهلية وإلى تقاليدها الوثنية في صورة من صورها الكثيرة ، وإن بدت في ثوب من الحضارة المادية قشيب [1] ، وهى انتكاسة للبشرية من غير شك ، لأنها تصغر من القيم التي صار بها الإنسان إنسانا . واستحق الخلافة في الأرض ، وتلقى الرسالة من السماء ، وترجع به إلى قيم أقرب إلى الحيوانية العضلية الفيزيقية . ﴿ **بل نظنكم كاذبين** ﴾ : هذا هو رد الطبقة المليئة الجيوب الفارغة القلوب » [2] .

ويتلقى نوح ــ عليه السلام ــ الاتهام والإعراض والاستنكار في سماحة النبي واستعلائه وفي ثقته بالحق الذي جاء به ، واطمئنانه إلى ربه الذى أرسله :

﴿ **قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . وياقوم لا أسألكم عليه مالاً إنْ أجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم ، ولكني أراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما في أنفسهم ، إنى إذاً لمن الظالمين** ﴾ .

« وعند هذا الحد كان الملأ من قوم نوح قد يئسوا من مناهضة الحجة بالحجة ، فإذا هم ــ على عادة طبقتهم ــ قد أخذتهم العزة بالإثم ، واستكبروا أن تغلبهم الحجة ، وأن

---

(١) في أمريكا وأوروبا اليوم والبلاد التي لا تأخذ الإسلام عقيدة وشريعة يقاس الرجل ويوزن برصيده في البنوك ، أو بمقدار ما لديه من أملاك ، أو بما لديه من درجات علمية .

(٢) في ظلال القرآن ج ٤ ص ١٨٧٢ ــ ١٨٧٣ .

يذعنوا للبرهان العقلي والفطري ، وإذا هم يتركون الجدل إلى التحدى :

﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا ، فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحي إنْ أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ، هو ربكم وإليه ترجعون . أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي ، وأنا برىء مما تجرمون ﴾ [1] .

ثم يمضي السياق في قصة نوح ، يعرض مشهدا ثانيا : مشهد نوح يتلقى وحى ربه وأمره : **﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا ، إنهم مغرقون ﴾** . فقد انتهى الإنذار ، وانتهت الدعوة ، وانتهى الجدل ، فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت » [2] ، أما البقية الباقية فليس فيها استعداد ولا اتجاه ، ولذلك قرر الله مصيرهم وانتهى الأمر فيهم **﴿ إنهم مغرقون ﴾** .

« نوح يصنع الفلك » :

﴿ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه . قال إنْ تسخروا منَّا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ .

« ثم مشهد البقية عندما حلت اللحظة المرتقبة : **﴿ حتى إذا جاء أمرُنا وفار التنور ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل . وقال اركبوا فيها ، بسم الله مجريها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم ﴾** .

ثم يأتي المشهد الهائل المرهوب ، مشهد الطوفان :

﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء . قال لا

---

(١) هود : ٣٢ — ٣٥ .

(٢) فى ظلال القرآن ص ١٨٧٥ — ١٨٧٦ .

عاصم اليوم من أمر الله إلّا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ .

وفي لحظة تتغير صفحة المشهد ، فها هو ذا الموج العامر يبتلع كل شيء :

﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ .

وتهدأ العاصفة ، ويخيم السكون ، ويقضى الأمر ، ويتمشى الاستقرار كذلك في الألفاظ وفي إيقاعها في النفس والأذن » (١) .

﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وَغيضَ الماءُ ، وقُضِيَ الأمْرُ ، واستوت على الجودي ، وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ . وبعدا لهم عن الحياة فقد ذهبوا ، وبعدا لهم عن رحمة الله فقد انتهوا ، وما عادوا يستحقون ذكرا ولا ذكرى .

﴿ ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، وإلّا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين . قيل يانوح ، اهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم . تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .

نوح عليه السلام في سورة إبراهيم (٢) :

مواقف متشابهة للجاهلية من دعوة نوح ــ عليه السلام ــ وغيره من الرسل :

﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أى بالحجج الواضحات **﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾** أى وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيبا ، **﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم**

---

(١) في ظلال القرآن ح ٤ ص ١٨٧٧ ــ ص ١٨٧٩ .

(٢) ٩ ــ ١٧ ؛ تفسير القرآن العظيم ، ح ٢ ، ص ٥٢٤ ؛ صفوة التفاسير ، ح ٢ ، ص ٩٢ ــ ٩٣

به ﴾ أى كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به ﴿ **وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب** ﴾ أى في شك عظيم من دعوتكم ، وقلق واضطراب من دينكم ﴿ **قالت رسلهم أفي الله شك** ﴾ أى أجابهم الرسل بقولهم : أفي وجود الله ووحدانيته شك ؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ أى خالقها ومبدعها على غير مثال سابق ﴿ **يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم** ﴾ أى يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم ذنوبكم ﴿ **ويؤخركم إلى أجل مسمى** ﴾ أى إن آمنتم أمدّ في أعماركم إلى منتهى آجالكم ، ولم يعاقبكم في العاجل فيهلككم ، ﴿ **قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين** ﴾ حجة ظاهرة على صدقكم .

﴿ **قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا** ﴾ . قال ابن الجوزي : وإنَّما قص هذا وأمثاله على نبينا ﷺ ليقتدي بمن قبله في الصبر ، وليعلم ما جرى لهم ﴿ **وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾ وهنا يسفر الطغيان عن وجهه متبجحا بالقوة المادية التي يملكها المتجبرون :

﴿ **وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا ، أو لتعودن في ملتنا ، فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم** ﴾ أى ولأمنحنكم سكن أرضهم بعد هلاكهم ، ﴿ **ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد** ﴾ .

﴿ **واستفتحوا ، وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ، ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ** ﴾

نوح عليه السلام في سورة نوح [1] :

﴿ **إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون** ﴾ .

---

(١) ١ ـ ٢٨ ؛ تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٤٢٤ ـ ٤٢٨

وعبادة الله : تعني إخضاع الحياة لنظام الله الشامل وشرعه .

والتقوى : ترك المحارم واجتناب المآثم ، وهي الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على المنهج الرباني ، وتقوى الله تقتضي عدم التلفت هنا وهناك ، وعدم الاحتيال والالتواء في التنفيذ فتقوى الله هي منبع الخلق الفاضل الذى يراقب الإنسان فيه ربه بلا رياء وبلا تظاهر .

وطاعة الرسول : فيما أمر به ونهى عنه فما ينطق عن الهوى ، والمؤتمن المصطفى من الله لإبلاغ كل ما يريد الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ إبلاغه للحلق ، كما أنه النموذج السلوكي العملي للدعوة التي يدعوه إليها : ﴿ **يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر** ﴾ .

﴿**قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائي إلا فرارا** ﴾ . يخبر تعالى عن عبده ورسوله « نوح » ــ عليه السلام ــ أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ، ما لقي من قومه في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاما ، وهو لم يترك دعاءهم في ليل ولا نهار امتثالا لأمر الله وابتغاء طاعته . ﴿ **وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم** ﴾ أى سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه ، ﴿ **وأصروا واستكبروا استكبارا** ﴾ أى واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له .

﴿ **ثم إني دعوتهم جهارا . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا** ﴾ وهذا يؤكد ضرورة تنوع أساليب الدعوة .

﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** ﴾ أى إذا تبتم إلى الله وأطعتموه ، كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخللها بالأنهار الجارية بينها .

﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا** ﴾ أى لم لا تعظمون الله حق عظمته ، أى لا تخافون من بأسه ونقمته .

﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل**

الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾ [1] . وفي هذا شحذ اهتمام المدعو بتوجيه نظره إلى آيات الله في الكون ، والنفس ، وتقريب حقيقة البعث إلى الأفهام .

فالإنسان خلق من طين ثم يموت فيواري التراب . ويتحلل وتختلط ذراته بالأرض ، ثم يبعث فيخرج من الأرض مرة أخرى ، تماما كما توارى البذور في الأرض ، وينزل عليها الغيث فتهتز الأرض وتربو وتنبت من كل زوج بهيج .

﴿ قال نوح : رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ﴾ . أى إنهم عصوا نوحا وخالفوه وكذبوه ، واتبعوا من غفل عن أمر الله مشغلا بماله وولده الذى يعتبر استدراجا له لا إكراما ﴿ ومكروا مكرا كبارا ﴾ أى ومكر بهم الرؤساء مكرا عظيما متناهيا فى الكبر ، وذلك احتيالهم في الدين ، وصدهم الناس عنه ، وإغراؤهم وتحريضهم على أذية نوح — عليه السلام — ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ﴾ أى لا تتركوا عبادة الأوثان والأصنام وتعبدوا رب نوح : ﴿ ولا تذرن ودا ولا سواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾ أى ولا تتركوا على وجه الخصوص هذه الآلهة الخمسة ﴿ وقد أضلوا كثيرا ﴾ أى وقد أضل كبراؤهم خلقا وناسا كثيرين بما زينوا لهم من طرق الغواية والضلال ﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ﴾ .

وهذا يعكس لنا دور القيادات الجاهلية المضللة التي لا تكتفي بالتلويح بالدنيا لصرف الناس عن عبادة ربهم ، ولكنها تقوم أيضا بتزيين الكفر والضلال للناس .

﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا . وقال

---

(١) من الواضح هنا أن نوحا عليه السلام قد وجه نظر المدعوين إلى آيات الله في النفس : ﴿ مالكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا ﴾ (وهي تعكس دراية ما نسميه بعلم الأجنة « نطفة ثم علقة ثم مضغة ») . كما أنه وجّه نظر المدعوين إلى آيات الله في الكون : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾ (وهى تعكس لنا دراية بعلم الفلك) .

وهذا يعكس لنا أن قوم نوح عاشوا في عصر بلغ التقدم العلمي مداه ، من الناحية الطبية والفلكية ... هذا العصر الذى بلغ التقدم العلمي مداه في مجال العلوم الطبيعية والتشريحية والفلكية ، وضعه المستشرقون ومن سار على نهجهم فيما يسمى بالعصور الحجرية التي كان الإنسان يعيش أثناءها معيشة بدائية لا تكاد تختلف عن معيشة الحيوان !

نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا[1] **. رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾ .**

نوح في سورة الشعراء[2] :

﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين** ﴾ . وإنما قال « المرسلين » ، لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل . ﴿ **إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين** ﴾ أى إني لكم ناصح أمين في نصحي ، لا أخون ولا أكذب .... ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون . قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** ﴾ أى السفلة والفقراء والضعفاء . ﴿ **قال وما علمي بما كانوا يعملون** ﴾ أى ليس علي أن أبحث عن خفايا ضمائرهم ، وأن أنقب عن أعمالهم ، هل اتبعوني إلا إخلاصا . ﴿ **إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن إنا إلا نذير مبين . قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين** ﴾ أى خوفوه بالقتل بالحجارة . ﴿ **قال رب إن قومي كذبون . فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين . فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ أى الغالب الذي لا يقهر .

نوح في سورة المؤمنون[3] :

الله سبحانه وتعالى يقص على النبي ـــ ﷺ ـــ خبر نوح عليه السلام ليتأسى به في صبره ، وليعلم أن الرسل قبله قد كذبوا .

---

(١) ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** ﴾ . أى يربونهم بعد ولادتهم حنفاء ، على الكفر والفجور . وهو ما يفعله الكثير من بني آدم في عصرنا الحديث فالناس ينفقون أموالهم ليضلوا عن سبيل الله بالإذاعة المرئية والمسموعة والمقروءة .. يتعلم فيها الإنسان كيف تهرب البنت من بيت أبيها والابن من أبيه . يتعلم فيها الإنسان السطو على الأعراض .. كيف يسرق كيف يختلس الولد الفرصة ليحادث صديقته على التليفون .. إلخ ﴿ **ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** ﴾

(٢) تفسير القرآن العظيم ، حـ ٣ ، صفحة ٣٤٠ ـــ ٣٤١ ، وصفوة التفاسير ، حـ ٢ ، صفحة ٢٨٧ ، الآيات ١٠٥ ـــ ١٢٢

(٣) تفسير القرآن العظيم ، حـ ٣ ، ص ٣٤٣ ـــ ٢٤٤ ، صفوة التفاسير ، جـ ٢ ، ص ٣٠٧ ، الآيات ٢٣ ـــ ٣١ المؤمنون

﴿ **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . فقال الملأ الذين كفروا من قومه** ﴾ أى أشراف القوم ورؤساؤهم الممعنون في الكفر والضلال . ﴿ **ما هذا إلا بشر مثلكم ، يريد أن يتفضل عليكم** ﴾ أى يريد أن يطلب الشرف والرياسة عليكم بدعواه النبوة لتكونوا له أتباعا . ﴿ **ولو شاء الله لأنزل ملائكة ، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين . إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين** ﴾ أى انتظروا واصبروا عليه حتى يموت . ﴿ **قال رب انصرني بما كذبون . فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا** ﴾ أى بمرأى منا وبحفظنا . وهذا يبين لنا أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ قد علم نوح عليه السلام صناعة السفينة التى كانت تجري بهم في موج كالجبال . وهذا دليل على التقدم المادي الذى كان عليه القوم فى ذلك الوقت ، وأنها أصبحت وسيلة من وسائل النقل الهامة في ذلك الزمن السحيق .

﴿ **فإذا جاء أمرنا وفار التنور ، فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون . فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين . إن في ذلك لآيات وإنْ كنا لمبتلين . ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين** ﴾

المبحث الثالث

نوح عليه السلام إمام المسلمين

على أرض الرافدين وما حولها

لقد أسفرت حادثة الطوفان عن هلاك جميع الكافرين ؛ وقيام المجتمع المسلم المتحضر ، الذي يعبد الله وحده ، ويخضع حياته لنظام الله وشرعه على أرض الرافدين والبلاد المحيطة بها . ولعل ذلك كان في الفترة التي أطلق عليها المستشرقون « عصر ما قبل الأسرات السومرية »[1] (أى قبل ٣٢٠٠ ق . م ؟؟) ، والدليل على هذا الافتراض ، تقدمه النصوص السومرية القديمة التي يذكر مدونوها من العصر السومري : « نحن أبناء الناجين من الطوفان »[2] .

وحيما نقول المجتمع المسلم المتحضر ، فذلك يعني أنه المجتمع المتقدم في المجالات المادية المنضبطة بضوابط العقيدة والشريعة الإسلامية .

لقد كان المجتمع متقدما في مجالات الطب ، والفلك ، وصناعة السفن ، وركوب متن البحار ، ومعرفة دروب الأرض ومسالكها ، هذا التقدم كان يستخدم في خدمة دين الله عزوجل ، وفي خدمة المسلمين الموحدين .

ومع إخضاع الحياة لنظام الله وشرعه ، اختفت الطبقية ، وأصبحت التقوى هي معيار المفاضلة بين الناس ، وأصبحت العقيدة هي الرابطة التي يجتمع الناس على أساسها ،

---

(١) أو عصور ما قبل التاريخ (حسب تسمية المستشرقين ومن سار على نهجهم) وقد عثر على آثار ذلك العصر كما يقولون في حرمو ، وتل حسونة ، وتل حلف ، وتل العبيد ، والوركاء

(٢) وذلك يعنى أهل سومر قد عاشوا فترة على الإسلام ، قبل أن يجتالهم الشيطان عن دينهم . والدليل على ذلك تقدمه لنا النصوص السومرية القديمة ، متمثلة في رواسب خط التوحيد .

لأن الدولة الإسلامية دولة عقدية ، دينها الإسلام ، يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر فيها قاعدة تقوم عليها حياة الناس ، وكان إمام المسلمين في ذلك الوقت هو نوح عليه السلام ، ومن هذه البقعة المباركة ، انطلق المسلمون في أرجاء الأرض مأذونا لهم بتعميرها ونشر الإسلام فيها ، وإقامة حكم الله عليها . فذهب سام إلى جزيرة العرب ، ليضع نواة المجتمع المسلم ، وكذلك فعل حام في أفريقية ، ويافث في أوروبا ، لأنهم تعلموا أن إقامة دين الله فى الأرض كلها واجب فى رقابهم .

وصية نوح عند وفاته :

إن نبي الله نوح عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه :« إني قاص عليك الوصية آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنين . آمرك بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله . ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة وضمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده ، فإن بها صلات كل شيء وبها يرزق الخلق وأنهاك عن الشرك والكبر »(١) .

وقد مكث نوح في قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاما . ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك فإن كان ما ذكر عن ابن عباس محفوظا من أنه بعث وله أربعمائة وثمانون سنة وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة .

وأما قبره عليه السلام فروى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلا أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام (٢) ومع مرور الزمن وبعد وفاة نوح عليه السلام بزمن لا يعلمه إلا الله ، وهلاك الأجيال المسلمة ، استطاع الشيطان أن يحتال الكثيرين من بقايا ذرارى المسلمين عن دينهم ، فتفشت الانحرافات ، واندثرت تقريبا ملامح المجتمع المسلم أو كادت (٣) .

---

(١) سفه الحق وغمط الناس . رواه أحمد ، البداية والنهاية ، جـ ١ ، ١١٩ .

(٢) وهذا الخبر يخالف أصلا من الأصول الإسلامية وهى أن الله سبحانه وتعالى نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد ، ولعن اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا قبور الأنبياء مساجد ، ولله المثل الأعلى ، وهذا الخبر لم يثبت ، وإلا لو صح لكان لرسول الله موقفاً من هذه المسألة .

(٣) وهى الفترة التى يطلق عليها عصر بداية الأسرات السومرى (٣٢٠٠ ق . م؟؟) .

المبحث الرابع

معالم ترسيها سيرة نوح عليه السلام في حياة بني آدم

إن الدين عند الله الإسلام وهو ليس من اختراع العقل البشرى :

« إن قوم نوح هؤلاء .... هم ذرية آدم .... وآدم — كما ورد في سورة الأعراف — قد هبط إلى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها وهي المهمة التي خلقه الله لها وزوده بالكفايات والاستعدادات اللازمة [1] لها . بعد أن علمه ربه كيف يتوب من الزلة التي زلها ، وكيف أخذ عليه ربه العهد والميثاق هو وزوجه وبنيه أن يتبع ما يأتيه من هدى الله ولا يتبع الشيطان وهو عدوه وعدو بنيه إلى يوم الدين .

وإذن فقد هبط آدم إلى الأرض مستسلما لله رب العالمين ... ولا شك أنه علم بنيه الإسلام جيلا بعد جيل ، وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض ، وحيث لم تكن معها عقيدة أخرى ! فإذا نحن رأينا قوم نوح — وهم ذرية آدم بعد أجيال لا يعلم عددها إلا الله — قد صاروا إلى هذه الجاهلية التي وصفتها قصة نوح في سورة هود ـ فلنا أن نجزم أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافاتها وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعا ، وأنها انحرفت عن الإسلام بفعل الشيطان المسلط على بني آدم ، وبفعل الثغرات الطبيعية في النفس البشرية تلك الثغرات التي ينفذ منها عدو الله وعدو الناس كلما تراخوا عن الاستمساك بهدي الله ، واتباعه وحده وعدم اتباع غيره معه في كبيرة ولا صغيرة ... ولقد خلق الله الإنسان ومنحه قدرا من الاختيار ـ هو مناط

---

(١) نظرا لأن طريقة وأسلوب عرض الأحداث التاريخية يشكل جزءا من المنهج الإسلامي لكتابة التاريخ ، حتى يمكن للحدث التاريخي أن يؤدى دوره فى تربية الفرد المسلم ، فقد نقلنا هنا وفى مواضع أخرى نقولا بكاملها من « فى ظلال القرآن » لسيد قطب رحمه الله لأنه ليس بإمكاننا أن نعرضها كما عرضها ذلك الكاتب الإسلامى لكى تؤدى الدور المنوط بها .

_الابتلاء ـــ وبهذا القدر يملك أن يستمسك بهدى الله وحده ، فلا يكون لعدوه من سلطان كما يملك أن ينحرف ـــ ولو قيد شعره ـــ عن هدي لله إلى تعاليم غيره ، فيجتاله الشيطان حتى يقذف به ـــ بعد أشواط ـــ إلى مثل تلك الجاهلية الكالحة التى انتهت إليها ذراري آدم ـــ النبي المسلم ـــ بعد تلك الأجيال التى لا يعلمها إلا الله .

وهذه الحقيقة ـــ حقيقة أن أول عقيدة عرفت فى الأرض هى الإسلام القائم على توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده ـــ تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم « علماء الأديان المقارنة » وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طورا متأخرا من أطوار العقيدة ، سبقته أطوار شتى من التعدد والتثنية للآلهة ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح ، وتأليه الشمس والكواكب [1] ، إلى آخر ما تخبط فيه هذه البحوث التى تقوم ابتداء على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة ، يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحى الإلهى والرسالات التي من عند الله ، وإثبات أن الأديان من صنع البشر وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان .

وينزلق بعض من يكتبون عن الإسلام مدافعين ، فيتابعون تلك النظريات التى يقررها الباحثون في تاريخ الأديان ـــ وفق ذلك المنهج الموجه ! ـــ من حيث لا يشعرون ، وبينما هم يدافعون عن الإسلام متحمسين يحطمون أصل الاعتقاد الإسلامي الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم حين يقرر أن آدم ـــ عليه السلام ـــ هبط إلى الأرض بعقيدة الإسلام وأن نوحا [2] ـــ عليه السلام ـــ واجه ذرارى آدم الذين اجتالهم الشيطان عن الإسلام إلى الجاهلية الوثنية بذلك الإسلام نفسه القائم على التوحيد المطلق ... وأن الدورة تجددت بعد نوح فخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية ، وأن الرسل جميعا أرسلوا بعد ذلك بالإسلام ، القائم على التوحيد المطلق .... وأنه لم يكن قط تطور في العقيدة السماوية فى أصل الاعتقاد ، إنما كان الترقي والتركيب والتوسع في الشرائع المصاحبة للعقيدة الواحدة ،

---

(١) ديانة مصر القديمة تأليف أدولف أرمان ، وترجمة محمد أنور شكرى ومحمد عبد المنعم أبو بكر ، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة ، تأليف ج . هـ . برستد وترجمة زكى سوس ؛ حضارة مصر والشرق القديم ، تأليف إبراهيم رزقانة وآخرين .

(٢) ونوح هو أول رسول إلى الأرض . ويؤكد ذلك ما ورد فى الصحيحين من حديث الشفاعة ما قاله النبى ﷺ : « يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد .. فيأتون نوحاً عليه السلام فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض » أى أنه أول من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه .

وأن ملاحظة ذلك التطور في العقائد الجاهلية لا يدل على أن الناس صاروا إلى التوحيد بناء على تطور في أصل العقيدة . إنما يدل على أن عقيدة التوحيد على يد كل رسول كانت تترك رواسب فى الأجيال التالية حتى بعد انجراف الأجيال عنها ، ترقي عقائدهم الجاهلية ذاتها ، حتى تصير أقرب إلى أصل التوحيد الرباني ، أما عقيدة التوحيد ذاتها فهي أقدم في تاريخ البشرية من العقائد الوثنية جميعا ! وقد وجدت هكذا كاملة منذ وجدت لأنها ليست نابعة من أفكار البشر ومعلوماتهم المترقية ، إنما هي آتية لهم من عند الله سبحانه ، فهي حق منذ اللحظة الأولى ، وهي كاملة منذ اللحظة الأولى .

هذا ما يقرره القرآن الكريم ، ويقوم عليه التصور الإسلامي . فلا مجال ـــ إذن ـــ لباحث مسلم وبخاصة إذا كان يدافع عن الإسلام ! ـــ أن يعدل عن هذا الذى يقرره القرآن الكريم فى وضوح حاسم ، إلى شيء مما تتخبط فيه نظريات علم الأديان المقارنة . تلك النظريات النابعة من منهج موجه كما أسلفنا » ويضيف سيد قطب :

« ومع أننا هنا ـــ فى ظلال القرآن ـــ لا نناقش الأخطاء والمزالق في الكتابات التى تكتب عن الإسلام ـــ إذ أن مجال هذه المناقشة بحث آخر مستقل ـــ ولكننا نلم بنموذج واحد نعرضه فى مواجهة المنهج القرآني والتقريرات القرآنية في هذه القضية :

كتب الأستاذ العقاد فى كتابه : « الله » فى فصل « أصل العقيدة » :

« ترقى الإنسان فى العقائد ، كما ترقى فى العلوم والصناعات فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى . وكذلك كانت علومه وصناعاته فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الديانات والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة فى واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة فى الأخرى [1] .

وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة ، وهى أظهر ما تراه العيون ، وتحسه الأبدان ، ولبثوا إلى زمن قريب يقولون بدورانها حول الأرض ، ويفسرون حركاتها وعوارضها كما تفسر الألغاز والأحلام . ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس لأن العقول كانت فى ظلام من أمرها فوق ظلام . ولعلها لا تزال .

---

(١) عباس محمود العقاد ، الله ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ١٩٧٢ ، وغالبا قد تأثر العقاد فى ذلك بكتاب منهج مقارنة الأديان ، وكتابات التاريخ القديم

فالرجوع إلى أصول الأديان فى عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين ، ولا على أنها تبحث عن محال وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تنجلى للناس كاملة شاملة فى عصر واحد ، وأن الناس يستعدون لعرفانها عصرا بعد عصر ، وطورابعد طور ، وأسلوبا بعد أسلوب ، كما يستعدون لعرفان الحقائق الصغرى ، بل على نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التى يحيط بها العقل ويتناولها الحس والعيان .

وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التى آمن بها الإنسان الأول ، ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية ، أو بين أمم الحضارة العريقة ، ولم يكن من المتصور أن يسفر هذا العلم عن شيء غير ذلك ولا أن تكون الديانات الأولى على غير ما كانت عليه من الضلالة والجهالة فهذه هى وحدها النتيحة التى لا يترقب العقل نتيجة غيرها ، وليس فى هذه النتيجة جديد يستغربه العلماء ، أو يبنون عليه جديدا فى الحكم على جوهر الدين ، فإن العالم الذى يخطر له أن يبحث فى الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن شوائب السخف والغباء . إنما يبحث عن محال ... » كذلك كتب العقاد فى فصل « أطوار العقيدة الإلهية » [1] :

« يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب :

وهو دور التمييز والترجيح ودور الوحدانية .

ففى دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أربابا تعد بالعشرات ، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات ويوشك فى هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده ، أو تعويذة تنوب عن الرب فى الحضور ، وتقبل الصلوات أو القرابين .

وفى الدور الثانى وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها ، ويأخذ رب منها فى البروز والرجحان على سائرها ، إما لأنه رب القبيلة الكبرى التى تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة ، وتعتمد عليها فى شئون المعاش والدفاع ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعا مطلبا أعظم

---

(١) نفس المرجع السابق (ص ١٤ وما بعدها) إنما نستمر فى سرد هذه النظرية لكى يتأكد لنا أن هذا الخط هو الذى تبناه علماء التاريخ والآثار عند الحديث عن العقائد ، وهو الخط الذى رسمه لهم المشتغلون بمقارنة الأديان من المستشرقين وأعوانهم .

وألزم من سائر المطالب التى تحققها الأرباب المختلفة ، كأن يكون رب المطر والإقليم فى حاجة إليه ، أو رب الزوابع والرياح وهى موضع رجاء أو خشية يعلو على موضع الرجاء والخشية عن الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعبة .

وفى الدور الثالث تتوحد الأمة ، فتجتمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب فى كل إقليم من الأقاليم المتفرقة . ويحدث فى هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها . ويحدث أيضا أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها ، مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع ، والحاشية للملك المطاع .

ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية[1] الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ، ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التى كانت شائعة فى عقول الهمج وقبائل الجاهلية ، فتصف الله بما هو أقرب إلى الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة فى أطوارها السابقة . وتقترن العبادة بالتفكير فى أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وكلمته العالية ، وكثيرا ما ينفرد الإله الأكبر فى هذه الأمم بالربوبية الحقة ، وتترك الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة والأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية » . ويُعلِّق سيد قطب على كلام العقاد :

« وواضح سواء من رأى الكاتب نفسه أو مما نقله ملخصا من آراء علماء الدين المقارن أن البشر هم الذين ينشئون عقائدهم بأنفسهم ، ومن ثم تظهر فيها أطوارهم العقلية والعلمية والحضارية والسياسية وأن التطور من التعدد إلى التثنية إلى التوحيد تطور زمنى مطرد على الإجمال[2] .

وهذا واضح من الجملة الأولى فى تقديم المؤلف لكتابه : « موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية منذ أن اتخذ الإنسان ربا ، إلى أن عرف الله الأحد ، واهتدى إلى نزاهة التوحيد » ص ١ .

---

(١) وهذا فهم خاطىء لحقيقة التوحيد . فكم من المجتمعات قد تحضرت الآن ولكنها ارتكست إلى درجة المجتمعات المشركة الكافرة .

(٢) وهو نفس الخط ونفس الفكر الذى يقول به علماء الآثار والتاريخ والناقلون عنهم بلا استثناء إلا من رحم ربى ناسين ما قاله محمد ﷺ ما معناه أنه « يكفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع » رواه مسلم .

والذى لا شك فيه أن الله سبحانه يقرر فى كتابه الكريم ، تقريرا واضحا جازما شيئا آخر غير ما يقرره صاحب كتاب « الله » وعلماء التاريخ والآثار وغيرهم متأثرين فيه بمنهج علماء الأديان المقارنة . وأن الذى يقرره الله ــ سبحانه ــ أن آدم وهو أول البشر عرف حقيقة التوحيد كاملة ، وعرف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشىء من التعدد والوثنية ، وعرف الدينونة لله وحده باتباع مايتلقى منه وحده ، وأنه عَرَّف بنيه بهذه العقيدة . فكانت هناك أجيال من أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام دينا وإلا التوحيد عقيدة [١].. وأنه لما طال الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد .. ربما إلى التثنية وربما إلى التعدد .. ودانت لشتى الأرباب الزائفة .. حتى جاءها نوح عليه السلام بالتوحيد من جديد ، وأن الذين بقوا على الجاهلية أغرقهم الطوفان جميعا ، ولم ينج إلا المسلمون الموحدون الذين يعرفون نزاهة التوحيد وينكرون التعدد والتثنية وسائر الأرباب والعبادات الجاهلية . ولنا أن نجزم أن أجيالا من ذرارى هؤلاء الناجين عاشت كذلك بالإسلام القائم على التوحيد المطلق ، قبل أن يطول عليهم الأمد ، ويعودوا إلى الانحراف عن التوحيد من جديد .. وأنه هكذا كان شأن كل رسول : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[٢] .

والذى لا شك فيه أن هذا الشىء ، والذى يقرر علماء الأديان المقارنة ويتابعهم فيه كتاب التاريخ القديم وعلماء الآثار وغيرهم وصاحب كتاب الله شىء آخر . وبينهما تقابل تام فى منهج النظر وفى النتائج التى انتهت إليها .. وآراء الباحثين فى تاريخ الأديان ليست سوى نظريات يعارض بعضها بعضا ، فهى ليست الكلمة النهائية حتى فى مباحث البشر الفانين .

وما من شك أنه حين يقرر الله ــ سبحانه ــ أمرا بينه كتابه الكريم هذا البيان الساطع ، ويقرر غيره أمرا آخر مغايرا له تمام المغايرة ، فإن قول الله يكون أولى بالاتباع ، وبخاصة ممن يدافعون عن الإسلام ، ويكتبون بقصد دفع الشبهات عنه وعن أصل الدين جملة .. وأن هذا الدين لا يخدم بنقض قاعدته الاعتقادية فى أن الدين جاء وحيا من عند

---

(١) ومنهم الشعوب التى عاشت على أرض الرافدين وعلى أرض وادى النيل . وسنقدم من النصوص المسمارية والمصرية القديمة ما يؤكد الحقيقة التى يعرضها هنا سيد قطب . .

(٢) الأنبياء : ٢٥ .

الله ، ولم يبتدعه البشر من عند أنفسهم ، وأنه جاء بالتوحيد منذ أقدم العصور ولم يجىء بغير التوحيد فى أية فترة من فترات التاريخ ، ولا فى أية رسالة . كما أنه لا يخدم بترك تقريراته إلى تقريرات علماء الأديان المقارنة وبخاصة حين يعلم أن هؤلاء إنما يعملون وفق منهج موجه لتدمير القاعدة الأساسية للدين كله وهى أنه وحى من عند الله ، وليس من وحى الفكر البشرى المترقى المتطور ! وليس وقفا على ترقى العقل البشرى فى العلم المادى والخبرة التجريبية .

ولعل هذه اللمحة المختصرة ــ التى لا نملك الاستطراد فيها فى كتاب الظلال ــ تكشف لنا عن مدى الخطورة فى تلقى مفهوماتنا الإسلامية ـ فى أى جانب من جوانبها ــ عن مصدر غير إسلامى . كما تكشف لنا عن مدى تغلغل مناهج الفكر الغربية ومقرراتها فى أذهان الذين يعيشون على هذه المناهج والمقررات ويستقون منها حتى وهم يتصدون لرد افتراءات على الإسلام من أعدائه ... ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾[1] »[2] .

ومن المعالم التى ترسيها سيرة نوح عليه السلام فى حياة بنى آدم :

* وجوب الدعوة إلى الله ، وهى أشرف الوظائف لأنها وظيفة الرسل عليهم السلام ومنهم نوح عليه السلام .

* الله أخذ العهد والميثاق على الرسل ومنهم نوح عليه السلام لإقامة دين الله وهو الإسلام في الأرض :

﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك من نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعد للكافرين عذابا أليما** ﴾[3] .

يقول الله تعالى مخبرا عن أولي العزم الخمسة وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهد والميثاق لإقامة دين الله تعالى وإبلاغ رسالاته والتعاون والتناصر والاتفاق . وقد صرح بذكر هؤلاء الخمسة في قوله تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا**

---

(١) الإسراء : ٩ .

(٢) فى ظلال القرآن .

(٣) الأحزاب ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٤١٩ .

إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ [1] .

وذلك يعني أن الدين وهو الإسلام الذى دعا إليه محمد ﷺ ، هو من الدين الذى وصى به الله جميع الأنبياء والمرسلين قبل محمد ﷺ .

* لله فى حياة الأمم سنن ، منها :

ـــ التمكين في الأرض للمؤمنين الموحدين ، كما تحقق لنوح والمؤمنين معه ﴿ **وأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين** ﴾ .

والتمكين قد يتأخر ، ولكن ذلك لا يعني أن الله سبحانه وتعالى قد عطل سنته ، أبدا ، ولكن كل شيء عنده له أجل ، فقوم نوح قد مكن الله لهم بعد ألف سنة إلا خمسين عاما من الدعوة الشاقة التي ارتبطت بمعاناة شديدة ، وتضحيات كبيرة ، وهنا درس لابد وأن يستوعبه أصحاب الدعوات ، وهو : أن الزمن حزء من العلاج ، فإذا طال الامتحان ، وطال الابتلاء فلا يعني ذلك أن الله قد تخلى عن جنده ، أو أن سنة الله ما عادت تعمل ، إنما كل شيء له وقت عند ربّه عز وجل ﴿ **وماتشاءون إلا أن يشاء الله** ﴾ .

والخلافة الإسلامية لم تسقط إلا منذ أقل من قرن من الزمان ، ورغم ذلك فإن طلائع البعث الإسلامي قد بدت بشائرها في كل مكان ، في أفريقية ، وأوروبا ، وآسيا ، وهي تتعرض الآن للابتلاء والتمحيص ، وبعدها يحدث التميز ، وبعد ذلك يأتي التمكين للمؤمنين ـــ إن شاء الله ـــ إمضاء لوعد الله وسنته ، وتنحية الكافرين عن موقع القيادة أيضا إمضاء لوعد الله وسنته .

وعلى أصحاب الدعوات أن يعيشوا مع دعوة نوح عليه السلام ، على مدار تسعمائة وخمسين عاما ، ليعلموا أنهم لم يزالوا في أول الطريق ، فيتعلموا الصبر والمصابرة ، والثبات والاستمرار فى إبلاغ دعوة الله عز وجل .

ـــ ومن سنن الله في الكون التدمير على الكافرين ، وتنحيتهم عن موقع القيادة ، كما حدث لقوم نوح من الكافرين : ﴿ **ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾[2] . ﴿ **ثم أغرقنا الآخرين** ﴾[3] . ﴿ **فنجيناه ومن معه في الفلك ، وجعلناهم خلائف ،**

---

(١) الشورى ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٠٨ ـــ ١٠٩ .

(٢) هود : ٣٧ . (٣) الصافات : ٨٢ .

وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ [(1)]. وهذا تهديد رهيب للكافرين وللمشركين الذين كفروا بالله ، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، والذين يعذبون المسلمين ويقتلونهم ويحرمونهم من أموالهم وديارهم . انتقام الله وعقابه لا شك قادم إذا لم يتوبوا إلى الله عز وجل .

وعلى الجانب المقابل فإن عبادة الله ، وتقوى الله ، وطاعة الله ورسوله تؤدى إلى مغفرة الذنوب ، والتوسيع في الأرزاق ، والبركة في العمر . ومن هنا وجه نوح عليه السلام نظر قومه إلى هذه الحقيقة بقوله : ﴿ **أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى** ﴾[(2)].

ولذلك حينما اجتاحت الضائقة الاقتصادية قوم نوح عليه السلام ، قدم لهم منهجا اصلاحيا يؤدى إلى حل مشاكلهم الاقتصادية . هذا المنهج يقوم على :

* التوجه بالعبادة لله وحده ، مع إعلان التوبة وطلب المغفرة منه ، ولقد عبر عن ذلك نوح عليه السلام بقوله : ﴿ **فقلت : استغفروا ربكم ، إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** ﴾[(3)].

ولقد فسر الحافظ ابن كثير هذه الآية بقوله : « أى إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم الأرض ، وأنبت لكم الزرع ، وأدر لكم الضرع : ﴿ **وأمدكم بأموال وبنين** ﴾ . أى أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخللها بالأنهار الجارية فيها »[(4)]. هذا هو منهج الأنبياء لإصلاح أحوال الأمم الاعتقادية والاقتصادية وهذا هو المخرج ، ولا مخرج سواه ، للذين قلت أرزاقهم ، وضاقت صدورهم .

* إنَّ الله سميع قريب مجيب ، فحينما دعا نوح ربه ، استجاب الله له :

﴿ **ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ، فنجيناه وأهله من الكرب العظيم** ﴾[(5)]. وذلك يعنى أنه إذا عز النصير ، واشتد التضييق على صاحب الدعوة ، عليه أن يتوجه إلى الله بطلب النصر وطلب العون والتأييد . إذا قلت الأرزاق وحُبس القطر لا مجال إلا التوجه بالدعاء إلى فاطر الأرض والسماء .

---

(1) يونس : ٧٣ (2) نوح : ٣ ـ ٤ . (3) نوح : ١٠ ـ ١٢ .
(4) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٤٢٥ . (5) الأنبياء : ٧٦ .

ولا عجب في ذلك فهو الذى يستغاث به ، ويستجار به ، وهو الذي يدعى ، وهو الذى يستنصر به . وهذا ما فعله نوح عليه السلام ، لقد دعا ربه : ﴿ **أني مغلوب فانتصر** ﴾[1] .

وكانت الاستجابة الفورية من رب العالمين : ﴿ **ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين** ﴾[2] . وهذا مافعله الغلام صاحب الدعوة فى حادثة أصحاب الأخدود ، لقد أحاط به جند الطغيان يريدون قتله ، فرفع يديه إلى رب العالمين الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، داعيا : « **اللهم اكفينهم بما شئت** » . **فتزلزل** الجبل وسقط كل من كان عليه ، ورجع الغلام إلى الملك الذى سأله عن مصير جنده فرد عليه قائلا : لقد كفانيهم الله بما شاء .

• التوجه بالشكر إلى الله عز وجل ، لأنه هو صاحب الفضل ، وهو صاحب النعمة ، وهو وحده القادر على أن ينجى الصف المسلم والجماعة المسلمة من كيد أعدائها ، ومن هنا يجب التوجه بالشكر إليه ، تماما كما فعل نوح عليه السلام : ﴿ **الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين** ﴾[3] .

إنّه معرفة الفضل لصاحبه ، إن نوحا والدين آمنوا معه كانوا قلة ، ولم يكونوا يملكون من مقومات القوة الظاهرة شيئا ، في مواجهة قوة الملأ المادية ، لم يكن لهم حول ولا طول . ومن هنا توجهوا يطلبون النصر من الله ، وحينما جاء النصر قدموا الشكر لواهب النصر ، إنّه رب العالمين .

والأمة المسلمة قد سلبت قوتها المادية الآن ، ولم يعد لها حول ولا قوة إلّا بالله ، ولكن ظل هنالك مصدر يمكن أن يعطيها القوة التي تحسم بها المعارك ، إنّه الله رب العالمين الذى يعطي الإيمان ، والذى به ترجح كفة المؤمنين الصادقين .

• إن الدعوة إلى الله يجب أن تكون هي الشغل الشاغل للجماعة المسلمة ، همها بالليل وهمها بالنهار ، لأنها السبيل الوحيد لإنهاء غربة الإسلام والمسلمين ، ولأنها الطريق الوحيد لإنهاء العدوان الواقع على دين الله وعباد الله ، وإقامة حكم الله فى الأرض حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله .

---

(١) القمر : ١٠ .　　(٢) الأنبياء : ٧٧ .　　(٣) المؤمنون : ٢٨ .

يتضح ذلك من الجهد الذى كان يبذله نوح عليه السلام : ﴿ **قال : رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا** ﴾ . ﴿ **ثم إني دعوتهم جهارا . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا** ﴾(١) وذلك على مدار ألف سنة إلّا خمسين عاما ، مستخدما في عرض قضية الإيمان كافة الوسائل المتاحة له في عصره ، بالترغيب تارة ، وبالترهيب تارة أخرى .

فها هو نوح عليه السلام يوجه نظر المدعوين إلى قصة الخلق في النفس البشرية : ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا** ﴾(٢) .

ويوجه النظر إلى خلق السموات والأرض : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا** ﴾(٣) ، ﴿ **والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا** ﴾(٤) . ألا يدل ذلك كله على وجود اللطيف الخبير وأنه هو الإله الحق الذى يطلب نبي الله نوح من قومه التوجه إليه بالعبادة .

إن نعمة الله وفضله تمثلت في نجاة ذرية نوح ــ عليه السلام ــ المسلمين واستخلافهم فى الأرض ﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾(٥) .

* أهمية البلاغ وأداء النصيحة ، ويعبر عن هذا المعنى قول ﴿ **أبلّغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾(٦) وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغا فصيحا ناصحا عالما بالله ، لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات ، كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله قال لأصحابه يوم عرفه وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا : « أيها الناس ، إنّكم مسؤولون عني ، فما أنتم قائلون ؟ » : قالوا : نشهد أنّك قد بلغت وأديت ونصحت . فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول : « اللهم اشهد ، اللهم اشهد »(٧) .

* أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمعروف الأكبر أن يعبد الله وحده ، وتكون شريعته حاكمة ، والمنكر الأكبر أن يعبد الطاغوت ، ويفرض قانونه ودستوره .

---

(١) نوح ٥ ــ ٩ (٢) نوح ١٣ ــ ١٤ . (٣) نوح ١٥ ــ ١٦ .
(٤) نوح ١٩ ــ ٢٠ . (٥) الصافات : ٧٧ (٦) الأعراف : ٦٢ .
(٧) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٢٢٣ .

ومن هنا نفهم دعوة نوح عليه السلام : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم إله غيره** ﴾[١] .

* المال والبنون فتنة ، ولا يجب أن تمنع الإنسان من أداء واجب الدعوة إلى الله ، مع ما يترتب على ذلك من تكاليف وتضحيات ورغم فتنتها فإنها يمكن أن تعين صاحبها في أداء واجب الدعوة إلى الله ، ويمكن أن تكون معوقا وعقبة في سبيل الدعوة إلى الله . وهذا الذى وقع لقوم نوح ، إن أموالهم وأبناءهم لم تزدهم من الله إلا بعدا ، وكان من الواجب أن تزيدهم من الله قربا : ﴿ **واتَّبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا** ﴾[٢] .

أى أنهم اتبعوا عبيد الدنيا ممن غفلوا عن أمر الله ، ومُتِّعوا بأموال وأولاد ، وهي في نفس الوقت استدراج وإنظار لا إكرام ، ...

لقد كان من الواجب على قوم نوح عليه السلام أن يوجهوا الأموال في الدعوة إلى دين الله ، وفي هداية الناس إلى الإسلام الذى لا صلاح للبشرية إلا به . كان من الواجب أن يوجهوا المال للمسح على قلوب الفقراء والمحتاجين ، ولكنهم لم يفعلوا ، تماما كما تفعل الجاهلية في عالمنا المعاصر ، إنَّها تنفق الأموال الطائلة على التقنية الحديثة لاستخدامها في تعذيب بني آدم ، وإهدار آدميتهم ، إنَّها تنفق الأموال الطائلة على أجهزة الترويع لتحصي على المسلمين أنفاسهم ، إنَّها تنفق الأموال الطائلة على أجهزة الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة لإفساد عقيدة المسلمين ، وصد الناس عن دين الإسلام ، حتى لا تكون كلمة الله هي العليا ، وهكذا نرى أن المال لم يزدهم من الله إلا بعدا ، ومن النار إلا قربا .

لقد كان من الواجب ، وقد أنعم عليهم الله بنعمة الأولاد ، أن يعدوهم ليكونوا جنودا مسلمين مجاهدين ، يعملون لنصرة الإسلام « دين الله » ، يعملون لنصرة المظلومين ، ولكنهم لم يفعلوا ، لقد ربوهم على كره الإسلام ، وحرب الإسلام والمسلمين . وهكذا نجد أن نعمة الأولاد لم تزدهم من الله إلا بعدا ، ومن النار إلا قربا .

* أهمية الثبات والتضحية والصبر :

﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إنَّ العاقبة للمتقين** ﴾[٣] .

---

(١) الأعراف : ٥٩ . (٢) نوح : ٢١ .

(٣) هود : ٤٩ .

أى أن خبر نوح مع قومه من الغيب ، ولم يكن في الإمكان أن نعرف عنها شيئا ، إلا عن طريق الوحي الذى نزل من عند الله بهذا الخبر على رسول الله محمد ﷺ ، ليقتدى ويتأسى : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾[1].

كان نوح أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي عوانة عن قتادة عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة ، قال : « فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبو الخلق خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا عند ربك حتي يريحنا من مكاننا هذا فيقول : لست هناكم . فيذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها . ولكن ائتوا نوحا أول رسول بعثه الله . قال : فيأتون نوحا ﷺ فيقول : لست هناكم . فيذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها . ولكن ائتوا إبراهيم ﷺ الذى اتخذه الله خليلا فيأتون إبراهيم ﷺ فيقول : لست هناكم . ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها . ولكن ائتوا موسى ﷺ الذى كلمه الله وأعطاه التوراة . قال : فيأتون موسى عليه السلام . فيقول : لست هناكم . وذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها . ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته . فيأتون عيسى روح الله وكلمته . فيقول : لست هناكم ، ولكن ائتوا محمد ﷺ عبدا قد غفر له ماتقدم من ذنبه و ما تأخر » . قال : قال رسول الله ﷺ : « فيأتونى . فأستأذن على ربى فيؤذن لى . فإذا أنا رأيته وقعت ساجدا . فَيَدَعَنِي ماشاء الله . فيقال : يامحمد ، ارفع رأسك قل تسمع . سل تعطه . اشفع تُشفع فأرفع رأسى فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ربى ثم أشفع ، فيحد لى حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة (قال : فلا أدرى فى الثالثة أو فى الرابعة قال) فأقول : يارب . مابقى فى النار إلا من حبسه القرآن أى وجب عليه الخلود »[2] .

إن نوحاً عليه السلام قد أنذر قومه الدَّجال : « وإنِّي أنذرتكم كما أنذر به نوح قومه » [3].

---

(١) الأنعام : ٩٠ .

(٢) رواه مسلم كتاب الإيمان : ٣٢٢ ، اللؤلؤ والمرجان ١ / ٤٩ ـــ ٥١ .

(٣) رواه البخارى ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ألا أحدثكم عن الدجال حديثا ما حدث به نبي قومه ، إنه أعور ، وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار ، والتي يقول عليها الجنة هي النار ، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه » البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١١٠ .

* يجب أن يتحلى الدعاة بالخلق الكريم ، وأن يحلموا ، ويصبروا ويتأسوا بالأنبياء عليهم السلام ، ومنهم نوح عليه السلام الذى رمي بالضلال ، فلم يجهل على قومه ، وإنما رد عليهم قائلا : ﴿ **يا قوم ليس بي ضلالة ولكنّى رسول من رب العالمين** ﴾ [1].

* الدين النصيحة ، ولذلك نجد أن كل رسول كان ينصح أمته ويبلغها رسالة ربها كاملة ، وهذا ما فعله نوح عليه السلام : ﴿ **أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون** ﴾ [2].

* إنّ تقوى الله تؤدى إلى نزول رحمة الله على المتقي : ﴿ **ولتتقوا ولعلكم ترحمون** ﴾[3] .

* ضرورة التوكّل على الله ، يوجهنا إلى ذلك قول نوح عليه السلام : ﴿ **فعلى الله توكلت** ﴾ [4].

* أهمية الإخلاص في الدعوة إلى الله ، نلمح هذه الحقيقة في كلمة نوح عليه السلام وهو يدعو قومه : ﴿ **فما سألتكم من أجر ، إن أجرى إلّا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾[5] .

* الجزاء من جنس العمل :

﴿ **مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا . فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا** ﴾ [6].

أى من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿ **أغرقوا فأدخلوا نارا** ﴾ أى نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار[7] .

وهذا تحذير للظالمين من غضب العزيز الجبار .

* الدعاء على الكافرين :

كما كان يفعل نوح عليه السلام ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** ﴾[8] .

* مصاحبة الأخيار المؤمنين :

---

(1) الأعراف . ٦١ . (2) الأعراف :٦٢ . (3) الأعراف ٦٣ .
(4) يونس : ٧١ . (5) يونس : ٧٢ . (6) نوح : ٢٥ .
(7) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٤٢٧ . (8) نوح . ٢٦ ــ ٢٧ .

. ومن هنا كان دعاء نوح عليه السلام : ﴿ **رب اغفر لي ولوالدى ولمن دخل بيتي مؤمنا** ﴾[1].

« لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي » رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

* ﴿ **ومكروا مكرا كبارا . وقالوا : لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً** ﴾[2] .

« وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله قال البخارى : حدثنا هشام عن ابن جريج ، وقال عطاء عن ابن عباس : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد : أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير آل ذى كلاع . وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح ـــ عليه السلام ـــ فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت »[3] .

* إن عبادة الله وتقواه ، أى ترك المحارم ، واجتناب المآثم وطاعته فيما أمر به ، والانتهاء عما نهى عنه ، وطاعة رسوله وتصديقه فيما أرسل به من عند ربه ، يؤدى إلى مغفرة الذنوب ، والمد فى الأعمار ، ورفع العذاب . يبين ذلك دعوة نوح لقومه : ﴿ **أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى** ﴾[4] . وقد ورد في الحديث « صلة الرحم تزيد فى العمر »[5] .

* إن الحق في نفسه صحيح ، سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل ، أم لم يتبعوه ، والحق الذى لا شك فيه أن اتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء ، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء ، وغالبا أن من يتبع الحق هم ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال الله تعالى : ﴿ **وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلَّا قال**

---

(١) نوح . ٢٨ .
(٢) نوح : ٢٢ ـــ ٢٣ .
(٣) تفسير القرآن العظيم حـ ٤ ، ص ٤٢٧ .
(٤) نوح : ٣ ـــ ٤ .
(٥) تفسير القران العظيم جـ ٤ ، ص ٤٢٤ .

مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾[1]. ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ **قال له فيما قال :** « أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم . فقال هرقل : هم أتباع الرسل »[2].

*** نوح نبي مسلم وإلى الإسلام دعا :**

﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه : ياقوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله ، وأمرت أن أكون أول المسلمين ﴾[3].

يقول الحافظ ابن كثير : أى وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل ، والإسلام هو دين الأنبياء جميعا من أولهم إلى آخرهم ، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم كما قال تعالى : **﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾**[4].

* الصراع بين الحق والباطل صراع عقدى بالدرجة الأولى ، **فهو** صراع بين الدعاة لإقامة دين الله فى الأرض « حتى لا تكون فتنة » وبين الذين لايريدون أن تستقيم الحياة على دين الله عز وجل . والدليل نلمحه فى سيرة نوح عليه السلام : **﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين ﴾**[5].

فهاهم القوم يرفضون دعوة الخير ، ويتهمون صاحبها بالضلال . ولم يقف الأمر عند اتهام الرسول الكريم بالضلال ولكن تعداه إلى اتهامه بالجنون : **﴿ إن هو إلا رجل به جنة ﴾**[6]، **﴿ وقالوا مجنون وازدجر ﴾**[7]، وكانوا يسخرون منه **﴿ وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾**[8] وتجاوز أهل الكفر حدهم وهددوا صاحب الدعوة بالقتل **﴿ لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين ﴾**[9].

---

(1) الزخرف : ٢٣ .
(2) تفسير القرآن العظيم ، حـ ٤ ، ص ٤٤٢
(3) يونس : ٧١ - ٧٢ .
(4) المائدة : ٤٨ .
(5) الأعراف : ٥٩ — ٦٠
(6) المؤمنون . ٢٥ .
(7) القمر : ٩ .
(8) هود : ٣٨
(9) الشعراء : ١١٦ .

والصراع سنة كونية : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** ﴾[1] ، ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع** ﴾[2] ... وأثناء الصراع يتميز الصادق من الكذوب ، ويتميز المؤمن الصادق من المنافق ، وأثناءه يصطفى الله الشهداء : ﴿ **الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾[3] ، ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾[4] .

أهداف الصراع مُقدرة : ﴿ **قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون** ﴾[5] .

ونتيجته معروفة : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾[6] .

والنصر قد يكون بالتمكين فى الأرض للمؤمنين ، والتدمير على الكافرين ﴿ **فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين** ﴾[7] .

إن نتيجة الصراع بين الحق والباطل مقدرة حتى فى جانبها المعنوى ، وإن هؤلاء كانوا يسخرون من المؤمنين فى الدنيا ، وسوف يأتى الوقت الذى يضحك فيه المؤمنون من المجرمين : ﴿ **إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون . هل ثوب الكفار ماكانوا يفعلون** ﴾[8] .

إن للملأ من القوم فى الجاهليات موقفا واحدا لم يتغير من « لا إله إلا الله » على مدار تاريخ البشرية ، إنهم يرفضون إفراد الله رب العالمين وحده بالعبادة ، إنهم لا يطيقون إخضاع الحياة لنظام الله وشرعه ، مثال ذلك قوم نوح عليه السلام ، وقوم إبراهيم ، وقوم هود وقوم صالح .

---

(1) البقرة ٢٥١ . (2) الحج : ٤٠ . (3) العنكبوت : ١ ـ ٣ .
(4) البقرة · ٢١٤ (5) التوبة · ٥٢ . (6) غافر : ٥١ .
(7) الأعراف : ٦٤ (8) المطففين ٢٩ ـ ٣٦ .

وهم لا يطيقون أن ترتفع راية لله فى الأرض ، لا يطيقون صوتا يرتفع بلا إله إلا الله .

إن الشرك بالله يقترن بالتضييق فى الأرزاق على المشركين ، ونزول عذاب الله : ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا** ﴾[1] .

﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرًا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً . أعد الله لهم عذابا شديداً** ﴾ [2] .

وهذه السنة الربانية فى حياة الأمم ، فى ضوئها يمكن لنا أن نُفسِّر حالة المعيشة الضنك التى تعيشها الشعوب فى غالب بقاع الأرض الآن .

* وفى هذا توجيه من رسول الله محمد ﷺ لأصحاب الدعوات من بعده : ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ﴾[3] كما صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى .

«إن سفينة نوح عليه السلام استوت بمن فيها على الجودى وهو جبل بالجزيرة . ويذكر الإمام الحافظ ابن كثير ، أن الله قد أبقى سفينة نوح ـ عليه السلام ـ على الجودى من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة »[4] .

وهنالك تفسير يقول : « إن نوع السفينة ، قد جعله الله للناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان » [5] .

أتباع نوح عليه السلام فى ميزان الله عز وجل ؛ من خلال سورة الشعراء :

قيل : إن الذين أسلموا مع نوح عليه السلام لله رب العالمين ، كانو قلّة ، تقول بعض الروايات : إنهم كانوا ثمانين نفسا معهم نساؤهم ورواية أخرى تقول : إنهم كانوا اثنين وسبعين نفسا ، وقيل : إنهم كانوا عشرة ، وقيل : إنما كان نوحا وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأةيام الذى انخزل وانعزل وسلل عن طريق النجاة[6] لقد كانوا قلة وهم حصيلة ألف سنة إلا خمسين عاما من الدعوة .

إن هذه القلة .. وهى ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل ، قد استحقت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون ، وأن يجرى لها ذلك الطوفان الذى يغمر كل

(١) طه : ١٢٤ .　(٢) الطلاق . ٨ ـ ٩ .　(٣) الأحقاف : ٣٥

(٤) تفسير القرآن العظيم ، حـ ٢ ، ص ٤٤٦ .　(٥) المصدر السابق ، حـ ٣ ، ص ٤٠٧

(٦) البداية والنهاية ،حـ ١ ، ص ١١١ ،١١٢ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٤٥

شيء وكل حي في المعمورة وقتها من الأرض ، وأن يجعل هذه القلة وحدها هي وارثة الأرض بعد ذلك ، وبذرة العمران فيها ، والاستخلاف من جديد ... وهذا أمر خطير .

إن طلائع البعث الإسلامى التى تواجه الجاهلية الشاملة فى الأرض كلها ، والتى تعانى الغربة فى هذه الجاهلية والوحشة ، كما تعاني الأذى والمطاردة والتعذيب والتنكيل ... إن هذه الطلائع ينبغي أن تقف طويلاً أمام هذا الأمر الخطير ، وأمام دلالته التى تستحق التدبر والتفكير [١] .

إن وجود الذرة المسلمة في الأرض شيء عظيم في ميزان الله ... شيء يستحق منه سبحانه أن يدمر الجاهلية وأرضها وعمرانها ومنشآتها وقواها ومدخراتها جميعاً ، كما يستحق منه ـــ سبحانه وتعالى ـــ أن يكلأ هذه البذرة ويرعاها حتى تسلم وتنجو وترث الأرض وتعمرها من جديد .

لقد كان نوح ـــ عليه السلام ـــ يصنع الفلك بأعين الله ووحيه ، كما قال تعالى : ﴿ **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبنى في الذين ظلموا ، إنهم مغرقون** ﴾[٢] .

وعندما لجأ نوح إلى ربه يعلن أنه مغلوب ويدعو ربه أن ينتصر له وقد غلب رسوله ... عندئذ أطلق الله القوى الكونية الهائلة لتكون في خدمة عبده المغلوب :

﴿ **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر** ﴾[٣].

وبينما كانت تلك القوى الكونية تزاول عملها على هذا المستوى الكوني الرائع المرهوب .. كان الله سبحانه بذاته العلية مع عبده المغلوب :

﴿ **وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر** ﴾[٤].

هذه الصورة الرائعة التى يجب أن تقف طلائع البعث الإسلامى في كل مكان وفي كل زمان أمامها حين تطاردها الجاهلية ، وحين تغلبها الجاهلية ..

إنها تستحق أن يسخر الله لها القوى الكونية الهائلة ، وليس من الضرورى أن تكون

---

(١) فى ظلال القرآن . المجلد ٤ ص ١٨٩٢ ـــ ١٨٩٣ .

(٢) هود : ٣٧ .

(٣) القمر . ١١ ، ١٢ .

(٤) القمر : ١٣ ، ١٤ .

هي الطوفان . فما الطوفان إلّا صورة من صور تلك القوى : ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾ .

وإنه ليس عليها إلا أن تثبت وتستمر في طريقها ، وإلا أن تعرف مصدر قوتها وتلجأ إليه ، وإلا أن تصبر حتى يأتي الله بأمره ، وإلا أن تثق أن وليها القدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . وأنه لن يترك أولياءه إلى أعدائه إلافترة الإعداد والابتلاء ، وأنها متى اجتازت هذه الفترة فإن الله سيصنع لها وسيصنع بها في الأرض مايشاء .

وهذه هي عبرة الحادث الكوني العظيم ..

إنه لا ينبغي لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام أن يظن أن الله تاركه للجاهلية ، وهو يدعو إلى إفراد الله سبحانه بالربوبية . كما أنّه لا ينبغي أن يقيس قوته الذاتية إلى قوى الجاهلية فيظن أن الله تاركه لهذه القوى وهو عبده ، الذى يستنصر به حين يغلب فيدعوه : ﴿ **أني مغلوب فانتصر** ﴾ .

إن القوى ليست في الحقيقة متكافئة ولا متقاربة ... إن الجاهلية تملك قواها .. ولكن الداعي إلى الله يستند إلى قوة الله . والله يملك أن يسخر له بعض القوى الكونية ــ حينما يشاء وكيفما يشاء ــ أيسر هذه القوى يدمر الجاهلية من حيث لاتحتسب .

وقد تطول فترة الابتلاء لأمر يريده الله .. وقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، قبل أن يأتي الأجل الذى قدره الله . ولم تكن حصيلة هذه الفترة الطويلة إلا قلة من المسلمين ... ولكن هذه القلة من البشر كانت في ميزان الله تساوى تسخير تلك القوى الهائلة ، والتدمير على البشرية الضالة جميعاً وتوريث الأرض لتلك الحفنة الطيبة ، تعمرها من جديد ، وتستخلف فيها .

إن عصر الخوارق لم يمض ؟ فالخوارق تتم في كل لحظة ــ وفق مشيئة الله الطليقة .. ولكن الله يستبدل بأنماط من الخوارق أنماطاً أخرى ، تلائم كل فترة ومقتضياتها . وقد تدق بعض الخوارق على بعض العقول فلا تدركها ، ولكن الموصولين بالله يرون يد الله دائماً ، ويلابسون آثارها المبدعة .

والذين يسلكون الطريق إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملاً ، بكل ما في طاقتهم من جهد ، ثم يدعوا الأمور لله فى طمأنينة وثقة .. وعندما يُغلبون عليهم أن يلجأوا

إلى الناصر المعين ، وأن يجأروا إليه كما جأر عبده الصالح نوح : ﴿ **فدعا ربه أني مغلوب فانتصر** ﴾ .. ثم ينتظروا فرج الله القريب . وانتظار الفرج من الله عبادة ، فهم على هذا الانتظار مأجورون [1] .

زوجتا نوح ولوط عليهما السلام في النار مع الذين كفروا ؛ بسبب فساد العقيدة :

﴿ **ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين** ﴾[2] .

أى ضرب الله مثلا للذين كفروا فى مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدى معهم شيئا ، إن لم يكن الإيمان حاصلا في قلوبهم . وامرأة نوح وامرأة لوط كانتا في صحبة نبيين رسولين ليلا ونهارا ، يؤاكلانهما ، ويضاجعانهما ، ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ، ﴿ **فخانتاهما** ﴾ أى في الإيمان لم يوافقاهما على الإيمان ، ولا صدقاهما فى الرسالة ، فلم يُجْد ذلك كله شيئا ولا دفع عنهما محذورا ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل** ﴾ (للمرأتين) ﴿ **ادخلا النار مع الداخلين** ﴾ . والخيانة ليست الفاحشة بل في الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات من الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء .

نظرة الإسلام إلى الوشائج والروابط وحقيقة الوشيجة التي يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم :

« إن الوشيجة[3] التى يجتمع عليها الناس فى هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين ، وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم » .

« إن هده الوشيجة ليست وشيحة الدم والنسب وليست وشيجة الأرض والوطن ، وليست وشيحة القوم والعشيرة ، وليست وشبجة اللون واللغة ، وليست وشيجة الجنس

(١) راجع . فى ظلال القرآن .

(٢) التحريم : ١٠ ، وراجع : تفسير القرآن العظيم

(٣) فى ظلال القرآن ، المجلد الرابع ص ١٨٨٦ ـــ ١٨٩٢ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٤٧ .

والعنصر ، وليست وشيجة الحرفة والطبقة .... إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ، ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد ، كما قال سبحانه وتعالى لعبده نوح — عليه السلام — وهو يقول : ﴿ **رب إن ابني من أهلي** ﴾ .. ﴿ **يا نوح : إنه ليس من أهلك** ﴾ ثم بين له لماذا يكون ابنه ... ليس من أهله ... ﴿ **إنه عمل غير صالح** ﴾ ... إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح : ﴿ **فلا تسألن ما ليس لك به علم** ﴾ فأنت تحسب أنه من أهلك ، ولكن هذا الحسبان خاطىء . أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك ، ولو كان هو ابنك من صلبك » .

« وهذا هو المعلم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط ، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة .... إن الجاهليات تجعل الرابطة آناً هي الدم والنسب وآناً هي الأرض والوطن ، وآناً هي القوم والعشيرة ، وآناً هي اللون واللغة ، وآناً هي الجنس والعنصر ، وآناً هي الحرفة والطبقة ؟ تجعلها آناً هي المصالح المشتركة ، أو التاريخ المشترك أو المصير المشترك .... وكلها تصورات جاهلية — على تفرقها أو تجمعها — تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي .

والمنهج الرباني القويم — ممثلاً في هذا القرآن الذى يهدى للتي هى أقوم وفي توجيهات الرسول — ﷺ — وهي من هذا القرآن وعلى نسقه واتجاهه — قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكبير ... والمعلم الواضح البارز في مفرق الطريق ..

وهذا المثل الذي يضربه في هذه السورة من نوح وابنه فيما يكون بين الوالد والولد ضرب أمثاله لشتى الوشائج والروابط الجاهلية الأخرى ، ليقرر من وراء هذه الأمثال حقيقة الوشيجة الوحيدة التي يعتبرها ....

ضرب لها المثل فيما يكون بين الولد والوالد ، وذلك فيما كان بين إبراهيم — عليه السلام — وأبيه وقومه كذلك :

﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبيا . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمٰن عصيا . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمٰن فتكون للشيطان وليا . قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا . قال سلام عليك سأستغفر لك

ربي إنه كان بي حفيا . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا . ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾[1] .

وضرب لها المثل فيما كان بين إبراهيم وذريته كما علمه الله سبحانه ولقنه ، وهو يعطيه عهده وميثاقه ، ويبشره ببقاء ذكره وامتداد الرسالة في عقبه :

﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾[2] .

﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾[3].

وضرب لها المثل فيما يكون بين الزوج وزوجه ، وذلك فيما كان بين نوح وامرأته ، ولوط وامرأته . وفي الجانب الآخر ما كان بين امرأة فرعون وفرعون :

﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾[4] .

وضرب لها المثل فيما يكون بين المؤمنين وأهلهم وقومهم ووطنهم وأرضهم وديارهم وأموالهم ومصالحهم وماضيهم وحاضرهم ومصيرهم . وذلك فيما كان بين إبراهيم والمؤمنين به مع قومهم . وما كان من الفتية أصحاب الكهف أهلهم وقومهم ودورهم وأرضهم :

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده .... ﴾[5].

---

(١) مريم : ٤١ ــ ٥٠ .　(٢) البقرة : ١٢٤ .　(٣) البقرة : ١٢٦ .

(٤) التحريم : ١٠ ــ ١١ .　(٥) الممتحنة : ٤ .

﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا . فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا . ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا . نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السمٰوات والأرض لن ندعو من دونه إلٰهاً لقد قلنا إذاً شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا . وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا ﴾[1] .

وبهذه الأمثلة التي ضربها الله للأمة المسلمة من سيرة الرهط الكريم من الأنبياء والمؤمنين الذين سبقوها في موكب الإيمان الضارب في شعاب الزمان ، وضحت معالم الطريق لهذه الأمة ، وقام هذا المعلم البارز أمامها عن حقيقة الوشيجة التي يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم ، ولا يقوم على سواها . وطالبها ربها بالاستقامة على الطريق في حسم ووضوح يتمثلان في مواقف كثيرة ، وفي توجيهات من القرآن كثيرة ..... هذه نماذج منها :

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولٰئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولٰئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[2] ...

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾[3] ...

﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير . قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه .... ﴾[4] ..

---

(١) الكهف : ٩ ــ ١٦ .
(٢) المجادلة : ٢٢ .
(٣) الممتحنة : ١ .
(٤) الممتحنة : ٣ ــ ٤ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾[1] .

﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾[2] .

وهكذا تقررت تلك القاعدة الأصيلة الحاسمة في علاقات المجتمع الإسلامي ، وفي طبيعة بنائه وتكوينه العضوى الذى يتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديماً وحديثاً إلى آخر الزمان . ولم يعد هناك مجال للجمع بين الإسلام وبين إقامة المجتمع على أى قاعدة أخرى غير القاعدة التي اختارها الله للأمة المختارة . والذين يدعون صفة الإسلام ، ثم يقيمون مجتمعاتهم على قاعدة أو أكثر من تلك العلاقات الجاهلية التي أحلّ الإسلام محلها قاعدة العقيدة ، إما أنهم لا يعرفون الإسلام ، وإما أنهم يرفضونه ، والإسلام في كلتا الحالتين لا يعترف لهم بتلك الصفة ، التي يدعونها لأنفسهم وهم لا يطبقونها ، بل يختارون غيرها من مقومات الجاهلية فعلاً ؟

وندع هذه القاعدة وقد صارت واضحة تماماً ـــ لننظر في جوانب من حكمة الله في إقامة المجتمع الإسلامي على هذه القاعدة ..

إن العقيدة تمثل أعلى خصائص « الإنسان » التي تفرقه عن عالم البهيمة ، لأنها تتعلق بالعنصر الزائد في تركيبه وكينونته عن تركيب البهيمة وكينونتها ـــ وهو العنصر الروحي الذي به صار هذا المخلوق إنساناً في هذه الصورة ـــ وحتى أشد الملحدين إلحاداً وأكثر الماديين مادية ، قد انتبهوا أخيرا إلى أن العقيدة خاصة من خواص الإنسان تفرقه فرقاً أساسياً عن الحيوان[3] .

ومن ثم ينبغي أن تكون العقيدة ـــ في المجتمع الإنساني الذي بلغ ذروة الحضارة الإنسانية ـــ هي آصرة التجمع ؛ لأنها العنصر الذى يتعلق بأخص خصائص الإنسان المميزة له عن البهائم . ولا تكون آصرة التجمع عنصراً يتعلق بشيء يشترك فيه الإنسان والبهائم ، من مثل الأرض والمرعى والمصالح والحدود التي تمثل خواص الحظيرة ، وسياج

---

(١) التوبة : ٢٣ . (٢) المائدة : ٥١ .

(٣) من هؤلاء جوليان هاكسلي من علماء الداروينية الحديثة ، كما يقول صاحب الظلال .

الحظيرة ، ولا تكون كذلك هي الدم والنسب والعشيرة والقوم والجنس والعنصر واللون واللغة . فكلها مما يشترك فيه الإنسان مع البهيمة . وليس هناك إلا شؤون العقل والقلب التى يختص بها الإنسان دون البهيمة .

كذلك تتعلق العقيدة بعنصر آخر يتميز به الإنسان عن البهائم .. وهو عنصر الاختيار والإرادة فكل فرد على حدة يملك أن يختار عقيدته بمجرد أن يبلغ سن الرشد ، وبذلك يقرر نوع المجتمع الذى يريد أن يعيش فيه مختاراً ، ونوع المنهج الاعتقادى والاجتماعى والسياسي والاقتصادى والخلقي الذي يريد ـــ بكامل حريته ـــ أن يتمذهب به ويعيش ...

ولكن هذا الفرد لا يملك أن يقرر دمه ونسبه ولونه وقومة وجنسه . كما لا يملك أن يقرر الأرض التى يجب أن يولد فيها ، ولغة الأم التي يريد أن ينشأ عليها ... إلى آخر تلك المقومات التي تقام عليها مجتمعات الجاهلية ... إن هذه الأمور كلها يقضى فيها قبل مجيئه إلى هذه الأرض ، ولا يؤخذ له فيها مشورة ولا رأى ، إنما هي تفرض عليه فرضاً سواء أحب أم كره ، فإذا تعلق مصيره في الدنيا والآخرة معاً ـــ أو حتى في الدنيا وحدها ـــ بمثل هذه المقومات التي تفرض عليه فرضاً لم يكن محتاراً ولا مريداً ، وبذلك تسلب إنسانيته مقوماً من أخص مقوماتها ، وتهدر قاعدة أساسية من قواعد تكريم الإنسان ، بل من قواعد تركيبه وتكوينه الإنساني المميز له عن سائر الخلائق .

ومن أجل المحافظة على خصائص الإنسان الذاتية ، والمحافظة على الكرامة التي وهبها الله له متمشية مع تلك الخصائص ، يجعل الإسلام العقيدة ـــ التي يملك كل فرد اختيارها بشخصه منذ أن يبلغ سن الرشد ـــ هي الآصرة التي يقوم عليها التجمع الإنساني في المجتمع الإسلامى ، والتي يتقرر على أساسها مصير كل فرد بإرادته الذاتية . وينفي أن تكون تلك العوامل الاضطرارية التي لا يد له فيها ، ولا يملك كذلك تغييرها باختياره ، هي آصرة التجمع التي تقرر مصيره طول حياته ...

ومن شأن قيام المجتمع على آصرة العقيدة ـــ وعدم قيامه على العوامل الاضطرارية الأخرى ـــ أن ينشىء مجتمعا إنسانيا عالميا مفتوحا ، يجيء إليه الأفراد من شتى الأجناس والألوان واللغات والأقوام والدماء والأنساب والديار والأوطان بكامل حريتهم واختيارهم الذاتي ، لا يصدهم عنه صاد ، ولا يقوم في وجوههم حاجز ولا تقف دونه حدود مصطنعة ، خارجة عن خصائص الإنسان العليا ، وأن تصب في هذا المجتمع كل الطاقات

والخواص البشرية ، وتجتمع في صعيد واحد ، لتنشيء « حضارة إنسانية » تنتفع بكل خصائص الأجناس البشرية ، ولا تغلق دون كفاية واحدة بسبب من اللون أو العنصر أو النسب أو الأرض ....

ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامي في هذه القضية ، ولإقامة التجمع الإسلامي على آصرة العقيدة وحدها ، دون أواصر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضية القريبة ، والحدود الإقليمية السخيفة ، ولإبراز « خصائص الإنسان » في هذا التجمع وتنميتها وإعلائها ، دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان .... كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعا مفتوحا لجميع الأجناس والألوان واللغات ، بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة ، وإن صبت في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها ، وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت ، وأنشأت مركبا عضويا فائقا في فترة تعد نسبيا قصيرة . وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة ، تحوى خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة ، على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان ».

« لقد اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق العربي والفارسي والشامي والمصرى والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والإغريقي والإندونيسي والإفريقي .... إلى آخر الأقوام والأجناس .... وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية . ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما (عربية) إنما كانت دائما (إسلامية) ، ولم نكن يوما ما (قومية) إنما كانت دائما (عقيدية) » .

« ولقد احتمعوا كلهم على قدم المساواة وبآصرة الحب . وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة فبذلوا جميعا أقصى كفاياتهم ، وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم ، وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية في بناء هذا المجتمع الواحد الذى ينتسبون إليه جميعا على قدم المساواة وتجمع فيه بيهم آصرة تتعلق بربهم الواحد ، وتبرز فيها إنسانيتهم وحدها بلا عائق . وهذا ما لم يجتمع قط لأى تجمع آخر على مدار التاريخ » .

« ولقد كان أشهر تحمع بشرى في التاريخ القديم هو تجمع الامبراطورية الرومانية مثلا . فقد جمعت بالفعل أجناسا متعددة ، ولعات متعددة وألوانا متعددة ، وأمزجة متعددة . ولكن هذا كله لم يقم على (آصرة إنسانية) ، ولم يتمثل في قيمة عليا

كالعقيدة .... لقد كان هناك تجمع طبقي على أساس طبقة الأشراف وطبقة العبيد في الامبراطورية كلها من ناحية ، وتجمع عنصري على أساس سيادة الحس الروماني — بصفة عامة — وعبودية سائر الأجناس الأخرى . ومن ثم لم يرتفع قط إلى أفق التجمع الإسلامي ، ولم يؤت الثمار التي آتاها التجمع الإسلامي » .

« كذلك قامت في التاريخ الحديث تجمعات أخرى ... تجمع الامبراطورية البريطانية مثلا ... ولكنه كان كالتجمع الروماني ، الذي هو وريثه . تجمعا قوميا استغلاليا ، يقوم على أساس سيادة القومية الانجليزية واستغلال المستعمرات التي تضمها الامبراطورية ... ومثله الامبراطوريات الأوربية كلها ... الامبراطورية الأسبانية والبرتغالية في وقت ما ، والامبراطورية الفرنسية ... كلها في ذلك المستوى الهابط البشع المقيت . وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعا من نوع آخر ، يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون . ولكنها لم تقمه على قاعدة (إنسانية) عامة ، إنما أقامته على القاعدة (الطبقية) . فكان هذا التجمع هو الوجه الآخر للتجمع الروماني القديم .. هذا تجمع على قاعدة طبقة (الأشراف) ... وذلك تجمع على قاعدة طبقة (الصعاليك) (البروليتاريا) ، والعاطفة التي تسوده هي عاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى ، وما كان لمثل هذا التجمع الصغير التعس أن يثمر إلا أسوأ ما في الكائن الإنساني ... فهو ابتداء قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها . باعتبار أن (المطالب الأساسية) للإنسان هي (الطعام والمسكن والجنس) — وهي مطالب الحيوان الأساسية الأولية — وباعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام ... » .

« لقد تفرد الإسلام بمنهجه الرباني في إبراز أخص خصائص الإنسان وتنميتها وإعلائها في بناء المجتمع الإنساني ... وما يزال متفردا ... والذين يعدلون عنه إلى أي منهج آخر ، يقوم على أية قاعدة أخرى ، من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة ... إلى آخر هذا النتن السخيف ، هم أعداء (الإنسان) حقا ، هم الذين لا يريدون لهذا الإنسان أن يتفرد في هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله ، ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها في امتزاج وتناسق » [1] .

---

(١) مقتطفات من فصل . (نشأة المجتمع المسلم وخصائصه) من كتاب « معالم في الطريق » . « دار الشروق » ، الظلال م ٤ ص ١٨٩٠ — ص ١٨٩١

« ويحسن أن نذكر أن أعداء هذا الدين ، الذين يعرفون مواضع القوة في طبيعته وحركته ، وهم الذين يقول الله تعالى فيهم : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** ﴾ [1] لم يفتهم أن يدركوا أن التجمع على أساس العقيدة سر من أسرار قوة هذا الدين ، وقوة المجتمع الإسلامي الذى يقوم على هذا الأساس ... ولما كانوا بصدد هدم ذلك المجتمع أو إضعافه إلى الحد الذى يسهل عليهم السيطرة عليه ، وشفاء ما في صدورهم من هذا الدين وأهله ، ولاستغلالهم كذلك واستغلال مقدراتهم وديارهم وأموالهم .... لما كانوا بصدد تلك المعركة مع هذا المجتمع لم يفتهم أن يوهنوا من القاعدة التي يقوم عليها ، وأن يقيموا لأهله المجتمعين على إله واحد أصناما ، تعبد من دون الله ، اسمها تارة (الوطن) واسمها تارة (القوم) واسمها تارة (الجنس) . وظهرت هذه الأصنام على مراحل التاريخ تارة باسم (الشعوبية) وتارة باسم (الجنسية الطورانية) وتارة باسم (القومية العربية) وتارة بأسماء شتى ، تحملها جبهات شتى ، تتصارع بينها في داخل المجتمع الإسلامي الواحد القائم على أساس العقيدة المنظم بأحكام الشريعة ... إلى أن وهنت القاعدة الأساسية تحت المطارق المتوالية ، وتحت الإيحاءات الخبيثة المسمومة ، وإلى أن أصبحت تلك (الأصنام) مقدسات يعتبر المنكر لها خارجا على دين قومه ، أو خائنا لمصالح بلده ...

وأخبث المعسكرات التي عملت وما زالت تعمل في تخريب القاعدة الصلبة التي كان يقوم عليها التجمع الإسلامي الفريد في التاريخ ... كان هو المعسكر اليهودى الخبيث ، الذى جرب سلاح (القومية) في تحطيم التجمع المسيحي ، وتحويله إلى قوميات سياسية ذات كنائس قومية ... وبذلك حطموا الحصار المسيحي للجنس اليهودى ، ثم ثنوا بتحطيم الحصار الإسلامي حول ذلك الجنس الكنود .

وكذلك فعل الصليبيون مع المجتمع الإسلامي ــ بعد جهد قرون كثيرة في إثارة النعرات الجنسية والقومية والوطنية بين الأجناس الملتحمة في المجتمع الإسلامي .... ومن ثم استطاعوا أن يرضوا أحقادهم الصليبية القديمة على هذا الدين وأهله . كما استطاعوا أن يمزقوهم ويروضوهم على الاستعمار الأوربي الصليبي . وما يزالون ... حتى يأذن الله بتحطيم تلك الأصنام الخبيثة الملعونة ، ليقوم التجمع الإسلامي من جديد ، على أساسه المتين الفريد ....

---

(١) البقرة : ١٤٦

وأخيرا فإن الناس ما كانوا ليحرجوا من الجاهلية الوثنية بكلياتهم حتى تكون العقيدة وحدها هي قاعدة تجمعهم . ذلك أن الدينونة لله وحده لا تتم تمامها إلا بقيام هذه القاعدة في تصورهم وفي تجمعهم .

يجب أن تكون هناك قداسة واحدة لمقدس واحد وألا تتعدد المقدسات ، ويجب أن تكون هناك قبلة واحدة يتجه إليها الناس بكلياتهم وألا تتعدد القبلات والمتجهات ...

إن الوثنية ليست صورة واحدة هي وثنية الأصنام الحجرية والآلهة الأسطورية ، إن الوثنية يمكن أن تتمثل مرة أخرى في المقدسات والمعبودات من دون الله أيا كانت أسماؤها ... وأيا كانت مراسمها .

وما كان الإسلام ليخلص الناس من الأصنام الحجرية والأرباب الأسطورية ، ثم يرضى لهم بعد ذلك أصنام الجنسيات والقوميات والأوطان ... وما إليها .... يتقاتل الناس تحت راياتها وشعاراتها وهو يدعوهم إلى الله وحده ، وإلى الدينونة له دون شيء من خلقه .

لذلك قسم الإسلام الناس إلى أمتين اثنتين على مدار التاريخ البشرى .... أمة المسلمين من أتباع الرسل — كل في زمانه حتى يأتي الرسول الأخير إلى الناس كافة — وأمة غير المسلمين من عبدة الطواغيت والأصنام في شتى الصور والأشكال على مدار القرون ....

وعندما أراد الله أن يعرف المسلمين بأمتهم التي تجمعهم على مدار القرون ، عرفها لهم في صورة أتباع الرسل — كل في زمانه — وقال لهم في نهاية استعراض أجيال هذه الأمة : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ ... ولم يقل للعرب : إن أمتكم هي الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها سواء ، ولا قال لليهود : إن أمتكم هي بنو إسرائيل أو العبرانيون في جاهليتهم وإسلامهم سواء ، ولا قال لسلمان الفارسي : إن أمتك هي فارس ، ولا لصهيب الرومي : إن أمتك هي الرومان ، ولا لبلال الحبشي : إن أمتك هي الحبشة ، إنما قال للمسلمين من العرب والفرس والروم والحبش : إن أمتكم هي المسلمون الذين أسلموا حقا على أيام موسى وهارون ، وإبراهيم ولوط ، ونوح ، وداود وسليمان ، وأيوب ، وإسماعيل وإدريس وذى الكفل وذى النون ، وزكريا ويحيى ومريم ... كما جاء في سورة الأنبياء : (آيات : ٤٨ — ٩١) .

هذه هي أمة المسلمين فى تعريف الله سبحانه ... فمن شاء له طريقا غير طريق الله فليسلكه . ولكن ليقل : إنه ليس من المسلمين ، أما نحن الذين أسلمنا لله ، فلا نعرف لنا أمة إلا الأمة التى عرفها الله لنا ، والله يقص الحق وهو خير الفاصلين .... »[1] .

---

(1) [illegible]

المبحث الخامس

مكان حدوث الطوفان فى ضوء القرآن الكريم
ثم فى ضوء الاكتشافات الأثرية الحديثة

جزء من الأجيال العشرة من بنى آدم التى كانت على الإسلام عاشت على أرض الرافدين (دجلة والفرات) وعيلام

عاشت بعد آدم أجيال عشرة من بنى آدم على الإسلام ، وفي أعقاب هذه الأجيال العشرة ، جاء جيل ، ظهرت فيه ملامح الانحراف والمروق من دين الله عز وجل .

ومما لا شك فيه أن جزءاً من هذه الأجيال كان يعيش فى المنطقة التى تشمل أرض الرافدين (دجلة والفرات) وإقليم عيلام وامتدت لتصل إلى بلاد الهند، وإن كان ذلك منذ بداية الخليقة والدليل على ذلك التشابه فى المدنيات وجنس بنى آدم الذين عاشوا فى تلك المناطق والذى أثبتته الأبحاث الأثرية الحديثة . فقد ذكر أحد الأساتذة وهو الدكتور عبد المنعم أبو بكر [1] نتائج هذه الأبحاث :

أولا : عثر الأثريون في : « صوصة » عاصمة إقليم عيلام على أنواع من الفخار حوت زخارف ملونة تشبه إلى حد كبير تلك التى وجدت مرسومة على أوان سومرية [2] كما أن التنقيبات التي قام بها « مارشال » في مناطق شمال غرب بلاد الهند ، عثر في منطقتين منها [illegible] « هاربا » والأخرى هي « مهنجو ــ دارو » على نفس الأنواع من « الفخار [illegible] ، ونفس الطريقة المستعملة في زخرفته » ثم وجد مارشال أن أهل هذه

---

(١) [illegible] المشرق العام [illegible] ٢٦٨ .

(٢) [illegible] أرض السواد [illegible] .

المنطقة ، ومنطقة عيلام استعملوا طريقة للكتابة التصويرية تشبه من نواح عدة تلك التي استعملها السومريون .

كما عثر المنقبون من رجال الآثار على قطع كثيرة من العقيق في أطلال المنازل في منطقتي « هاربا » و « مهندجو ـــ دارو » من نفس النوع الذى عثر عليه المنقبون في بلاد سومر .

ثانيا : هنالك تشابه كبير بين جماجم السومريين وأولئك الذين كانوا يسكنون بلاد أفغانستان وبلوخستان في العصور الأولى من التاريخ .

ثالثا : والدليل على أن هذه الأجيال كانت تعيش فى تلك البقاع منذ بداية الخليقة ، أن الوثائق البابلية التي كتبها البابليون ، ويرجعها الأثريون إلى عام (٢٠٠٠ ق .م) تثبت تاريخ أمتهم « منذ أول الخليقة » ، ذاكرين جداول الملوك الذين حكموا البلاد في ذلك الوقت العتيق [١] .

ولقد أكدت هذه الوثائق : « أن شعب السومر سكن هذه المناطق منذ أول الخليقة . ولقد نزل نظام الحكم من السماء أى من عند الله ، وهو ما يؤكده القرآن ﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾ وقام ثمانية بالحكم في ثماني مدن مختلفة[٢] ، وحكم كل منهم عددا من السنين يزيد على الألف (لأن الأجيال الأولى كانت تعمر ألف عام كما بين حديث محمد ﷺ) ثم انتهى حكمهم بحدوث الطوفان الذى عم العالم كله وأهلك الحرث والنسل » [٣] .

---

(١) حضارة مصر والشرق القديم ، ص ٢٦٩ . وللأسف فإن الدراسات التاريخية والأثرية التى تنطلق من منطلق الحرص على طمس خط التوحيد دهست تشكك في هذه الوثائق ، قائلة .. « للأسف الكبير عملت الأساطير والروايات المتوارثة على خلط أسماء الحكام الأصليين بالآلهة وأبطال الأساطير ، كما عينت لحكمهم فترات بولغ في عدد سنيها بشكل لا يتفق مطلقا مع معدل حياة الإنسان » المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ،

(٢) قد يكونون هم أبناء آدم الذين تعلموا من أبيهم أن عمارة الأرض هى العبادة

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٧٠ ونسى هؤلاء الكتاب أن هذه الفترات التى بولغ فى عدد سنيها هى معدل حياة الإنسان الحقيقية فى عصوره الأولى كما بينا . لماذا اعتبر التاريخ القديم هذا الخبر أسطورة وغير صحيح ، ألم نقرأ أن نوحاً قد لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله وحده . ذلك عمر الدعوة ، فكم كان عمره قبل الدعوة ، وكم لبث بعد الطوفان ؟

فكون الجداول التى وضعها البابليون لأسماء من حكم منذ بداية الخليقة قد ذكر فيها أن الحكام كانوا يحكمون لفترة طويلة قد تبلغ ألف عام ، شيء لا غرابة فيه .

(وهذا مايؤكده القرآن الكريم فى سيرة نوح عليه السلام) .

وهناك ما تركه لنا مؤرخ بابلي قديم هو بروسس (٢٥٠ ق.م) من أخبار عن سومر منها : يصف فيه جيلا من الجبابرة يقودهم واحد منهم يسمى ؟ ؟ خرج من الخليج الفارسي ، وأدخل في البلاد فنون الزراعة وطرق المعادن والكتابة . ثم يقول : « وقد ترك إلى بني الإنسان كل الأشياء التي تصلح أمور حياتهم ، ولم يخترع من ذلك الوقت شيء حتى الآن » .

ومع أن كُتاب ما يسمى بالتاريخ القديم من المحدثين يعتبرون ذلك الخبر أسطورة ، إلا أننا من جانبنا نرجح فيها جانب الحقيقة . فالإنسان في ذلك الزمان البعيد كان عملاقا ، وكان جبارا . مثال ذلك نوح عليه السلام ، لأنه من سلالة أبيه آدم عليه السلام الذى كان طوله ستون ذراعا ، وكان أكمل صورة للخلق ، كما أنه كان قريب العهد به وبالتالي شبيها به ؛ لأن الخلق مازال ينقص حتى الآن كما قدمنا .

كما تبين لنا أيضا ، أن الإنسان كان يعرف الزراعة وطرق المعادن والكتابة ، أى أنه لم يكن إنسانا بدائيا ، أو حجريا ، ولكنه على جانب كبير من الدراية [1] . كما أن قولته بخروج « أهل سومر من الخليج الفارسي » ، إذا وضعنا إلى جوارها كلمة أخرى للسومريين وردت في نصوصهم « بأنهم من سلالة الناجين من الطوفان » ، فذلك يعني أن ما ورد على لسان المؤرخ البابلي القديم صحيح وليس من قبيل الأساطير . وقد عَلّق الأُستاذ عبد المنعم أبو بكر على الوثائق التي ذكرها بقوله :

« وهذه هي المرة الأُولى التي تتحدث وثائق قديمة شعبية عن الطوفان بجانب الكتب السماوية ، وكان في هذا دافع لبعض العلماء أن يحاولوا استقصاء الأمر بطريقة علمية وتفرغ لهذه الدراسة عالم اسمه « هيليون » قام بمقارنة كل النصوص البابلية التي ذكرت الطوفان وفحصها فحصا دقيقا على ضوء ما ورد في هذا الحادث في الكتب السماوية ، وهو يؤكد أن هذه الوثائق كلها ــ مع وجود بعض الاختلافات من حيث وصف الطوفان ونتائجه ومسبباته ــ ترجع إلى أصل واحد تناقلته الأجيال ، وتحدثت به أفواه الناس ، إلى أن سجلوه

(١) قصة الحضارة ، جـ ٢ ، م ١ ، ص ١٤ ، وهكذا تؤكد الدراسات الأثرية المعلومات المستقاة من المصادر الإسلامية .

« في أكثر من وثيقة » . وانتهي هيليون إلى تحديد تاريخ حدوث الطوفان في القرن الأربعين قبل الميلاد » .

رابعا : كما أن هذا المكان (أرض سومر وعيلام) لا بد وأن يكون قد شمله الطوفان الذى أغرق الله به الكافرين والدليل :

أن الأبحاث العلمية التي جرت في أكثر من مكان في أرض الرافدين ، تسجل ظواهر تثبت حدوث فيضان كاسح حوالي منتصف القرن الأربعين ، وذلك في أسفل التل الذى حوى أطلال مدينة كيش ، وأطلال مدينة أور ، حيث عثر على طبقة طمية اختلطت بها كميات كبيرة من القواقع والأسماك التي تعيش في المياه العذبة ، وذلك على عمق يزيد على ثمانية أمتار أسفل التل . ثم عثر في أسفلها على طبقة أخرى تحوى مخلفات بشرية [1] .

خامسا : أن الإنسان الذى كان يعيش في تلك البقاع قبل حدوث الطوفان كان على جانب كبير من التقدم المادى والفكرى ، فقد عثر الأثريون الفرنسيون في هذه المنطقة — إقليمي عيلام وأرض سومر — على آثار يرجع عهدها إلى عشرين ألف عام — حسب تقديرهم — كما وجدوا شواهد تدل على قيام ثقافة راقية يرجع عهدها إلى عام (٤٥٠٠ ق . م) فقد تبين أن أهل هذا الإقليم كانوا يعرفون الزراعة ، ويرعون الحيوانات ، وكانوا يعرفون الكتابة . وقد خلفوا وثائق تجارية تؤكد أن تجارتهم قد امتدت إلى مصر والهند ، كما عثر على أدوات يعتبرها الأثريون أجمل ما صنعه الإنسان في عهود التاريخ كله ، كما عثر على أقدم ما عرف من عجلات المركبات الذى عرف في بابل — فيما بعد — ثم في مصر [2] .

---

(١) حضارة مصر والشرق القديم ص ٢٧٠ .

(٢) قصة الحضارة ج ٢ ، م ١ ، ص ١١ ، ١٢ .

وهذه الحقائق قد ذكرها القرآن الكريم قبل قيام الأبحاث الأثرية بأكثر من ألف سنة ، فقد ذكر القرآن الكريم [illegible] أخبار قوم نوح عليه السلام وهى تعاصر الفترة التى تحدثت عنها الدراسات الأثرية ذكر القرآن ما يؤكد أن أصحاب هذه الفترة كانوا على جانب كبير من التقدم المادى الذى يتمثل فى معرفة الزراعة ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا** [illegible] **يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً** ﴾ .

كما أن قوم نوح كان لديهم دراية بعلم الأجنة ﴿ **قد خلقكم أطوارا** ﴾ وكان لديهم دراسة بعلم [illegible] ﴿ [illegible] **كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورًا وجعل الشمس سراجا** ﴾ بل إنهم كان لديهم علم [illegible] من عند الله — أن الإنسان مكون فى خلقه من عناصر من جنس طينه الأرض : ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتا** [illegible]

وحدود إقليم عيلام قديما ، كان من الشرق يحده الجبال الحالية لهضبة إيران العظيمة ، ومن الغرب نهر دجلة ، وكان مركزه مدينة « السوس » القديمة ، وهي « شوشان » الحالية داخل الحدود الإيرانية .

وهذا يؤكد لنا أنه من الخطأ الفادح أن نطلق على الإنسان صاحب هذه المدنية « إنسان العصور الحجرية » أو « عصور ما قبل التاريخ » ؛ لأنه في هذه المنطقة عاش إنسان على جانب كبير من الرقي والفهم والتقدم المادى ، كما أكدت ذلك الدراسات الأثرية والتاريخية التى قدمنا جانباً منها .

هل يمكن معرفة بعض أسماء المدن التي تركز فيها العمران في هذه الفترة قبل بعثة نوح عليه السلام ؟

نعم كان العمران متركزاً ــ كما ذكرت النصوص السومرية العراقية القديمة ــ في خمس مدن متعاقبة ، وهي : أريدو ، وبادتيبيرا ، ولاراك ، وسيبّار ، وشوروباك . وذكرت النصوص أنها قد حكمت (بأشخاص) عمروا طويلاً ، لفترات امتدت آلاف السنين[1] .

وبعد : أكان الطوفان عاما في الأرض ؟ أم أنه كان في تخوم الأرض التي بعث فيها نوح ؟ وأين كانت هذه الأرض ؟ وأين تخومها في العالم القديم وفي العالم الحديث ؟

وسنحاول بقدر معرفتنا ــ وما توفيقنا إلا بالله ــ أن نضع عدة افتراضات للإجابة على هذه الأسئلة على أن نضع في الاعتبار أنّه ليس لهذه الإجابة بعد ذلك قيمة في تحقيق الهدف الذى من أجله أورد الله سبحانه هذه السيرة فى القصص القرآني ، لأن الهدف يتحقق بدونها .

الثابت من النصوص القرآنية أن قوم نوح كانوا هم مجموع البشرية في دلك

---

(١) مصر والعراق ، ص ٣٩٨ ، وهو يعتمد على : TH , Jacobsen , The sumerian king hist , Assyriological Studies NO XL . , 1939 , ومراجع أخرى . وهكذا نرى أن النصوص السومرية تؤكد ما دكرته المصادر الإسلامية عن العشرة قرون بين آدم ونوح عليهما السلام .

وللأسف فإن كتاب التاريخ القديم ، اعتبروا ذلك من الأساطير . وآمل أن تتاح الفرصة لدراسة هذه النصوص مباشرة ، فتظهر لنا ما حرص أعداء الإسلام على إخفائه . وقد دكرت النصوص أن بعد الطوفان عاد العمران إلى أرض العراق ، وظهرت مدن أخرى كثيرة مثل كيش ، وأوروك ، وأور ...

الزمان ، وأن الأرض التي كانوا يسكنونها كانت هي الأرض المعمورة في ذلك الحين .

ويكاد يكون من المتفق عليه حتى الآن أن أقدم حضارة إنسانية [1] عثر على جزء منها في إقليم عيلام وأرض سومر . والأول : مكان عاصمته الآن في سوشان الحديثة (بإيران) . والثانى : أرض السواد جنوب دلتا دجلة والفرات (بالعراق) .

وبالإضافة إلى ذلك فإن نصوص أرض الرافدين القديمة قدمت لنا أخبار الطوفان في الأدب السومرى والأدب البابلى بصورة تطابق أحداثها الرئيسية لرواية القرآن الكريم تقريباً .

كما ورد في البداية والنهاية [2] « أن الجودى جبل مشهور بأرض الجزيرة (العراق) » ص ١١٥ .

« وقد ذكره الله تعالى في كتابه الكريم على التعيين ، وهو جبل عظيم شرقي جزيرة ابن عمر إلى جانب دجلة عند الموصل ، امتداده من الجنوب إلى الشمال مسيرة ثلاثة أيام وارتفاعه مسيرة يوم ونصف ، وهو أخضر لأن فيه شجرا من البلوط ، وإلى جواره قرية يقال لها : قرية الثمانين »ص ٢١ ، ٢٢ .

وغير ذلك هنالك أكثر من رواية أوردها الطبرى [3] تفيد بأن سفينة نوح — عليه السلام — رست بأرض الجزيرة شمالاً ، ومن ذلك ما جاء في الجزء الأول ، ص ١٨٥ — ١٨٦ في رواية ترجع إلى ابن عباس : « أن سفينة نوح انتهت إلى الجودي ، وهو جبل بالحضيض في آرض الموصل » . وفي رواية أخرى ، جـ ١ ، ص ١٨٩ أنها استقرت بناحية كردى من أرض الجزيرة ، وأنه ابتنى هناك قرية سماها ثمانين (وهي سوق الثمانين الذي كان قائما في عهد الطبري) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد أورد البيروني في كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » : « بأن الجودى جبل بالعراق رست عليه سفينة نوح عليه السلام » .

كما جاء في القاموس المحيط [4] : « أن جبل الجودى في نواحي ديار بكر من بلاد

---

(١) قصة الحضارة ، جـ ٢ ، م ١ ، ص ١١ .

(٢) تأليف الإمام الحافظ إسماعيل بن كثير .

(٣) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ — ٣١٠ هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، جـ ١ ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة .

(٤) ترتيب القاموس المحيط ، جـ ١ ،ص ٥٥٣ ،« والجودى جبل بالعراق استوت عليه سفينة نوح عليه السلام » .

الجزيرة ، وهو يتصل بجبال أرمينية ، وأنه قد استوت عليه سفينة نوح عليه السلام » .

ولذلك يمكننا أن نفترض أن الطوفان قد وقع في الأرض المعمورة في ذلك الزمان . وكما أشرنا فإنه من المستقر عليه الآن : أن أقدم حضارة إنسانية قد عثر عليها هى في إقليم عيلام ، وأرض سومر . وبالتالي فإنه يمكن لنا أن نفترض أن الطوفان قد حدث جزء منه في أرض عيلام (إيران الحالية) وسومر (العراق الحالية) وما وراءها .

ويترتب على ذلك افتراض آخر : أن قوم نوح ـــ عليه السلام ـــ الذين شهدنا مدى جاهليتهم ومدى إصرارهم على باطلهم ، ومدى استنكارهم لدعوة الإسلام الخالص التي حملها نوح ـــ عليه السلام ـــ كان جزء منهم يعيش في منطقة عيلام (في أرض إيران الحالية) ، وسومر (في أرض العراق الحالية) إلى جنوب غرب الهند على اعتبار أنها المنطقة التى سكنها آدم وزوجه والقرون العشرة التى كانت على الإسلام .

نصوص الآداب السومرية والبابلية والآشورية القديمة التى عثر عليها بأرض الرافدين تؤكد حقيقة الطوفان الذي عاقب الله به المشركين من قوم نوح عليه السلام :

يؤيد هذه الافتراضات التي ذهبنا إليها آنفاً النصوص السومرية والبابلية والآشورية القديمة التي كشفت عنها الأبحاث الأثرية في تلك المناطق ، والتي تؤكد حقيقة الطوفان ، الذى أهلك الله به الكافرين الذين كذبوا بدعوة نوح وظلوا على شركهم بالله عز وجل .

فإذا ما درسنا تاريخ أرض الرافدين منذ أقدم العصور ، سوف نجد أن التراث الأثري الأدبي وغير الأدبي السومرى والبابلي والآشوري يضع أيدينا على الحقائق التالية :

أنه منذ زمن بعيد ، حدث في أرض سومر « الرافدين » فيضان كاسح أهلك الحرث والنسل ، عقاباً لأهلها على ذنب ارتكبه أحد ملوكهم الكافرين[1] ولذلك قد امتد مداه وهذا احتمال إلى عيلام وإيران وحتى أرض الهند باعتبارها امتدادا لأرض سومر وقد ظلت ذكرى هذا الحادث الضخم عالقة في أذهان الناس يتناقلونها جيلا بعد جيل إلى أن سجلتها الآداب السومرية والآشورية والبابلية :

---

(١) قصة الحضارة حـ ٢ ، م ١ ص ١٦ .

أولا : الآداب العامة : [١]

« ويغلب عليها الطابع الديني ، وقد عثر عليها مكتوبة على ألواح ترجع إلى الألف الثاني قبل الميلاد ، ويقال: إن أصحابها نسخوها عن أصول قديمة يصعب تحديدها تحديدا قاطعا . وحوت الآداب السومرية قصصا وملاحم وأساطير ومحاورات دينية ودنيوية . وكانت من أشهرها مغامرات جلجميش وقصة الطوفان :

وتبدأ قصة الطوفان بالحديث عن خلق البشر والحيوانات والنباتات ، وتعمير الأرض في خمس مدن من مدن أرض الرافدين منها شوروباك وأريدو . وبعد ذلك تقرر أن يغمر الفيضان الأرض ودب الذعر فى قلوب قاطني المدن الخمسة . زيو سودرا الرجل الصالح في هده المدن يُوحَى إليه بالقرب من جدار مقدس : « سوف ألقى إليك كلمتي ، فاستمع لأمري ، بقضائنا سوف (يكتسح) الفيضان مراكز العبادة (الوثنية ؟) ويقضى على سلالة البشر (العاصين ؟) ذاك قرار ...وقضاء » . ويبدو أنَّه نصحه ببناء سفينة كبيرة وينقل إليها من كل الأزواج ؟ فصدع الرجل بالأمر . وفي اليوم المحدد هبت ريح عاتية واكتسح الفيضان الأرض بما عليها على مدار سبعة أيام وسبع ليال بعد أن حمل السفينة على ظهره .

ورست السفينة على اليابسة ، وصدرت كلمة السماء إلى الأرض فاخضرت ، ودبت فيها الحياة ووهب الربُّ الأكبر ، زيو سودرا حياة طويلة وكانت حياته سببا في الحفاظ على سلالة البشر »[٢] .

ثانيا : الأدب البابلي :

ذكر كتاب التاريخ القديم أسطورة (؟) جلجميش والطوفان ، وقالوا إنها من الأساطير الشهيرة التي أدخل في ثناياها قصة الطوفان على أيدى البابليين بعد أن أدخلوا عليها بعض التعديلات . والواقع أن الجزء الذى يهمنا رصده هنا هو ما يتعلق بحادثة

---

(١) مصر والعراق ، ٣٩٨ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، والسومريون كما تقول النصوص أبهم من سلالة الناجين من الطوفان ، وفى ضوء العقيدة الإسلامية فإن الناجين من الطوفان هم الموحدون — أى المسلمون من قوم نوح عليه السلام

(٢) مصر والعراق ، ٤٣٥ وما بعدها ، وهو يعتمد على :

W .C .Lambert , Babylonian Wisdom literature ,oxlard , 1960 , 92 p

الطوفان ، ولكن دلك لا يمنع بأن نسرد بعض ملامح الأسطورة :

« جلجميش كان حاكما على مدينة « أوروك » راده الله بسطة في الجسم ونضارة في الوجه ، فطغى وتجبر حتى أنه كان يسخر الأبناء ويستحل النساء والبنات . ولما جأر الناس بالشكوى خُلق انجيدو أكثر قوة واقتدارا حتى تهبط عزيمة جلجميش ويصرف طغيانه عن شعبه (هكذا تقول الأسطورة) ، وتستمر الأسطورة في متابعة أخبار جلجميش وانجيدو إلى أن يحين الوقت الذي يلتقي فيه جلجميش بـ « أوتنا بشتيم » طالبا منه سر الخلود ولكن أوتنا بشتيم يأبى إلا أن يقص على مسامع جلجميش أخبار الماضي البعيد ومنها قصة الطوفان القديم ..

سأكشف لك جلجميش سراً ، وهو سر رباني ، وملخص السر أن مدينة شوروباك على ضفاف الفرات كانت تزخر بالحياة ، وفي يوم ما تلقى رجل شوروباك « أوتنابشتيم » أمراً ببناء سفينة يُحَمِّلَها من كل كائن حي « ارحل بها وخذ بذرة كل حي » . وصدع رجل شوروباك بالأمر ، قائلاً ، وسأكون أهلاً لحمل الرسالة . وأتم بناء السفينة ، ثم أنزلها إلى الماء بعد تحميلها بصنوف الأحياء . وفي الموعد المضروب اكفهر الجو واعتمت السماء وفاضت الترع ، وهبت العواصف ، « فنسفت الجبال واقتلعت الناس » . واستمرت أعاصير الطوفان ستة أيام وست ليال ، وفي اليوم السابع هدأ البحر ، وتوقف الطوفان ، ففتح رجل شوروباك طاقة من السفينة فسقط الضوء على وجهه فسجد وبكى ، ورست السفينة لينزل الأحياء منها ، وتبدأ الحياة » [(١)] .

ثالثاً : مخلفات الطوفان المادية :

كما سبق لنا أن أوردنا ما ذكره المشتغلون بالدراسات الأثرية من أن الحفر والتنقيب في بلاد أرض النهرين (عام ١٩٢٩ م) قد أثبتت حدوث الطوفان ، وقد تأكد حدوث ذلك حينما أسفر الحفر عن العثور على طبقات طمية ، تتراوح سمكها بين نصف وثلاثة ونصف من الأمتار على عمق عظيم من سطح الأرض ، فى مناطق متعددة من أرض النهرين (دجلة والفرات) . نذكر منها : أور ، وكش وشوروباك ، وفى تلك الطبقات الطمية كان يختلط كثير من القواقع وأعداد كبيرة من الأسماك التي كانت تعيش في مياه الأنهار . وأسفل هذه

---

(١) مصر والعراق ٤٦٩ ــ ٤٧٥ .

الطبقات عثر على بقايا حضارات إنسانية كانت قائمة قبل الطوفان ، وصفها الشعراء القدامى ـــ فيما بعد ـــ بأنّها العصر الذهبى لتلك البلاد .

وقد ذهب المكتشف « وولى » أن طبقة الغرين قد ترسبت على أثر فيضان مروع ظل عالقاً بأذهان الأجيال التالية ، وكان معروفاً باسم الطوفان[1] ، وقد أتى على تلك الحضارات الزاهرة .

ولنا على هذه النصوص تعليق :

أولاً : أن هذه النصوص قد نسخها أصحابها عن أصول قديمة يصعب تحديدها تحديداً قاطعاً ، ومعنى ذلك أنها ترجع إلى زمن أبعد من الألف الثاني قبل الميلاد بزمن طويل .

ثانياً : يبدو أن كاتب هذه النصوص كان يقصد تأريخاً لتلك الفترة ووجد أنه من المناسب إعطاء القارىء فكرة عن قصة الخلق[2] ، وعمارة الأرض ، وانحراف البشرية عن أوامر الله عز وجل ، وقرار السماء بإغراق الأرض ومن عليها بالطوفان ، وأن ذلك القرار أوحى به الله عز وجل إلى رجل صالح « زيو سودرا » ونصحه ببناء سفينة يحملها من كل الأزواج .

ثالثاً : هل « زيو سودرا » الذى ذكرته النصوص السومرية هو نوح ـــ عليه السلام ـــ الذى عاش حياة طويلة حتى يعمر الأرض ؟؟

رابعاً : أطلق الأثريون لفظة « أسطورة » على قصة جلجميش والطوفان ؛ رغم أنها تحمل ملامح قصة نوح عليه السلام ، ولم يحاولوا أن يفسروها في ضوء التصور الإسلامي لأنهم حريصون على طمس معالم خط التوحيد في حياة البشرية !!

خامساً : أطلقت النصوص البابلية اسم « أوتنابشتيم » رجل شوروباك على الرجل الصالح الذى تلقى أوامر ربه .

---

(١) قصة الحضارة ، حـ ٢ ، م ١ ، ص ١٦ ، وهو يعتمد على :

Cambridge Ancient History , I , 86 , 361 . Childe , The Most Ancient East , 126 , Keith , in New york Times , April 3 , 1932 .

مصر والعراق ، ص ٣٩٨ ، ٤٣٥ وقد عثر على سجلات مكتوبة من ألواح الطين فى خرائب أور كتبت بعد عام ٣٠٠٠ ق م تؤكد أنهم كانوا على جانب كبير من التنظيم الإدارى فهل يمكن بعد ذلك أن نتصور أن هذا قد أعقب عصور من التخلف والهمجية (قصة الحضارة ، ص ١٧) .

(٢) انظر قصة الحضارة ، حـ ٢ ، م ١ ، ص ١٦

سادساً : ذكرت النصوص بعض الكلمات التي تعكس لنا إيماناً بالله عز وجل مثل :

من يستطيع أن يعاند السماء يا صديقي ؟ ليس من يخلد تحت الشمس .

إن البشر أيامهم معدودة .

إن الموت نهاية كل حي ، وأنه ليس من سبيل إلى حياة الخلود .

ماذا يعني ذلك ؟؟

هل يعني ذلك أن أخبار الطوفان التي أوردتها التوراة الأصلية مأخوذة عن النصوص السومرية والبابلية ؟؟

هل ما أوردته النصوص السومرية والبابلية من أخبار الطوفان أساطير من اختراع السومريين وتأليفهم ؟؟

هل ما أورده القرآن الكريم من أخبار الطوفان في ثنايا سيرة نوح ــ عليه السلام ــ مأخوذ عن التوراة أو عن النصوص السومرية أو البابلية القديمة ؟

هذه الأسئلة أجاب عليها المستشرقون ، وتابعهم في ذلك أبناء المسلمين بالإيجاب ؟؟

وفي ضوء العقيدة الإسلامية ، فإن هذه التعليلات التي أوردها المستشرقون ومن سار على نهجهم كلها خطأ من أولها إلى آخرها .

والصحيح :

أن حادث الطوفان الذى أهلك الله به المكذبين من قوم نوح ــ عليه السلام ــ حادث ضخم في حياة البشرية ، ظل عالقاً بأذهان الناس الذين عاصروه وشاهدوه وعاينوه ونجوا منه بفضل الله ، وأدركوا أن سبب ذلك : أن بني آدم قد رفضوا الانصياع لأوامر الله ، ورفضوا الاستسلام لأوامره ، وعصوا رسوله نوح ــ عليه السلام ــ وتناولوه بألسنتهم وأيديهم ... ولابد أنهم قد عاشوا كل الأطوار التي مرت بها دعوة نوح ــ عليه السلام ــ والمعاناة التي عاناها ذلك النبي الكريم على مدار ألف عام إلا خمسين عاما ... وموقف الجاهلية من رسول الإسلام ، ثم صدور الأوامر إلى نوح ــ عليه السلام ــ بركوب السفينة ... وتفجر الأرض بالعيون ، وانهمار السماء بالماء ، وصراخ الجبارين ، واستغاثة

المستغيثين ، ثم غرق أعرق حضارة إنسانية أنشأتها الأمم التي عاشت بين عصر آدم وعصر نوح عليهما السلام .

هذا الحادث الضخم قد ترك بصمات واضحة في أذهان الأجيال التي عاينته ، والتي كانت توصى أبناءها وأحفادها بعدم تعريض أنفسهم لغضب الجبار كما حدث لقوم نوح المكذبين .

ولا شك أيضاً أنهم كانوا يوصون أبناءهم بأن : ﴿ **فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾(١) .

كما كانوا يحذرونهم خطر الانحراف عن نظام الله وشرعه ، حتى لا يتعرضوا لغضب العزيز الجبار ، ولطوفان مماثل كالذى دمر الكافرين من معاصريهم . وبعد هلاك جيل الطوفان استمرت الأجيال يوصي بعضها البعض بهذه الوصايا التي ورثوها وفقهوها ، في الوقت الذي تتعرض فيه لفتنة الشيطان ونزغه ، وبمضى الوقت نجح الشيطان في التهوين من شأن هذه الوصايا ، إلى أن اندثرت آثارها في النفوس وملامحها الحقيقية ، وبهتت صورتها في أذهان الأجيال التالية التي قامت بتسجيل هذه الأخبار على تفاوت بينها في النصوص السومرية والبابلية ، من باب التنبيه للأجيال من الغفلة ، وللعظة والعبرة .

ومن هذا المنطلق ذكر الله في التوراة الأصلية أخبار نوح عليه السلام والطوفان ، وكذلك القرآن الكريم ، حتى يتحقق : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾(٢) .

أى أن أخبار الطوفان في أصولها قصص حقيقية ، وليست أساطير ، ولم تأخذها التوراة عن الآداب السومرية ، ولم يأخذها القرآن عن التوراة المحرفة . أى هي حوادث حقيقية ذكّر الله بها موسى في التوراة ، وذكر بها محمد ﷺ في القرآن الكريم .

بالإضافة إلى ما سبق ، إذا عملت مقارنة بن أخبار الطوفان في النصوص البابلية وأخبار الطوفان في التوراة وأخبار الطوفان في القرآن الكريم ، سوف نتبين اختلافاً كبيراً في الأسلوب يؤكد أن كلام الله عز وجل ــ وهو القرآن الكريم ــ الذى يروي لنا قصة نوح والطوفان هو من علم الله عز وحل ، وليس مأخوذاً عن التوراة . وأن التوراة الأصلية إذا كان

---

(١) البقرة : ١٣٢ .

(٢) هود : ٤٩ .

قد ورد فيها أخبار نوح والطوفان ، فلا شك فهى من بقايا علم الله تعالى الذى أنزله على موسى عليه السلام ، وبالتالى فهى ليست مأخودة عن الآداب السومرية والبابلية ، أى أنها وحي من عند الله عز وجل وليست من اختراع العقل البشرى .

الفصل الثالث

أرض الرافدين (دجلة والفرات)

العراق

فى المصادر الإسلامية ومراجع التاريخ القديم

تمهيد :

سبق وبينا الفساد والتشويه والتزييف الذى اعتور تاريخ وحضارة الأمة المسلمة منذ أقدم الدهور[1] على أيدى المستشرقين من يهود ونصارى ومن سار على نهجهم من أبناء العرب والمسلمين .

ورغم ذلك فهناك أسباب قد تكون ملحة ، تستوجب منا ذكر بعض الملامح الرئيسية لتاريخ الأمم منذ أقدم الدهور كما يعرضها المستشرقون ومن سار على نهجهم ، مع ذكر نماذج للمراجع والمصادر التى تقول بذلك ، هذه الأسباب هي :

أولاً : بيان :

(أ) فساد المنهج الذى اتبع في معالجة تاريخ تلك الأمم منذ أقدم الدهور والذى يّمتد لبضعة آلاف من السنين ، على أيدى هؤلاء الكتاب .

(ب) فساد معظم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في كتابة ذلك التاريخ .

(جـ) فساد التصورات التي انطلق منها أولئك المستشرقون ومن سار على نهجهم وهم يكتبون ذلك التاريخ ، ليتأكد لنا عدم أهليتهم للكتابة عن تاريخ البشرية ، على وجه العموم ، وعن تاريخ الأمة المسلمة على وجه الخصوص .

---

(١) هو الذى تسميه الدراسات التاريخية المعاصرة التاريخ القديم ، ومنه تاريخ الشرق الأدنى القديم ، وتاريخ العرب قبل الإسلام .

(د) فساد النتائج التي أسفرت عنها تلك الكتابات الاستشراقية الحاقدة التي حمل لواءها الكثير من أبناء العرب والمسلمين والتي تظهر لنا تاريخ آلاف السنين من عمر أبناء آدم عليه السلام ، على أنه تاريخ وثنى جاهلي محض ، لا أثر فيه لتوحيد الله ولا لدعوة الرسل ، ولا دين هو الإسلام يطلب من البشرية أن تعتنقه .

ثانياً : أن هذه الكتابات والأبحاث الاستشراقية ، حوت مجموعات من الوثائق الهامة ، التي تؤكد أصالة خط توحيد الله عز وجل ، فى حياة آدم وبنيه منذ أقدم الدهور ، والتي تؤكد أن الله — سبحانه وتعالى — كان يتعهد البشرية دائماً بالرسل ، يعرفونها بربها الحق ، ودينها الحق ، هذه الوثائق لا غنى عنها للكاتب المسلم عند معالجة تاريخ هذه الأمم .

ثالثاً : المخلفات الأثرية لتلك الأمم والتى اعتمد عليها المستشرقون ومن سار على نهجهم في كتابة تاريخ تلك الأمم تكشف لنا صورة كاملة لحياة تلك الأمم من الناحية العقائدية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية .

فمن خلالها يمكن لنا أن نرى ملامح عن حياة الأمة عند صلاح دينها وعقيدتها واستقامتها على أمر الله ، حكاماً ومحكومين (وهذا يمكن تبينه بصعوبة كبيرة نتيجة حرص الكتاب على طمس خط التوحيد ، والرفع من شأن الحكام الظلمة) .

ومن خلالها أيضاً يمكن لنا أن نرى فساد الأمة — حكاماً ومحكومين — عند فساد دينها وعقيدتها وعدم استقامتها على نظام الله وشرعه . نرى ذلك متمثلاً في حكام ادعوا الألوهية والربوبية وزعموا أن لهم الحق في وضع النظام والمنهج الذي يهبهم كل الحقوق ويجرد الرعية من حقوقها ، ويجعلهم مجموعة من الماشية والأغنام ، فإذا ما أراد الإنسان الحصول على مكان يدفن فيه ، وكفن يكفن فيه فعليه أن يلجأ إلى ربه وحاكمه للحصول على دفنه ، لأن الدفن هبة من الحاكم لعبيده وجواريه !!!

ومن خلالها يمكن لنا أن نرى إمكانيات الأمم المادية الضخمة تسخر لخدمة رغبات وشهوات النظام الحاكم — ومن يدور في فلكه — الفاجرة دون أن نسمع صوتاً يرده إلى صوابه ، ويعلمه أنه هذا الذى يبذره ليس من ماله ، أو مال أبيه ، وإنما هي عارية مستخلف عليها ، والتصرف فيه يكون بحساب ، وتحت قيود الحلال والحرام .

ومن خلالها أيضاً يمكن لنا أن نرى مدى الاستخفاف بالأمم ، التي كانت تساق إلى حتفها بملء إرادتها ، لتذبح على أهواء الزعماء والحكام .

ومن خلالها نرى ماذا يعتور الفطرة حين فسادها ، فلم تعد تنكر منكراً ، أو تأمر بمعروف .

ومن خلالها نرى رجال الدين الذين باعوا أنفسهم للشيطان ، وكيف أنهم يروجون الحكايات والأساطير ليبرروا سرقة الزعماء والحكام للسلطة في كل زمان .

ومن خلالها نرى الطبقة المثقفة المفكرة في الأمة ، وقد جرت في ركاب حكامها ، وباعت أقلامها لأهل الباطل ، فدونت تاريخ الجاهلية وتاريخ الوثنية وتاريخ الظلم ، وجعلت من أصحابه عظماء حكماء ، تفيض الحكمة منهم على من حولهم ، وتجاهلت الرجال الذين كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويتصدون للظالمين ، فيبطشون بهم ، ويغيبونهم فى السجون والمعتقلات ، بل إنّها تجاهلت الحكام الصالحين ، وتجاهلت وأغفلت عمداً الفترات التى كان الإسلام يحكم فيها حياة الأمة .

المبحث الأول

عصور ما بين آدم ونوح عليهما السلام

« ما قبل الطوفان »[1]

أولاً : ما يسمى عصور ما قبل التاريخ[2] :

١ ـــ العصر الحجرى القديم :

قد أثبتت الأبحاث التاريخية أن حياة إنسان غرب آسيا [3] قد تشابهت مع حياة إنسان شمال أفريقيا وأوربا ، بدليل تشابه مخلفاته وخاصة أدواته الحجرية التى عثر عليها في هذه الأماكن ، ويقول المؤرخون إن إنسان أرض الرافدين القديم الذى سكن الكهوف فى العصر الحجري القديم وعاش في المناطق الجبلية والهضاب قد ترك لنا مخلفاته التى مكنتنا من التعرف على حضارته في بعض الكهوف مثل شانيدار (بالقرب من قرية شانيدار في منطقة

---

(١) فى مراجع التاريخ القديم الحديثة وهى تقوم فى عالمها على منهج معاد للتصور الدينى عموما والإسلامى على وجه الخصوص كما بيَّنا فى مقدمة كتابنا .

(٢) وهى الفترة التى صور المستشرقون إنسانها على شاكلة الحيوان ، أو « الإنسان القرد » ، وإنه لم يكن يعرف ربَّه وخالقه ، فتصوَّر له آلهة على قدر نضوجه الفكرى ، أى أنه كان وثنيا ، وتطوّر فى وثنيته بل تطور فى خلقه ، وأن ذلك الإنسان كان يعيش معيشة لا تختلف عن معيشة الحيوان ، بل إنه تعلم من الحيوان الزواج ، وإنشاء الأسرة ، بل إنه تعلم التدين من الحيوان ـــ كما زعموا ـــ وأنه كان يسير عاريا ، فاخترع اللباس ، واستأنس الحيوان ، واخترع الزراعة ـــ كما ترعم مراجع التاريخ القديم مثال ديانة مصر القديمة ، ص ٤ تطور الفكر والدين ؛ شجرة الحضارة ص ٢٧ ـــ ٢٩ ، حضارة مصر والشرق القديم ، ص ٣ ؛ الجغرافيا التاريخية عصر ما قبل التاريخ وفجره ، ص ١٩٧ ؛ انتصار الحضارة ، ٩٢ ، ٩٥ ، ١١٩ ، ١٢٧ ، الله ، ص ١ ـــ ٥ تاريخ الحضارة المصرية ، جـ ١ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ؛ مصر والعراق ، ١٥ ـــ ٢٨ ؛ L'origine de l'homme , The origins of , Agricultures , The Worlds first Forming villages , Palaeolithic Man . The stone , Camberidge An Cient History I ,. 29 .

وقد بينا فساد هذا التصور فى بداية عرضنا لتاريخ البشرية ، تاريخ الأمة الواحدة .

(٣) وفى هذا دليل على وحدة الأصل البشرى ؛ لأن التشابه المتقن لا يمكنُ أن يكون وليد المصادفة .

رواندوز للواء أربيل ، في السفح الجنوبي لجبال زاجروس) ومخلفاته تمثل مرحلتي مدنية العصر الحجرى القديم الأوسط (وقدمها من ٦٠٫٠٠٠ — ٤٠٫٠٠٠ سنة) ، والأعلى (وترجع إلى ٣٥٫٠٠٠ سنة ق . م) ، كما يقدر ذلك المشتغلون بالتاريخ وذلك غير كهف زرزى فى المنطقة شمال غربى السليمانية ، وكهف بالى جاورا بجوار قرية سليمانى بلواء السليمانية أيضاً .

٢ — العصر الحجرى الحديث :

مع بداية العصر الحجرى الحديث تغيرت الظروف المناخية ، وقد ترتب على ذلك مظاهر رئيسية : دفء مع قلة الأمطار ، الأمر الذى دفع الإنسان إلى توديع حياة الكهوف ، واستئناس الحيوان وتربيته ورعيه ، واستزراع الأرض ، والاستقرار فى مساكن إلى جوارها[١] . ومن تجمع هذه المساكن نشأت القرى وزادت احتياجات الإنسان فتعددت صناعاته .

ولقد نشأ الاستقرار والزراعة فى وديان العراق الشمالية ، أكثر منه فى الوديان الجنوبية (حوالى ٥٠٠٠ ق . م) وتمثلت بداية حضارات هذا العصر فى ثلاث مراحل عثر على مخلفاتها فى جرمو[٢] وتل حسونة[٣] ثم تل حلف[٤] .

مدنية تل حسونة :

من دراسة مخلفات إنسان هذا العصر ، أمكن القول بإقامته فى مساكن بدائية من الطين ، وكذلك تصنيعه لأنواع خشنة من الفخار المزين أحياناً برسومات زخرفية ، وذلك غير آلات صوانية كانت تستعمل فى حصد سنابل القمح .

مدنية تل حلف :

تدل آثار هذه المرحلة على أن الإنسان بدأ يرتقى بأساليب حياته التى تقوم على الزراعة . وعرف المسكن المقبى السقف ، كما كان يستعمل أوان فخارية متقنة الصنع ذات

---

(١) وقد بيّنا فساد التصوير الموجود فى كتب التاريخ القديم وقلنا : إن الله سبحانه هو الذى ذلل بعض الحيوانات للإنسان وجعلها طائعة دلولة ، وذلك بخلاف الحيوانات المفترسة البرية ، وبيّنا أن الله هو الذى علّم الإنسان الزراعة صفحة : ٥٥ إلى صفحة ٥٦ .

(٢) شرق كركوك فى المرتفعات الكروية .

(٣) جنوبى مدينة الموصل حاليا .

(٤) فى أعالى نهر الخابور ، شمال غرب نينوى .

ألوان متعددة . وقد كان من هذا الفخار ما يزين بزخارف هندسية ورسومات الحيوانات . كما عرف الإنسان تشكيل تماثيل بدائية من الطمى المحروق الملون أحياناً كما عرف صناعة الأختام .

٣ ــ العصر الحجرى النحاسى :

استمر الإنسان في الرقى بمدنياته ، وقد ارتبط ذلك باكتشاف واستعمال معدن النحاس فى صناعة بعض الأدوات جنباً إلى جنب بعض الآلات الحجرية وقد عثر على أقدم ثلاث مراكز لمراحل حضارة هذا العصر فى جنوب ووسط العراق : فى تل العبيد والوركاء وجمدت نصر .

مدنية تل العبيد (حوالى ٤٥٠٠ ق . م) :

نمت هذه المدنية وترعرعت فى الجزء الجنوبى من بلاد النهرين ، وكان إنسانها يسكن فى مساكن مبنية من اللبن أو البوص ، وكان يتعبد إلى أوثانه فى معابد[١] مبنية على مسطح عال يصعد إليه عن طريق درج ، والمعبد عبارة عن مقصورة بها مشكاة لحفظ تمثال أو رمز الوثن ، وأمام المشكاة توجد مائدة قرابين بالقرب منها مذبح ويحيط بالمقصورة ومائدة القرابين والمذبح سور شكلت جوانبه الخارجية على هيئة دخلات وخرجات (ه . كتابات)

ولقد استعمل إنسان هذا العصر أنواعاً راقية من الفخار فاقت إنتاج حسونه فى الشمال ، وقد كتب لهذه الأنواع الانتشار شمالاً وجنوباً فى مناطق العراق ، وكان التنوع فى هذه الأوانى يعتمد على موضوعات الزخارف التى تغطى السطوح الخارجية لها ، فهناك أوان تحمل سطوحها زخارف تعتمد على خطوط هندسية متجانسة لونت بالأحمر والأسود وذلك غير تماثيل السيدات ، والطيور ذات الرقاب الطويلة ، والخطوط المتقاطعة .

مدنية الوركاء (ما تسمى بمدنية العصر الكتابى) :

كانت هذه المدنية تقوم على أطلال بلدة الوركاء الحالية والتى كانت تسمى قديماً باسم أوروك . ويقال إن مدنية هذه الفترة قد مرت بست عشرة مرحلة من مراحل التطور .

---

(١) وذلك يعنى أن المجتمع العراقى فى هذه الحقبة قد انتكس إلى الوثنية وانحرف عن الإسلام بعد انقضاء الفترة التى كان إنسانها على الإسلام ، ذلك أن مدنية العبيد تسبق عصر رسالة نوح عليه السلام .

وقد ارتبط هذا العصر بحدث هام وهو بداية معرفة الكتابة[1] (حوالى ٣١٠٠ ق . م) وقد بدأ إنسان هذا العصر توسيع نطاق تجمعه الإقليمى فنشأت المدن الصغيرة ، وقد صاحب اتساع العمران اهتمام بإنشاء قصور الحكام ومعابد الأوثان ، وتعددت الحرف بسبب وجود طبقة كافية من الصناع والفنانين ولقد صاحب هذا التجمع الإقليمى والاتساع العمرانى تطور فى العمارة يعتمد على استعمال قوالب اللبن فى البناء وبناء أعمدة دائرية المقطع وأخرى نصف دائرية تنتهى بها الجدران ، وكانت هذه الأعمدة تزخرف أحياناً بمخاريط فخارية ملونة .

ويتضح هذا التطور فى أطلال المعابد التى عثر عليها ومن بينها المعبد الأبيض وهو يتكون من مقصورة رئيسية تحتوى مشكاة لحفظ تمثال الوثن وكما تحوى مائدة قرابين ومذبح يجاوره موقد نصف دائري ، ويحيط بالمقصورة والحجرات الجانبية المتصلة بها سور مستطيل زين سطحه الخارجى بمشكاوات ، ولقد أقيم بناء للمعبد بأكمله فوق تل صناعى مرتفع بنى هو الآخر بالطوب اللبن على هيئة دخلات وخرجات دعمت بفلوق النخل ، ويؤدى إلى سطح المعبد طريق صاعد ودرج طويل ويعتبر ذلك « أُصل الزقورة »[2] التى كانت من مميزات العمارة العراقية القديمة .

وزخرفة المعابد عموماً ، تعتمد على كسوة المشكاوات بالملاط وتلوينها بلون واحد أو

---

(١) ولقد تبين لنا أن الله قد علم آدم أسماء كل شيء وكيفية التعبير عنها وتدوينها . وذلك يعنى أن آدم عليه السلام كان يعرف القراءة والكتابة بجميع الألسن وهذا معنى قول الله تعالى : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ انظر الجامع لأحكام القرآن ، سورة البقرة ، جـ ١ ، ولهذا يتضح لنا فساد تقسيمات عصور ماقبل التاريخ ، على اعتبار أن إنسانها كان يعرف كيف يقرأ ويكتب كما هو ثابت . وبالتالى نتضح لنا فساد القول بأن الإنسان هو الذى اخترع الكتابة منذ نهاية الألف الرابع قبل الميلاد .

(٢) برج شاهق الارتفاع يقام بجوار معبد المدينه ، على هيئة طبقات أقلها ثلاث وأقصاها سبع تتناقص كلما أحدث فى الارتفاع . ويقام فوق القمة معبد يعبد فيه وثن المدينة . ومعنى هذا أن خط الانحراف عن الدين الصحيح (الإسلام) قد ازداد اتساعا عما كان عليه فى عهد مدنية تل العبد ، ويتبين لنا من هذا الوصف التفصيلى الذى تحمله كتب التاريخ فساد المنهج والتصور ، لأنه لا يترتب على عرض هذا الأمر عمل ، ولا يترتب على العلم به تحقيق أية فائدة للمسلم فى الدنيا ولا فى الآخرة ، بل على العكس مضيعه للوقت والجهد . والإنسان مسئول عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن علمه ماذا عمل فيه . ماذا تفيد البشرية فضلا عن المسلم من معرفة وصف معابد الأوثان إلا أن يقيم معابد للوثنيين على نمطها . ماذا يفيد الناس من معرفة فنون النحت والنقش والرسم إلا أن يعملوا على نمطها ، وهذا منهى عنه شرعا . هل أدركنا كيف تضيع أعمار شباب الأمة فى دراسة لا ينبغى عليها عمل ، فضلا عن كونها تشكل خطورة على عقيدة المسلم

زخرفتها بصفوف من الحيوانات تنفذ على أفاريز من الحجر وتثبت فى الجدران الرئيسية .

وبالإضافة إلى ذلك فإن فنون النحت والنقش والرسم قد بلغت حداً كبيراً من التقدم ، وذلك ما تعكسه لنا الأختام الأسطوانية والمخروطية والأوانى الحجرية واللوحات والتماثيل المختلفة[1] .

---

(١) إنا إذا طبقنا ضوابط العلم ومنهج تلقيه فى ضوء العقيدة الإسلامية نجد أن دراسة وتدريس هذه المادة بهذا المضمون منهى عنه شرعا لأنه يضيع أعمار الأمة فى تحصيل معلومات لا يترتب عليها عمل فالعلم النافع هو الذى يتوسل به إلى عبادة الله حسب مفهوم العبادة الشامل : ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ ومادة التاريخ القديم على هذا النحو المعروضة به فى المراجع لا تؤدى فى وسائلها وأهدافها ونتائجها إلى تحقيق علم نافع . (انظر الموافقات ، للشاطبى ، جـ ١ ، ص ٦٥ ، منهج كتابة التاريخ الإسلامى وتدريسه ، محمد بن صامل السلمى الصفحة ٢٥ وما بعدها) .

المبحث الثانى

عصور ما بعد نجاة نوح عليه السلام فى مراجع التاريخ القديم ذرية الناجين من الطوفان

وهى الفترة التى سمَّاها المستشرقون عصر بداية الأسرات السومرى

(٣٠٠٠ ق . م ــ ٢٣٤٠ ق . م)

ومعلوماتنا عن هذا العصر مستقاة من كتب التاريخ القديم التى اعتمدت على الأبحاث الأثرية ، ولذلك لا نملك تصديقها أو تكذيبها ، ولكن نظراً لتداولها فى دور العلم ، فقد أوردنا سلفاً الأسباب التى تدعونا إلى سرد ما ورد فيها ، وهى معلومات ، الجهل بها لا يضر والعلم بها لا ينفع .

ولهذا العصر تسميات كثيرة منها « فجر الأسرات » وعصر ما قبل « سرجون » وعصر « لجش الأول والثانى والثالث » وأسرة « أور الأولى » وهو العصر الذى يبدأ من نهاية عصر بداية معرفة الكتابة حتى عصر بناء الدولة الأكدية .

ويعتبر هذا العصر حجر الأساس فى صرح الحضارة السومرية التى ظهرت فى بلاد النهرين ، والمدنيات الأخرى التى جاورتها وأتت من بعدها ، ومسرح هذا العصر هو السهول الجنوبية للعراق المسماة فى النصوص القديمة « سومر » والذى سمته النصوص السومرية من قبل باسم « كلام » أو « كلاماً » [(١)] ويقول المؤرخون : إن هذه المنطقة ظلت مغمورة بمياه البحر حتى القرن الستين ق . م ثم أخذت الرواسب تتراكم فتعلو بمرور السنين حتى انحسرت عنها المياه ثم تحولت إلى أرض مملوءة بالمستنقعات ثم صارت سهولاً خصبة تحوى بيئة صالحة لسكن الإنسان . هذه هى دلتا دجلة والفرات التى سكنها شعب سومر ، والذى يعتبر بحق الشعب الذى يمكن أن يرجع تاريخه إلى عصر يعادل فجر التاريخ فى مصر.

---

(١) مصر والعراق ، ج١ ، أ.د. عبد العزيز صالح .

وبناء على هذا التصور لبيئة ومنطقة سومر طرح المؤرخون السؤال التالى :

إذا كانت منطقة سومر بالصورة التى تم وصفها فذلك يعنى أنها كانت غير صالحة للسكن قبل تكوين الدلتا المذكورة . فمن أين أتى شعب سومر وإلى أى الأجناس ينتمى ؟ وأجاب البعض بأنهم فرع من الشعوب السامية التى انتشرت فى شبه الجزيرة العربية ، ولكن هذه النظرية صرف عنها النظر لأنه — كما قيل — ظهر أن هناك فرقا بين جماجم السومريين وجماجم الساميين ، والمتعارف عليه الآن أن شعب السومر فرع من الشعوب التى سكنت إقليم شمالى غربى الهند وهاجر إلى العراق عن طريق عيلام (جنوب إيران) .

ولا يمكن التحدث عن مدن أرض الرافدين فى ذلك العصر الموغل فى القدم كبلد ينتظمه وحدة سياسية بل كمراكز متعددة هى ما تسمى بدويلات المدن أى المدينة المستقلة التى يحكمها أسرة حاكمة واحدة ، ولقد ترتب على تعدد دويلات المدن المستقلة منازعات على الحدود وعلى الأرض الزراعية الصالحة للزراعة ، وموارد المياه والرغبة في السيطرة والزعامة ، أو تصريف المنتجات وتأمين سبل التجارة أو تأمين الحصول على مطالب الدويلة الأساسية . كما تزعم مراجع التاريخ القديم .

ومن دويلات المدن السومرية : كيش (تل الأحيمر) ، وأروك (الوركاء الآن) وأور [1] (المُقيّر) ولجش (تلو) وأومّا (تل جوخة) ، وإريدو (أبو شهرين) ونيبور (نفّر) .

والمدينة السومرية يحدها سور كبير يحيط بها ويفتح به بضع بوابات تؤدى إلى خارج المدينة حيث المراعى وأراضى المدينة الزراعية ويتوسط المدينة معبدها الذى يحيط به سور يحجبه عن المنازل المبنية خارجه ، وكان لكل مدينة (معبود) هو سيدها ، وإن لم يمنع ذلك وجود أوثان أخرى صغيرة إلى جانبه ، وكان أيضا لكل مدينة « حاكم » يحمل لقب إنسى بمعنى النائب أو الوكيل « أى بمعنى المعبود على الأرض » ، وفيما بعد استبدل هذا اللقب بلقب آخر هو « لوجال » المساوى للفظ ملك ، وكان هذا الحاكم هو الكاهن الأكبر

(١) أقدم دويلات المدن السومرية ، وحكمها أسرة ملكية قوامها خمسة ملوك ذكرتهم القوائم الملكية ويبدأون بالمدعو « مس أنى بد » ولذا يرى البعض تسمية عصر بداية الأسرات السومرى باسم أسرة أور الأولى ، ولقد بلغت هذه المدينة شأوا كبيرا من التقدم على يد مليكها الأول ولكنه كان هنالك فى سومر مدن أخرى حاولت انتزاع لواء التقدم منها ، وكان أكبر منافس لها مدينة لجش

للإله الأعظم ويعاونه بعض الكهان الذين يعاونهم بالتالى بعض الكهنة (١) كما تزعم مراجع التاريخ القديم .

ولقد كانت الدولة المدينة هى شكل الوحدة الأساسية لبلاد العراق القديم أما المعبد فهو المركز الحيوى لكل مظاهر المدينة : فيه يتعبد الناس ، وفيه يحكم القضاة بين الناس ، وخارج المعبد كانت توجد دور للكتبة وحوانيت للبيع والشراء .

ومن صور الصراع التى حدثت بين دويلات المدن السومرية الصراع بين دويلتى لجش وأوما .

ولقد أثار النزاع بين هاتين المدينتين على الحدود وموارد المياه ، ولكن لم يستمر طويلا بفضل تدخل حاكم مدينة كش : ميسيليم (٢) ، الذى ترك لنا نصا يحكى جانبا من هذا الصراع ، وأنه قد قام بفرض الصلح على الطرفين .

ولكن عمر هذا الصلح كان قصيرا ، ففى عهد أياناتم حاكم دويلة لجش وحفيد أورنانشه أحد مؤسسى الأسرة الحاكمة هناك قام حاكم دويلة أوما المدعو أوش بالاستيلاء على الأرض الزراعية الفاصلة بين إقليمه وإقليم لجش ناقضا معاهدة السلام التى بينهما . وعلى الفور قام أياناتم بتجريد حملة عسكرية لتأديب حاكم أوما واستعادة الأراضى المغتصبة . وقد تم له ما أراد ولكنه كان كريما إذ سمح لأفراد (أوما) الذين كانوا يقطنون الحدود باستزراع جزء من أراضى الحدود بشرط دفع الضرائب عنها .

ويبدو أن هذا النصر الذى حققته لجش على يدى « أياناتم » كان بداية التفكير فى توحيد سومر كلها ، ولتحقيق هذا الأمل بذل هذا الحاكم الطموح جهوده فى توحيده أور

---

(١) المرجع السابق ، ٣٩٨ — ٣٩٩ ، وهذا يعنى أن أهل سومر قد ارتكسوا مرة أخرى إلى الوثنية بعد وفاة نوح عليه السلام بزمن يعلمه الله عز وجل ، كما حدث للأقوام الذين سبقوا بعثة نوح عليه السلام وهكذا نرى البشرية متغيرة الأحوال والأطوار ، فتارة تمتثل لأوامر ربها ، وتارة أخرى يجتالها الشيطان عن دينها .

وذلك رغم ضربهم بسهم وافر فى مجال تنظيم الجيش وتسليحه ، وتدوين أخبارهم باللغة السومرية ، وتخطيط المدن ، وصناعة الأدوات المنزلية ، والنهوض بالزراعة وشق الترع والقنوات وبناء السدود (حضارة مصر والشرق القديم ، ص ٢٦٨ ومابعدها) .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠٠ .

وأوروك وكيش آملا أن يصبح ملكا على سومر كلها . ولكن لم يهنأ بال هذا الحاكم بالانتصارات التى حققها لأن بعض المدن التى أخضعها ثارت ضده إذ كانت تفضل الاستقلال على الانضواء تحت لواء أية مدينة أخرى .

« ولقد حاول خلفاء أياناتم جمع شمل تلك المدن مرة أخرى ، ولكن جهودهم لم تثمر ، بل ازداد الأمر سوءا حينما تجدد القتال مرة ثانية بين جيش لجش بقيادة حاكمها اينتيمنا وبين جيش أوما بقيادة كاهنها الأعظم « أل » وهزم الأخير فى هذه الحروب هزيمة منكرة .

هذه الهزائم المتتالية خلقت فى نفوس شعب أوما وحاكمها مرارة حولت التنافس إلى عداء مستحكم بينها وبين مدينة لجش وما برحوا يتحينون الفرصة للإيقاع بها .

وقد واتت الفرصة حاكم مدينة أوما المدعو « لوجال زاجيزى » حينما كان يتولى حكم لجش مصلح هو « أوركاجينا » انشغل فى إصلاح الأحوال الداخلية لمدينته .

فقام لوجال زاجيزى بعد إعداد العدة بالانقضاض على مدينة لجش ، فخربها ، وحرق قصورها وهدم هياكل معبوداتها ونهب مدخراتها .

ولقد كان هذا النصر مشجعا للحاكم «لوجال زاجيرى » أن يواصل جهوده فى سبيل توحيد سومر كلها متخذا من أوروك التى كان كاهنا لإلهها الأكبر مقرا لحكمه ، ومعلنا نفسه ملكا على سومر كلها ، كما تروى مراجع التاريخ القديم .

ويبدو أن هذا الذى تم كان على كره من المدن السومرية بدليل ما كان يشيعه هذا الملك وأتباعه ويحكيه لنا أحد النصوص السومرية بأن ما حدث هو تحقيق لرغبة آلهتهم [(١)] ،

---

(١) وهذه في محاولة لإصباغ الصفة الدينية على الحكم ، حتى يوهموا الجماهير أن تولية الحاكم شئون البلاد من تقدير آلهة بلاد الرافدين مع العلم بأن هذا الصراع الذى يجرى إنما يجرى بين أخوة الوطن الواحد ، واللغة الواحدة ، والوثنية الواحدة ، والمصير المشترك الواحد . ولكن كل ذلك لم يحل بينهم وبين التطاحن والتصارع من أجل عرض الدنيا الزائل ، من أجل الزعامة ، من أجل قطعة أرض . وهى صورة لما يجرى فى عالمنا المعاصر ، تغير الزمان ، ولكن صورة الإنسان الذى بعد عن هدى الله ، ومرق من الإسلام ، هى لم تتغير ، إن ذلك كله يجرى لأن دويلات المدن السومرية قد شردت عن دين الله كما تبينها كتب التاريخ القديمة ، وبالتالى فإنه لايمكن لقلوب ضالة أن تتوحد لأنها استمرأت المعاصى : ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم** ﴾ .

وأن هذا الحاكم قد نشر العدالة فى الأرض وأن أحوال البلاد قد استقرت فى عهده وأن الأرض قد نعمت بالسلام .

كما أنه ترك لنا نصا يقول : إنه استطاع السيطرة على كل البلاد التى تمتد من مشرق الشمس إلى مغربها ، ومن البحر الأسفل (الخليج العربى) والدجلة والفرات إلى البحر الأعلى (البحر المتوسط أو بحر قزوين) . ومما يمكن أخذه من هذا النص أن الحاكم «لوجال زاجيزى » بدأ يرنو ببصره إلى مد حدود بلاده حتى الخليج العربى فى الجنوب والبحر المتوسط فى الغرب ، ولكن ما طرأ على مناطق العراق القديم نتيجة ظهور الأكدين الساميين ، حال بينه وبين ما يشتهى » .

عصر الدولة الأكدية

٢٣٤٠ — ٢١٨٠ ق . م

رأينا من خلال دراستنا لتاريخ أرض الرافدين (العراق القديم) السياسى فى عصر بداية الأسرات السومرى أن الرقى المدنى ، ووحدة الجنس ووحدة الأرض لم تفلح فى لم شتات دويلات المدن السومرية ، بل كان التطاحن والتشاحن والحروب التى حالت بين أهل العراق القديم وبين الإحساس بالتسلّل البطىء إلى داخل العراق من قبل فرع من الشعوب السامية التى كانت تقطن بوادى العراق والشام وأصلها شبه الجزيرة العربية ، هذا الفرع من الشعوب السامية كان يرنو ببصره إلى المناطق الخصبة بوسط العراق ، والواقع أنه قد كان من المقومات ما يؤهله للسيطرة عليها ، فهو دائم الحركة محب للقتال — كما يقول المؤرخون .

وحوالى عام ٢٣٠٠ ق . م هاجمت موجة عنيفة من هذه الهجرات السامية مدينة أوبيس فى الشمال واستولوا عليها واستقروا فيها ، وكما يقال كان ذلك إيذانا بظهور الجنس السامى على مسرح الأحداث ببلاد النهرين ، وبداية منافسته لشعب السومر .

ولقد كان استقرار الساميين فى أوبيس بداية عهدهم بتكوين دويلة على نمط المدن السومرية ، ثم قاموا بالاستيلاء على مدينة كيش إلى الجنوب من أوبيس وبدأ العلم يسقط من أيدى السومريين ليتسلمه الذين عرفهم التاريخ باسم الأكدين — نسبة إلى عاصمتهم

أكد [١] مركز نشاطهم السياسى والحربى ـــ الذين ستكون لهم اليد العليا فى مناطق جنوب العراق .

ولقد ظل رؤساء العشائر السامية يتعاقبون على حكم كيش ، إلى أن شاء القدر أن يتربع على شئون البلاد أحد الأشخاص من عامتهم ويسمى سرجون [٢] .

الملك سرجون :

« وقد تولى الملك شئون البلاد لمدة خمسة وأربعين عاما . وفى بداية حكمة وجه اهتمامه إلى قواته المحاربة فزودها بالعتاد والعدة اللازمة . ثم انتقل إلى عاصمة جديدة بالقرب من كيش عرفت باسم أكد [٣] واتخذ لنفسه لقب « ملك سومر وأكد » و « ملك الجهات الأربع » . وبعد أن اطمأن إلى رسوخ قدمه اتجه بجيوشه إلى الشمال محاربا وغازيا ، فدانت له البلاد حتى جبال زاجروس التى تحف ببلاد النهرين فى الشرق ، وحيث خضد شوكة الجوبتيين سكان الجبال الأشداء . ثم بدأ يرنو ببصره إلى الجزء الجنوبى من العراق (سومر) فسير الجيوش إليهاحتى بلغت الخليج العربى ، وفى الطريق اصطدم بالقائد الطموح « لوجال زاجيزى » فهزمه ، وعامله بقسوة ، وأذله ، وهدم مدينة أوروك . وبهذه الخطوة اختفى من طريقه منافسه الوحيد ، ودانت له بلاد العراق كلها بما فى ذلك دويلات سومر .

وبعد ذلك بدأ يوجه الجيوش خارج حدود العراق ، فوصل إلى المنطقة التى حول « مارى » غرب العراق ، وبعد ذلك إلى عيلام شرق العراق . وتقول النصوص أن هذه البلاد قد استسلمت له جميعا بما فى ذلك المنطقة حول الخليج العربى .

وإذا صدقت نصوص سرجون ونصوص خلفائه ، فإن فتوحاته قد وصلت إلى منطقة

---

(١) المرجع السابق ص ٤١٣ .

(٢) صحة الاسم شروكين وهو يعنى الملك الصادق ، الملك الشرعى ، وقد ترك هذا الرجل نصا يحكى لنا أنه لا يعرف له أبا . وكيف ولدته أمه فى مكان « ما » على صفاف الفرات ، ثم وضعته فى سلة وألقت به فى اليم وانتشله أحد الفلاحين الذى رباه حتى صار ساقيا فى قصر ملك كيش ، ومن هناك أتاح له القدر أن يثب على عرش البلاد (المرجع السابق ، ص ٤١٤)

(٣) هذا الاسم سامى الأصل ، ويعرف فى السومرية باسم « أجادة » .

طوروس ولبنان وجانيش (جول تبه الحالية) فى كبادوكيا بآسيا الصغرى ، وأنه حارب ٣٤ معركة كللت بالنجاح .

ولقد كان ذلك كافيا لتحقيق الوحدة بين أجزاء البلاد مما هيأ للحكومة المركزية موارد اقتصادية ضخمة وجموعا بشرية كبيرة تعمل تحت إمرتها » .

خلفاء سرجون :

لم تصبر دويلات سومر على الخضوع لسلطان حكومة مركزية ، فقامت الثورات ضد حكم سرجون ، وصل الأمر إلى حد محاصرة سرجون نفسه فى العاصمة أكد ولكن سرجون لم يقف مكتوف الأيدى ، وكان رده عنيفا ، فقتل من أهالى المدن السومرية ١٨ر٠٠٠ وذلك غير عدد الأسرى .

وبعد وفاة سرجون خلفه ابنه ريموش وفى خلال فترة حكمه القصيرة ثارت ضده أور وأوما ولجش ، فاشتبك معها بجيشه ، غير أن ذلك لم يمنعه من أن يواصل رسالة أبيه فى التوسع خارج حدود العراق ، فاتجه إلى أرض عيلام حيث كانت له حملة ظافرة .

وخلف ريموش فى حكم البلاد أخيه مانيشتوشو الذى اقتفى سيرة أبيه وأخيه فى التوسع بحدود العراق عما هى عليه ، وإذا كان ما ورد فى النصوص التى تركها صحيحا فإنه واجه ثورة من أحد الأحلاف المكونة من اثنين وثلاثين أميرا على الشاطىء العيلامى عند قيامه بتأمين مناجم الفضة هناك .

وبعد وفاة مانيشتوشو ، خلفه على العرش نارامسين (حبيب سين إله القمر) [١] الذى طالت فترة حكمه فامتدت أربعين عاما ، ويقال إن الفتوحات استمرت فى عهده فغزا آسيا الصغرى ، ووطد أركان إمبراطوريته هناك حتى عيلام شرقا وأمانوس (منطقتى لبنان وطوروس) غربا ، كما تحكى مراجع التاريخ القديم .

انهيار الدولة الأكدية :

لقد استكملت الدولة الأكدية مقومات السقوط بسبب الأحوال التى سادت المجتمع

---

(١) نفس المرجع ، ص ٤١٧ .

داخليا وخارجيا . وقبل أن نمضى فى إحصاء الأسباب التى أدت إلى انهيار تلك الدولة نود أن نوجه النظر إلى شيء عجيب : دأبت نصوص العراق القديم على أن تعزو أى نصر يحققه الملك إلى صلاحه واهتمامه بأماكن العبادة وإرضاء إله المعبود ، كما حرصت أن تعزو الهزيمة التى تحيق بالحكام والقحط الذى يعم البلاد إلى كثرة ذنوب العباد ، وعدم رضاء الإله عن هذه التصرفات [1] .

وإذا ترجمنا ذلك النص ، ونظرنا إليه نظرة فى ضوء العقيدة الإسلامية ، فيمكن لنا أن نقول ، إن الشرك بالله ظلم عظيم ، وإذا كان الحاكم والمحكوم ظالمين ، فيكفى ذلك لإهلاكهم مصداقا لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد** ﴾ [2] .

فإذا كانت قرى العراق ظالمة أى مشركة ، فمن الطبيعى أن يصيبهم غضب الله وعقابه .

ويحكى لنا كتاب التاريخ أن المجتمع الأكدى قد سادته الكثير من المظالم ومنها التفرقة بين السامى والسومرى التى وصلت إلى حد إعطاء الأول حقوقا على حساب الآخر ، كما أن الحكام أسرفوا فى تأكيد سلطانهم الفردى بدليل ما آل إليه الوضع فى المجتمع الأكدى من أن حكام المدن دأبوا على تلقيب أنفسهم « بخدم الملك » أو « عبيده » ، كما أصبح الناس يطلقون على أبنائهم تسميات مثل شروكين . إلى ، إى ، « سرجون إلهى » [3] .

فى ظل هذه الظروف ساد جو من التزمر بين شعوب دويلات المدن التى تخضع لسيادة « أكد » فتمنت اليوم الذى يأتى للخلاص منها ومن حكامها ، وقد واتتها هذه الفرصة مع ضعف الدولة الأكدية التدريجى واتجاهها نحو الانهيار الذى لاحت بشائره فى ظل شاركالى شارى ومن تولى بعده من ملوك أكد ، حينما استقلت أوروك وحينما بدأ الجوتيون يتحركون فى اتجاه الأراضى الخصبة بالعراق ، فأذاقوا أهلها أسوأ أنواع العذاب الذى

---

(١) مصر والعراق ، ٤١٧ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

(٢) الحج : ٤٥ .

(٣) وبذلك يعنى أن حكام العراق ادعوا الألوهية والربوبية كما فعل الفراعنة فى مصر ، الشرق الأدنى القديم ، مصر والعراق ، ص ٤٢١ .

تصوره أحد النصوص وحوش الجبال الذين فتكوا بالناس وسلبوا النساء من أزواجهم والأطفال من أمهاتهم والذين أفسدوا الحكم وقضوا على سومر بعد أن حملوا كنورهما معهم إلى الجبال ، وقد قام الجوتيون بالاتجاه جنوبا نحو دويلات سومر مزيحين من طريقهم كل من يعترضهم ، فحطموا قوة الأكدين ومن عاونهم ، وعندما اطمأنوا إلى عدم وجود أية مقاومة أو نية انفصالية عادوا إلى شمال العراق ليقيموا فيه تاركين الجنوب لأهله يؤدون الجزية وفروض الطاعة والولاء .

ولقد أطلق الجوتيون على أنفسهم لقب : ملك الجوتى وأركان العالم الأربعة وتأثروا بالثقافتين السومريه والأكدية .

ولقد حانت للمدن السومرية فرصة النهوض من كبوتها حينما ترك الجوتيون لهم الجنوب وأقاموا بشمال البلاد ، وذلك على مدار قرن من الزمان مما أعطى هذه المدن الفرصة لاستعادة نشاطها ، فشنت حملة ناجحة ضد الجوتيين فطردتهم وكسرت شوكتهم ، وقامت ببناء صرح عصر جديد عرف باسم عصر إحياء الدولة السومرية أو العصر السومرى الجديد ، كما تروى كتب التاريخ القديم .

الفصل الرابع

بعثة إبراهيم عليه السلام فى بلاد الرافدين

المبحث الأول

أحوال المجتمع السومرى

عصر قبيل ميلاد وبعثة إبراهيم عليه السلام [١]

إن المتتبع لأخبار السومريين بعد وفاة نوح عليه السلام وحتى قبيل بعثة إبراهيم عليه السلام يجد أن زاوية انحراف المجتمع قد ازدادت بعد أن بعد عهده برسالة نوح عليه السلام . وأبرز ملامح هذا الانحراف هو الشرك بالله عز وجل ، وعبادة الطاغوت ، وعدم الانضباط مع نظام الله وشرعه .

وقد أشار إلى ذلك الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح بقوله : « أخذ السومريون بتعدد الأرباب والربات ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من أصحاب الديانات الوضعية القديمة » [٢] .

ومنها أيضا :

« الاهتمام بمعابد الأوثان ، وصناعة التماثيل لها [٣] ، وإقامتها في المعابد [٤] ، وإقامة الأعياد

---

(١) وهو يقابل نهاية عصر الدولة الأكدية ، وبداية عصر الإحياء السومرى بأرض دجلة والفرات العراق القديم .

(٢) مصر والعراق ، ص ٣٩٤ ـــ ٣٩٨ . وهو يعتمد على ما كتبه :

S . N . KRAMER , Sumerian Mythology, 1944 , H . HOOKE , Babylonian and Assyrian Religion , 1923 .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢٢ .   (٤) المرجع السابق ، ص ٤٢٥ .

لها ، وهي صورة لما يجرى في جاهليتنا المعاصرة من صناعة التماثيل وإقامتها في الميادين والحدائق ، والاحتفال بها مثل ما يحدث عند تمثال الجندى المجهول ، وغيرها .

* وقف الكثير من ثروات المدن وأرضها للصرف على هذه المعابد [١] ، وكان يتصل بهذه المعابد عدد كبير من النساء يعملن كخادمات أو سرارى للآلهة أو لممثليهم الذين يقومون مقامهم [٢] على الأرض .

* التطاحن والتقاتل بين هذه المدن ، مثال ذلك ما حدث بين مدينتي أومّا ولجش [٣] .

* رفع الحكام إلى مرتبة الألوهية والربوبية [٤] ، والدليل أن بعضهم سمي أسماء « شولجي إيلي » : أى شولجي إلهي وشولجي باني : أى شولجي الخالق .

* اللجوء إلى السحر ، فالإنسان الذى يريد أن ينجو من عالم الرذيلة ، ويرجع إلى النطاق الذى تسوده الفضيلة فعليه أن يلجأ إلى السحر [٥] .

* عبادة إله القمر وسموه « ننار » وحامي أور ، وزوجته الربة ننجال [٦] .

* التعامل بالربا : « يدل على ذلك وثيقة قرض من عصر الأحياء السومرى يقول كاتبها : « ١٢٠ شقلا من الفضة ، أرباحها ٥ شواقل ، لكل ٦٠ منها شاقل ، اقترضها (فلان من فلان) على أن يسددها في شهر سيج ، وأقسم على ذلك باسم الملك » .

وهنا نلمح أيضا مظهرا من مظاهر الشرك ، وهو الحلف بغير الله » [٧] .

* المظالم التي كان يعاني منها المجتمع ، مثال ذلك : ما فرضه الكهنة من الضرائب على كل شيء بما في ذلك جز صوف الغنم ، وعلى طلاق الرجل لامرأته ، وعلى دفن الموتى : فأضيف استغلال الكهان إلى استغلال ضعاف النفوس من الحكام وموظفي القصر وكبار الموظفين

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩٩ .

(٢) ولم تكن الفتاة السومرية أو الأكدية ترى شيئا من العار لها على هذا النحو ، بل إن أباها كان يفخر بأن يهب جمالها ومماتها لتخفيف ما يعترى حياة الكهان من ملل وسآمة ، المرجع السابق ، ص ٣٠٤ .

(٣) حضارة مصر والشرق القديم ، ص ٣٠٣ .

(٤) مصر والعراق ، ص ٤٣٠

(٥) حضارة مصر والشرق القديم ، ص ٣٠٣ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٤٣١ ، ص ٤٣٣ .

(٧) المرجع السابق ، ص ٤٣٢ ، وذلك من عصر الإحياء السومرى .

وجباة الضرائب ، بحيث قيل إن قصور الحاكم وضياعه ، وبيوت الحريم ومزارعهم ، أصبحت يتاخم بعضها بعضا ، ومن المحتمل أن نفوذ الكهنة قد تضخم حينذاك بحيث شاركوا الحكام أهميتهم ، إن لم يكونوا قد طغوا على نفوذهم فعلا .

وقد جاء ذلك نتيجة اغتصاب أرزاق العباد[1] .

* الدفن في مقابر على شاكلة المساكن أسفل سطح الأرض [2] ، ودفن الحكام ومعهم أتباعهم من الجند والخدم والوصيفات والمومسات وسائقي العربات والثيران والحمير البرية التي تجر العربات .

ولكن رغم هذا الانحراف ، ظلت هنالك بعض العلامات البارزة التي تؤكد أصالة خط توحيد الله في حياة الأمة السومرية ومن أتى بعدهم ، وهي عبارة عن رواسب وبقايا آثار رسالة نوح عليه السلام ، والقرون العشرة التي كانت على الإسلام من قبله . مثال ذلك :

* « ما ذكر من أن فقهاء الديانة السومرية قد تخيلوا السماء والأرض في بداية أمرهما ملتصقتين ثم تم فصلهما » [3] .

* « كما أنهم ردوا إلى ربّهم فضل ابتناء مدنهم وتنظيمها ووضع شرائعها » [4] .

* « كما أنهم ذكروا في نصوصهم بأن الناس ما خلقوا إلا للعبادة » [5] .

* « وأنهم قد خلقوا من طينة الأرض ، وأنهم يؤمنون بالآخرة » [6] .

* « ذكر قصة خلق الإنسان من طين » [7] .

ـــ المعلومات المدونة عن أحوال البلاد والإنسان في ذلك الزمن البعيد ، إذا حاولنا أن نستخلص منها بعض الحقائق ـــ وإن كان بعض كتاب التاريخ اعتبروها أساطير ـــ نجد

---

(١) مصر والعراق ، ص ٤٠٢ ـــ ٤٠٣ ، ذكرت النصوص السومرية ، أن زعيما مصلحا يدعى « أوركاجينا » حاول أن يصلح هذه الأوضاع المتردية ، وأعلن في أحدها كيف أقر ربه بأسه في قلوب ستة وثلاثين ألفا من رعاياه ، وكيف وفقه إلى أن يسير على هديه ، ويعيد حرية الأهلين الذين قاسوا المظالم .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٠ ، ٤١١ .

(٣) مصر والعراق ، ص ٣٩٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٩٦ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٣٨٧ .

(٦) حضارة مصر والشرق القديم ، ص ٣٠٢ .

(٧) نفس المرجع ، ص ٣٩٧ .

أنها تتحدث عن بداية الخلق وتعتبره عصرا دهبيا ، وأن هذا العصر « ما فيه خوف ولا فزع ، ولم يكن للإنسان منافس ، وأن بلاد شوبر وهمارى (في غرب إيران) وبلاد سومر كثيرة الخبرات ، البلد العظيم ، ذو النواميس المقدسة الخاصة بالإمارة ، وبلاد أورى (وسط بلاد النهرين وشمالها ؟) التي حوت كل طريف ، وبلاد مارتو (بوادى العراق والشام) كلها كانت آمنة مطمئنة ، وجميع الكون والناس في وحدة وألفة .... » .

وهده هى سمات المجتمعات الإسلامية التى كانت بين آدم ونوح عليهما السلام .

الاستفتاءات والاستخارات التي كانوا يقومون بها عند الرغبة في القيام بأمر من الأمور [١] ، مثال ذلك ما ذكرته النصوص : أن أياناتم استفتى ربه في حربه ، وأنه زار معبده واستلقى فيه على وجهه (أى سجد) ، فتمثل له ووعده بنصره وتأييده [٢] .

النصوص السومرية التي ترجع إلى الألف الثاني قبل الميلاد ، تحوى معلومات قريبة التشبّه بما ورد في المصادر الإسلامية بالنسبة لخلق الإنسان والحيوان والنبات وأخبار الطوفان . مثال ذلك :

« ما تخلف من قصة الطوفان السومرية ، يصور زمنا بعيدا خلق فيه البشر أصحاب الرؤوس السود ، والنباتات والحيوانات ، ونزلت فيه الملكية من السماء إلى الأرض ، وبدأ العمران فيه من خمس مدن أشرف الإله على إنشائها في مواضع طاهرة ، وسماها بأسمائها وهي : أريدو ، وبادتيبيرا ، ولاراد ، وسيبار ، وشوروباك .

ثم قضى الإله أن يغمر الفيضان الأراضى لأمور ... وأعلن قضاءه ... فدب الذعر في قلوبهم ... وكان أشدهم اهتماما به أنكى وملك صالح يدعى زيوسودرا .

وأراد أنكى أن يخبر زيوسودرا باليوم الموعود بطريق غير مباشر فأوحى إليه أن يقف بجوار جدار مقدّس ، وأن يستمع منه إلى صوته ، وأتاه الصوت قائلا : سوف ألقى إليك كلمتي ، فاستمع لأمرى ، بقضائنا سوف (يكتسح) الفيضان مراكز العبادة ، ويقضي

---

(١) نفس المرجع ، ص ٣٩٤ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٠١ وقد انتصر وخلد نصره على لوحة تعرف اصطلاحا باسم « لوحة العقبان » .

على سلالة البشر ... ذاك قرار محدد ... وقضاء .... » [١] ويبدو أنه قد نصحه ببناء سفينة ، وفي اليوم الموعود ، هبت الأعاصير هبة عنيفة ، وأطاحت بمراكز العبادة وصحبها فيضان كاسح ، واستمر ذلك سبعة أيام وسبع ليال ، اكتسح الفيضان الأرض فيها ، ودفع السفينة قدما .

وبعد مدة ما ظهرت الشمس فأنارت السماء والأرض ، وفتح زيوسودرا فتحة في جدار سفينته ، وتطلع منها فرأى أشعة الشمس ، وعلم بصفح ربه .

وظهرت الخضرة على الأرض من جديد ونما النبات ، ووهب الرب الأكبر زيوسودرا حياة طيبة ، فعاش في أرض دلمون ، وكان سببا في المحافظة على النبات وعلى سلالة البشر .

، الربط بين التشريعات ، وبين اختيار الآلهة وإرادتهم أو إيحاءاتهم ، كان مقصودا لكفالة احترام بنودها وخلع الشرعية عليها .

مثال ذلك : القوانين التي أصدرها أورنمو ، وفيها نلمح : سعيه إلى ضبط الأوزان والمكاييل وتوحيدها ، ورغبة في تخليص المواطنين ممن يستغلون ماشيتهم ، ومحاولة بمنع وقوع اليتيم فريسة للثرى ، ووقوع الأرملة ضحية للقوى ، واستن قانون دفع الديات على الروح ، ونص على من اقتحم حقلا مزروعا فأفسده فعليه أن يعوض صاحبه بقيمة ما أفسده [٢] ، وذلك يعني أنه لم يكن يجرؤ حاكم على ادعاء حق التشريع ، بمعنى أن يصدر قانونا ويقول أنه من وضعه لأنه يعلم أن التشريع حق الخالق سبحانه وتعالى .

بل حَرِصَ الحكام ــ رغم ادعائهم الربوبية ، أن يثبتوا رعاية رب السماء لهم مثل الملك شولوجي ملك أور في عهد الأحياء السومرى حيث ترك نصا يقول : « أنا الملك ... أحب الخير وأقصي الشر وأمقت ألفاظ العداوة ، أنا شولجي الملك المقتدر ، ... شولجي الذى رعاه رب السماء » [٣] .

---

(١) مصر والعراق ، ص ٤٣٥ ، لقد أوردنا ما ذكره الدكتور صالح ، مع إغفال بعض الألفاظ التي تعكس فكرا شركيا من قبل الترجمة للنص التي قدمها كرامر .

(٢) مصر والعراق ، ص ٤٢٩ .

(٣) مصر والعراق ، ص ٤٢٠ ــ ٤٣١ .

ومن العلامات البارزة التى تؤكد أصالة التوحيد فى حياة الأمة العفو عن اللحى[1] .

في ظل هذه الأوضاع ولد إبراهيم عليه السلام .

(١) مصر والعراق ، ص ٤٣٤ .

المبحث الثانى

ميلاد إبراهيم عليه السلام وعصر إحياء الدولة السومرية

(٢١٢٥ ق . م)

ويقترن هذا العصير بحدث ضخم فى حياة أهل الرافدين ، وهذا الحدث هو ميلاد إبراهيم عليه السلام (١٩٤٠ ق . م ؟ ؟) ببابل من أرض السواد كما ذكر الإمام الطبري [١] والإمام الحافظ ابن كثير [٢] .

ويقترن أيضا بدعوة إبراهيم عليه السلام أهل الرافدين إلى الإسلام ، وتعرضه للابتلاء حينما ألقوا به في النار ، ولكن الله نجاه : ﴿ **قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين** ﴾ [٣] .

وفى أعقاب هذه الحادثة هاجر إبراهيم عليه السلام ومن معه إلى أرض الشام (حوالى ١٨٥٠ ق . م حسب تقديرات المؤرخين المحدثين) ، وسلط على بلاد الرافدين شعبان هما شعب العيلاميين وشعب الأموريين ، فجاسوا خلال الديار ودّمروا وقتلوا ، وهذا جزاء من جنس العمل . لقد آذوا إبراهيم عليه السلام ومن معه من المسلمين وحاولوا قتله ، فسلط الله عليهم من قتلهم ؛ لقد أخرجوا إبراهيم عليه السلام من أرضه ووطنه فسلط الله عليهم من أخرجهم من ديارهم[٤] .

فى هذا العصر ، كما يقول كتاب التاريخ القديم ، أتيحت الفرصة لظهور أسرات جديدة أخذ كل منها على عاتقه النهوض بدويلات المدن السومرية ، وسنعرض هنا لدور كل

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، جـ ١ ، ص ٢٣٣ . (٢) البداية والنهاية ، حـ ١ ، ص ١٤٠ ؛ مصر والعراق ، ص ٤٢٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢٤ والآية من الأنبياء : ٦٩ ــ ٧٠ . (٤) انظر تفصيل بعثة إبراهيم عليه السلام .

من الجش وأوروك وأور [1] .

الجش : من أهم ملوكها الملك جوديا الذى استطاع أن يحقق الخير الكثير لبلاده ، وأن يحقق العدل بين الناس فى فترة حكمه التى بلغت ثلاثين عاما [2] .

أوروك : وقع على أكتافها عبء النضال ضد الجوتيين بعد أن وحدت المدن السومرية بزعامتها ، وخاضت ضد الجوتيين معركة هزمتهم فيها ، ولكن سرعان ما تفتتت وحدة هذه المدن بسبب أطماع حكامها فى الزعامة التى انتقلت إلى مدينة أور المعاصرة [3] .

أور : يقول المؤرخون أنه قد ظهر فى أور شخصية قوية هى أورنامو فى القرن الحادى والعشرين ق . م وقد استطاع هذا الرجل أن يمد نفوذ بلده إلى ما وراء حدودها ، فضم إليه عددا من المدن السومرية والأكدية واستطاع فى النهاية أن يعلن نفسه ملكا على معظم دول السومر كلها، ويعرفه التاريخ كمؤسس لأسرة أور الثانية [4] .

وقد قام بإصلاحات داخلية كثيرة فى بعض المدن مثل أريد وأوما ولارسا وغيرهما . فأعاد حفر شبكة القنوات التى كانت تتحكم فى شئون الرى ، وجاء من بعده أربعة ساروا على غرار من سبقهم من ملوك أور ، ولقد اتبع هؤلاء الحكام تقليدا يقضى بتعيين حكام محليين لكل مدينة ، ومتابعة الأشراف على الموظفين ، ومزيدا من المركزية فى الحكم .

---

(١) مصر والعراق ، ص ٤٢٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢٤ — ٤٢٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٥٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٢٨ .

المبحث الثالث

بعثة إبراهيم عليه السلام

« عصر دولة أور الثالثة » أو الإحياء السومرى

من هو إبراهيم عليه السلام ؟ وإلى من ينتسب ؟ وأين ولد ونشأ وترعرع ؟ ومتى ؟ وأين بعث ؟ وما هو الدين الذى دعا إليه ؟ وكيف كانت أحوال تلك البلاد التي بعث فيها من الناحية العقدية والفكرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية ؟ وما هو موقفها من دعوته إلى الإسلام ؟ وما هى البلاد التي هاجر إليها ؟ وما هو الدور الذى أداه ذلك النبي الكريم في كل منها ؟ وما مدى التمكين الذى تحقق له في أرض الله ؟ وهل يمكن تحديد زمن النبي الكريم وقومه ؟ وما هي المعالم التي ترسيها أخبار هذا النبي الكريم والأمم التي بعث فيها أو هاجر إليها في حياة الأمة المسلمة ؟

الإجابـــة :

يقول الله عز وجل : ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم** ﴾[1] .

يقول الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى : « لأنهم كانوا أهل الإسلام »[2] .

وقال تعالى : ﴿ **يأهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون** ﴾[3] . وقال أيضا : ﴿ **ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين** ﴾[4] .

(١ ، ٢) آل عمران : ٣٣ ، ٣٤ ، جامع البيان ، جـ ٣ ، ص ١٣٤ .

(٣) آل عمران : ٦٥ ، المصدر السابق ، ص ٣٠٤ — ٣٠٦.

(٤) آل عمران : ٦٧ ، المصدر السابق ، ص ٣٠٦ — ٣١٠ .

وإبراهيم عليه السلام رسول من أولي العزم ، ولد على أرض الرافدين « ببابل »[1] في زمن لا يعلمه إلا الله عز وجل[2] .

وقد ألهمه الله الحق والحجة في صغره : ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين** ﴾[3] .

وسيرة هذا النبي تعتبر نبراسا يضيء الطريق أمام هؤلاء الذين تصيبهم الحيرة وهم يرون الكفر مستشريا في جنبات المجتمع ، أمامهم وخلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم يرونه في المجتمع الذى لا يحكم بما أنزل الله ، يرونه في الحاكم الذى يدعي لنفسه حق وضع النظام والقانون الذى تسير عليه الأمة ، والذى يوظف الناس في مصلحته ، يرونه في الحاكم الظالم الذى لا يرقب في الناس إلاًّ ولا ذمة ، يرونه في الحاكم الذى يوالي أعداء الله ، ويعادى أولياء الله ، يرونه في الحاكم وأعوانه الذين يحاربون الإسلام وجنده ، يرونه في كل شيء ، في دور العلم المفروض في حقها أن تعلم الناس كيف يكونوا عبيدا لله عز وجل ، فإذا هي تعلمهم كيفية المروق من دين الله ، يرونه في الشارع الذى لا يحترم الفضيلة ويقدس الرذيلة ، ويرونه في الإذاعة المرئية والمسموعة التي تزين الفاحشة وتزين الجريمة ، يرونه في المنزل الذى يحول بين الشاب أو الفتاة وبين العودة إلى دين الله .

في مثل هذه البيئة ، وفي مثل هذا المجتمع ، ولد إبراهيم عليه السلام ، ولد في بلد ، بداية بالحاكم ونهاية بأفراد الأمة ، يكفرون بالله عز وجل ، ويدعي الحاكم لنفسه حق من حقوق الألوهية .

— ﴿ **ألم تر إلى الذى حآج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ..** ﴾[4] .

---

(1) البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ١٣٩ ، وقد أورد الإمام الطبرى أقوالا : « وكان مولده بالوركاء بناحية الزوابي وحدود كَسْكَر » . (تاريخ الرسل والملوك ، جـ ١ ، ط ٤ ، دار المعارف ، ص ٢٣٣) .

(2) وضع كتاب التاريخ المحدثين تاريخا تقريبيا هو القرن التاسع عشر قبل ميلاد المسيح . وإن كان معرفة التاريخ وعدمه ، لا يقدم أو يؤخر في تحقيق الهدف الرباني الذى من أجله أورد الله سيرة هذا النبي الكريم ، ولو كان قد سبق في علم الله عز وجل أن الناس يحتاجون لهذه المسألة لأخبر بها . وعدم ذكر الموطن وعدم ذكر التاريخ تجعل أحداث السيرة معلما بارزا تجعل أصحابها أسوة للدعاة إلى دين الله في كل مكان وزمان .

(3) الأنبياء : ٥١ (4) البقرة : ٢٥٨ .

حوار بين إبراهيم والملك الذى عاش في عصره ، يجادله في الله .

ـ « إن هذا الملك الذى حآج إبراهيم لم يكن منكرا لله أصلا إنما منكرا لوحدانية الله وتدبيره الأمر بنفسه لشؤون الكون وحده » .

ـ « إن هذا الملك المتعنت ينكر ذلك للسبب الذى كان ينبغي من أجله أن يؤمن ويشكر، هذا السبب : ﴿ **أن آتاه الله الملك** ﴾ . لقد جعل الله في يده السلطان ، كان ينبغي أن يشكر ويعترف ، لولا أن المُلْكَ يطغي ويبطر من لا يقدرون نعمة الله ، ولا يدركون مصدر الإنعام ، ومن ثُم يضيعون الكفر موضع الشكر . ويضلون بالسبب الذى كان ينبغي أن يكونوا مهتدين . فهم « حاكمون » لأن الله « حكَّمهم » وهو لم يخولهم استعباد الناس بقسرهم على قوانين وأنظمة من عندهم ، فهم كغيرهم من الناس عبيد لله ، يتلقون مثلهم الشريعة من الله ولا يستقلون دونه بحكم ولا تشريع فهم خلفاء لا أصلاء » .

ـ ﴿ **قال إبراهيم ربي الذى يحيي ويميت** ﴾ .

ـ والإحياء والإماتة ظاهرتان مكرورتان في كل لحظة معروضتان لحسّ الإنسان وعقله ، وهما سر محير يلجئ الإدراك البشرى إلى مصدر آخر غير بشرى ، وإلى أمر آخر غير أمر المخاليق . ولابد من الالتجاء إلى الألوهية القادرة على الإنشاء والإفناء لحل هذا اللغز » .

« نحن لا نعرف حقيقة الحياة وحقيقة الموت ، ونحن ملزمون أن نكل مصدر الحياة والموت إلى قوة ليست من جنس القوى التي نعرفها على الإطلاق ، وهي قوة الله » .

ـ « ومن ثم عرف إبراهيم ربَّه بالصفة التي لا يمكن أن يشاركه فيها أحد ، ولا يمكن أن يزعمها أحد ، وهي القدرة على الخلق والإحياء والإماتة » .

ـ « عرف إبراهيم ربه بهذه الصفة ، لأن هذا المَلِك يسأله عمن يدين له بالربوبية ، ويراه مصدر الحكم والتشريع : فهو الذى يحيي ويميت ومن ثم هو الذى يشرع ، لأن الذى يخلق هو الذى يأمر : ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ » .

ـ « وكان إبراهيم يعني بالإحياء والإماتة تلك السنة الكونية الخاصة بمنشيء هاتين الحقيقتين . فهما من عمل الرب المتفرد الذى لا يشاركه فيه أحد من خلقه » .

ـ « ولكن الذى حاج إبراهيم رأى في كونه حاكما لقومه قادرا على إنفاذ أمره فيهم بالحياة والموت مظهرا من مظاهر الربوبية ، فقال لإبراهيم : أنا إذن الرب الذى يجب عليك أن

تخضع وتسلم بحاكميته : ﴿ **قال : أنا أحيي وأميت** ﴾ »[1] .

ـــ « عند ذلك لم يرد إبراهيم عليه السلام أن يسترسل في جدل حول نفي الإحياء والإماتة مع رجل يمارى في تلك الحقيقة الهائلة ، حقيقة منح الحياة وسلبها » .

ـــ « وعندئذ عدل عن هده السنة الكونية الخفية ، إلى سنة كونية أخرى ظاهرة ، وعدل عن طريق العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الإلهية في قوله ﴿ **ربي الذى يحيي ويميت** ﴾ إلى طريق التحدى ، وطلب تغيير سنة الله لمن ينكر ويتعنت ويجادل في الله ، ليريه أن الرب ليس حاكم قوم في ركن من الأرض ، إنما هو مصرف هذا الكون كله ، ومن ربوبيته هذه للكون يتعين أن يكون هو رب الناس المشرع لهم » .

ـــ قال : ﴿ **إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب** ﴾ .

ـــ « وهي حقيقة كونية كذلك تطالع الأنظار ولا تتأخر ، وهي شاهد يخاطب الفطرة حتى ولو لم يعرف الإنسان شيئا عن تركيب هذا الكون ، ولم يتعلم شيئا عن حقائق الفلك ونظرياته ، والرسالات تخاطب فطرة الكائن البشرى في أية مرحلة من الموضع الذى هو فيه ، ومن ثم كان هذا التحدى الذى يخاطب الفطرة كما يتحدث بلسان الواقع » .

ـــ ﴿ **فبهت الذى كفر** ﴾ .

فالتحدى قائم ، والأمر ظاهر ، ولا سبيل إلى سوء الفهم .

ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذى كفر فيبهت ويبلس ويتحير ، ولا يهديه الله إلى الحق لأنه لم يتلمس الهداية ولم يرغب في الحق :

﴿ **والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ .

ـــ « ويمضى هذا الجدل الذى عرضه الله على نبيه ﷺ وعلى الجماعة المسلمة ، مثلا للضلال والعناد وتجربة يتزود بها أصحاب الدعوة الجدد في مواجهة المنكرين ، وفي ترويض النفوس على مواجهة تعنت المنكرين .

ـــ « حقائق تؤلف التصور الإيماني الناصع :

﴿ **ربي الذي يحيي ويميت** ﴾ .

---

(١) هذه الفقرات منتقاة من صفحات ٢٩٧ إلى ٣٠٢ في ظلال القرآن .

﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ ؛ حقيقة في الأنفس موت وحياة ، وحقيقة في الآفاق خروج الشمس من المشرق وغروبها في المغرب .

حقيقتان لا تحتاجان إلى علم غزير ولا تفكير طويل . فالله يكل عباده في مسألة الإيمان به والاهتداء إليه إلى التقاء الفطرة بالحقائق الكونية المعروضة على الجميع والتي تفرض نفسها فرضا على الفطرة ، فلا يحيد الإنسان عن إيحائها الملجىء إلا بعسر ومشقة ومحاولة ، وتعنت وعناد .

« والشأن في الاعتقاد كالشأن في كل أمر حيوى تتوقف عليه حياة الكائن البشرى ، والكائن الحي يبحث عن الطعام والشراب والهواء ، كما يبحث عن التناسل والتكاثر ، يبحث فطريا عن الإيمان ولا يترك الأمر في هذه الحيويات حتى يكمل التفكير وينضج ، أو حتى ينمو العلم ويغزر ... وإلا تعرضت حياة الكائن الحي إلى الدمار والبوار ... والإيمان حيوى للبشر حيوية الطعام والشراب والهواء ، ومن ثم يكله الله فيه إلى الفطرة والتفكير في آياته المبثوثة في صفحات الكون كله ، في الأنفس والآفاق »[1] .

– ﴿ ألم تر إلى الذى حآج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ﴾[2] .

إذن لقد ولد إبراهيم في مجتمع وصل به فساد التصور إلى عبادة أصنام[3] من نحت

---

(١) ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ (آية ٢٦٠ سورة البقرة) .

« إنه الشوق الذى اختلج في نفس إبراهيم لرؤية أسرار الصنعة الإلهية ، إنه شوق لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره ، وليس طلبا للبرهان أو تقوية للإيمان ... إنما هو أمر آخر . إنه أمر الشوق الروحي إلى ملابسة السر الإلهى في أثناء وقوعه العملي » .

وقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع في قلب إبراهيم ومنحه التجربة الذاتية المباشرة .

ورأى إبراهيم السر الإلهى يقع بين يديه ، وهو السر الذى يقع فى كل لحظة ولا يرى الناس إلا آثاره بعد تمامه ، إنه سر هبة الحياة ، الحياة التى جاءت أول مرة بعد أن لم تكن (الظلال) .

(٢) البقرة : ٢٥٨ .

(٣) وهي من رؤوس الطواغيت ، تماما كما يحدث في عالمنا المعاصر .

يده .. ولد إبراهيم في مجتمع كان يرى الخير في عبادات الآباء والأجداد رغم مروقها عن دين الله عز وجل ... ولد في مجتمع يتداعى إلى الوقوف في وجه الدعوة إلى دين الله عز وجل .. بل إنه ولد من أب يصنّع الأصنام ويبيعها للناس .

ـــ ماذا فعل إبراهيم ؟ وهو يرسم بذلك الطريق ، لمن يعيشون مثل ظروفه ، هل تراخى وقال : لا شأن لى بما يحدث ؟ حسبي أن أعرف ربي وأعبده في نفسي ؟؟ هل قال : كيف أستطيع بمفردى أن أقف في وجه مجتمع يملك كل مقومات القوة المادية ويسخرها في الصدّ عن سبيل الله ؟ هل جبن ، هل خاف ؟ على العكس من ذلك ....

لقد انطلق يدعو إلى الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله وإفراده وحده بالعبادة : ﴿ **إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون** [١] . **قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين** ﴾ [٢] .

فضلال الآباء ، وعاداتهم وتقاليدهم المجانبة لشرع الله ، أعز عليهم من إسلامهم وربهم .

فانطلق إبراهيم عليه السلام ـــ وهو فتى ـــ يبين لهم فساد معتقدهم ومعتقد آبائهم : ﴿ **لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين** ﴾[٣] .

وهنا استنكر القوم قوله : ﴿ **قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين** ﴾[٤] . فرد عليهم إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ يبين لهم أن الذى يستحق العبادة هو الله الذى لا إله غيره الذى خلق السموات والأرض : ﴿ **قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين** ﴾[٥] . أى وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه .

ثم أقسم الخليل قسما أسمعه بعض قومه ليحرصن على أذى أصنامهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا**

---

(١) الأنبياء . ٥٢ ، أى معتكفون على عادتها ، ومر علي رضي الله عنه على قوم يلعبون بالشطرنج فقال ﴿ **ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون** ﴾ لأن يمس أحدكم جمرا حتى يطفأ خير له أن يمسها . (رواه ابن أبي حاتم ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٨٢) .

(٢) الأنبياء ٥٣ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٨٢

(٣) الأنبياء . ٥٤ .

(٤) الأنبياء : ٥٥

(٥) الأنبياء : ٥٦ .

إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ ، أى كسرها كلها إلا كبيرا لهم ، يعني : إلا الصنم الكبير عندهم كما قال : ﴿ **فجعلهم جذاذا إلا كبيراً لهم ، لعلهم إليه يرجعون** ﴾ (١) ذكروا أنه وضع القدُّوم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذى غار لنفسه وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها .

وكانت هذه وسيلة من إبراهيم لكي يبين لهم أن الإلٰه الذى لا يدفع عن نفسه ضرراً ، ولا يملك لنفسه نفعاً ، لا يمكن أن يضر غيره أو ينفعه ، وبالتالي فهو ليس مستحقاً للعبادة ، لأن الذى يعبد هو الذى يخلق وينفع ويضر وهو الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ : ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ (٢) .

وحينما شاهد القوم ما فعل بمعبوداتهم ، أصابهم الهلع والفزع ، وثاروا ، واندفعوا تماماً كما يحدث في عالمنا المعاصر ، إذا ما تعرضت معبودات الناس والأشياء التى يؤلهونها للخطر أو الجراح ... وإذا ما أريد تطبيق شرع الله ، ثاروا وغضبوا ، وإذا ما أريد منع الخمر ، ثاروا وغضبوا ، وإذا ما أريد ستر المرأة ، ثاروا وغضبوا ، وإذا ما أريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تاروا وغضبوا .. يغضبون لنزواتهم وشهواتهم وأهوائهم ، ولكن لا يغضبون من أجل دينهم .

﴿ **قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين** ﴾ (٣) سبحان الله ، الذى يحطم قطعة من الحجر ظالم ، الذى يهاجم الآلهة المدعاة من دون الله ظالم ، الذى يهاجم ضياع أوقات الأمة التى يجب أن تصرف إلى الجهاد فيما لا يفيد مثلاً ظالم ، الذى يهاجم برامج الإذاعة المرئية والمسموعة الفاسدة ظالم ، الذى يهاجم التفسخ والانحلال والعرى ظالم ، الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ظالم ، الذى يطالب بتطبيق شريعة الله ظالم ، الذى يطالب بمحاكمة المرتشين والخونة ظالم ، الذى يطالب بعودة الإسلام كعقيدة وشريعة ونظام في حياة الأمة ظالم ومتمرد : ﴿ **أنه لمن الظالمين** ﴾ .

ونشطت أجهزة التجسس على الأمم ، تتحسس وتتلصص ، تماماً كما يحدث في عالمنا المعاصر ، ووصلت إلى نتيجة : ﴿ **قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم** ﴾ (٤) ، أى سمعنا فتى يحلف أنه « ليكيدنهم » ، ﴿ **قالوا فأتوا به على أعين الناس** ﴾ (٥) ، أى

---

(١) الأنبياء : ٥٨ . (٢) الأعراف : ٥٤ (٣) الأنبياء . ٥٩ .

(٤) الأنبياء . ٦٠ . (٥) الأنبياء . ٦١ .

اقبضوا عليه ، وضعوه في السجن على رؤوس الأشهاد ، الذى يحضره الناس كلهم ، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم — عليه السلام — أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقولهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضراً ولا تملك لها نصراً ، فكيف يطلب منها شيء من ذلك ؟

وهذا هو دور الدعاة الآن وفي كل زمان أن يبينوا للناس فساد معبوداتهم ، وقلة حيلتهم ، وأنهم لا تغرنهم قوة الطواغيت الظاهرة وما تملك من مقومات القوة الظاهرة ، سواء أكانت قوات ومعدات عسكرية أو غيرها ، وما يعمل في خدمتهم من أجهزة الإعلام والدجل ، تجعل الباطل حقاً والحق باطلاً ، على الدعاة أن يبينوا للناس أن الطاغوت في قبضة الله ، وهو حي ، وهو في قبضة الله ، وهو ميت ، وهو في قبضة الله يوم يبعث ، فلا يخافوه ولا يخشوه ، على الدعاة أن يبينوا للناس كثرة جهلهم وقلة عقلهم في تعبيد أنفسهم لعباد أمثالهم ، وفي تعبيد أنفسهم لشهواتهم ورذائلهم ، وفي نكولهم عن دينهم .

﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ (١) .

وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون ، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد (٢) : **﴿ فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم**

---

(١) الأنبياء : ٦٢ — ٦٣ .

(٢) وفي الصحيحين من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال . « إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث : ثنتين في ذات الله في قوله : **﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾** وقوله : **﴿ إني سقيم ﴾** قال : وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه « سارة » إذ نزل منزلا فأتى الجبار رجل فقال : إنّه قد نزل هنا رجل بأرضك معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه ، فجاء فقال : ما هذه المرأة منك ؟ قال : أختى . قال : فاذهب فأرسل بها إليّ . فانطلق إلى سارة فقال : إن هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته أنك أختي ، فلا تكذبيني عنده ، فإنك أختي في كتاب الله ، وأنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم ، ثم قام يصلي . فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها ، فأخذ أخذا شديدا ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت له فأرسل ، فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد ، ففعل ذلك الثالثة فأخذ فذكر مثل المرتين الأولين فقال : ادعي الله لي فلا أضرك . فدعت له فأرسل ، ثم دعا أدنى حجابه فقال : إنك لم تأتني بإنسان ولكنك أتيتني بشيطان ، أخرجها وأعطها هاجر . فأخرجت وأعطيت هاجر ، فأقبلت ، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال لها : مهيم ، قالت : كفى الله كيد الكافر الفاجر ، وأخدمني هاجر » . قال محمد بن سيرين : فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال : « تلك أمكم يابني ماء السماء » ، (تفسير القرآن ، جـ ٣ ، صـ ١٨٣ ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ١ ص ٢٤٥ — ٢٤٦) . .

الظالمون ﴾[1] ، ﴿ **ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾**[2] **فكيف** تقول لنا : سلوهم إن كانوا ينطقون ، وأنت تعلم أنها لا تنطق . **فعندها قال لهم إبراهيم لما** اعترفوا بذلك : ﴿ **أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ﴾** [3] أي إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر فلم تعبدونها من دون الله : ﴿ **أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾**[4] أي أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر .

وهذا دليل على أن عدم العقل وعدم الفهم هو سمت كل شخص يكفر بالله سبحانه وتعالى ، ولهذا يقول الكافرون يوم القيامة : ﴿ **لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾**[5] .

ما هو موقف أهل الجاهلية ؟ بعد أن قامت عليهم الحجة ، وبان فساد عقيدتهم وتصورهم ، هل استجابوا ؟ هل عادوا إلى ربهم ؟ على العكس لقد أخذتهم العزة بالإثم ، وتداعوا إلى قتل صاحب الدعوة حرقاً : ﴿ **قالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾** .

ــ بالرغم من أن إبراهيم انتزع منهم شهادة بأنهم هم الظالمون . فإن ذلك لم يمنعهم من إثارة الرأي العام ضده ، وهو من ؟ ؟ هو صاحب الحق الواضح البين ، وهم من ؟ إنهم هم الظالمون .

لكن الجاهلية في كل مكان وزمان هي هي تجعل من الصادق كاذباً ، وتحيل المظلوم ظالماً ، وتكيل الاتهامات إلى صاحب الحق . ثم تحكم على البريء بالإعدام :

﴿ **حرقوه وانصروا آلهتكم ﴾** .

يحرقون الحق ، وينصرون الباطل .. وهذه هي معايير الجاهلية في كل زمان ومكان تجعل الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، وتلبس هذا الباطل من الشعارات الزائفة البراقة التي تخطف أنظار العامة : ﴿ **حرقوه وانصروا آلهتكم ﴾** .

مجرد تكسير الآلهة المدعاة ، جريمة ، تكسير الحجر جريمة ، تستوجب القتل حرقاً

---

(١) الأنبياء : ٦٤ . (٢) الأنبياء : ٦٥ . (٣) الأنبياء : ٦٦ .
(٤) الأنبياء : ٦٧ . (٥) الملك : ١٠ .

في عرف الجاهلية .... أما قتل الناس وحرمانهم من الإيمان بالله ـــ سبحانه وتعالى فليست جريمة ، أما حض الناس على المروق من إسلامهم فليس جريمة ، أما صد الناس عن دين الله فليس جريمة ، أما تزيين الفاحشة فليس جريمة ، أما تصنيع الخمر وإباحة الحصول عليها فليس جريمة ، أما منع المرأة من أن تحتجب ، وحضها على العرى والتفسخ والانحلال فليس جريمة ، أما تربية النشء على الإلحاد والحيلولة بينه وبين الإسلام فليس جريمة ، أما منع المساجد أن يذكر فيها اسم الله فليست جريمة ، أما كبت الحريات وفرض الأحكام الاستثنائية فليست جريمة ... كل ذلك لا يشكل جريمة في عرف الجاهلية .

ومن هنا كان تداعي الجاهلية : ﴿ **قالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم** ﴾[1] .

لقد تصور هؤلاء الفسقة المجرمون المارقون من دين الله عز وجل ، أنهم بقتلهم لهذا النبي المسلم إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ سوف يقضون على دين الله ، وسوف يئدون الدعوة في مهدها ، وهذا من باب العمى والطمس على القلوب .

لقد تصوروا ـــ وهذا من باب الغفلة ـــ أن الله سوف يسلمهم نبيه ومصطفاه ليقتلوه ، ونسوا قول الله في الحديث القدسي : « من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب » [2] .

لقد أعدت الجاهلية العدة لقتل إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ فجمعت حطباً كثيراً جداً ، حتى أن المرأة كانت تمرض فتنذر[3] إن عوفيت أن تحمل حطبا لحريق إبراهيم ، ثم جعلوه في جوفة من الأرض وأضرموها ، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها ، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل ، فلما ألقوه قال : حسبي الله ونعم الوكيل كما رواه البخاري عن ابن عباس[4] رضي الله عنه أنه قال : « حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد عليه السلام حين قالوا : ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ » [5] .

---

(١) الأنبياء . ٦٨ . (٢) رواه البخاري .

(٣) بل إن الوزغ كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام ، ولذا فقد أمرنا رسول الله محمد ﷺ بقتله (تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ١٨٤ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ١٨٣ ـــ ١٨٤ .

(٥) أورد الحافظ ابن كثير خبرا بأن عمر إبراهيم عليه السلام حيداك كان ست عشرة سنة ، فالله أعلم . (المصدر السابق ، ص ١٨٤) .

وهنا صدر الأمر الرباني :

﴿ **قلنا : يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم** ﴾[1] . وهكذا حفظ الله نبيه ومصطفاه ، وحفظ دعوته ... فماذا كان مصير المكذبين الكافرين ، الذين أرادوا وأد الدعوة وصاحبها ، لقد دمر الله عليهم ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين** ﴾ أى المغلوبين الأسفلين .

إن الخسارة كانت كبيرة ، قد دفعتها أمة بأكملها جزاء شركها بالله عز وجل وجزاء وقوفها موقف المتفرج أو المعادى وهى ترى دين الله يذبح وهى لا تحرك ساكناً وهذا هو مصير كل أمة تنكل عن حمل دين الله ، والاستسلام لله رب العالمين .

هذا مثال نسوقه إلى تلك الأمم التي مرقت من دين الله ، وحادَّت الله بالمعصية ، وشاقَّت الله ورسوله ، وطاردت الإسلام وأهله ، ووضعتهم في السجون والمعتقلات ، وحرمتهم من ممارسة حياة إسلامية كما يريدها لهم الله رب العالمين . هذه هي النتيجة ، إنها الخسارة ، إنه التدمير الذى لا ريب فيه : ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾[2] .

ما هو مصير إبراهيم ــ عليه السلام ــ والمسلمين معه ؟ يقول الله عز وجل : ﴿ **ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين** ﴾[3] . لقد سلمه الله من نار قومه ، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام ، إلى الأرض المقدسة . قال قتادة : « كان بالعراق فأنجاه الله إلى الشام »[4] .

لقد أبدله الله داراً خيراً من داره ، وأهلاً خيراً من أهله : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة** ﴾ (أى ولد الولد) ﴿ **وكلاً جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين . ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء**

---

(١) الأنبياء : ٦٩ .

(٢) الأنعام : ٤٥ .

(٣) الأنبياء : ٧١ .

(٤) « وكان يقال للشام أعقار دار الهجرة وما نقص من الأرض زيد في الشام ، وما نقص من الشام زيد في فلسطين . وكان يقال هي أرض المحشر والمنشر ، وبها ينزل عيسى عليه السلام ، وبها يهلك المسيخ الدجال » . (تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ١٨٥) .

فاسقين . وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين ﴾ [١].

إبراهيم عليه السلام فى سورة الأنعام [٢] :

﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السمـٰوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربِّي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذى فطر السمـٰوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وحاجه قومه قال أتحاجُوني في الله وقد هدانِ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ .

يقول الإمام الحافظ ابن كثير :

« وهذا المقام مقام مناظرة لقومه ، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لاتصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله عز وجل ، لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة تطلع تارة وتأفل تارة أخرى ، فتغيب عن هذا العالم والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائم بلا زوال لا إلـٰه إلا هو ولا رب سواه . فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكواكب ، ثم ترق منها إلى القمر الذى هو أضوأ منها وأبهى من حسنها ، ثم ترق إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء ، فبين لهم أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة » [٣] .

ويستمر إبراهيم — عليه السلام — في دعوة قومه إلى الإسلام — وهو يرسم الطريق لأصحاب الدعوات — فهو يحاج قومه ، وأثناء المحاجة يعرض لقضية الإيمان بالله ، فيعرض لصفات ذلك الإلـٰه العظيم المستحق للعبادة ، فهو فاطر السمـٰوات والأرض : **﴿ إني**

---

(١) الأنبياء ٧٢ — ٧٥ .
(٢) آية ٧٥ — ٨٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ص ١٤٩ ، البداية والنهاية ، حـ ١ ، ص ١٤٢ — ١٤٣ .

وجهت وجهي للذى فطر السمٰوات والأرض ﴾ . وأن الذى يستحق العبادة هو الله الهادى : ﴿ قال أتحاجوني في الله وقد هدانِ ﴾ ، والذى يستحق العبادة هو الذى يُختشى : يحاسب ويعاقب ؛ ويعرض أيضاً النتيجة التي تترتب على الإيمان بالله ،والتي تترتب على أن يصبح الإنسان مسلماً مؤمناً : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولٰئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ ويعرض أيضاً إلى أن توفيق الداعية إلى الله في دعوته ، هبة ومنحة من الله ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ .

وهنا تبدو جملة من المعالم البارزة ، يرسيها الله سبحانه وتعالى وهو يعرض جوانب من سيرة نبى آمن بالله سبحانه وتعالى وكفر بالطاغوت وانطلق يدعو إلى الله على بصيرة :

فإبراهيم عليه السلام عنده يقين بأن الطاغوت ، ومثاله الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله عز وجل ، لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة ... إلى آخر ما أورده ابن كثير ، لكي يبين لنا المسائل الإيمانية التي يجب أن تعرس في قلب الإنسان ليصبح مؤمناً .

ووجهة المسلم هو الله الذى خلق السموات والأرض :﴿ إني وجهت وجهي للذى فطر السموٰات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ ، أما غير المسلم فتتعدد وجهاته .

إن ورود سورة إبراهيم — عليه السلام — في السور المكية تعنى الكثير :

· تعني أن إبراهيم الذى قال عنه رب العزة أنه كان أمة ، وأنه كان أسوة حسنة يجب أن تترسم الأمة المسلمة خطاه ، وتطبق نهجه لكي تنال رضاء الله أولاً ... ولكى يتم تكوين الفرد المسلم ، والأسرة المسلمة ، والمجتمع المسلم ، والأمة المسلمة .

كل ذلك يصبح كائناً واقعياً إذا طبق نهج إبراهيم عليه السلام ﴿ أولٰئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ .

· لقد بدأ إبراهيم بتربية نفسه ... وإخضاعها لله الواحد القهار ... ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفا ولم يك من المشركين ﴾[1] .

---

(١) النحل : ١٢٠ .

﴿ **إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين** ﴾(١) .

لم يكن من المشركين بالرغم من شرك قومه ، ولم يكن من الكافرين بالرغم من كفر أبيه وضغوطه عليه : ﴿ **لئن لم تنته لأرجمنك** ... ﴾(٢) لئن لم تنته يا إبراهيم عن عبادة الله لأقتلنك .

لم يكن من المشركين بالرغم من ضغوط المجتمع ﴿ **إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده** ﴾(٣) .

من الواضح هنا أنه خاصم المجتمع كله ، وفضل أن يعتزله بالرغم من صعوبة ذلك على نفسه .... لأن المجتمع كفر بالله ...

وهنا يعطى إبراهيم درساً للأسر وللمجتمعات أن : الولاء والمحبة تكون مشروطة بسروط الإيمان بالله ، والمحبة في الله ...

بغير هذا تنقطع الصلة ، وتُعلن العداوة والبغضاء .

لابد من دعوة العشيرة والأقربين : ﴿ **يا أبت لا تعبد الشيطان** ﴾(٤) ....

الدعوة بالحكمة والموعظة ... وإقامة الحجة والدليل : ، ﴿ **يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر** ﴾(٥) .

إذا تبين للداعية أن المدعو مصر على العداوة لله والكفر به ، هنا تنقطع كل الأواصر ... حتى لو كانت هى أواصر الرحم ، وتبقى أواصر العقيدة فقط هي التي تقرب هذا وتبعد هذا حتى ولو كان الأب

إبراهيم وسط المجتمع الكافر ، ودوره لم يقتصر على الدعوة إلى الله ومحاولة تغيير المنكر باللسان : ﴿ **سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم** ﴾ .. ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم** ﴾ .

إنما تعداه إلى محاولة التغيير باليد : ﴿ **فراغ عليهم ضربا باليمين** ﴾(٦) ، فسألوا :

---

(١) البقرة ١٣١ .

(٢) مريم : ٤٦

(٣) الممتحنة : ٤ .

(٤) مريم : ٤٤ .

(٥) مريم . ٤٢ .

(٦) الصافات : ٩٣ .

﴿ **من فعل هذا بآلهتنا** ﴾ فرد عليهم : ﴿ **فاسألوهم إن كانوا ينطقون** ﴾ ولكن الحجارة لا تجيب فقال لهم إبراهيم عليه السلام : ﴿ **أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون** ﴾ [1] .

* هجرة المجتمع إلى مجتمع آخر :

تمت هجرة إبراهيم عليه السلام مع الزوجة ... ولابد أن الدعوة إلى الله استمرت في المهجر ...

* امتثال لأمر الله بالتوجه إلى مصر ، بالرغم من معرفتهما أن فيها ملكا جبارا . وهذا يبين أن طغيان الحاكم ... لا يمنع من الدعوة إلى الله ...

* وأيضاً الخوف على الأهل لا يكون عائقاً في تنفيذ أمر الله ..

ولكنه الاستسلام التام المصحوب باليقين في النجاة ... والدعاء المستمر بالعافية .

* الحرمان من الأولاد لا يعني أن يكون الأب أسير حب الولد الذى رزق به بعد طول انتظار ... وقد ضرب إبراهيم مثلاً لجميع الآباء الغارقين في حب أبنائهم ، بأن تركه وهو رضيع في صحراء لا زرع فيها ولا ماء مع أمه ..

... ثم كاد أن يذبحه وهو شاب ملء السمع والبصر .

* لقد أعطى إبراهيم عليه السلام المثل كيف يربي الزوج زوجته ... والمسؤولية الكبرى التى تحيط بالزوج إزاء زوجاته .....

ـــ يتضح ذلك في سارة وهى نموذج للزوجة المؤمنة الصابرة ... المطيعة .... المستسلمة .

ـــ وكذلك في هاجر الزوجة المؤمنة المطيعة المستسلمة في إيجابية .

وفيهما معاً كزوجتين ملتزمتين بالأوامر الربانية ... ثم انعكاس ذلك على تربيتهما لابنيهما إسحاق وإسماعيل .

وإسماعيل كان صادق الوعد ... كان عند ربه مرضياً ... كان يأمر أهله بالصلاة .

* إبراهيم يوجه رعيته :

---

(١) الأنبياء : ٦٦ ـــ ٦٧ .

﴿ يا بني : إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن إلّا وأنتم مسلمون ﴾ .

إبراهيم عليه السلام في سورة مريم [1] :

﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبيا . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا . يا أبت : إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمٰن عصيا . يا أبت ، إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا . قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ، لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا . قال : سلام عليك ، سأستغفر لك ربي ، إنه كان بي حفيا . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا ﴾ .

يلمح الدارس هنا كيف يبنى القرآن المكي ، من خلال سيرة إبراهيم ــ عليه السلام ــ في نفس المؤمن الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ــ سبحانه وتعالى ــ وذلك ببيان حقيقة عجز الطاغوت في مواجهة قدرة الله التي لا حد لها . فالطاغوت لا يسمع ولا يبصر ولا يغني ، وبالتالي فهو غير مستحق للعبادة : **﴿ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ﴾ .**

وفي هذا بيان رباني لمن يتصورون أن الطاغوت بأجهزة تحسسه واستخباراته قادر على إحصاء أنفاس الناس ، ومعرفة حركاتهم وسكناتهم ، بأن ذلك غير صحيح . فإذا كانت هذه هى الحقيقة ، فلماذا يتقاعس الناس عن نصرة دين الله ؟

وبيان أن رأس الطاغوت كان للرحمٰن عصيا : **﴿ لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمٰن عصيا ﴾** . وأن أتباع الطاغوت هم أولياء له : **﴿ فتكون للشيطان وليا ﴾** ، فهم يأتمرون بأمره ، وينفذون تعليماته في الصد عن سبيل الله وبالتالي فهم مستحقون لعقاب الله وعذابه .

وفي نفس الوقت الذي يعرض للأسباب التي تدعو إلى الكفر بالطاغوت ، يعرض الخبر القرآني ، حقيقة صفات الله المستحق للعبادة فهو السميع ، البصير ، الغني ، وهو الذى يغني غيره ، فالكل فقراء إلى رحمته وخيره . وهو الذى يقيم الموازين بالقسط يوم

---

(١) الآيات : ٤١ ــ ٤٨

القيامة ، فيحاسب ويعاقب ويعذب ويرحم .

ونلمح في نفس الوقت إبراهيم عليه السلام النبي المؤمن بربه وخالقه ، **يعرض هذه** الحقائق وهو يدعو إلى الله ، فيصادف من العنت الشيء الكثير ، من أقرب الناس إليه ، من أبيه : ﴿ **لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرني مليا** ﴾ وهي صورة مكرورة لما يصادفه أصحاب الدعوات من العنت ، من مجتمعهم وأسرهم وأصدقائهم وإخوانهم .

ونلمح كذلك الموقف الذى يجب أن يتخذه المسلم ، وهو يدعو ، وهو يصادف العنت والصد عن سبيل الله ، وهو الثبات ، الاستمرار في إبلاغ دعوة الله ، التضحية ، التوكل على الله ، اعتزال الكفر وأهله : ﴿ **وأعتزلكم وما تدعون من دون الله** ﴾ . فمخالطة الكفر وأهله آثاره خطيرة على القلب وعلى النفس .

ثم التوكل على الله ، والتوجه إليه بالدعاء : ﴿ **وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا** ﴾ .

إبراهيم عليه السلام في سورة الشعراء [1] :

﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه : ما تعبدون ؟ قالوا : نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين . الذى خلقني فهو يهدين . والذى هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتني ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين . رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ﴾ .

وهكذا نرى المنهج القرآني ، يبني رجل الدعوة بغرس أصول الإيمان الصحيح في قلبه ، فإذا هو إسلام يتحرك يدعو إلى دين الله على بصيرة ، ويفيض من إيمانه على من حوله ، يخاطب الفطرة التي تعرف ربها في نفس كل مدعو ، ويخاطب العقل أحياناً أخرى أيضاً في نفس كل مدعو .

نراه أيضاً وهو يرسم صورة صاحب الدعوة يباشر دعوته لاستخلاص العناصر اللازمة لبناء قاعدة المجتمع الإسلامي الصلبة ، اللازمة والضرورية ، بكل وسيلة .

---

(١) الآيات : ٦٩ ــ ٨٣ .

وها نحن أمام إبراهيم — عليه السلام — يباشر دعوته ، محاولاً إنقاذ أبناء جلدته من براثن الشيطان ، في مناظرة ، يبين من خلالها الصفات التي يجب أن يتصف بها من يستحق العبادة ، ومنها أن الذى يستحق العبادة هو الذى يسمع دعاء الداعي ، وهو الذى ينفع ، وهو الذى يملك الضر .

وذلك يعني أن الذين لا يجيبون دعوة الداعي ، والذين لا يملكون نفعاً ولا ضراً فهم غير مستحقين للعبادة : ﴿ **قالوا : نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون** ﴾ . وهنا أسقط في أيدى الكافرين ، لقد انتزع منهم الداعية اعترافاً على ملأ من القوم أن آلهتهم قطع من الحجر لا تنفع ولا تضر ، وأنهم يفعلون ذلك تقليداً لآبائهم . فعادات الآباء وإن كانت مخالفة لشرع الله ، فهي أعز لديهم من الإسلام .

وهنا لابد وأن يتخذ الداعية موقفاً ، إذا رأى الإصرار من قومه على باطلهم بعد أن أدى واجب الدعوة ، هذا الموقف هو المفاصلة ، وإعلان العداوة للآلهة المدعاة ، وعبادها : ﴿ **فإنهم عدو لي إلا رب العالمين** ﴾ .

ثم ينبرى ليبين لهم الصفات التي يجب أن يتصف بها الإلـٰه الذى يجب أن يحبه العبد ، فهو الذى يطعم ويسقي ويشفي ويميت ويحيي ، ومالك يوم الدين ، والذى يغفر الذنوب والذى يهب الحكم : ﴿ **رب العالمين الذى خلقني فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين . رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين** ﴾ .

إبراهيم عليه السلام في سورة العنكبوت :

﴿ **وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين . أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي**

ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين . فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . ﴾[1] .

وهنا نلمح النص القرآني يعرض نموذجاً حياً لكيفية بناء رجل الدعوة ، بغرس أسس الإيمان الصحيح في قلبه وكيانه ، فإذا هو إسلام يتحرك ليقنع الناس بما اقتنع به ، ويأخذ بأيديهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، وغرس الإيمان الصحيح يقوم على أساس التعريف بالله وأسمائه وصفاته ، الله الذى يجب إفراده وحده بالعبادة ، والكفر بما عداه من طاغوت الأرض لأنه هو الرزاق ، وغيره لا يملك من المقومات التي تؤهله أن يرزق نفسه فضلاً عن أن يرزق غيره : ﴿ **إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون** ﴾ .

وهو الخالق ، والذى يخلق هو المستحق وحده للعبادة ، وهو الذى يحيي ويميت ، وهو الذى يبعث من في القبور ، وهو الولي وهو النصير ، وبالتالي فهو المستحق وحده للعبادة .

ومن خلال هذا العرض يغرس أسس الإيمان في قلب المسلم بالله ، وفي نفس الوقت يؤكد على ضرورة الكفر بالطاغوت ، بالآلهة المدعاة : ﴿ **إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا** ﴾ .

ومن خلال العرض القرآني يبرز ضرورة الإيمان بالموت ﴿ **إليه ترجعون** ﴾ ، وبالبعث ﴿ **ثم ينشيء النشأة الآخرة** ﴾ ، وضرورة الإيمان بالحساب ، والإيمان بالعقاب : ﴿ **والذين كفروا بآيات الله ولقائه . أولئك يئسوا من رحمتى ، وأولئك لهم عذاب أليم** ﴾ . والإيمان بالثواب .

وفي سيرة النبى يلمح المسلم نموذجاً لرجل مؤمن ، رجل العقيدة ، وهو نبي الله

---

(١) العنكبوت : ١٦ ــ ٢٧ .

إبراهيم عليه السلام ، يباشر الدعوة إلى الله ، يُعرِّفُ الناس بأنهم قد خلقوا لعبادة الله عز وجل ، الذى يتصف بِكل صفات الجلال والكمال التي آمن بها رجل العقيدة ، إنه يُعرف الدعوة ، يُعرِّفُ الإيمان كما يحسه هو ، وكما يستشعره هو في كل شيء ، في قدرة الله على الخلق والإحياء والإماتة .. إلى غير ذلك .

وفي سيرة النبي يلمح الإنسان كيف يبني إبراهيم القاعدة الصلبة من المؤمنين ، ليقوم على أكتافهم بناء المجتمع المسلم الذى تخضع حياته لنظام الله وشرعه ، ونلمح أيضاً المعاناة والابتلاءات التي قد تكلفه حياته : ﴿ **اقتلوه أو حرقوه** ﴾ .

ونلمح أيضاً أن القاعدة الصلبة ، العبرة فيها ، ليست بالكثرة ، إنما العبرة بما وقر في قلبها من إيمان ولو كانت قليلة العدد : ﴿ **فآمن له لوط** ﴾ .

ونلمح أيضا المكافأة في الدنيا ، وهي غير ثواب الآخرة : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين** ﴾ .

وإذا كان الأمر على هذا النحو فالطاغوت ، لا يرزق ، ولا ينفع ، ولا يغنى ، ولا يحيي ، ولا يميت ، ولا يخلق ، فلماذا الخوف منه ؟ لماذا عدم الكفر به ؟ لماذا إطاعة أوامره ؟ وسماع تعليماته ؟ ولماذا الكفر بالله ؟ والتراخي في القيام بواجب الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى .

﴿ **وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم** ﴾[1] .

وقد روى البخارى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصي : فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يارب ، إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، وأى خزى أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله : إني حرمت الجنّة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه ، فيلقى في النار »[2] .

---

(١) التوبة : ١١٤ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٤٢ .

وهنا نلمح القرآن الكريم يعرض لقضية إيمانية على جانب كبير من الأهمية ، وهو يعرض لسيرة إبراهيم عليه السلام ، هذه القضية ، هي قضية الولاء والبراء .

« فإبراهيم ــ عليه السلام ــ لا يوالي أباه لأنه كفر بالله سبحانه وتعالى ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ، وهو البراءة منه ، وعدم مودته : ﴿ **فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه** ﴾ » .

« وذلك يعني أن العلاقة التي تربط الأب بابنه قد انقطعت ، بانقطاع رابطة الإيمان ، انقطعت بكفر والد إبراهيم عليه السلام ، بالله سبحانه وتعالى ، ومن هنا فاصل إبراهيم عليه السلام أباه » .

وقد جعل الله ذلك معلماً بارزاً في حياة الأمة المسلمة ، وجعلها نموذجاً ومثلاً يحتذى : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله** ﴾[1] أى البراء من الشرك والمشركين حتى لو كان منهم الأب والابن والزوجة ، وأحب الناس إليه : ﴿ **كفرنا بكم** ﴾ ، أى الكفر بالطاعوت وأنصاره ، ﴿ **وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده** ﴾ أى لا مودة ولا محبة ، بل بغض ومقت للكفر وأهله ، وذلك كله يمكن أن ينقلب إلى مودة ومحبة ، بشرط أن يكفروا بالطاغوت ويؤمنوا بالله الواحد القهار .

ويبين الله سبحانه وتعالى ، أن هذا هو النموذج ، هذا هو التصرف ، هذه هي القدوة والأسوة : ﴿ **لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر** ﴾[2] أى في إبراهيم عليه السلام وصحبه .

نموذج يسوقه الله للبشرية على مدار تاريخها اليوم وغداً ، يقام به الحجة على الذين أعطوا ولاءهم لأعداء الله ولأعداء رسوله ولأعداء دينه ولأعداء المؤمنين ، وصدق الله القائل : ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾[3] .

---

(١) الممتحنة : ٤ .   (٢) الممتحنة ٦٠ .   (٣) المائدة : ٥١ .

المبحث الرابع

أرض الرافدين
أو أور السومرية
ومحاولة حرق إبراهيم عليه السلام

لله في حياة الأمم والشعوب سنن كونية ، تتحقق بتحقق أسبابها ومن ذلك إهلاك القرى بسبب ظلمها :

﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا ﴾[1] .

وهذا هو الذى حدث للسومريين (أهل العراق) بعد محاولتهم قتل إبراهيم عليه السلام . لقد انتقم الله من حكامها وشعبها الذين شاقوا الله ورسوله .

لقد كان الانتقام الرباني متناسبا مع حجم الجرم الذى ارتكبته « أور السومرية » في حق رسول الله إبراهيم عليه السلام ، فنزل بها الخسران الذى لابد نازل بمن نهج نهجها وسار على منوالها ، من قتل لأصحاب الدعوات ، وانتهاك للحرمات .

لقد سلط الله على أهلها عدوا شتت شملهم ، واغتصب أرضهم ، وانتهك حرماتهم . وقد صور تلك الحادثة شاعر سومرى قديم يقول : « (فارق الفحل مقره ، وتفرق قطيعه مع الرياح) وقصده بالفحل هنا رب ؟ أور ، ثم عدد المدن السومرية الكبرى ، وذكر أن أربابها ورباتها فعلوا فعلة رب ؟ أور[2] ... ثم أخذ ينعى مصير المدن ،

---

(١) الطلاق : ٨ — ٩ .

(٢) العجيب أن المترجم جاكوبسون وكرامر ، لا يذكران شيئا عما فعله هؤلاء من يسمون الأرباب ، فى مدن نيبور ، وأوروك ، وأريدو .

وينعى تساقط لبنات وبدأها بمدينة أور ... ، ثم انتقل إلى وصف قرار ... بدمارها وسفك دماء أهلها ، وكيف أنه (أى الشاعر) آثر ألا يتركها على الرغم مما أصابها ، وأنه أخذ يسكب دموع عينيه لربه ويبتهل لربه ... ، ولكن ما من سميع ولا مجيب .

واستمر نحيب الناس ... وامتلأت الطرق بجثث القتلى ، الذين حطمتهم الرماح والمقامع ، وظلوا تحت وهج الشمس حتى أذابت الشمس شحومهم ، أما من نجوا فقد ذلوا وجاءوا حتى تخلت الأم عن ابنها ، وهجر الأب ولده ، وفارقت الزوجة زوجها ...

ونعت الربة نينجال بدورها الدمار الذى لحق بداخل المدينة وخارجها ، وقالت : تراكم الوحل في أنهار مدينتي ، وأصبحت كأنها جحور الثعالب ، وما عاد الماء يجرى فيها . وهجرها عمالها ، ولم يتبق غلال في حقول بلدى ، وهجرها مزارعوها ، ... وأصبحت أجمات النخيل والكروم بعسلها ونبيذها (جرداء) كقمة الجبل (؟) ... ضاعت مدينتي ولم أعد ملكتها ، وتحولت دارى إلى أطلال ، وقامت مدينة غير المدينة ودار غير الدار ، يا ويلي ، أين أجلس وأين أقف ؟ أنا نينجال طردت من دارى ، وغدوت شريدة في مدينة غريبة) » .

ورد الشاعر على نحيب نينجال بنحيب مثله ، قائلا : « مليكتي ، أصبح فؤادك كالماء ، فكيف تعيشين ؟ .. دموعك أصبحت دموعا غريبة فالبلد لم تعد تذرف الدموع ... ، وإلى متى يا ترى ستظلين غريبة بجوار مدينتك ؟ ثم تمنّى لها أن تؤوب إلى ديارها أوبة الفحل إلى حظيرته ، والشاة إلى قطيعها ، والطفل إلى مهده »(١) .

---

(١) النص منقول بتصرف عن مصر والعراق تأليف الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح ، ص ٤٤٥ ، وهو يعتمد على كتاب : Th -jacobsen, Ajse, Lvill, 219F. وآخرين .

« أسرة أور الثالثة » بعد هجرة إبراهيم عليه السلام

(من خلال مراجع التاريخ القديم)

تدمير المدن السومرية

إن الله قد سلط على أسرة أور الثالثة عدواً شرسا تمثل فى قوة عيلام التى كانت تقطن السهول الواقعة إلى الشرق من بلاد العراق .

والثانية قوة الأموريين الذين كانوا يسكنون باديتى الشام والعراق وانتشروا حتى غرب الفرات ، وكانت القوتان تهدفان إلى السيطرة على أور التى لم تصمد أمامها ، وهزم جيش أور هزيمة ساحقة ، وبسقوط أور كانت نهاية السومريين كشعب مستقل وآخر حلقة من حلقات ازدهار مدنيتهم .

وبعد أن عبر العيلاميون « دجلة » استقروا فى لارسا (على مقربة من أور) بعد الاستيلاء عليها .

أما الأموريين فقد اتخذوا مركزهم فى مارى على نهر الفرات بعد أن سيطروا على المناطق المحيطة بها .

ولعل هذا الغزو لأرض الرافدين هو الذى تحدث عن آثاره المدمرة الشاعر السومرى القديم ، وأوردناه على الصفحات السابقة .

وبعد أن تمكن العيلاميون من السيطرة على جزء من بلاد العراق القديم ، وتيسر للأموريين نفس الشيء ، نشب الصراع بين هاتين القوتين على أمل الانفراد بالسلطة والزعامة في بلاد العراق بلا منافس . ودارت رحى الحرب بين العيلاميين والأموريين بما أتاح الفرصة لبعض المدن العراقية أن تنمو وتزدهر ومن أهم هذه المدن كانت مدينتى آسين[1] التى

(١) كانت تعتبر من أكبر عواصم الأموريين، وقد عثر فيها على قوانين تقترن باسم خامس ملك من ملوكها وهو « لبت عشتار » الذى حكم فى منتصف القرن التاسع عشر ق . م . وقد دونت نصوص القوانين التي تبقى منها حوالى ثمان وثلاثون مادة على ألواح متفرقة ذكر فى إحداها « أن لبت عشتار يفتخر بأن ربه وهبه إمارة البلاد ليحق الحق بها وأنه استوحى تشريعه من الرب » . وهذا الاعتراف دليل على أن حكام العراق كانوا يدركون بأن الحكم استخلاف من الله بشروط وهى عدم الشرك بالله والإقرار له بالألوهية والربوبية ، والتلقى عنه الشريعة والمنهاج الذى يسير =

كانت واقعة تحت سيطرة الأموريين ولارسا التى كانت تحكم العيلاميين .. وذلك غير دويلة مدينة أشنونا (ومكانها تل أسمر فى منطقة ديالى) .

وأهم ما يذكر عن هذه الدويلة ، القوانين التى تنسب إليها وهى « قوانين أشنونا » التى ترجع إلى القرن التاسع عشر ق .م .

وبعد فترة من الزمان تمكن الأموريون من قهر العيلاميين ، وبذلك خطوا الخطوة الثانية فى طريقة الانفراد بالسلطة فى بلاد العراق القديم متخذين من بابل حاضرة لهم .

= عليه الإنسان ، لتحقيق غاية الوجود الإنسانى وهى عبادة الله وحده دون شريك ولكن رغم علمهم فقد أعرضوا وتولوا ، إذا كان مارواه كتاب التاريخ عنهم صحيحا ، (مصر والعراق . ص ٤٤٩) .

الفصل الخامس[1]

أرض الرافدين منذ عصر دولة بابل الأولى

فى مراجع التاريخ القديم

دولة بابل الأولى والثانية والثالثة

(١٨٨٠ ــ ١٥٩٥ ق.م)

إن اندحار قوة العيلاميين ، وسقوط دويلة أور ، لم يكن يعنى أن الأمر قد خلص نهائيا لقوة الأموريين فى بابل وأنهم قد تسلموا زمام السيطرة على بلاد العراق كلها ، بل على العكس من ذلك كان على الأموريين أن يواجهوا صراعا مريرا وحربا ضروسا من أجل أن تكون لهم الكلمة العليا فى تلك البلاد .

وكما نعلم كانت هذه طبيعة الأمور فى بلاد العراق القديم ، دويلة تختفى وأخرى تحل محلها ، وما أن تتاح الفرصة للأخرى لاستنشاق عبير الحرية ، والصعود فى ركب المدنية حتى تسعى إلى انتزاع لواء الزعامة من غيرها . وقد كان ذلك يكلفها ، أحيانا ، الكثير من المال والرجال ، وأحيانا استقلالها . وإن كانت رغبة الزعامة لم تكن قاسما مشتركا بين كل المدن العراقية فكثيرا ماكانت المدن تحارب فقط للمحافظة على استقلالها من اعتداء الآخرين .

ولقد كان الحال هكذا حينما تولى الأموريون السلطة واعتلوا عرشها منذ عام ١٩٨٨ ق . م فقد كان هناك دويلات مستقلة مثل لارسا وآسين وأشنونا يحكم فيها أسرات حاكمة

---

(١) المعلومات الواردة فى هذا الفصل مأخوذة عن مراجع التاريخ القديم ولا تصمد أمام الجرح والتعديل ، ولا نملك تصديقها أو تكذيبها . وإذا طبقنا عليها ضوابط العلم ومهج تلقيه نجد أنها تدخل تحت بند « علم لا ينفع وجهل لا يضر » . بل إنها تهدر أوقات الأمة وأعمارها فى تحصيل معلومة لا ينبنى عليها عمل صالح .

لا تخضع كثيرا للحاكم في بابل [1] ، وكما كان هناك إلى الشمال من العراق قوة فتية هى قوة آشور ، التى بدأت ترنو ببصرها إلى زعامة بلاد العراق فاصطدم معها جيش بابل فى عهد مليكها سومو أبوم ، وانتهت المعركة دون غلبة لأحد الطرفين ، واستمرت بابل فى محاولة إخضاع باق المدن الأخرى التى رفضت أن تسلم نفسها لقوة بابل تسير أمورها كيفما تشاء ، وهى لم تعتد على ذلك طوال تاريخها ولذلك لم يكن هنالك مناص من الحرب التى حدثت فى عهد سومو أبوم ملك بابل والذى كان النصر فى جانبه مسيطرا بذلك على أكثر أجزاء من أرض سومر .

ومن المدن الأخرى التى كانت تعارض سلطان بابل وتسعى لبسط سلطانها على دويلة آسين وغيرها كانت دويلة لارسا ولكن الأمر لم يكن سهلا أمامها ، فالبابليون كانوا يرنون بأبصارهم أيضا إلى آسين الأمر الذى أدى إلى مزيد من التنافس والصراع بين لارسا وبابل . ولم يحسم هذا الأمر إلا عندما تولى عرش بابل ملك ذكى طموح هو حمورابى سادس الملوك البابليين .

حمورابى الذى عاش من عام ١٧٢٨ إلى ١٦٨٦ ق . م :

وحكم حوالى ٤٣ عاما . ولقد أتاح القدر لبابل الدولة الصغيرة أن تصبح فى عهده عاصمة لدولة كبيرة لها من الإمكانيات البشرية والاقتصادية الشىء الكثير . وكان سبيل حمورابى فى السيطرة على البلاد النضال العسكرى . فتوجه بجيوشه إلى جنوب العراق حيث قام بإخضاع أوروك وآسين وبعض المدن الأخرى بعد إقصاء النفوذ العيلامى عنها . وبعد ذلك اتجه إلى إخضاع لارسا وحلفائها ، فى ظل ملكها « ريم سين » وكانت حروبا أدت إلى سقوط لارسا في يد حمورابى وهزيمة ملكها « ريم سين » . الذى ولى الأدبار فلاحقه حمورابى بجيوشه حتى داخل أرض عيلام (إيران) مستوليا على بعض منها .

وكان من نتيجة هذا النصر الذى حققه حمورابى أن طارت شهرة البابليين فى الآفاق فازدادت سطوتهم ، وخشى الناس بأسهم . مما دفع الأشوريين إلى أن يؤثروا السلامة ويعلنوا

---

(١) تقع أطلالها على الشاطىء الشرقي للفرات حوبي مدينة بغداد ، واسمها يتكون من مقطعين« باب ال » الذى ربما يعنى « باب الله » (مصر والعراق ، ص ٤٥٦)

(٢) الشرق الأدنى القديم ، مصر والعراق ، ص ٤٥٧ ، مع العلم بأن إبراهيم عليه السلام يقدر تاريخ خروجه من أرض الرافدين بعام ١٨٩٦ ق م تقريبا

اعترافهم بالسلطة الحاكمة فى بابل .

كما قام حمورابى بإخضاع شعوب مناطق الجبال الشمالية والشمالية الشرقية ، وكذلك مارى (غرب العراق)التى عاونته فى البداية .

ولكن التاريخ لم يتحدث عن شهرة حمورابى العسكرية ، بقدر ما تحدث عن القوانين التى اقترن بها اسمه ، والتى سنتناولها إن شاء الله عند الحديث عن التشريع فى بلاد العراق القديم .

وقبل أن نمضى فى حديثنا عن الظروف التى أدت إلى زوال سلطان دولة بابل الأولى ، نود أن نشير إلى حقيقة هامة تتعلق بتعدد جبهات الصراع وأطرافه فى هذه المنطقة من الشرق الأدنى القديم .

فقبل عهد حمورابى بدأت تظهر قوى جديدة أصلها الهجرات الهندورية وبدأت تستقر فى مناطق مختلفة من الشرق الأدنى القديم محاولة أخذ لواء الزعامة هناك . ففى آسيا الصغرى (الأناضول) شمال العراق استقرت هجرة عرف أصحابها باسم الحيثيين[1] وفى المناطق الشمالية والغربية من نهر الفرات استقر الحوريون[2] ، وفى مرتفعات بلاد النهرين استقرت جماعات الكاسيين . كما تقول مراجع التاريخ القديم .

ولم يكن يخفى على حمورابى أن هذه القوى (الحيثيين والحوريين والكاسيين) تهدد مركز السلطة الحاكمة فى بابل ولذلك نراه يتخذ من أسباب الحيطة والحذر ماأبقى على مملكته سليمة فى عهده وعهد خلفه سمسوايلونا ولكن وقف خطر هذه الهجرات كان موقوتا إلى حين يتاح لها الفرصة للإطاحة بالدولة البابلية الأولى عسكريا مكتفية بالتسلل البطىء إلى داخل البلاد للعمل كأجراء .

ومنذ منتصف القرن السادس عشر ق . م بدأ الكاسيون بمهاجمة دويلة بابل من الشمال ولذلك يطلق المؤرخون على هذه الفترة اسم العصر الكاسى .

---

(١) أو الخاتيين الشرق الأدنى القديم ، مطر والعراق ، جـ١ ص . ٤٧٩ ومابعدها .

(٢) أو الخوريون .

العصر الكاسى
(١٥٨٠ ــ ١٢٠٠ ق . م)[1]

دولة البحر :

فى غمرة الصراع الداخلى بين دولة بابل ودويلات المدن العراقية الراغبة فى استقلالها وبين الكاسيين من ناحية وبينها وبين الحيثيين على حدودها الشمالية من ناحية أخرى ، بدأت بعض فلول من السومريين والأموريين نشاطا ملحوظا فى جنوب العراق ، فقاموا باستخلاص الأراضى من مستنقعات المياه بالقرب من مصاب النهرين عند الخليج العربى وكونوا دولة عرفت باسم « دولة البحر » منشقين بذلك عن دولة بابل فى الشمال .

ومن المحتمل ــ بعد استقرارهم ــ أنهم قاموا بضم العاصمة الدينية القديمة نيبور إلى مملكتهم ، ولذلك بدأ الصراع بينهم وبين بابل التى حاولت القضاء على دولتهم . ومع أن الصراع لم ينته إلى نتيجة حاسمة بالنسبة للطرفين ، فإن ظهور دولة البحر كان يعتبر داخليا أول مسمار فى نعش الدولة البابلية .

دولة بابل الثانية :

تكررت الاعتداءات من جانب الحيثيين على حدود دولة بابل وقد أتيح لهذه القوة الحيثية المهاجمة بقيادة مليكها « مورسيل الأول » من إسقاط بابل ، والاستيلاء عليها وسلب ثروتها وتدميرها فى عهد مليكها سمسوديتانا عام ١٥٩٥ ق.م . ولما ذاق الحيثيون طعم الانتصار وحلاوة الحياة المدنية توغلوا فى العراق جنوبا لإخضاع باقى الدويلات العراقية لسلطانهم ، ولكن دولة البحر كانت لهم بالمرصاد ، فردتهم وحالت بينهم وبين تحقيق أطماعهم ولذلك يطلق المؤرخون على أسرة دولة البحر أسرة بابل الثانية لأنها خلفت دولة بابل الأولى فى صد هجمات الحيثيين ضد بلاد العراق الجنوبية .

دولة بابل الثالثة :

اكتفى الحيثيون بكسر شوكة البابليين ، وفضلوا الجلاء عن البلاد بعد ترك قوات رمزية فى البلاد .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٧٩ ــ ٤٨٨ .

بقى الكاسيون فى شمال العراق ودولة البحر فى الجنوب وكلتاهما تتحين الفرصة لتأخذ مكان دولة بابل الأولى فى توحيد دويلات العراق تحت زعامتها . وذلك كان يستدعى أن تقوم دولة البحر بمد نفوذها داخل البلاد قبل الاصطدام بالقوى الخارجية ، ولكن عملية توحيد المدن السومرية وغيرها كان فوق طاقاتها ، وبالإضافة إلى ذلك كان من الواجب الملقى على عاتق دولة البحر ، الدفاع عن كيانها ضد قوى الكاسيين الذين نجحوا فى السيطرة على جزء كبير من العراق(١) فى عهد زعيمهم كارانداش الذى أعلن نفسه ملكا على بابل الثالثة على أساس أن الكاسيين كانوا يشكلون الأسرة الثالثة التى حكمت بابل منذ ذلك الوقت ولمدة خمسة قرون .

ولكن قوى الآشوريين فى المناطق الشرقية والشمالية الشرقية من نهر دجلة والحوريين(٢) فى المناطق الغربية والشمالية الغربية من نهر الفرات كانت تدير دفة الصراع بينها فى جانب وبينها وبين دولة بابل الثالثة فى جانب آخر طمعا فى زعامة بلاد العراق .

العلاقة بين دولة بابل الثالثة ومصر :

نما نوع من العلاقات الودية بين بابل ومصر فى القرن الرابع عشر ق . م . وتمثل ذلك الود فى تصاهر البيتين الحاكمين فى كل من البلدين أكثر من مرة (مثال ذلك زواج أمينوفيس الثالث من بنت الملك البابلي كارانداش) .

ويتجلى ذلك الوئام أيضا حينما اضطربت الأمور فى مسار القوافل التجارية بين بلاد الشام ومصر على أثر نشوب الصراع بين الأموريين والكنعانيين ، أرسل الملك البابلى رسالة إلى الملك المصرى أمينوفيس الرابع يستصرخه ليقوم بتأمين هذه القوافل .

دولة بابل الثالثة (الحوريون ــ والميتان ــ والحيثيون ــ والآشوريون) :

استمر الكاسيون حكام بابل ، يكونون الطبقة الحاكمة فى معظم الأجزاء التى كانوا يسيطرون عليها لمدة خمسة قرون تقريبا ، لم تكن سلاما كلها ، بل صراعا مستمرا ضد الآشوريين الذين لم يكن لهم نفوذ يذكر فى غير المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية من نهر دجلة ، وضد الحوريين الذين كانوا يتمركزون فى المناطق الغربية والشمالية الغربية من نهر

---

(١) بما فى ذلك جنوب العراق .

(٢) يرجع المؤرخون نزوحهم فى الشرق إلى القرن التاسع عشر ق . م .

الفرات ، والذين قاموا بغزوات عسكرية فى القرن الثامن عشر حتى وصلوا إلى منطقة كركوك الحالية جنوب شرق نينوى كما امتدت علاقاتهم التجارية والاقتصادية حتى شملت المناطق السورية .

وفى تلك الأثناء استطاع فرع آخر من الشعوب الهندوآرية (الميتان) التى وصلت وتمركزت فى واسوكانى[1] أن يبسطوا سلطانهم على الحوريين وتشتيت من اعترض منهم إلى أطراف الشام . ويبدو أن دولة الميتان هذه هددت بوجودها جيرانها الآشوريين والحيثيين ونازعت مصر سلطانها شمال شرق الفرات ، بل وذهب الأمر إلى حد تأليب بعض أمراء الشام ضد ملك مصر[2] حينئذ ، ولكن يقظة الفرعون حالت بينهم وبين تحقيق أطماعهم ، أى أن طابع العداء هو الذى كان يكسو العلاقات المصرية الميتانية حتى عهد امنحتب الثانى (١٤٣٦ ـــ ١٤١٣ ق . م) .

ويبدو أن الميتان كانوا على جانب كبير من الدهاء ، إذ أنهم أحسوا أن الآشوريين فى الشرق والحيثيين فى الشمال الغربى قد صارتا قوتين يحسب حسابهما فقاموا على الفور بخطب ود الملك المصرى ، نشأ على أثره جو من الصداقة والود وتبادل الهدايا استمر طوال عهد تحتمس الرابع وامنحتب الثالث (١٤٠٥ ـــ ١٣٦٧ ق . م) وامنحتب الرابع (١٣٦٧ ـــ ١٣٥٠ ق . م) . وقد أثمرت هذه الصداقة زواجا بين امنحتب الثالث وإحدى بنات الملك الميتانى .

ولكن صداقة الميتان ومصر ، لم تحل بين الحيثيين ومحاولة القضاء على الميتان بمحاولة السيطرة على المنطقة التى تمتد فيما بين الفرات وساحل البحر المتوسط وظل الصراع قائما بين القوتين حتى تولى قيادة الحيثيين ملكهم شوبيلوليوما الذى هاجم الميتانيين بقيادة ملكهم توشراتا مما دفع الأخير إلى الاستنجاد بملك مصر امنحتب الثالث الذى وافاه بقوة ، تمكن بها من قهر الحيثيين .

ولكن ذلك لم يفت فى عضد الحيثيين ، الذين استمروا فى تأليب أمراء الميتان على زعيمهم ، فى الوقت الذى قاموا فيه بعقد الصلات الودية مع الآشوريين ثم أعقب ذلك

---

(١) يقال عنها تقع شرق تل حلف على نهر الخابور بالقرب من المخارية الحالية .

(٢) حتشبسوت وتحتمس الثالث .

هجوم الحيثيين على عاصمة ميتان وكاد الأمر يتم لهم فى السيطرة عليها لولا أن القدر لم يكن فى جانبهم إذ أن قوات الحيثيين قد اضطرت إلى الانسحاب لتأديب من ثاروا ضدهم فى المناطق الواقعة تحت سيطرتهم بالشام .

وانتهز الآشوريون فرصة ضعف الميتان فأخذوا زمام المبادأة ، وهاجموهم فى عاصمتهم واستردوا بعض ما كان قد سلبه منهم الميتان وعند هذا الحد توقفت جهود الآشوريين إلى حين .

ولكن ماتلى ذلك من أحداث لم يحل بين الحيثيين وبين التخلى عن أطماعهم فى السيطرة على الميتان وقد أتيح لهم ذلك حينما توفى الملك توشراتا ملك الميتان فخلفه الملك ماتى يوزا وكان ضعيفا فأجبروه تحت ضغط القوة العسكرية على توقيع معاهدة معهم يعلن فيها خضوعه للحيثيين .

ولقد طال الحديث عن هذه القوى المتناوئة ، حتى نسينا دولة بابل الثالثة أو دولة الكاسيين ، التى بدأت منذ عام (١٣٥٦ ق . م) تواجه صراعا حاسما وفاصلا فى تاريخها ضد قوى الآشوريين والحيثيين ودولة عيلام الناهضة بعد ما توارت دولة الميتان من على مسرح أحداث العراق القديم .

ولقد اتخذت الأمور طابع التحدى بين قوة بابل ، وقوة عيلام فتحرك على الفور البابليون بجيوشهم حتى العاصمة العيلامية « سوسة » حيث لقنوها درسا قاسيا . وقد صور لهم النصر الذى حققوه ضد عيلام — أنه بالإمكان كسر شوكة الآشوريين — ولكن ذلك لم يكن ممكنا لأن قوة الآشوريين كانت قوة فتية فاستمر الصراع بينهما دون نتيجة حاسمة ، وعلى الجانب الآخر سعى البابليون إلى أن يكون هنالك شىء من الود بينهم وبين الحيثيين الذين كانوا قد اتخذوا موقفا معاديا من المصريين والآشوريين .

وفى وقت ما بدأت أمراض الشيخوخة تؤثر فى كيان دولة بابل الثالثة الكاسية ، إلى أن جاء الوقت الذى قام فيه ملك آشور توكلتى نينورتا الأول بالهجوم على بابل وتدميرها وسلب كنوزها . ولكن جاء اليوم أيضا الذى أخذت فيه بابل بتأرها أيضا من آشور وحاصرت عاصمتها بعد موت ملكها نينورتا الأول فى أواخر القرن ١٣ ق . م .

ولقد أتاح الصراع — الذى دار بين بابل وآشور — الفرصة أمام العيلاميين لمهاجمة

جنوب العراق وإخضاعه ، ثم السير شمالا حتى وصلوا بابل فدمروها وأسقطوا الحكم الكاسى فى أواخر القرن الثانى عشر ق . م .

دولة بابل الرابعة :

ورغم أن الضربات كانت قاصمة بالنسبة للأسرة الكاسية ، إلا أنها قامت تترنح متحاملة على نفسها حتى استيقظت روح النضال فى من بقى من أفرادها لتخليص البلاد من سطوة العيلاميين ، وتزعم بعض ملوك الكاسيين هذا النضال لتحرير الأرض من سطوة العيلاميين وتعرف بقايا هذه الأسرة الكاسية الجريحة باسم أسرة بابل الرابعة .

خرجت جيوش بابل فى عهد مليكها نبوخذ روسر الأول ضد العيلاميين فى الشرق وضد بقايا الأموريين ومن حالفهم من الآراميين فى الغرب ، غير أن هذه اليقظة لم تستمر ، فقد زادت العلة ، وتقدم العمر وكثرت الجراح تحت ضربات الآشوريين الذين نجحوا فى إسقاط الدولة البابلية الرابعة .

الآشـوريون[1]

الآشوريون فرع من الشعوب السامية التى خرجت من شبه الجزيرة العربية لتستقر فى المنطقة الواقعة بين رافدين من روافد نهر دجلة ، الزاب الأكبر والزاب الأصغر شاملة ضفتى نهر دجلة وممتدة حتى المرتفعات الشرقية . وطبيعة هذه المنطقة جبلية إلا من سهول قليلة على ضفتى نهر دجلة وحول أربيل وكركوك . وقد اتخذ الآشوريون عاصمة لهم فى المكان الذى تشغله الآن خرائب قلعة الشرقاط الحالية مطلقين عليها اسم وثنهم « آشور » .

ويقسم المؤرخون عصور التاريخ الآشورى إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

(أ) العصر الآشورى العتيق .

(ب) العصر الآشورى الوسيط .

(ج) العصر الآشورى الحديث .

---

(١) مصر والعراق ، ص ٤٩٤ وما بعدها ؛ نكرر : المعلومات الواردة هنا مأخوذة من مراجع التاريخ القديم ، ولا نملك تصديقها أو تكذيبها ولكن يمكن القول بيقين أن العلم بها لا يترتب عليه عمل ، هى ضمن دائرة علم لا ينفع وجهل لا يضر ، بل إنها تضييع عمر الأمة فيما لا يفيد .

(أ) العصر الآشورى العتيق

من الملاحظ أن المنطقة التى كان يشغلها الآشوريون ، ليست واقعة خارج حدود العراق ، بل تكون الجزء الشمالى منه ، لذلك يمكن القول أن مدنيتها وحضارتها كانت امتدادا لمدنيات وحضارة العراق فى مراحله التاريخية المختلفة . يقال : إن الآشوريين بدأوا يستقلون بهذا الجزء من العراق القديم منذ سقوط أسرة أور الثالثة (١٨٨٠ ق م) تقريبا .

(ب) العصر الآشورى الوسيط

وهو يقابل المراحل التاريخية التى درسناها اعتباراً من عصر دولة بابل الأولى وحتى نهاية العصر الكاسى تقريباً (أى من حوالى ١٦٠٠ ق . م حتى ١٠٠٠ ق . م تقريباً) ولقد أشرنا فى محاضراتنا السابقة عن الآمال التى كانت تضطرم فى صدور الآشوريين للسيطرة على بلاد العراق كلها . وكيف أن ذلك كان عزيز المنال لوقوف الحيثيين والميتان والمصريين لهم بالمرصاد .

ففى ذلك الوقت كان للحيثيين دولة كبيرة مركزها آسيا الصغرى (الأناضول) وفى مصر كانت هناك الدولة الحديثة التى امتدت حدودها حتى بلاد النهرين (شمال شرق الفرات) وبلاد الشام . وكلتا القوتين (قوة الحيثيين وقوة المصريين) كانتا تسعيان إلى مزيد من التوسع وبسط سلطانها على الطرف الآخر .

ولعلنا نذكر أيضاً أنه على الجانب الآخر كانت هنالك آمال الميتانيين الذين كانوا يسعون إلى مد نفوذهم على دويلات العراق ، وقد كان ذلك كافياً لاحتدام الصراع فى منطقة ما يسمى بالشرق الأدنى القديم بين هذه القوى المتصارعة التى كانت تسعى كل منها إلى السيطرة على مقدرات غيرها بالسياسة تارة وبالصداقة تارة أخرى وبالحروب إذا استدعى الأمر ذلك .

وما يهمنا الآن هو أن آشور قد أتيح لها فى منتصف القرن الرابع عشر ق . م فرصة تحرير بلادهم من سيطرة الميتان والقضاء على سطوتهم وتشتيت شملهم ولقد كان ذلك بداية للتطور السياسى الذى تمكن الآشوريون فى نهايته من أن يصبحوا قوة يحسب حسابها فى منطقة الشرق الأدنى القديم .

ومن أشهر ملوك آشور لهذه الحقبة شلما نصر الأول الذى طارد فلول الميتانيين ،

واتخذ عاصمة جديدة أطلق عليها اسم كالحو أو كالخ فى جنوب مدينة الموصل وعلى الشاطىء الشرقى لنهر دجلة .

وأعقب شلما نصر الأول على عرش آشور ، ابنه الذى سار على نهج أبيه ، ومن أهم ما قام به هو قيامه بمهاجمة الكاسيين فى عقر دارهم فى بابل والقضاء على سطوتهم وعاصمة ملكهم والسيطرة عليها ، وقد حدث ذلك منذ بداية القرن الثانى عشر قبل الميلاد .

ولما بدأت الأمور تستقر داخل دويلات العراق القديم بزعامة مملكة آشور بدأ حكامها يرنون بأبصارهم إلى توسيع رقعة البلاد خارج حدود العراق .

وقد تحقق لهم ذلك فعلاً ووصلت دولة آشور فى توسعها شواطىء البحر الأبيض المتوسط فى الغرب وحتى بلاد الأرمن فى الشمال (شاملة جنوب شرق آسيا ولبنان وشمال سوريا) . وكان ذلك فى عهد أحد ملوك آشور المسمى تيجلات بيليسير الأول (١١١٤ ـــ ١٠٧٦ ق . م) .

ولكن قوة الأرمن لم تكن لتصبر على ذلك ، لقد كانت تتطلع لأن يكون لها الكلمة فى شئون هذه المنطقة كلها بعد ظهورها على مسرح أحداث الشرق الأدنى القديم .

ولذلك كان من الطبيعى أن يحتدم الصراع بين قوة الأرمن وقوة آشور ، دون نتيجة حاسمة حتى وفاة الملك تيجلات بيليسير الأول . وقد تمكن الأرمن بعد وفاته أن يكونوا لهم إمارات فى المنطقة الواقعة فى أعالى الفرات شرق الخابور الأعلى فيما يسمى منطقة طور عابدين متخذين لهم مركزاً بالقرب من مدينة بابل القديمة بالإضافة إلى مراكز أخرى مكنتهم من إنزال ضربات باقتصاد آشور وطرق تجارتها .

واستمر الصراع بين الأرمن وآشور على مدار مائتى عام (١١٠٠ ـــ ٩٠٠ ق . م)(١) وتمكن الآشوريين فى نهايته من أخذ زمام الأمور فى أيديهم لبناء دولة واسعة الأرجاء منذ بداية القرن التاسع ق . م ، وهى الفترة التى يطلق عليها اسم العصر الآشورى الحديث .

---

(١) وهى فترة معاصرة للدولة الإسلامية التى قامت ببلاد الشام وأرض الجزيرة على عهد داود وسليمان عليهما السلام

(جـ) العصر الآشورى الحديث [1]

(٩١١ ــ ٦١٢ ق . م)

يبدأ تاريخ هذه المرحلة بالملك إداد ــ نيرارى الثانى (٩١١ ــ ٨٩١ ق . م) وبهذه المرحلة بدأت آشور تدخل حقبة من حقبات التوسع العسكرى والانتعاش الاقتصادى .

وطبقاً للاستراتيجية الآشورية كانت جهود هذا الملك وحملاته الحربية إلى المنطقة الواقعة جنوب الزاب الأصغر بغرض إخضاع الجزء الواقع شمال بابل للنفوذ الآشورى ، وقد أدى ذلك إلى تصادم الجيش الآشورى مع جيش بابل وأسفر ذلك الصدام عن انتصار الملك الآشورى الذى استطاع انتزاع هذه المنطقة والمدن التى تليها إلى الجنوب من بابل وضمها إلى آشور . وأهم مدن هذه المنطقة آرابخا التى تشكل المفتاح المتحكم فى المنطقة الجبلية الواقعة خلف حدود آشور الشرقية .

وبهذه الحدود الجنوبية والشرقية الآمنة كان فى إمكان الملك الآشورى أن يتابع توجيه قواته المحاربة إلى المناطق الغربية من نهر دجلة ، حيث كانت بعض أجزائها فى أيدى قبائل الأرمن التى تم إخضاعها وإجبارها على دفع الضرائب . كما قام الجيش الآشورى باستعادة بعض المدن على طول وسط نهر الفرات مع إعادة تحصينها لحماية الطرق التجارية وذلك غير تحصين المنطقة حول نصيبين وضفاف الخابور بعد إخضاع كل القوى المناوئة للنفوذ الآشورى . وبذلك تم تأمين الحدود الغربية لآشور .

وفى عهد هذا الملك إداد ــ نيرارى الثانى أيضا بدأت الضرائب تصب فى خزينة آشور ، وقد وجه جزءا كبيرا منها لبناء اقتصاد آشور الداخلى ، الذى انتعش نتيجة للنشاط التجارى الذى كان يجرى على طول وسط العراق . بعد تأمين الطرق التجارية وخاصة الطريق النهرى نتيجة لمعاهدة عقدت بهذا الصدد بين مملكتى بابل وآشور .

وقد عمد ملوك آشور التالين على مدار ٦٠ سنة بعد حكم الملك إداد ــ نيرارى الثانى إلى اتباع سياسة هذا الملك فى الحفاظ على المملكة الآشورية وتأمين وسطها مما.

---

(١) مصر والعراق ، ص ٥٥٨ ومابعدها وهو يعتمد على مراجع منها . Luckenbill, Ancient Records. T, 476,

استدعى ــ على سبيل المثال ــ القيام بحملات عسكرية وتأديبية لإخضاع الشعوب التى تقطن التلال الشمالية والشرقية ، وذلك غير تأمين الطرق التجارية التى تسير إلى كبادوكيا وكذلك الطرق المؤدية إلى البحر المتوسط .

وخلف إداد ــ نيرارى الثانى ، ابنه الملك توكولتى نينورتا الثانى (٨٩٠ ــ ٨٨٤ ق . م) .

ثم أعقب هذا الملك آشور ناصر بال الثانى (٨٨٣ ــ ٨٥٩ ق . م) وكان أول نشاط عسكرى لهذا الملك فى الجبال الواقعة إلى الشرق من آشور ، ومن خلال ذلك النشاط أمكن السيطرة على سكان هذه القبائل الجبلية . وبعد ذلك قام بتأديب الأراميين الذين كونوا لهم مملكة فى بيت عدينى فى الغرب جنوب قرقميش (تل الأحمر حاليا) وذلك بعد أن ثاروا ضده على طول المنطقة الواقعة فى أعالى الفرات وحوض نهر الخابور بتحريض من سكانها الأصليين .

وفى هذه الأثناء قام ملك بابل بإرسال قوة من ثلاثة آلاف رجل لمساعدة الثوار ضد الآشوريين فى منطقة وسط الفرات ، فما كان من الملك الآشورى أن واجهها بقوة شتت كيانها وحقق النصر عليها . وقد كان لانتصار الملك الآشورى على الثوار آثار سياسية من قرقميش شمال بابل حتى كلديا جنوبا .

وبعد ذلك واجه الجيش الآشورى ــ ثورة أخرى غرب العراق بمساندة وتحريض الأراميين بعقاب صارم واضعا هذه المناطق تحت سيطرته مما ترتب عليه فتح الطريق أمام الجيش الآشورى إلى الشاطىء السورى . ولذلك فإنه فى السنوات التالية ، حينما توجه الجيش الآشورى إلى سواحل البحر المتوسط عن طريق قرقميش لم يواجه أية مقاومة تذكر حتى صور ، حيث قدمت كل المدن السورية فروض الولاء للجيش الآشورى الغازى .

وقد حظيت الدولة الآشورية ــ تحت حكم هذا الملك ــ بسلام واستقرار قام أثناءه ببناء عاصمته الجديدة كالح (نمرود الحالية) التى افتتحت عام ٨٧٩ ق . م كما تعددت فى عهده مشروعات الرى لزيادة خصوبة الأراضى وغرسها بالحدائق التى زودت بنباتات المناطق التى غزاها الجيش الآشورى . كما بنيت المعابد ، وأقيمت حديقة للحيوان .

وخلف هذا الحاكم ، الملك شلمان نصر الثالث (٨٥٨ ــ ٨٢٤ ق . م) الذى

واصل إتمام مابدأه أبوه . وتتصف سنوات حكمه الأولى باتجاهه إلى تقوية مراكز الآشوريين فى الغرب ، فقاد حملة ضد الأراميين فى الغرب ، وضم أراضيهم إلى أملاك آشور أى أن إمارة بيث عدينى صارت مقاطعة آشورية مما ترتب عليه أن صارت آشور صاحبة اليد الطولى فى الطرق التجارية على طول أعالى نهر الفرات إلى كيلكيا وآسيا الصغرى ، وقد كان ذلك تهديدا لدويلات المدن السورية ، التى قامت على الفور بتكوين حلف بقيادة دمشق وقامت بهجوم شامل على قوات آشور بالقرب من القرقر ونتج عن ذلك مصرع حوالى ١٤ ألفا من قوات سوريا البالغ عددها ٧٠ ألفا .

وبعد أربع سنوات أخرى قاد شلمان نصر الثالث حملة أخرى ضد دويلات المدن السورية وانتصر عليها وضمها إلى آشور وقد كان ذلك يعنى صيرورة كل الطرق التجارية إلى آسيا الصغرى فى قبضة آشور ، وكذلك السيطرة على إنتاج الحديد هناك ووضع اليد على إنتاج الخشب فى لبنان والفضة فى أمانوس .

وقد قام شلمان نصر الثالث بإرسال الحرفيين والفنانين السوريين إلى كل مدن آشور ، مما ترتب عليه نهضة كبيرة . وقد خلد أخبار هذه الحملة الأخيرة على النصب الذى عثر عليه في نمرود .

ومن أهم أحداث سنوات حكمه الأخيرة ، الثورات التى اندلعت فى بلاد النهرين ، وفى أجزاء أخرى من المستعمرات الآشورية ، وكانت أقسى هذه الثورات ، ثورة تزعمها أحد أبنائه ضده بمساعدة مدينتى نينوى وآشور ، وإن كان ليس هناك مايؤكد هذا الخبر الأخير .

وبعد وفاته ، جاء إلى الحكم شامشى إداد الأول (٨٢٣ ــ ٨١١ ق . م) وكان عليه أن يضع ــ منذ أواخر عهد أبيه ــ حدا للتورات التى انتشرت فى بلاد آشور . وقد ساعده فى ذلك ملك بابل . وتنحصر جهوده فى هذا المجال فى حملاته الثلاث الأولى التى كانت موجهة ضد المناطق الشمالية والشرقية الشمالية ، وضد قبائل جنوب غرب بحيرة فان وكذلك ضد الميديين وهم أحد فروع الشعب الإيرانى الذين هاجروا إلى المنطقة جنوب شرق بحيرة أورميا وقد كان ذلك بمثابة إنذار لكل من تسول له نفسه الثورة على الحكم

الآشورى(١) .

وبعد ذلك جاء إداد نيرارى الثالث (٨١٠ـ ٧٨٣ ق . م) :

وقد خلف إداد نيرارى الثالث ولده فى سن صغيرة ويقال : إنه لم يصعد إلى العرش إلا بعد خمس سنوات من موت والده ، مما دفع البعض إلى الافتراض أن والدته ساموارامات(٢) قد حكمت طيلة هذه الفترة ، وفى عهد هذا الملك شبت الثورات فى أجزاء متفرقة من الدولة الآشورية وامتنعت الضرائب عن الصب فى خزانة العاصمة وازداد الأمر سوءا حينما قامت ثورة أخرى عام ٧٤٦ ق . م فى العاصمة نفسها فى عهد أحد خلفاء إداد نرارى الثالث ، الذى قتل مع جميع أفراد الأسرة المالكة .

وهنا يجدر بنا الإشارة إلى أن الثورة التى أطاحت بالأسرة الملكية الآشورية قد جاءت إلى العرش بحاكم آشورى وهو تيجلات بيليستر الثالث (٧٤٥ ـــ ٧٢٧ ق . م) . لقد جاء هذا الملك فى فترة انهيار الدولة الآشورية الأولى . وقد أعاد هذا الملك إلى آشور هيبتها وكرامتها بفضل ما قام به من إصلاحات فى المجال العسكرى والإدارى ، وكان آخر أعماله القضاء على ثورات دويلات المدن السورية المتحالفة مع مملكة إسرائيل ضد آشور ، وكذلك قبائل الأرمن الموجودة إلى الجنوب .

وفى المجال الداخلى قام بتقسيم المملكة إلى مقاطعة والمقاطعة إلى وحدات إدارية لها حاكم مسئول أمام حاكم المقاطعة .

وقد أعقب هذا الملك أحد أبنائه الذى مات تاركا الحكم لسرجون الثانى .

سرجون الثانى (٧٢١ ـــ ٧٠٥ ق . م) :

من المحتمل أنه كان القائد العسكرى لجيوش الملك الراحل ، وقد تجددت فى عهده الاضطرابات فى بابل التى تحالفت مع عيلام ضد آشور وكذلك هجمات القبائل الكلدانية ، وثورة الدويلات السورية .

---

(١) هكذا كانت بلاد الشرق مسرحا لعمليات عسكرية متواصلة ، الهدف منها مادى بحت ، ضم أرض الغير ، الانفراد بلواء الزعامة ، الاستعلاء فى الأرض . ويسبق ذلك كله غزو الشعوب الآمنة ، وتيتيم الأطفال وترميل النساء ....

(٢) تحدثت عنها النصوص الإعريقية باسم سميرة أميس واسمها يعنى « محبوبة الحمامة » .

وقد واجه أيضا حلفا من أشدود (على شاطىء جنوب فلسطين) ومصر ومملكة إسرائيل وأدوم عام ٧١٢ ق . م . وذلك بالإضافة إلى المشكلة الكبرى وهى ضغط الأورارتو (قبائل مهاجرة إلى الجنوب والمغرب جاءت من الاستبس الروسى) .

ولقد أمضى ذلك الملك طيلة حكمه التى بلغت ستة عشر عاماً فى الحروب للقضاء على الثورات وذلك بالإضافة إلى أعمال البناء والتشييد التى أهمها بناء عاصمة جديدة شمال مدينة نينوى سمَّاها دور شاروكين[1] .

سيناخريب (٧٠٤ - ٦٨١ ق . م) :

وهو ابن سرجون . وقد قام بإعادة بناء العاصمة القديمة نينوى ليتخذها عاصمة له ، مع بقاء دور شاروكين كقلعة فقط .

وواجه هذا الملك ثورة فى بابل بتحريض من الكلدانيين والأرمن وبتعضيد من عيلام ، فقام على الفور بمواجهة جيوش المنشقين فى كيش واسترد سيطرة آشور هناك . كما واجه ثورة أخرى فى فلسطين حيث توجهت قواته وحاصرت « القدس » عاصمة مملكة يهوذا[*] فى عهد ملكها حزقيا ولكن حملته لم تفلح فى إطفاء جذوة هذه الثورة . وعادت الجيوش مرة ثانية إلى العيلاميين لتدمر مدنهم ، وتؤدب أتباع ملك يهوذا المتمركزين فى بابل . وحطمها وقضى عليها . وقد اغتيل هذا الملك فى مدينة بابل على أيدى أبنائه وجاء بعده ابنه المدعو اسرحدون والذى كان معينا من قبل والده على مدينة بابل قبل وفاته عام ٦٨٩ ق . م وقد لاحظ هذا الملك أن مصر ما تفتأ تؤلب البلاد ضد آشور مثل تأليبها مدينة صور وكذلك محاولتها السيطرة على سورية وفلسطين ، أو إثارة هذه المدن ضد آشور . لذلك فقد قام اسرحدون بتجهيز عدة حملات حربية ضد مصر أولها عام ٦٧٤ ق . م والثانية ٦٧١ ق . م التى نجحت فى الوصول إلى العاصمة المصرية منف واحتلالها . وأطلق اسرحدون على نفسه لقب « ملك مصر العليا والسفلى » .

ولكن مصر ثارت عليه ، لذلك أراد العودة إليها لتأديب الثوار ولكن وافته المنية قبل

---

(١) مصر والعراق ، ص ٥٢٥ .

( ) وكتاب التاريخ القديم يعتمدون هنا على العهد القديم المحرف ، ونورد هنا وجهة نظر كتاب التاريخ القديم للأسباب التى أوردناها سابقا ، وإن كنا نؤمن بأن هذه المعلومات تقع فى دائرة العلم الذى لا ينفع رغم أنها تدرس فى دور العلم . انظر ضوابط العلم ومنهج تلقيه . وعرض الأحداث بهذا النحو فى كتب التاريخ القديم قصد =

تحقيق رغبته .

آشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق . م) :

من أهم أعماله الرئيسية حملته العسكرية ضد مصر للقضاء على ثورتها ضد آشور ، وكانت من نتائج هذه الحملة وصول الآشوريين إلى منطقة طيبة فى مصر العليا . ولقد عاد الملك الآشورى إلى بلده بعد أن ترك حاميات آشورية عسكرية فى مناطق مصر المختلفة ، ولكن آشور لم تستطع السيطرة على مصر لفترة طويلة حيث نجحت ثوراتها بقيادة مليكها بسماتيك فى طرد القوات الآشورية عام ٦٥٥ ق . م وأثناء حكم آشور بانيبال سقطت العاصمة نينوى فى يد الميديين الذين أحرقوها وقامت ضده ثورات فى فلسطين وفى مملكة يهوذا وذلك بالإضافة إلى ثورة الدويلات السورية وكذلك الكلدانيين والعيلاميين[١] .

كل هذه القوى لم يكن وقع ثوراتها على نفس الملك بأشد من وقع خبر خيانة أخيه الذى كان يتفاوض سرا مع هؤلاء الأعداء ، فتحارب الأخوان وانتهى الأمر بانتحار آشور بانيبال تحت ضغط معاونى أخيه .

خلفاء آشور بانيبال :

جاء بعده ولده عام ٦٢٦ ق . م وهو العام الذى استقلت فيه بابل بزعامة أحد الكلدانيين[٢] المسمى نبوبولاسر وبعده جاء أحد الملوك الذى سقطت فى عهده العاصمة نينوى فى يد الميديين الذين أحرقوها عام ٦١٢ ق . م ، ومات الملك الآشورى محروقا ، وفرت فلول الجيش الآشورى إلى أعالى الفرات لتجتمع بقيادة أحد أفراد الأسرة المالكة الآشورية فى حران [٣] .

= به خدمة مخطط اليهود وأطماعهم فى إقامة قاعدة لهم تمتد من الفرات إلى النيل ، وقد بينا ذلك فى رسالتنا : ليس لليهود حق فى فلسطين ، ط . دار الوفاء .

(١) معلومة مستقاة من كتب التاريخ وهى غير موثقة لأنها تعتمد على التوراة المحرفة .

(٢) الكلدانيون فرع من الآراميين الرعاة الذين بدأوا يرنون بأبصارهم إلى صفاف الفرات منذ القرن الرابع عشر ق . م تقريبا .

(٣) مصر والعراق ، ج ١ ، ص ٥٢٨ .

بابل الكلدانية

أو

الدولة البابلية الحديثة (٦٢٥ ــ ٥٣٩ ق . م)

ولقد انحصرت جهود نبوبولاسر (٦٢٥) فى نينوى بعد ذلك فى محاولة استعادة السيطرة على مايمكن السيطرة عليه من أملاك الدولة الآشورية ، ولذلك استعمل هذا الملك قواته فى احتلال المنطقة حول نصيبين غرب آشور وآشور الوسطى والمناطق على امتداد وسط الفرات .

وحاول كذلك السيطرة على مايمكن السيطرة عليه من أراضى أوراتيا وكذلك دويلات سوريا . وأهم حدث بارز فى عهد هذا الملك هو الصدام العسكرى بين هذا الملك البابلى وبين جيوش مصر التى كانت تبغى السيطرة على فلسطين والمدن الساحلية كدويلات سورية . وقد كان ذلك بالقرب من مدينة قرقميش حيث هزم الجيش المصرى واستعاد الملك البابلى السيطرة على معظم دويلات فلسطين وسورية [١] .

نبوخذ نصر الثانى (٦٠٥ ــ ٥٦٢ ق . م) :

وأهم حملة عسكرية قادها هذا الملك كانت موجهة ضد ما أسماه كتاب التاريخ مملكة يهوذا التى مابرحت تكيد له . فاحتل بيت المقدس عام ٥٩٥ ق . م وأعقبها بحملة أخرى عام ٥٨٥ دمر فيها بيت المقدس وأنزل بها أبشع أنواع التدمير .

وجاء بعد هذا الملك عدة حكام لم يستطيعوا أن يصمدوا فى وجه عوامل الضعف التى بدأت تنخر فى عظام هذه الدولة . وانتهى حكمهم عام ٥٣٩ ق . م حينما خضعت بابل للغزو الفارسى وبقيت تحت سيطرة الدولة الفارسية حتى جاء الإسكندر وخلصها من حكمهم مستوليا على بابل عام ٣٣١ ق . م [٢] .

---

(١) مصر والعراق ، ص ٥٤٢ وما بعدها .

(٢) نفس المرجع ، ص ٥٥٠ وكما قلنا هذه معلومات واردة فى مراجع التاريخ القديم لانملك تصديقها ، لأنها تعتمد على روايات التوراة المحرفة ، وهى بصورتها الراهنة تخدم اليهود ورغبتهم فى اغتصاب ديار العالم العربى ولهذا يجب مراجعة هذه المناهج ، واستبعاد هذه المسائل عير الموثقة لأنها تاريخ مزور .

الفصل السادس

شبهات حول الإسلام

أثارهـا

كُتاب مايسمى بالتاريخ القديم

مِنْ المستشرقين ومن سار على نهجهم

أرض الرافدين (العراق)

تمهيـــد :

أثارت مراجع ما يسمى بالتاريخ القديم التى كتبها المستشرقون ومن سار على نهجهم.

شبهات حول الإسلام ورب الإسلام ، شبهات حول الدين والسلوك والتشريع والطوفان

ومما لاشك فيه أن تبنى هذه الشبهات ودراستها وتدريسها على هذا النحو يؤدى البشرية التى من مصلحتها أن تعرف حقيقة هذه المسائل على وجهها الصحيح ، لأن معرفتها على وجهها الصحيح يمكن أن يعين البشرية الضالة على العودة إلى ربها وإسلامها .

ولو كانت هذه الشبهات تتردد على ألسنة وفى كتابات غير المسلمين فقط لأمكن القول بيقين أن حقدهم على الإسلام هو الذى يحرك فيهم الهجوم على الإسلام وعلى الأمة المسلمة للنيل من عقيدتها وإسلامها وردّها عن دينها ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم** ﴾[1] ، ولكن الذى يزيد الأمر تفاقما أن أساتذة التاريخ (ومنهم بعض أساتذتنا وإخواننا) يرددون نفس الشبهات وما كان لهم أن يفعلوا ذلك ، لأسباب كثيرة أهمها أن الإسلام الذى يدينون به يعصمهم من ذلك .

---

(١) البقرة : ٢١٧ .

ومن هنا ـــ وجب علينا عرض نماذج من هذه الشبهات مع دحضها والرد عليها فى ضوء الدراسات التى وفقنا الله إلى القيام بها عن تاريخ الأمة الواحدة ، اعتمادا على القرآن الكريم وسنة النبى محمد ﷺ ثم كتابات التاريخ القديم ، آملين من أساتذة التاريخ القديم أن يراجعوا ماكتبوا فى هذا الشأن ، ويصححوه التصحيح الواجب الذى لا تعارض فيه مع الكتاب والسنة ، أداء لواجب الشهادة فالله يقول : ﴿ **وأقيموا الشهادة لله** ﴾ ، وأداء لواجب الحفاظ على دين الله رائقا عذبا لا تشوبه شائبة ، وأداء لواجب البلاغ وأمراً بالمعروف ونهيا عن المنكر وحماية لبنات وأبناء آدم عليه السلام من رضاعة هذا الفكر الفاسد الوارد فى مراجع التاريخ القديم ، والذى يترتب عليه بوضعه الراهن تربية أجيال لا تعرف لها ربًّا ولا ترتضى لها دينا ، بل وتخدم مخطط الأعداء وأطماعهم فى العراق ومصر وجزيرة العرب وبلاد الشام .

الدين والتشريع والطوفان فى حياة أهل الرافدين (العراق)
من خلال ما كتبه المستشرقون ومن نهج نهجهم
مع دحض الشبهات والرد عليها
فى ضوء العقيدة الإسلامية

أولا : رأى دى بورج فى كتابه « تراث العالم القديم » ترجمة زكى سوس :

« كانت ثقافة بابل وآشور التاريخية سامية ولو أنّه قبل هبوط الساميين من بلاد العرب ، أنشأت القبائل الوطنية مدينة بالسومرية (سومر كلديا الجنوبية) ووضعوا أسس الدين[1] واللغة والقانون والرى والحياة المتحضرة التى ظلت أمدا طويلا بعد أن وطد الساميون سيادتهم » (ص ٣٩) .

« ولقد كان حمورابى أعظم ملك فى هذه الأسرة ، هو الذى ركز العبادات الدينية المحلية فى كلديا فى عبادة مردوك الإله — الراعى ، لبابل » .

« وقد نظم حمورابى المذهب الإدارى للامبراطورية وأخضع عيلام إلى الشرق وآشور إلى الشمال وبسط سيادته حتى سواحل البحر المتوسط وتقوم الأدلة على ثقافة عصره من الآثار الأدبية العظيمة التى تضم ألواح عقود ورسائل ملكية ، ولكن أهم أثر تذكارى لحكمه هو مدونة القوانين التى كشف عنها فى السنوات الأولى من هذا القرن علماء الآثار الفرنسيون فى سوس » .

---

(١) الكاتب هنا يتبنى القول بأن الدين من اختراع العقل البشرى ، بينما الدين هو ماارتضاه الله لبنى آدم وهو الإسلام ، وأرسل به الرسل والأنبياء ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ ولقد تبين من دراستنا أن الإنسان مولود على الفطرة على التوحيد على الإسلام ﴿ **فطرة الله التى فطر الناس عليها** ﴾ وأن آدم عليه السلام كان نبيا مسلما أى أن الأصل فى البشرية التوحيد والإسلام ، والوثنية والشرك شىء عارض فى حياتها .

« وهذه المدونة ـــ أحكام الاستقامة التى وضعها حمورابى ، الملك العظيم ـــ نظمت فى دقة وإحكام القانون المدنى فى بابل ويشمل الملكية والعقود والزراعة والتجارة وأعمال المصارف والزواج والتبنى والإرث وكذلك سبر المرافعات القضائية ، وتشهد على المكانة الهامة التى كانت بابل قد وصلت إليها فى تجارب الأمم . وهى تكون مذهبا محكما لقانون الدولة ، ولو أن آثارا منها ترجع إلى ما **جرت عليه العادات الأولى مثل قانون حكم الله والقصاص بالمثل (العين بالعين) ، وهى تمثل تقدما عظيما بالقياس إلى قانون العادات فى المجتمعات الأولى . وقد حرم الانتقام بسفك الدم وقصر تطبيق شرعه المثل بالمثل على إجراءات المحاكم المقررة** ، والناس من كل الطبقات ، الغريب والمولود فى البلاد ، على السواء تنتظمهم حماية القانون . ومن الطرافة بمكان بالغ أن تقرأ كيف أن أمثال هذه المسائل الحديثة كالإعفاء من الخدمة العسكرية وثبات الملكية **والتعويض عن التحسينات** الزراعية ورقابة تجارة الخمور ، وودائع المصارف ، والمسئولية عن ديون الزوجة والحقوق الشرعية للنساء والأطفال نظمها هذا الحاكم البابلى فى ختام السنوات الألف الثالثة ق . م . وبامتداد المدنية البابلية إلى سوريا وفلسطين فإن **مدونة قوانين حمورابى والقانون** الذى جاء بعد ذلك مستندا إليها **وضعا طابعها على تشريع الساميين الغربيين وظلت المدونة نفسها نافذة المفعول زمنا مديدا فى العهد المسيحى وأثرت بعد ذلك على شرائع غزاة الشرق المسلمين**(١) . **وغدا يبرز البابليون كقوة تعمل** على بسط المدنية فى آسيا الغربية ،

---

(١) العجيب ان المستشرق دى بورج صور حمورابى على أنه مشرك بالله رب العالمين ، وهذا أمر لا يملك دليلا عليه ، خاصة وأن النصب المدون عليه قانون حمورابي ، تصور حمورابي ، وهو يتلقى الإذن من رب العدالة لإصدار قوانين ، حقيقة لا يجوز تصوير الإله على هيئة الإنسان لأن هذا كفر فالله سبحانه وتعالى ليس كمثله كشيء ، وليس له ند ولا نظير ، ولكن هذا اعتراف صريح بأن حكام ذلك الزمان لم يكن يجرؤ أحد منهم على ادعاء حق التشريع لأن التشريع حق الله ﴿ **إن الحكم إلا لله**﴾ الأنعام ٥٧ ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها** ﴾ الجاثية ١٨ ،

ويزعم الكاتب الذى يتبنى منهج مقارنة الأديان وهو أن الدين من اختراع العقل البشرى ، وبهذا يهدر وجود الله رب العالمين ، ويهدر الوحى والرسل ـ يزعم أن تشريعات حمورابى قد أثرت بعد ذلك على شرائع غزاة الشرق للمسلمين . لقد تجاهل المستشرق أن تشريعات الله سبحانه وتعالى فى القصاص وغيرها ، هى تشريعات ربانية نزل بها الوحي الأمين من عند الله عز وجل ، وأنه إذا كان هنالك تشابه بين تشريعات الإسلام التى نزل بها الوحى الأمين على رسول الله محمد ﷺ والتشريعات التى دوَّنها حمورابي على النصب ، فالسبب يرجع إلى كون حمورابي جاء فى وقت لاحق لبعثة إبراهيم عليه السلام وقبلها بعثة نوح على أرض الرافدين كما بينا ، وكلتا الرسالتين دعتا إلى الإسلام كما بينا ، الإسلام عقيدة وشريعة ، والشريعة وحى من السماء ، فذلك يعنى ماجاء فى مدونة حمورابى موافقا لشريعة الإسلام عن القصاص للرسالات السماوية التى سبقتها ، ليست من اختراع عقل حمورابى ، وليست هى التى أثرت فى تشريعات الإسلام ، وإنما هى وتشريعات الإسلام مصدرهما من الله رب العالمين .

وانتشرت فى كل ربوع الشرق لغتهم وعملتهم ومعايير أوزانهم . وكانت نساؤهم يستمتعن بمركز قانونى توفرت فيه الكرامة لهن . وكان فى قدرة الإنسان أن يمتطى متن دابته فى أمان من الخليج الفارسى إلى البحر المتوسط تحت حماية قوانين حمورابى .

« وتنهض ثلاث مسائل فيما يتعلق بتأثير الثقافة البابلية على أهم مدنيات الأمم القديمة . أولا يوجد تشابه وثيق بين تقاليد البابليين الدينية وتقاليد العبريين كما جاءت مدونة فى الفصول الأولى من سفر التكوين وفيها تقرأ عن جنة عدن والطوفان والتابوت وعن برج بابل وتبلبل الألسنة . وقد سرد العبريون كيف أن أجدادهم فى مرحلة بداوة قطنوا مدة من الزمان بكلديا . ومن العسير أن نحكم حكما قاطعا عن مدى رجوع هذه القرابة فى التقاليد إلى الاتصال المباشر مع بابل فى الأزمنة البعيدة ، وإلى أى مدى للاختلاط الذى حدث بعد ذلك مع شعوب كنعان الذين تمثلوا ، على اليقين ، ديانة بابل المتأخرة وإلى أى مدى ، مرة أخرى ، للاتصال المباشر زمن الأسر ومهما يكن من أمر هذا ، فيما يتصل بتفصيلات التقاليد الدينية العبرية وفرائضهم ، تبقى الحقيقة الواقعة وهى أن تطور ديانة العبريين على أيدى النبيين [1] إلى ديانة توحيد روحية كان خلقا مبتكرا متميزا جاءت به العبقرية الدينية العبرية كما كانت فلسفات أفلاطون وأرسطو التى جاءت بها عبقرية اليونان العقلية (ص ٣٩ ـــ ٤٤) .

ثانيا : رأى الدكتور محمد عبد المنعم أبو بكر فى كتابه « حضارة مصر والشرق القديم » (ص ٢٧٦ ، ٣٠٢) :

« ولقد اعتقد السومريون فى حياة بعد الموت » . ولم نجد عند البابليين من الأدلة ما يجعلنا نعتقد أنهم عرفوا التوحيد فى أى عصر من عصورهم كما كان الحال فى مصر ، وخاصة فى عصر الملك اخناتون » (صفحة ٣١١) .

---

(١) هُنا الكاتب يتبنَّى منهج مقارنة الأديان ويزعم أن الدين من اختراع العقل البشرى ، وأن النبوة ليست اختياراً أو وحيا من عند الله ، وأن الأنبياء طوروا العقائد البشرية الوثنية إلى عقيدة توحيد ... ومعنى ذلك أن المستشرق أسقط الوحى وتجاهل الله رب العالمين ، وقرن الأنبياء بالفلاسفة وشبه الدين بفلسفة الفلاسفة اليونان .

ولقد بينا فى دراستنا فساد هذا المنهج ونتائجه فى دراسات سابقة (ذرية إبراهيم والمسجد الأقصى ، تأليف دكتور جمال عبد الهادى ، ودكتورة وفاء محمد رفعت ، الإسلام دين الله فى الأرض وفى السماء ، طبعة دار الوفاء بالمنصورة ، وطبعة دار طيبة بالرياض) .

كما أن الوثائق السومرية تقول :

« إن شعب السومير سكن هذه المناطق منذ أول الخليقة ولم يكن الناس قد عرفوا بعد إقامة الحكومات وذلك لأن بدائيتهم حتمت هذا ولا غرابة ..

ولقد نزل نظام الحكم من السماء (صفحة ٢٦٩ ـــ ٢٧٠) وقام ثمانية آلهة بالحكم فى ثمان مدن مختلفة وحكم كل منهم عددا من السنين يزيد على الألف ثم انتهى حكمهم بحدوث الطوفان الذى عم العالم كله وأهلك الحرث والنسل »[1] .

وهذه هى المرة الأولى التى تحدثت وثائق قديمة شعبية عن الطوفان بجانب الكتب السماوية وكان فى هذا دافع قوى لبعض العلماء أن يحاولوا استقصاء الأمر بطريقة علمية وتفرغ لهذه الدراسة حاكم اسمه « هيليون » قام بمقارنة كل النصوص البابلية التى ذكرت الطوفان وفحصها فحصا دقيقا على ضوء ما ورد عن هذا الحادث فى الكتب السماوية وهو يؤكد أن هذه الوثائق كلها ـــ مع وجود بعض الاختلافات من حيث وصف الطوفان ونتائجه ومسبباته ـــ ترجع إلى أصل واحد تناقلته الأجيال وتحدثت عنه أفواه الناس إلى أن تعلموا الكتابة فسجلوه فى أكثر من وثيقة وانتهى « هيليون » إلى تحديد تاريخ حدوث الطوفان فى القرن الأربعين قبل الميلاد .

ومن الطريف حقا أن تسجل الأبحاث العلمية التى جرت فى أكثر من مكان فى بلاد العراق ظواهر تكاد تثبت حدوث فيضان كاسح حوالى منتصف القرن الأربعين قبل الميلاد وذلك أن المنقبين عثروا على طبقة طميية سمكها نصف متر اختلطت فيها كميات كبيرة من القواقع والأسماك التى تعيش فى المياه العذبة وذلك على عمق يزيد على الثمانية أمتار أسفل التل الذى حوى أطلال مدينة « كيش » الغارقة فى القدم .

---

(١) وهكذا نلمح الدراسات الأثرية الحديثة تؤكد جملة حقائق واردة وواضحة كل الوضوح فى المصادر الإسلامية وهى :

أولا : أن شعب السومر قد سكن أرض الرافدين منذ أول الخليقة ، فهو جزء من القرون العشرة التى كانت بين آدم ونوح عليهما السلام على الإسلام .

ثانيا : أن نظام حكم نزل من السماء ، وهذا صحيح فآدم عليه السلام قد تلقى الإسلام عقيدة وشريعة عن الوحى عن الله عز وجل ، ونصب الله آدم عليه السلام خليفة فى الأرض ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ .

ثالثا : أن الفترة بين آدم ونوح ، عشرة قرون كلهم فى الإسلام ، والنصوص السومرية تقول : إنها ثمانية آلاف .

رابعا : تثبت النصوص السومرية أن الجيل الأول ، جيل آدم ونوح عليهما السلام كان يُعَمَّر أكثر من ألف سنة .

خامسا : أن الطوفان الذى أهلك الله به أهل الرافدين وغيرهم من العصاة حقيقة إسلامية . وصدق الله القائل ﴿ **علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى** ﴾ .

كما أن « وولى » عثر أسفل أطلال مدينة « أور » القديمة على طبقة طمية سمكها متران ونصف ثم عثر أسفلها على طبقة أخرى تحوى مخلفات بشرية يمكن إرجاعها تاريخيا إلى عصر حضارة « العبيد » . غير هذا سجل العلماء أيضا فى مكان آخر يبعد عن مدينة « أور » بحوالى نصف كيلو متر وجود طبقة من نفس الطمى يبلغ سمكها ٣٫٧٠ متر . وهكذا تتعاون الأبحاث الأثرية فى إثبات ماورد على أفواه الناس وسجلته بعض الوثائق القديمة .

وإذا كانت الوثائق البابلية السالفة الذكر قد تحدثت عن العصور السابقة على الطوفان بتلك المبالغة فإنها أخذت تسرد علينا أخبار الأسرات الحاكمة بعد الطوفان بشكل أكثر اعتدالا فذكرت أسماء ٢٣ ملكا للأسرة الأولى لمدينة كيش ثم اتبعتها بأسماء ١٢ ملكا للأسرة الأولى لمدينة « أوروك » ويود العلماء أن يعينوا عام ٣٠٠٠ ق . م لهذه الأسرة الأخيرة ونحن جميعا نترقب نتائج أعمال الحفر والتنقيب فى أطلال هاتين المدينتين لعلها تكشف لنا النقاب عن الأحداث التى كانت تجرى إبان هذه الفترة .

ثالثا : رأى الدكتور عبد الحميد زايد فى كتابه « الشرق الخالد » :

« لم يكن التوحيد الذى ظهر فى الشرق هو من العبادات المفضلة فقط ، بل هو طريق الحياة الصحيحة . آمن المصريون بالإله الواحد ، ولم تكن تلك الدعوة رسالة من السماء[1] ، وربما ظهرت فى وقت لم يكن قد استعد فيه الإنسان بعد لنبذ تعدد الآلهة .

---

(١) يتبنى الأستاذ الدكتور المنهج الاستشراقى ، فهو يزعم أن المصريين قد آمنوا بالإله الواحد دون رسالة حملها الرسل من عند الله ، ويزعم بأن الإيمان بالإله الواحد قد حدث فى وقت لم يكن الناس قد استعدت لنبذ تعدد الآلهة أى أن الأستاذ الدكتور قد حكم على شعب مصر بالشرك منذ أقدم العصور ، وزعم أيضا أن عقيدة التوحيد نبتت على أرض مصر وأنها انتقلت إلى بلاد الشرق حيث ظهرت دعوة إبراهيم للوحدانية ... وهذا يعنى كما هو واضح ، أن التوحيد من اختراع عقل الشعب المصرى ، وأنّ إبراهيم عليه السلام تأثر بهذه العقيدة التى نبتت على أرض مصر .

ولقد بيّنا أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون كلّه وفطره على التوحيد والإسلام ، وخلق آدم مفطورا على الإسلام والتوحيد ، وأنه سبحانه وتعالى قد أخذ العهد على ذريته بالتوحيد : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنّا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ الأعراف . ١٧٢ ـــ ١٧٣ وكل مولود يولد على الفطرة كما بين رسول الله محمد ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » إذن الأصل فى بنى آدم التوحيد والذى فطرهم على التوحيد هو الله رب العالمين .

ودعوة إبراهيم عليه السلام كما بينا اصطفاء ووحى من الله رب العالمين ، فإبراهيم عليه السلام مولود ومفطور =

لقد كانت دعوة أخناتون للوحدانية فى هيئة مراسيم صدرت من قصره ، انطفأت بعد قليل بمراسيم ممن جاءوا من بعده من آل فرعون .

ومما لا جدال فيه أن تعدد الآلهة قد سرى من مصر إلى أقطار الشرق الأدنى أو العكس ، ومما لا جدال فيه أن عقيدة التوحيد قد نبتت فى مصر ، وانتقل ظهورها من وادى النيل فى صورة من الصور إلى بلاد الشرق ، حيث ظهرت دعوة إبراهيم للوحدانية وجاء من ورائه نبوات أخرى (ص ـــ ب) .

ولكننى سأتعرض فى كثير من الأحيان إلى ما جاء فى كتب السماء ، وذلك لأن طبيعة دراسة بعض فترات تاريخ الشرق الأدنى القديم تحتم علينا النظر فيما نزل من السماوات من كتب مصدقة » [1] .

« الطوفان : وقد اتحدت الظواهر الطبيعية على إحداث الطوفان[2] ، فغزارة الأمطار وانفجار ينابيع المياه الواردة فى التوراة تشابهت مع ماجاء فى النصوص السومرية البابلية » ، ثم يقول المؤلف : « ليس من شك فى حدوث مثل هذا الطوفان فى وادى الرافدين الذى يُعرف بفيضاناته الفجائية ، ومن الجائز أن الطوفان المعروف لدينا كان فيضانا كبيرا بقى فى وعى الزمن (ص ١١) .

على توحيد الله رب العالمين ، كما أن الله أكرمه بالرسالة والوحى ، إذن الرسالة ليست نتيجة تأثر شخصى منه بالتوحيد الذى يزعم الأستاذ الدكتور أنها نبتت على أرض مصر .

آمل أن يقوم الأستاذ الدكتور عبد الحميد زايد بتصحيح هذه المعلومات الواردة فى كتابه ، لأن بقاءها على هذا الوضع يؤذى البشرية فى حاضرها ومستقبلها ويؤدى إلى تربية أجيال تكفر بدين الله الذى نزل به الوحى وأرسل به الرسل .

(١) ليس هنالك سوى كتاب واحد مصدق حفظه الله من التحريف وهو القرآن الكريم ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

(٢) كيف يسمح الأستاذ الدكتور لنفسه أن يردد ماقاله المستشرقون أن الظواهر الطبيعية اتّحدت على إحداث الطوفان ، هل الظواهر تعقل ، أم أنها من خلق الله وهى مستسلمة لله رب العالمين ، وهى من جند الله . والله يقول : ﴿ **فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر** ﴾ من الذى فجر الأرض عيونا ؟ وأنزل من السماء ماء ليطهر به الأرض من الكافرين الملحدين ؟ إنه الله رب العالمين أى أنه لم يكن فيضانا فجائيا كغيره من الفيضانات وإنما هو فيضان أجراه الله فى وقت معين لأداء واجب معين وهو التدمير على الكافرين وأنه يقول : ﴿ **وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر** ﴾ .

« نظرة عابرة فى الحضارة السومرية : كان السومريون يعتقدون أن الإنسان خلق لخدمة الآلهة ، وهكذا فى الديانات السماوية مثل الإسلام الذى جاء فى قرآنه ما يفيد أن الله ما خلق الجن والإنسان إلا ليعبدوه »[1] . (ص ٤٩) .

« إن دراسة ديانة أهل الرافدين الأقدمين هى الركن الأول من أركان الحضارة التى ظهرت فى وادى دجلة والفرات » .

« إن أول ديانة ظهرت للإنسان غالبا ما تكون فى نهاية العصر الحجرى[2] الحديث وقد مثلت فيها آلهة الأرض والخصب . كانت الظواهر الطبيعية لها أثرها فى ديانة وادى الرافدين ، وقد انعكست تلك البيئة القاسية على ديانة أهل البلاد الأقدمين ، واتخذت السماء والأرض مركز الصدارة فى الظواهر الطبيعية » .

« وأهم مصادر الديانة الرافدية [3] : الأساطير والقصص مثل أسطورة الخليقة وقصة جلجاش ، وإرشادات عن كيفية إقامة الشعائر الدينية وعن بناء المعابد وإقامة الطقوس الدينية فيها ، وكذلك التعاويذ والرقى ونصوص التنبؤ والتنجيم وإثبات الآلهة والوثائق الخاصة بإدارة دور العبادة وأملاكها » .

« وواضح من تاريخ ديانة أهل الرافدين خصوصا عند ما تم نضوجها فى الألف الثالثة ق . م ، عدم تغيير أسسها تغييرا واضحا . فالظواهر الطبيعية التى قدسها البابليون هى نفسها التى قدسها الآشوريون . وثمة ظاهرة واضحة فى الديانة البابلية هى تعدد الآلهة وقد كثرت بحيث أنها تملأ مجلدا كبيرا ، كان لكل فرد إله خاص به ، وكان لكل ظاهرة طبيعية إله ، ولكل منطقة من الكون إله أو مجموعة من الآلهة . ولم يعرف البابليون

---

(١) حقيقة إن القرآن ورد فيه ﴿ **وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ماأريد منهم من رزق وماأريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ وكون هذا الاعتقاد كان موجوداً لدى السومريين ، فسبب ذلك لأن السومريين كانوا كما بينا من سلالة الناجين من الطوفان أى سلالة المسلمين ، والمسلم يعرف ربه ويعرف أنه قد خلقه لغاية العبادة .

(٢) لقد بينا أن آدم عليه السلام ، أبا البشر الأول كان مسلماً موحداً ، أول دين عرفه وعرفته ذريته هو الإسلام وقد بينا ذلك فى دراستنا . أما مظاهر الوثنية التى يعتبرها الأستاذ الدكتور فهو شىء عارض ولم تكن هى ديانة كل أهل الرافدين كما بينا .

(٣) لماذا لم يضع الأستاذ الدكتور كتاب الله القرآن الكريم من بين مصادر الديانة الرافدية ، ألم يبعث نوح ، وإبراهيم ويونس على أرض الرافدين ؟.

التوحيد[1] . كما نسبوا إلى الآلهة صفات البشر من روحية ومادية من حيث وجود صور لهذه الآلهة وأعضاء كما هى عند الإنسان ، وقد تصوروا فى الآلهة كما كانت الحال فى بلاد الرافدين منذ فجر التاريخ ، لها مجالس شورى مقدسة تقرر فيها شئون الكون ، كما كانت الحال فى الديمقراطية التى كانت موجودة فى العصر الشبيه بالكتابى وفى بداية فجر الأسرات » (ص ١٣٨ — ١٣٩) .

« كانت آلهة الرافدين ظاهرة واضحة وهى علاقتها بظواهر الطبيعة والحياة » . (ص ١٤٣) .

« الإله سين » : سماه السومريون والبابليون « سين » وكذلك سمى « ننار » أو « ننا » (رجل السماء) . وكان يشترك مع الإله شمس رمز الشمس فى تصريف أمور القضاء . وقد ربط العراقيون القدامى بين سبب ظاهرة خسوف القمر وهو تمكن سبعة شياطين أو أرواح شريرة من القمر من أجل ذلك كانوا يقومون بتقديم القربان ويصلون حتى يعود القمر حالته الطبيعية ، وكان له رفيقة وزوجة ، وهى نينجال » .

« وجدير بالذكر أنه يسن على المسلم حين كسوف الشمس أو خسوف القمر أن يؤدى صلاة ، من المستحسن أن تكون جماعية يدعو فيها الله أن يذهب عنه وعن المسلمين الأذى . كل ذلك رواسب عاشت من الماضى البعيد وأبقى عليها الإسلام فليس لها أى ضرر على المجتمع وعلى العقيدة الإسلامية »[2](ص ١٤٦)

---

(١) وهكذا حكم الأستاذ الدكتور على أهل الرافدين بالشرك ، وهذا منهج خطير فى الحكم على عقائد الناس بهذه السهولة واليسر . هل إذا دخلنا المتحف المصرى مثلا ، أو صعدنا فى ميدان رمسيس أو الميادين المنصوب فيها التماثيل ، هل يعنى ذلك أن شعب مصر برمته يشرك بالله عز وجل ؟ حقيقة أن نصب التماثيل فى الشوارع والميادين غير جائز ، ولو كان إبراهيم عليه السلام أو محمد ﷺ يعيشان لحطما هذه التماثيل ، ولكن لا يعنى ذلك أن شعب مصر بأكمله وثنى يتعبد إلى هذه الأوثان .

ولقد بينا أن أهل الرافدين بعث فيهم أنبياء ورسل ودعوا جميعا إلى التوحيد ، فمن الناس من آمن ومنهم من كفر ، فكيف يزعم الأستاذ الدكتور أن البابليين لم يعرفوا التوحيد .

(٢) إن هذا الذى يذكر الأستاذ الدكتور جد خطير ، فهو يزعم بأن صلاة الخسوف والكسوف مأخوذة عن السومريين أى أن العبادات وهى لله رب العالمين والصلاة ركن من أركانها من اختراع العقل البشرى .

وصلاة الكسوف سنة مؤكدة للحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن رسول الله ﷺ « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل ، لا ينخسفان لموت أحد أو حياته فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة » . إذن هى عبادة مقدسة مشروعة ، نزل بها الوحى الأمين على رسول الله محمد ﷺ . أى ليست مأخوذة عن السومرين . =

« الشرائع والقوانين » :

« لم تظهر القوانين والشرائع بشكل واضح عند شعب من الشعوب كما ظهرت فى وادى الرافدين . وكان يعتبر العراقيون القدماء أن الآلهة قد أوحت إلى الحكام إصدارها . فهذا حمورابى فى مقدمة شريعته يقول « لما عهد آنو » العظيم سيد الآلهة و « أنليل » رب السماء والأرض الذى بيده مصير البلاد إلى مردوخ بِكْر « أيا » أن يحكم جميع البشر انتدبنى آنـذاك آنـو وأنليل ، أنا حمورابى الأمير الكريم عابد الآلهة ، لأنشر العدل فى البلاد وأقضى على الشر والغش وأمنع القوى من اضطهاد الضعيف » (ص ١٧٧) .

« أما عن مبدأ السن بالسن والعين بالعين ، المعروف فى الشريعة الإسلامية والعبرانية وبعض شرائع أخرى فقد تشابهت شريعة حمورابى فى هذه الناحية إلى حد ما مع تلك الشرائع »[1] (ص ١٨٤) .

« إن شريعة حمورابى ترينا المدى الذى بلغه المجتمع السامى فى الألف الثانى قبل الميلاد فنجده يسن قوانينه ليحمى الضعيف من بطش القوى ويذود عن الأرامل واليتامى ، وسوف نرى أن المجتمع الإسرائيلى سيتأثر بشريعة حمورابى وإذا أضفنا إلى هذا أن أصحاب شريعة حمورابى قد نزلوا إلى أرض الرافدين من الجزيرة العربية وغالبا من جنوبها » .

« كما أن هناك صلة واضحة بين شريعة حمورابى وبين التشريعات العربية سواء أكانت مأخوذة من بنى مدين أم ما يسمى فى بعض الكتب كاهن مدين (يثرون) أم بتأثره بشريغة حمورابى كما سنرى فيما بعد . وقد عرف المجتمع الإسرائيلى هذه الشرائع قبل أن ينزل إلى فلسطين » .

« لقد بلغت الأمم التى نشأت فى بلاد الرافدين شأوا بعيدا من الحضارة والثقافة فتشريعاتهم فيها طابع الإنسانية العالمية بينما نجد المجتمع الإسرائيلى لم ينهض برسالة عالمية مثل

= إذن كيف يمكن تفسير قيام السومريين بالصلاة عند خسوف القمر كما زعم الأستاذ الدكتور ؟ الرد بسيط : هذا من بقايا الرسالات السماوية التى أرسلت إلى أهل الرافدين ، ومنها شرعت الصلوات ومنها صلاة الكسوف . أى أنه فى النهاية مصدر فرضية الصلاة أو سنتها هو الله رب العالمين .

إن تسى هذا الرأى الذى يعرضه كتاب الترق الخالد ليسىء إلى الإسلام فى جانب العبادات ، وهذا أمر يجب على الأستاذ المؤلف أن يتداركه ويرجع عنه ويتوب إلى الله منه .

(١) ولقد بينا السبب فى ذلك التشابه ص ٢٢٤ هامش ١ .

ما نهض العربى البابلى . ومن تلك النقطة تسطيع أن تدرك مدى حرص الشريعة البابلية على الحفاظ على الملكية والضرب على أيدى المعتدين وتوقيع أقصى العقوبات ، أما التشريع الإسرائيلى فلم يبلغ مكانته العالمية » .

« وكتاب العهد عند الإسرائيليين يكاد يكون نسخة من تشريع حمورابى .

وينقسم كتاب العهد إلى قسمين مختلفين شكلا وموضوعا ، فالقسم الأول يعتنى بمواد القانون ، ويختص الثانى بالعقيدة . وأسلوب كتاب العهد لا يفترق عن أسلوب شريعة حمورابى ، فالجملة الشرطية في شريعة حمورابى هى شرطية أيضا فى العبرية » . (ص ١٨٧ — ١٨٨)

« تلك نظرة عابرة فى ديانة أهل الرافدين فى العصور القديمة ، ومنها يتبين تأثرهم بالظواهر الطبيعية وربطهم حياتهم الدينية بها ، وتقديسهم النساء والأرض والماء والهواء ، وهى عناصر الخلقة التى تقوم عليها . ومع وجود تشابه كبير بين الديانة الرافدية والفرعونية فى بعض أشكالها الخارجية إلا أنها تختلف عنها من حيث نظرة أهل الرافدين إلى حياة الآخرة ، فلم يكونوا يؤمنوا بوجود الجزاء والعقاب والبعث بعد الموت كما آمن المصريون[١] القدماء ، ولكنهم كانوا يعتقدون أن الإنسان يكافأ على خير فعله فى تلك الحياة وتعاقبه الآلهة فى الدنيا إذا ما اقترف إثما أو فعل سيئة . كما اختلفت دور العبادة المصرية القديمة وقبور الفراعنة عن المنشآت الدينية والجنائزية الخاصة بأهل الرافدين .

لم تكن نظرة البابليين للكون كنظراتنا نحن من حيث وجود شطرين هما الحى والجماد ، بل نظروا لكل حجر وشجر وكل ما يخطر على البال على أنه يتمتع بإرادة ذاتية وله شخصية . فالكون لدى البابليون قد نسق على هيئة مجتمع أو دولة يتمتع أفرادها بديمقراطية »[٢] . (ص ١٥٥) .

---

(١) كيف يجزم الأستاذ الدكتور أن أهل الرافدين لم يكونوا يؤمنون بالبعث والجزاء والحساب ، أليس هذا حكم على أمة بكاملها بالشرك ؟ ؟ إن أهل الرافدين جزء من الأمة المسلمة التى تنتسب إلى أبيها آدم عليه السلام ، وإلى أبيها نوح عليه السلام أبو البشر الثانى ، ومنهم بعث أنبياء ورسل دعوا الناس إلى الله رب العالمين ؛ وعرفوهم أن الإيمان باليوم الآخر والبعث والحساب والعقاب والثواب جزء من عقيدة المسلم ؛ فكيف يزعم زاعم بأنهم لم يؤمنوا بوجود البعث بعد الموت ؟ ؟

(٢) آمل أن يرجع القارئ الكريم إلى فصل الكون المسلم ، لكى يدرك أن كل الحى والجماد ، كل يعرف ربَّه وخالقه ومولاه سبحانه وتعالى . . .

رابعا : رأى الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح فى كتابه « الشرق الأدنى القديم » جـ ١ ، مصر والعراق ، ط ١ ، القاهرة ١٩٧٣ [١] :

« العقائد: أخذ السومريون بتعدد الأرباب والربات شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من أصحاب الديانة الوضعية القديمة ، وسجلوا بعض أسماء أولئك الأرباب والربّات موجزة فى نقوشهم المبكرة ، ثم سجل خلفاؤهم لها ألقابا عدة فى أساطير مسهبة التزموا فيها بصورها القديمة أحيانا ، وذكروها بصور مستحدثة أحيانا أخرى » (ص ٣٩٥) .

« ويفهم مما سجله هؤلاء وهؤلاء أن ديانتهم كانت ديانة طبيعية فى مجملها ، وأن فقهاءهم تخيلوا السماء والأرض فى بداية أمرهما ملتصقتين [٢] يحيط بهما محيط مائى عظيم » (ص ٣٩٥) .

« وهكذا مضى السومريون فى تخيلاتهم ، وافترضوا لكل ظاهرة طبيعية ربا أو ربة ، وافترضوا لأربابهم صورا بشرية مضخمة وحياة تماثلها حياة البشر ، تزاوجوا فيها وتناسلوا ، وتحابوا وتخاصموا ، لولا أنها كانت حياة سرمدية ذات مقدرة مطلقة . واستقرت لأربابهم الكبار عبادات رئيسية فى مدن بعينها » (ص ٣٩٦) .

« وعلى نحو ما تخيل السومريون لمظاهر الطبيعة أربابا عديدين أطلقوا على كل منهم صفة « دنجر » بمعنى إله ، تخيلوا لوجوه حضارتهم أربابا ابتدعوها ورعوا أصحابها ، مثل « نابو » رب الكتابة . وردوا إلى أولئك الأرباب فضل إنشاء مدنهم وتنظيمها ووضع شرائعها ، ثم جمعوا إلى هؤلاء وهؤلاء أربابا صغارا محليين ، يشبهون الأولياء والقديسين ،

---

(١) والأستاذ الدكتور يعتمد هنا على ماكتبه هامرتن وآخرون ،« تاريخ العالم ، جـ ٢ .

(٢) كون أن يوجد فى النصوص القديمة ما يشير إلى أن أهل الرافدين منذ آلاف السنين قد تخيلوا أن السماء والأرض فى بداية أمرهما ملتصقتين ، يحيط بهما محيط مائى عظيم ، فهذا يدعونا إلى ضرورة دراسة هذه النصوص فى ضوء قول الله تعالى : ﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون** ﴾ الأنبياء آية : ٣٠ .

وكون أن إنسان هذه العصور المبكرة لديه هذا الفكر العلمى الراق ، فلا يعنى ذلك سوى شىء واحد هو أن هذه حقيقة بينها الرسل والأنبياء الذين بعثوا فيهم أمثال نوح عليه السلام الذى قال لقومه : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجا** ﴾ .

وذلك يعنى أن مصدر معرفة أهل الرافدين منذ أقدم العصور هى مصدر معرفة البشرية لهذه المعلومة من القرآن الكريم ، والمصدر هم الرسل عن الوحى من الله رب العالمين . إذن هذه المعلومة المدونة لدى أهل الرافدين دليل على أن توحيد الله رب العالمين ،أصيل فى حياة الرافدين .

اتخذهم الأفراد رعاة شخصيين وحماة وشفعاء لهم لدى أربابهم الكبار الذين تخيلوهم بعيدين عن مستوى دنياهم . ولم يكن أحدهم يجد بأسا من أن يعتبر معبوده الخاص أو معبود أسرته « راعيه الموكل به » و « ربه وأباه المقدس الذى أنجبه » (ص ٣٩٦) .

« وتصور السومريون أربابهم بهيئات بشرية (ص ٣٩٧) وبهيئات الحيوانات والطيور ، وصوروا أغلب رموزهم الحيوانية فى هيئات مركبة ، ومن ذلك القبيل أن رمزوا إلى معبودهم نين جيرسو بهيئة نسر مهيب بجناحين كبيرين ورأس أسد (أو رأس لبؤة) وكانوا إذا صوروه على هيئة بشرية جعلوا وجه الأسد شعارا لردائه أو لمقعد عرشه ، أو لموطىء قدميه » [١] (ص ٣٩٧) .

« وفى خلق البشر وأسبابه ، كانت للسومريين تقديرات طريفة تعتمد فى مجملها على الإيمان بأن الناس ما خلقوا إلا ليعبدوا الأرباب ويخدموهم ويوفروا القرابين لمعابدهم [٢] . وشاعت لهم فى هذا السبيل روايات شتى أغلبها مضطرب مختلط . ولكن يفهم من بعضها أن أربابهم عاشوا فى بداية خلقهم هائمين كالسوائم ، لا يقدرون على شىء من أمرهم ، حتى خلق الإله الأكبر الأنعام من أجلهم ووكل بها « لهار » وأنبت لهم الغلال ووكل بها « اشنان » (أخت لهار) ، فطعموا ونعموا ، ولكنهم لم يحسوا للشبع والرى طعما ، فاتجهوا بضراعتهم إلى الحكيم « انكى » الذى كان حتى ذلك الحين سادرا فى مياه العمق غير عابئ بهم ، ووسطوا لديه أمه نمو (روح الأمومة فى المحيط الأزلى) فبثت ضراعتهم إليه وقالت له فيما قالت « ... قم إذن يابنى ، ولنصنع شيئا لائقا ، لنصنع (بشرا) عبيدا للأرباب ...) ، فاستجاب لها وقال لها « أماه ، إن الكائن الذى نطقت باسمه موجود فاربطى عليه صورة الآلهة (؟) ، اضربى لب الطين الموجود فوق مياه العمق ، واجعلى أعوانك يكثفون الطين جيدا ، وشكلى أنت له أعضاءه وجوارحه ، وستعمل ننماخ من فوق يدك .. ، قدرى مصيره يا أماه ، وستربط ننماخ عليه صورة الآلهة ، ذلك هو الإنسان » [٣]

---

(١) وعرض عقيدة أهل الرافدين على هذا النحو يعنى الحكم عليهم بأنهم كانوا مشركين ، ولا يمكن تعميم هذا الحكم على جموع الأمة خاصة وقد بيَّنا فى دراستنا أن الأجيال التى كانت على الإسلام كانت تعيش فى بلاد الرافدين ، وبينا أن هناك رسالات سماوية دعت إلى الإسلام كلف الله الرسل بها ومنهم نوح وإبراهيم ويونس إلى أهل الرافدين .

(٢) بينا حقيقة هذه المسألة فيما تقدم .

(٣) إذا قاربا هذا النص مع ماورد فى قصة خلق آدم التى رواها لنا القرآن الكريم وسُنَّة النبى محمد ﷺ التى جاء فيها « ولا تضربوا الوجه فإن الله قد خلق آدم على صورته » أمكن أن نجزم أن النص هو عبارة عن قصة خلق آدم عليه =

تشريعات حمورابى :

« وقضى المشرع على من اتهم سيدة بسوء السلوك دون بينة أكيدة بحلق نصف شعره فى ساحة القضاء (١٢٧) . فإذا اتهمها زوجها ولم يقدم بينة واضحة على فجورها ، كفاها أن تقسم على طهرها أمام معبودها وتعود إلى دار زوجها (١٣١) . وهو ما أقرت الشريعة الإسلامية بما يشبهه »(١) . (ص ٤٦٢)

= السلام ، وإذا كان قد أدخل عليها التحريف ولكن مع ذلك فهى تؤكد حقيقة مهمة وهى أن الأمم ومنهم أمة الرافدين كان لديها خبر صحيح عن قصة الخلق ، خلق آدم عليه السلام عن الوحى عن الرسل عليهم السلام ، فهى إذن ليست من اختراع العقل البشرى ولكنها وحى ربّانى .

(١) فالشريعة حكمها لا يتشابه من قريب أو بعيد مع ماقاله الأستاذ الدكتور وللتعرف على حكم الإسلام فى الحالة التى أوردها الأستاذ الدكتور يستدعى منا الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله . يقول الله عز وجل : ﴿ **والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدرؤا عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين** ﴾ (سورة النور : ٦ — ٩)

وفى هذا يقول سيد قطب (فى ظلال القرآن) :

« وفى هذه النصوص تيسير على الأرواح ، يناسب دقة الحالة وحرج الموقف ذلك حين يطلع الزوج على فعلة زوجته ، وليس له من شاهد إلا نفسه . عندئذ يحلف أربع مرات بالله إنه لصادق فى دعواه عليها بالزنا ، ويحلف يمينا خامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . وتسمى هذه شهادات لأنه الشاهد الوحيد . فإذا فعل أعطاها قدر مهرها ، وطلقت منه طلقة بائنة ، (ولا تعود إلى دار زوجها) ، وحق عليها حد الزنا وهو الرجم . وذلك . إلا أن ترغب فى درء الحد عنها فإنها عندئذ تحلف بالله أربع مرات إنه كاذب عليها فيما رماها به ، وتحلف يمينا خامسة بأن غضب الله عليها إن كان صادقا وهى كاذبة ... بذلك يدرأ عنها الحد ، وتبين من زوجها بالملاعنة ولا ينسب ولدها — إن كانت حاملا — إليه بل إليها . ولا يقذف الولد ومن يقذفه يحد .

وقد عقب على هذا التخفيف والتيسير ، ومراعاة الأحوال والظروف بقوله : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم** ﴾ .

ولم يبين ما الذى كان يكون لولا فضل الله ورحمته بمثل هذه التيسيرات وبالتوبة بعد مقارفة الذنوب ، لم يبينه ليتركه مجملا مرهوبا ، يتقيه المتقون والنص يوحى بأنه شر عظيم » .

وكان بودنا أن نبين أسباب نزول هذا الحكم لولا ضيق المكان لأن المسألة تتعلق بحد من حدود الله وحكم من أحكام الشريعة

الفصل السابع

نصوص باللغة المسمارية

تؤكد أصالة خط توحيد الله رب العالمين فى حياة أهل الرافدين [1]

المجموعة الأولى :

وترجع إلى بداية عصر الأسرات السومرية وترتبط باسم حاكم دويلة « لجش » المدعو « أور كاجينا »[2] ، وانصبت هذه الأحكام على :

(أ) الحد من نفوذ رجال الدين وخفض مرتباتهم .

(ب) منع الرشوة وعزل الموظفين المشبوهين .

(جـ) رعاية الأرامل واليتامى وحماية الفقراء من الأغنياء .

(د) منع اغتصاب أرزاق العباد .

(هـ) عدم السماح لأى شخص أن يشترى دارا تجاور داره إلا بعد أداء ثمن يرضى به صاحب الدار .

(و) تخفيض أجرة كاهن الدفن — والعجيب أن ذلك الكاهن كان يتقاضى عن دفن الجثة سبع قدور من النبيذ و ٤٢٠ رغيفا وعدة أرائك[3] .

---

(١) هى مجموعة نصوص سومرية وأكدية وبابلية وآشورية ترجع إلى آلاف السنين .

(٢) مصر والعراق ، طبعة ٦٧ ، صفحة ٤٠٤ — ٤٠٥ .

(٣) ولا شك أن هذه الإصلاحات شملت أوضاعا كانت سائدة ، مثل هذه الأوضاع تؤكد انحراف المجتمع عن أوامر الله عز وجل . ازدياد نفوذ رجال الدين دليل على تفشي الشرك في المجتمع ، وتفشي الرشوة ، وكثرة العاملين المشبوهين دليل عدم الانضباط مع أوامر الله ونظامه وشرعه ، وأنه ما كانت هنالك حدود تقام تردع العابثين وتسلط الأغنياء على الفقراء يؤكد أنه لم يكن هنالك وازع من دين أو خوف من إله رقيب حسيب .. وهذه هي سمات المجتمع الشارد عن هدى الله ، وقد وقعت وتحققت في مجتمع عصر بداية الأسرات السومرى ، أى درارى الأمة المسلمة التي نجت من الطوفان . ويبدو أن الشيطان قد نجح فى اجتيالها عن دينها وإسلامها . يؤكد ذلك تفشي شرب =

كما كان يتقاضى ضريبة فى جزّ صوف الغنم وعلى طلاق الرجل زوجته وقد.أعلن أور كاجينا فى إحدى لوحات التشريعات . « كيف أقر ربه بأسه فى قلوب ستة وثلاثين ألفا من رعاياه (أى أمَّره أو حكَّمه عليهم) ، وكيف وفقه الله إلى أن يسير على هديه »[1] .

المجموعة الثانية :

وترجع إلى عصر إحياء الدولة السومرية (٢١٢٥ ق . م ؟؟) وترتبط باسم « أورنمو » أول ملوك أسرة أور الثالثة . وأهمَ أحكامها :

(أ) ضرورة دفع الدية عن الجروح التى لا تؤدى إلى الوفاة .

(ب) محاولة توحيد الموازين والمكاييل .

وقد ذكر كاتب هذه النصوص أن « معبود مدينة أور القمر (ننار) **قد** اختار أورنمو نائبا عنه يقوم مقامه على الأرض »[2] .

المجموعة الثالثة[3]:

وترجع إلى عصر الإحياء السومرى وعلى وجه التحديد أوائل القرن التاسع عشر

= الخمر ، وتقاضي المال عن دفن الميت بهذه الصورة الرهيبة

(١) وهذا اعتراف صريح من الحاكم أوركاجيا أن الإمارة استخلاف من الله ، وأن الهدى والتشريع من الله . وكلمته هذه من باب التحايل على الجماهير بأنه رجل مختار ومؤيد من ربه ، وهذا استغلال لشتار الدين .

(٢) وهذا اعتراف صريح من الحاكم العراقي بأن الإمارة استخلاف من الله ، وإلا ماذكر ذلك ، لاستجلاب تأييد الجماهير .

وقد أثبتت الأبحاث الأثرية التى جرت فى مدينة (أور) موطن إبراهيم أن القوم كانوا يعبدون القمر (ننار بلغتهم) ، وكان مؤسس الأسرة الحاكمة ملكا اسمه (ورنمو) الذى يعرف فى بلاد العرب باسم « نمرود » . (انظر : أبو الأعلى المودودى المصطلحات الأربعة ، هامش ص ٥٠) ، مصر والعراق ، ص ٤٢٩ .

(٣) مصر والعراق ، ص ٤٤٧ ــ ٤٥١ . ويغلب على تشريعاتها (الفقرة ب) الروح الإسلامية . فهى شبيهة بتشريعات الإسلام التى تجعل النفس بالنفس والعين بالعين ، والتى قدَّرت الديَّة ، والتى تقرر الرجم للزاني والزانية المحصنة ، والتي تجعل القتل للذى يغتصب فتاة ، هذه تشريعات ذكرتها نصوص قديمة ترجع إلى ماقبل رسالة محمد ﷺ بحوالي ٢٦ قرنا من الزمان تقريبا ، وهي مما لا شك تعكس لنا بعض تشريعات الإسلام التى أتى بها رسل الله الذين قد أرسلوا في بلاد أرض النهرين ، وظلت عالقة في أذهان الناس حتى دونوها بلغاتهم القديمة فى أرض الرافدين في ذلك الزمان البعيد . وهي تؤكد أصالة خط توحيد الله في حياة البشرية .

كما تؤكد شيئا آخر ، أن تحريم الإسلام لجرائم معينة بقيت كما هي في جميع الرسالات ، فالقتل جريمة جزاؤها =

ق . م ؟؟ وارتبط اسمها بدويلة أشنونا ، وقد عثر على نصوصها فى تل حرمل قرب بغداد ، وتتكون من ٦١ مادة أهمها :

(أ) تحديد أحور العربات والقوارب وعمالها وتحديد أسعار الحبوب .

(ب) تحديد عقوبات الجرائم والأضرار التى تلحق بالغير . فجعلت القتل عقابا للقاتل وقررت الجمع بين القصاص والدية . كما قررت القتل عقوبة للزوجة الزانية ، ولمن يغتصب فتاة مخطوبة . كما قررت الدية عن الجروح التى لا ينجم عنها وفاة .

المجموعة الرابعة[1] :

وترجع أيضا إلى عصر الإحياء السومرى وعلى وجه التحديد منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وترتبط باسم الملك « لبت عشتار » ملك دويلة« آسين » ، وتبلغ مجموع مواد التشريع التى عثر عليها مكتوبة على ألواح متفرقة فى « نيبور » حوالى ثمان وثلاثين مادة منها .

ــ من حق العبد أن يحرر نفسه إذا دفع لسيده ضعف ما اشتراه به[2] .

ومن الجدير بالذكر أن « لبت عشتار » ذكر فى أحد لوحات التشريع « بأن ربه وهبه إمارة البلاد ليحق الحق فيها ، ويعمل على إسعاد السومريين والأكديين جميعهم ، ويقاوم الفساد والقلاقل بقوة السلاح ، ثم أكد أنه استوحى شريعته من الرب ... ، وأقر كلماتها المقدسة ، وأنه ابتغى أن يحرر أبناء مدن سومر وأكد من الرق الذى فرض عليهم » .

= القتل ، والزنى جريمة حزاؤها القتل ، واغتصاب المرأة جريمة جزاؤها القتل ... وذلك يؤكد أيضا أن أصول توحيد الله واحدة فى كل الرسالات ، كذلك قاعدة الكثير من التشريعات ، فلم يكن من المعقول اعتبار القتل جريمة في عصر دون عصر في تشريعات الإسلام ، ولم يكن من المعقول أن يكون الزنى جريمة في عصر وليست جريمة فى عصر آخر ، ولم يكن من المعقول أن يكون اغتصاب الأعراض جريمة في عصر دون العصر الآخر . وهذا يؤكد وحدة الدين وهو الإسلام ، ووحدانية الأصل الذى نزل من عنده هذا الدين وهو الله رب العالمين .

(١) مصر والعراق ، ٤٤٩ ــ ٤٥٠ .

(٢) إن إعطاء العبد الحق فى طلب حريته من سيده ، يعكس لنا نظاما إسلاميا ، الذى يعطى العبد الحق فى مكاتبة سيده لطلب حريته ، وهو ماشرعه الإسلام لتجفيف منابع الرق . وهذا يعكس لنا وحدة المصدر الذى تصدر عنه هذه التشريعات وهو الله عز وجل .

المجموعة الخامسة [1] :

وترجع إلى عصر دولة بابل الأولى وترتبط باسم « حمورابى » الذى بدأ حكمه منذ عام ١٧٢٨ ق . م . وقد عثر على نصوصها مكتوبة على لوحة طولها ٢٢٥ سم صور فى أعلاها حمورابى يتلقى الإذن من رب العدالة بإصدار تشريعاته . ويبلغ مجموع موادها ٢٨٢ مادة تتعلق بالأحكام الخاطئة وشهادة الزور ، والاعتداء على ملكية الغير ، والمسائل التجارية ، وشئون الأسرة ، والزواج ، وأجور الحرفيين ومسئولياتهم ، وشئون الزراعة ، والاستئجار ، وملكية وتجارة العبيد . ومن أحكامها :

(أ) إذا قتل المواطن ولم يتيسر معرفة قاتله لِيُقْتَصّ منه ، تعاونت المدينة وحاكم الإقليم على دفع دِيَّتِه إلى أهله .

(ب) من حق الزوجة استرداد بائنتها في حالة طلاقها .

(جـ) قتل الزوجة الزانية ومن زنى بها .

(د) مبدأ السن بالسن والعين بالعين فيما يختص بالعقوبات [2] .

---

(١) مصر والعراق ، ص ٤٤٩ — ٤٥٠ ، والجدير بالذكر بأن الحاكم يقر هنا بأن الحكم هبة من الله ولكن بشروطٍ ، أهمها مقاومة الفساد ولو بقوة السلاح لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وأن التشريع وحي من السماء ، وذلك إشارة إلى أن الناس يدركون أن الحكم لله ، وأنهم ماكانوا ليقبلوا تشريعات لا يقال لهم أنها من عند غير الله . وهو يعتمد على كتابات :

F. Steele, The Code of lipit Ishtar, American Journal of Archaeology,(1948), 425, L. W. King, The Letters and Inscription of Hammurapi NO 34,45, Harper, Letters and Inscriptions of Hammurabi · A. Ungand, Briefe Konig Hammurabis

(٢) وهي تعكس روح الإسلام في تشريعاتها ، الإسلام الذى دعا إليه الرسل على مدار تاريخ البشرية ، كما بينا ، وتعكس لنا وحدة المصدر الصادر عنه هذه التشريعات التي حملها رسل الله إلى البشرية أبناء آدم على مدار تاريخهم سواء هؤلاء الذين أرسلوا في أرض الرافدين أو في غيرها من بقاع الأرض . وفي مصر أو الجزيرة العربية أو في غيرها .

فإذا كان هنالك تشابه في التشريعات التي اقترنت باسم حمورابي مع تلك التي جاء بها موسى عليه السلام ، ومع تلك التي أتى بها محمد ﷺ . فلا يعني أن موسى عليه السلام قد أخذ عن حمورابي ولا يعني أن محمدا ﷺ قد أخذ عن موسى عليه السلام ، كما زعم أساء المستشرقين ومن سار على نهجهم ، لإثبات زعم آخر وهو أن الدين الذى جاء به محمد ﷺ قد ألفه اعتمادا على ما أخذه موسى عليه السلام عن حمورابي ، أى أن الدين من اختراع العقل البشرى ، ولكن ذلك يعني أن المصدر الذى جاءت منه تشريعات حمورابي ودونها في موسوعته ، هو نفس المصدر الذى نزلت منه التشريعات على موسى ، وهو نفس المصدر الذى نزلت منه التشريعات على محمد ﷺ =

المجموعة السادسة والأخيرة [1] :

ترجع إلى العصر الآشورى الوسيط ، وترتبط باسم الملك تيحلات بيليسر الأول فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد .

ومن أحكامها :

(أ) إجازة رهن أفراد الأسرة ضمانا للديون .

(ب) الإعدام عقوبة الاشتغال بالسحر .

(جـ) للزوج ولاية كاملة على زوجته تصل إلى حد تطبيق العقوبات البدنية التى فرضها القانون على مثل حالتها . كما أن الزوجة تعتبر متضامنة مع زوجها فى دفع ديونه وأخطائه وجرائمه .

(د) الإصرار على خروج الحرائر محجبات من الرأس إلى القدم .

(هـ) الإعدام للمرأة القوادة (إن امرأة دفعت امرأة إلى العشق رغما عنها) .

(و) الإعدام لمن يغتصب امرأة متزوجة ، وإعدامهما معا إن رضيت بما فعله معها .

(ز) إذا اتهم رجل امرأة علنا بالزنا عند زوجها ولم يأت عليها ببينة وجب ضربه أربعين عصا وخصيه وتغريمه وتسخيره فى أعمال المَلِك شهرا .

= وهو الله عز وجل .

(١) مصر والعراق ، ص ٥٠٤ ــ ٥٠٧ ، ويعلب على الفقرة ب ، د ، هـ ، و ، الروح الإسلامية . فعقوبة الساحر ضربه بسيف في شريعة الإسلام ، والحجاب فرض من فروض الإسلام ، والقتل عقوبة للزنا ، واغتصاب العرض جريمة يعاقب عليها الإسلام بالقتل .

وهذا يؤكد مرة أخرى وحدة المصدر ، أنها من عند الله عز وجل ، ويؤكد حقيقة أخرى وهي أن أرض الرافدين كانت ميداناً لرسالات سماوية عديدة أو قليلة ، تركت بصماتها في التشريعات التي حكمت أرض الرافدين لزمن طويل ، كما تؤكد أصالة خط توحيد الله في حياة أهل الرافدين .

الباب الثالث

تاريخ الأمة الواحدة (المسلمة)
في وادي النيل (مصر)
في المصادر الإسلامية ومراجع التاريخ القديم

الفصل الأول

تاريخ وادى النيل (مصر)

المبحث الأول

عصر مابين آدم ونوح عليهما السلام « ماقبل الطوفان »

نعرض بعض جوانب من تاريخ تلك العصور ، اعتمادا على مراجع التاريخ القديم ، مع تقويمها فى ضوء العقيدة الإسلامية :

عصور ماقبل التاريخ [1] :

١ ـ مايسمى العصر الحجرى القديم :

« لقد سبق لنا أن أوردنا ما يقال بأن مخلفات إنسان العصر الحجرى القديم فى مصر

---

(١) حضارة مصر الفرعونية ، تأليف الأستاذ الدكتور أحمد فخرى ، صفحة ٥ . ومؤرخو هذا العصر ، وواضعو هذا التقسيم من المستشرقين ومن سار على نهجهم ، وقعوا فى عدة أخطاء منها :

أولا : اعتبروا أن الإنسان من سلالة القردة ، التى تطورت بدورها ، من الخلية الحية التى نشأت في البرك والمستنقعات عبْر ملايين السنين ، فأنكروا بذلك أبوة آدم عليه السلام للبشر ، وأطلقوا على هذه الفترة اسم عصور ماقبل التاريخ ، والعصور الحجرية ، وأن إنسانها كان يعيش معيشة لا تختلف عن معيشة الحيوان .

ثانيا : زعم المستشرقون ومن سار على نهجهم ، أن الإنسان لم يكن يعرف الكلام ، ولم يكن يعرف كيف يعبر عن الأشياء ، وأنه لم يكن يعرف له ربا ، ولم يكن يرتضى الإسلام دينا ، ولم يكن يعرف الكتابة إلى آخر مازعموه . وقد رددنا على هذه المزاعم وبينا خطأها ، ووصلنا إلى نتيجة ، أن آدم عليه السلام هو أبو البشر وأن الله قد خلقه بطول ستين ذراعا ، وأنه كان يعرف ربه وخالقه وسيده ومولاه سبحانه وتعالى ، وأنه كان يدين بالإسلام ، وأن الله قد علمه كل شىء ، بما فى ذلك جميع الألسن ومنها اللغة العربية ، وأنه كان يقرأ ويكتب . وجاءت بعد آدم عشرة قرون كلها على الإسلام ، ثم حدث الانحراف عن دين الله ، فأرسل نوح عليه السلام ، وبعد أداء واجب البلاغ ، أغرق الله الأرض بالطوفان واستأصل شأفة جميع الكافرين . وهذا هو الذى يفسر عدم وجود وثائق مكتوبة فى عصر ماقبل الطوفان لأنه قد اندثرت معالمها . ومن هنا يتبين لنا خطأ تسمية عصور ماقبل التاريخ ، وتسمية العصور الحجرية (انظر أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الإسلام دين الله فى الأرض وفى السماء ، منهج =

وشمال أفريقيا قد تشابهت مع مخلفات إنسان أوربا وآسيا التى ترجع إلى نفس العصر[1] . وقد عثر على هذه المخلفات على المرتفعات التى تحيط بوادى النيل ، وفى بطون الوديان الجافة وفى الصحراء والطرق المؤدية إلى الواحات » . وهذه نتيجة الأبحاث الأثرية .

٢ ـ مايسمى العصر الحجرى الحديث :

« لقد عرف إنسان العصر الحجرى الحديث فى مصر المعيشة فى قرى صغيرة ، كما عرف استعمال الملابس ، ودفن الموتى فى قبور [2] ، كما بدأ فى صناعة بعض أدوات الزينة والتماثيل [3] وقد عثر على مخلفات إنسان هذا العصر فى قرى عديدة ـ بالدلتا والصعيد ـ أهمها : مرمدة بنى سلامة ـ والعمرى ـ والفيوم ـ ودير تاسا » .

مدنية مرمدة بنى سلامة [4] (٤٤٠٠ ق . م) :

« عثر الأثريون على بقايا قرية على حافة الدلتا الغربية (الوجه البحرى) ، تسمى مرمدة بنى سلامة .

وقد أثبتت الأبحاث الأثرية أن مساحتها لم تكن تزيد على ستة أفدنة ، وأن أهلها قد عرفوا تشييد الأكواخ من الطين على جانبى طريق مستقيم . وأن حياتهم كانت تعتمد على الزراعة والرعى ، وأن محاصيلهم كانت تحفظ فى صوامع صنعت من الخوص . وذلك بالإضافة إلى أن أهل مرمدة استعملوا الملابس الكتانية بعد غزلها كما أن النساء عرفت التحلى بالعقود والخواتم والحلقان من العاج ، واستعمال التوتية الزرقاء فى تكحيل العيون . كما ثبت أيضا استعمال أشكال مختلفة من الأوانى الفخارية فى أغراض الحياة اليومية ، ودفن الموتى فى أرضية الأكواخ التى كانوا يسكنونها » .

= كتابة التاريخ الإسلامى . لماذا ؟ وكيف ؟ وكتابنا الذى بين يديك) .

(١) أليس هذا دليلا على وحدة الأصل البشرى أوجه تشابه مدنياته فى كل بقاع العالم فى ذلك الزمان « كان الناس أمة واحدة »

(٢) وقد بينا فى قصة ابنى آدم أن الله هو الذى علم أبناء آدم كيف يدفنون موتاهم .

(٣) وهذا دليل ـ إن صحّ الدليل ـ على انحراف الأمة عن الإسلام إلى عبادة الأوثان .

(٤) حضارة مصر الفرعونية ، ص ٨ .

٣ ـ مايسمى العصر الحجرى النحاسى :

(١) مدنية البدارى (٤٥٠٠ ق . م) :

عثر على مدنية هذا العصر فى منطقة تقع إلى الغرب من البدارى (إحدى مراكز الوجه القبلى) ، وقد أثبتت الأبحاث الأثرية التى تمت فى هذه المنطقة ما يأتى :

١ ــ عرف أهل البدارى المسكن البسيط ، المزود بالأثاث البسيط (أسرة خشبية ، وسادات من الجلد أو الكتان المحشو بالتبن) .

٢ ــ كان البداريون يدفنون موتاهم فى جبانات مستقلة عن قراهم . وكانت الجثة تدفن بعد لفها فى الحصير ، على أن توضع رأسها على وسائد نحو الشرق ، مهما كان اتجاه المقبرة [١] .

٣ ــ استعمل البداريون أيضا ، الملابس الكتانية والجلدية . كما أنهم كانوا يتحلون بالعقود والأساور المكونة من حبات من الفيروز والعقيق والكوارتز ، وبالأمشاط العاجية المزينة بأشكال الحيوانات ، كما كانوا يستخدمون الكحل للعيون واللون الأحمر للشفاه .

٤ ــ كانت حياتهم تعتمد على الزراعة ، وتربية الحيوان . كما أنهم عرفوا عصى الرماية لصيد الطيور ، والشصى لصيد السمك ، وذلك غير الحراب والسهام ، والقوارب .

٥ ــ عثر على جثث بعض الحيوانات مثل الغزلان والقطط مدفونة مع الموتى مما دفع بعض الأثريين إلى القول بتقديس تلك الحيوانات [٢] .

٦ ــ استعمل البداريون أنواعا مختلفة من الأوانى والكؤوس المختلفة الأشكال من الفخار . كما ألقت الأبحاث الأثرية الضوء على جوانب أخرى لمدنية هذا العصر المحلية ، والتى من أهمها استعمال النحاس جنبا إلى جنب استعمال الحجر فى صناعة الأدوات .

(ب) مدنية نقادة الأولى (بين ٤٤٠٠ ، ٣٩٥٠ ق . م) :

ويسميها بعض علماء الآثار « العمرة » ، وقد اقتصر مجال ظهورها على شمال بلاد

---

(١) هل هناك صلة بين توجيه المتوفى هذه الوجهة . حيث قبلة المسلمين فى مكة المكرمة ، وعقيدة المصريين فى هذه الفترة ؟؟

(٢) مصر الفرعونية ص ١٥ ــ ١٢ ، لماذا يفترض الأثريون أن المصريين كانوا يقدسون تلك الحيوانات ؟ .

النوبة والجزء الجنوبى من صعيد مصر . ومن أهم ملامح هذه الحضارة استعمال الحجر فى صناعة الأوانى المختلفة الأشكال لحفظ المشروبات وحفظ مساحيق الوجه وكحل العين ، واستخدامها فى صناعة الأسلحة التى من بينها دبابيس القتال ، وذلك غير صناعة القيشانى ، وزخرفة الأوانى والأدوات بالرسومات والنقوش . كما عرف أهل نقادة صناعة التماثيل ، ونماذج القوارب والنعال لتوضع مع المتوفى فى قبره .

وواصل أهل نقادة دفن الموتى داخل توابيت فى جبانات مستقلة عن المساكن مع تزويد مقابرها بالأثاث الجنزى .

(جـ) مدنية نقادة الثانية (بين ٣٩٠٠ ــ ٣٤٠٠ ق . م) :

وقد عثر على مخلفاتها فى كثير من مناطق مصر ، مما يدل على انتشارها على نطاق واسع . ومن مميزات عصر هذه المدنية نشاط التجارة الداخلية ، والخارجية لجلب المواد مثل اللازورد ، كما أن المساكن كانت تبنى أحيانا من اللبن ، أو من أعواد النبات المغشاة بالطين . ويخمن علماء الآثار بأنهم عرفوا عبادة الصقر والبقر وغيرها .

(د) عصر قبيل الأسرات (٣٤٠٠ ق . م) :

وهى الفترة التى بدأت تتضح فيها ملامح التنظيم السياسى للبلاد فحينما تم تقسيم بلاد الصعيد إلى اثنين وعشرين إقليما ، وتقسيم بلاد الدلتا إلى عشرين إقليما ، كثيرا ما كان النزاع يثور بين هذه الأقاليم حول الحدود والأراضى الزراعية .

وحينما كان يظهر زعيم قوى ، كان يحاول أن يضم إليه شيئا من أراضى الإقليم المجاور ، أو توحيدها تحت زعامته . واستمر الأمر كذلك إلى أن تم توحيد أقاليم الدلتا تحت سلطة واحدة ، وكذلك الأمر بالنسبة لأقاليم الصعيد ، وأصبح هناك ملكين أحدهما للجنوب (الصعيد) ويتخذ نباتا يسمى « سوت » رمزا له ، ويرتدى تاجا أبيض اللون ، وآخر لأقاليم الشمال ، كان يرتدى تاجا أحمر اللون ، ويتخذ النحلة شعارا له .

وجاء الوقت (حوالى ٣٤٠٠ ق . م) الذى نجحت فيه جهود حكام الدلتا فى قهر حكام الصعيد وتوحيد شمال مصر وجنوبها تحت حكم ملك من ملوك الشمال ، متخذين من هليوبوليس عاصمة لهم ولكن هذه الوحدة لم تعمر طويلا ، وسرعان ما انفصمت عراها وعاد كل من الوجهين (البحرى والقبلى) إلى استقلاله .

وحوالى ٣٢٠٠ ق . م ، نجح أحد حكام الصعيد فى إخضاع الدلتا وتوحيد البلاد تحت حكمه ، مؤسسا بذلك الأسرة الأولى المصرية .

المبحث الثانى

وادى النيل (مصر)

عصور ما بعد الطوفان

مابعد نجاة نوح عليه السلام ومن معه من المسلمين

وما قبل بعثة يوسف عليه السلام

إلى شعب مصر [1]

تمهيـــد :

عرفنا أنه بعد أن بَلّغ نوح عليه السلام رسالة ربّه أهلك الله سبحانه وتعالى الكافرين بالطوفان ونجّى المسلمين المؤمنين بقيادة نوح عليه السلام .

وكان لنوح عليه السلام ، ثلاثة أبناء هم سام ، وحام ، ويافث . الذين هاجروا إلى جزيرة العرب وإفريقية وأوربا مأذونا لهم من والدهم فى تأسيس المجتمعات الإسلامية فى تلك القارات ، وبهذا أصبح سام أبا للعرب ، وحام أبا للحبش ويافث أبا للروم . وجرى تعمير الأرض ، وكان التزاوج والاختلاط بين شعوب الأرض ، وذلك يعنى أن شعب مصر ينتسب فى الأصل إلى حام وسام ابنى نوح عليه السلام ، وهم جميعا يرجعون بنسبهم إلى آدم عليه السلام .

وذلك يعنى أيضا أن شعب مصر الذى عاش فى وادى النيل فى عصر ما بعد الطوفان هو من ذرية المؤمنين المسلمين الناجين من الطوفان مع نوح عليه السلام [2] .

---

(١) ومأأوردناه هنا مأخوذ عن مراجع التاريخ القديم (حضارة مصر الفرعونية د . أحمد فخرى) وهى معلومات لا نملك تصديقها أو تكذيبها ، وقد أوردنا تقويما وتعليقا على هذه المعلومات فى ضوء العقيدة الإسلامية .

(٢) للأسف فإن الدراسات التى قام بها المستشرقون ومن سار على نهجهم عن هذه الفترة تجاهلت هذه الحقائق .. تجاهلت عقيدة التوحيد التى كان يدين بها شعب مصر فى ذلك الزمن البعيد .. وتجاهلت حقيقة أصلهم.فنسبتهم =

١ ــ عصر بداية الأسرات

أسرتان تحكمان مصر لمدة أربعة قرون

(٣٢٠٠ ــ ٢٧٨٠ ق . م . تقريبا)

ويسمى العصر الثنى أو العصر العتيق أو عصر الأسرات[١] المُبكّر ويشمل الأسرتين الأولى والثانية .

وأول ملوك الأسرة الأولى هو مينا ، الذى أتم ما بدأ غيره من جهد وقام بإخضاع الشمال للجنوب إخضاعا تاما بعد خوض عدة حروب ، موحدا بذلك شقى الوادى تحت حكمه .

وقد اتخذ مينا من « ثنى » بالقرب من أبيدوس عاصمة لملكه ، ومقرا رسميا له ولمن أتى بعده من ملوك الأسرتين الأولى والثانية . ولو أن ذلك لم يكن يمنعهم من الإقامة فى الشمال من آن لآخر فى مدينة منف ــ (القلعة البيضاء) التى أعزى إنشاؤها إليه والتى أصبحت مركزا للنشاط الإدارى[٢] لسهولة الإشراف منها على الوجهين البحرى والقبلى .

= إلى سلالات الحيوانات بدلا من أن تنسبهم إلى أبيهم آدم عليه السلام .

(١) يعزى تقسيم العائلات التى حكمت مصر إلى ثلاثين أسرة ، إلى الكاهن السمنودى مانيتون الذى كتب تاريخا عن حكام مصر بناء على طلب الملك بطليموس الثانى الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد ؛ مصر الفرعونية ، ص ٤٤ .

(٢) ترجع الوثائق المصرية القديمة التى عثر عليها إلى بداية عصر الأسرات كما يقول كتاب التاريخ القديم ، وهى تظهر لنا مدى التقدم الإدارى الذى كان عليه إنسان مصر منذ أقدم العصور .

مثال ذلك : تقسيم مصر إلى قسمين رئيسيين ، الوجه البحرى وجعلوا له بيت مال وحامل أختام وأهراء غلال ودار وثائق وكذلك الوجه القبلى .

وكان على رأس الدولة الفرعون الذى تركزت السلطات العليا كلها فى قصره ، وكان يعتمد فى الإشراف الإدارى على طوائف من الموظفين أمثال : حملة الأختام ، ورجال بيت المال ، وحكام الأقاليم ، وكبار رجال البلاط ورؤساء الكتاب .

وقد أطلق المصريون على بيت مال الصعيد « برحج » بمعنى بيت الفضة أو البيت الأبيض : وسمى بيت مال الوجه البحرى بردشر أى البيت الأحمر ، واختص بضرائب الوجه البحرى ودخله وخرجه . ولعل الهدف من ذلك تيسير الإشراف على إدارتين كبيرتين تختص إحداهما بموارد الصعيد وتختص الأخرى بموارد الوجه البحرى . =

وأعقب مينا على العرش الملك « المحارب » (عحا) الذى اضطر لخوض بعض المعارك ضد النوبيين والليبيين لتأمين حدود مصر الجنوبية والغربية .

وقد أعقب هذا الملك عدة ملوك آخرين ، انصبت أعمالهم على تأمين حدود مصر ، والعمل على التوسع فى شئون التجارة ، وتأمين دروبها واستغلال المناجم وإقامة المنشآت الدينية . ويتصف عصر آخر الأسرة الأولى ببدء المنازعات واغتصاب العرش بين أفراد البيت المالك ، مما عجل بنهاية حكم هذه الأسرة .

وخلف الأسرة الأولى الأسرة الثانية التى تبدأ بالملك « حتب سخموى » وتنتهى بالملك « خع سخم وى » ويبدو أن ملوك هذه الأسرة كانوا يفضلون الإقامة فى العاصمة الشمالية « منف »[١] .

عصر بداية الأسرات المصرية يعاصر قيام الدولة العادية بجزيرة العرب :

أورد الأستاذ الدكتور أحمد فخرى معلومة عن خامس ملوك الأسرة الأولى ٣٢٠٠

= وكان حكام الأقاليم يقومون بتنفيذ سياسة حكومتهم المركزية ، وحمل كل منهم لقب « عج مر » بمعنى القائم على حفر الترع ليؤكد أن إشراف أصحابه على شئون الرى والزراعة كان أهم ما يكلفون به ويسألون عنه من أعمال وأشرف رجال البلاط الملكى على إحصاء عام كانوا يجرونه كل عامين كما كانت الحكومة المركزية تقوم برصد ارتفاع فيضان النيل عاما بعام ، حتى تتخذ الإجراءات المناسبة لمواجهة ارتفاعه وتنظيم الانتفاع بمياهه وعلى أساسه تقدّر الضرائب على الأراضى الزراعية

ولقب الكاتب المصرى بلقب « شس » وكان لقبا يحمل فى طياته معنى المثقف ، ومعنى من يحسن الكتابة ، وكان للكتبة دورهم الرئيسى فى بيوت المال بما تستدعيه من أعمال رصد وتسجيل وحساب . وكان للفنيين والمعماريين نصيب كبير فى أعمال الإنشاء والتعمير وكان هناك أيضا نظار القصور والسكرتاريون أو على حد تعبير المصرى القديم ، والمشرفون على المزارع والحدائق والكروم ، (الشرق الأدنى القديم ، تأليف ا د . عبد العزيز صالح ، حـ ١ ، ص ٧٦ ، ٧٧)

(١) من القرائن الدالة على التقدم الذى كان عليه عهد بداية الأسرات ماذكره المؤرخ المصرى مانيتون ، وأورده الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح (الشرق الأدنى القديم ، ص ٨٩) ، أن الملك جِرْ (أثوتيس) أحد ملوك الأسرة الأولى (٣٢٠٠ ق . م ؟؟) قد ألف كتابا فى التشريح وكان بارعا فى الطب .

ومثل هذا التقدم فى هذا المجال ، لابد وأن يكون قد سبقته مراحل كثيرة من الدراسة على مدار زمن طويل ، كما يتصف إنسانه بالقدرة على البحث فى هذا المجال ، وهذه القرينة تبيّن مدى الإجحاف فى إطلاق تسمية العصور الحجرية على إنسان تلك العصور التى سبقت العصور التاريخية وتشبيهه بالحيوان لأنه لا يعقل أن إنسان مايسمى بالعصور الحجرية ، يتمخض فجأة عن إنسان يؤلف فى الطب وفى التشريح فى عصر بداية الأسرات .

ق . م ، ويدعى « دن » ، مأخوذة عن حجر بالرمو ، وتشير إلى أنه قد حارب « البدو الذين فى شرق مصر » (مصر الفرعونية ، ص ٥٠ ، ٥١) .

كما أورد الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح معلومة أخرى تتصل بعصر الأسرة الأولى ، وتشير إلى أنه « قد سجلت بطاقات من عهد ولده عنجاب نشاطاً مماثلاً ضد أقوام أطلقت عليهم اسم « الأونتيو » ، ربما بمعنى أصحاب العمد ، ويغلب على الظن أنهم كانوا من الأقوام الشرقيين الذين أشارت إليهم بطاقة أبيه ، أى من بدو الصحراء الشرقية وبدو سيناء وربما ما ورائها أيضا (الشرق الأدنى ، ص ٨٧) .

وإذا مارجعنا إلى المصادر الإسلامية نجد أنها تذكر القبائل العربية العادية ، وتصفهم : ﴿ **بعاد . إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد** ﴾[(١)] يقول المفسرون : إنهم كانوا يعيشون فى خيام ذات عمد كبيرة ، وأن سلطانهم قد امتد ليشمل بلاد الشام .

وهذا يدفعنا إلى افتراض مفاده أن « دولة عاد » التى قامت فى الجزيرة العربية كانت تعاصر عصر بداية الأسرات المصرية .

وإذا صح هذا الافتراض فذلك يعنى أن شعب مصر كان على علم بدعوة التوحيد التى حمل لواءها هود عليه السلام : ﴿ **اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾[(٢)] فى قومه عاد .

٢ ــ الدولة القديمة[(٣)] .

ثلاث أسرات تحكم مصر لمدة خمسمائة عام

(٢٧٨٠ ــ ٢٢٧٠ ق . م)

(أ) الأسرة الثالثة

أول وأهم ملوك هذه الأسرة « زوسر » (جسر أو نترخت) صاحب المجموعة الجنزية

---

(١) الفجر : ٦ ــ ٨ .

(٢) هود : ٥٠ .

(٣) وتسمى هذه الحقبة « بالعصر المنفى » ؛ مسكين شعب مصر قدر له أن يكون مطية لثلاث أسرات لمدة خمسة قرون .

التى تضم الهرم المدرج بسقارة والتى يعزى إنشاؤها إلى مهندسه ايمحتب الذى كان يتولى عدة وظائف أهمها الإشراف على الأعمال الإنشائية للملك ، وإدارة القصر ، وكان يحمل أيضا لقب رئيس المتالين ، والرجل الأول بعد الملك « وكبير كهنة الشمس فى « ايون » ثم لقب « الوزير » .

ويقترن عصر هذه الأسرة باكتشاف فن البناء بالأحجار المنحوتة الذى أدخله إلى العمارة الوزير (ايمحوتب) .

ويرتبط اسم الملك زوسر بحملة أرسلها إلى شبه جزيرة سيناء لتأديب البدو الذين كانوا يتعرضون للبعثات المصرية التى كانت تقوم بتعدين النحاس من المناجم القريبة من وادى المغارة .

كما يرتبط بعهده أيضا خطوة ابتداع التقويم الشمسى على أساس أن السنة ٣٦٥ يوما منها خمسة أيام نسيء وعلى اعتبار أنها اثنا عشر شهرا كل منها ٣٠ يوما[١] .

---

(١) أورد الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح فى كتابه : الشرق الأدنى صفحة ٨٨ : ٩٢ ــ أورد : « ذهب بعض الباحثين أمثال كورت زيته ، ولـو دفيج بورحارت ، وإدوارد ماير ، إلى أن ابتداع التقويم يرجع إلى عصر فجر التاريخ ، وقالوا إن بداية استعماله تقع بين عامى ٤٢٤١ ــ ٤٢٣٦ ق . م ، ثم قام جدل طويل اعترض اعتقادهم ، وهو كما يقول الدكتور صالح : لا يخلو من منطقية ووجاهة ومؤداه أن ابتداع المصرى لهذا التقويم لم يكن بالأمر الهين ، وأنه كان يتطلب ملاحظة طويلة ويعتمد على نضج عقلى واسع لم يكن بالأمر الهين ، ولم يكن من السهل أن يتوفر فى دنياهم قبل زوسر » .

ولنا على ماأورده الأساتذة عدة ملاحظات :

الأولى : أن التقويم ليس من اختراع العقل البشرى ، كما تزعم كتابات مايسمى التاريخ القديم .

الثانية : أن الله رب العالمين هو الذى جعل وحدة زمنية.تقاس بها الأعمار منذ خلق السموات والأرض ، وهى التقويم ، وعلم ذلك آدم وبنيه ، والدليل :

(ا) قول الله تعالى : ﴿ **إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم** ﴾ (التوبة ٣٦) وقوله ﴿ **يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج** ﴾ (البقرة ١٨٩) ﴿ **وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ (الحج ٤٧) ﴿ **ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة** ﴾ (الروم ٥٥) ﴿ **لكل أجل كتاب** ﴾ (الرعد ٣٨) .

(ب) حديث رسول الله ﷺ : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله ، وشقى أم سعيد ... » إلى آخر الحديث رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . =

ثم أعقب زوسر عدة ملوك ، كان آخرهم « حونى » صاحب هرم ميدوم ، والذى حكم حوالى ٢٤ عاما . ومن أهم شخصيات عصره أحد كبار الموظفين ويسمى « متن » الذى ترك لنا مقبرة منقوشة تلقى الضوء على التنظيم الإدارى للبلاد فى ذلك العهد .

وقد انتقلت عاصمة البلاد من « ثنى » فى الجنوب إلى « منف » فى الشمال ، وستستمر كذلك حتى نهاية الدولة القديمة .

(ب) الأسرة الرابعة (٢٦٨٠ – ٢٥٦٠ ق . م) :

مؤسس هذه الأسرة بتاح سنفرو (أى بتاح جمَّلنى) الذى تزوج من الأميرة « حتب حرس » التى كانت تحمل فى دمها حق وراثة العرش . ومن أهم أعمال هذا الملك العديد من الإنشاءات المعمارية ، وذلك غير البعثة التى ركبت أسطولا بحريا من أربعين سفينة إلى لبنان لإحضار كتل خشب الأرز ، كما أنه وجه حملة عسكرية لتأمين حدود مصر الجنوبية ، وذلك غير حملات التعدين إلى شبه جزيرة سيناء لإحضار النحاس والدهنج ، وما استتبع ذلك من تأديب للبدو الذين يتعرضون لهذه الحملات .

وقد قام ببناء قبره الملكى الذى يتكون من المجموعة الهرمية للهرم المنكسر الأضلاع ، والهرم الكامل بدهشور ، ويعتبر الهرم الأول المدرسة التى درس فيها المصريون هندسة تشييد الهرم دراسة كاملة ، وكان يحيط بهرم سنفرو مقابر أفراد الأسرة التى منهم « رع حتب » الذى أشرنا إلى تمثاله وتمثال زوجته بالمتحف المصرى ، وكذلك « مقبرة نفرمعات » التى كانت تحوى رسومات « أوزميدوم » .

وبعد أن حكم « سنفرو » أربعة وعشرين عاما ، خلفه على العرش ابنه خوفو (خنوم خوف وى) أى خنوم يرعانى الذى سار على نهج أبيه ، فيما يختص بالتعمير

= **الثالثة** : حيث أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق ، وأنه قد جعل لكل مخلوق من مخلوقاته، ومنها الإنسان ، أجلاً لا ريب فيه ، فذلك يؤكد أن الذى وضع التقويم وعلمه لآدم هو الله رب العالمين : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ البقرة ٣١ .

بمعرفة أهل مصر للتقويم فى ذلك الزمن البعيد ، دليل على أنه ليس من ابتداعهم ، ولكن دليل على أنهم قد تلقوه بالنقل عن ذرية آدم عليه السلام ، وفى هذا ردّ على المستشرقين الذين يُعزُون كل شىء إلى الفكر البشرى متناسين ومتجاهلين تعلم العليم الحكيم الذى علم الإنسان مالم يعلم .

وإرسال حملات التعدين ، وفى عهده انتعشت التجارة الخارجية وعلى الأخص مع الشاطىء الفينيقى ، بدليل وجود معبد مصرى يرجع إلى عهد هذا الملك فى وسط مدينة جبيل (شمال بيروت) .

ويرتبط اسم هذا الملك فى التاريخ ببناء الهرم الأكبر ، ولعلنا نذكر التكاليف الباهظة التى أنفقت على مثل هذه العمارة الضخمة ليثوى فيها جسد الفرعون . والجدير بالذكر أن دكتور أحمد فخرى قد أورد رأيا لهيرودوت مفاده أن خوفو كان قاسيا على شعبه وأنه كان يسخر الناس دون رحمة ولهذا كرهوه وحقدوا عليه .. ثم يعلق الأستاذ الدكتور على هذا الرأى بما يفيد بأن : « بناء الهرم لم يسخر الناس فيه ولكنهم بنوه عن طيب خاطر لأن الفرعون كان إلها والناس يطمعون فى رضاه ، ولا يمكن أن نحكم على الماضى بمنطق العصر الحاضر[1] ، أو بتعاليمه وآرائه ، كان الملك فى مصر إلها معبودا من شعبه ، ولكنه رضى أن يعيش على الأرض لكى يحكمها ويسعد الناس بوجوده بينهم ، فإذا وضعنا ذلك فى أذهاننا لأدركنا أنه كان يسر الكثير من الناس وبخاصة الذين يعيشون فى القرى النائية بعيدا عن المدن أن تتاح لهم فرصة فى أيام الفيضان ، وأيام الضيق المادى فى الوقت ذاته ، ليزوروا العاصمة التى طالما سمعوا عن عجائبها ويمتعوا الطرف بالنظر إلى معابد الآلهة وقصور العظماء ، وكان يسرهم دون شك أن يساهموا فى عمل شىء لإلههم عسى أن يكون فيه قربى ورحمة لهم ، وكان يسر الفقراء من عامة الشعب أن يضمنوا عدم الحاجة طيلة أيام إقامتهم فى العاصمة » .

« وربما صعب فهم ذلك على الغربيين الذين طغت على أذهانهم فلسفة المادية ومنطقها ، وربما صعب فهم ذلك أيضا على أبناء المدن الكبيرة فى الشرق ممن تنقصهم تجارب الحياة ، ولكن ليذهب هذا أو ذاك إلى إحدى القرى الصغيرة فى ريف مصر أو غير مصر ، ويرى الناس وهم يعملون عندما يستقر رأيهم على بناء مسجد صغير أو ضريح لأحد الأولياء ، فيرى أهل القرية جميعا ، بل وبعض جيرانهم من القرى الأخرى وهم يعملون دون أجر ، ويرى القادرين من بينهم يتنافسون فى تقديم الطعام لغير القادرين من العاملين ،

---

(١) حضارة مصر الفرعونية ، ٨١ ، ٨٢ وقد أنشىء فى عهده منصب الوزارة ، وأسنده إلى أمير من أفراد أسرته هو « نفر ماعت » ، وقد ظلت الوزارة فى الأمراء الكبار وحدهم حتى نهاية الأسرة الرابعة (الشرق الأدنى القديم ، ص ١٠٤) .

والنساء يعملن طول اليوم فى حمل الماء اللازم للبناء ، بل ويطغى الحماس على أغنياء القرية فيأبون إلا أن يعملوا بأيديهم مع غيرهم راجين المغفرة والثواب . فليذهب إليهم ويرى البشر يعلو وجوههم وهم يعملون طول اليوم تحت وهج الشمس ، وليتحدث بعد ذلك عن السخرة أو غير السخرة » .

تقويم بناء الهرم فى ضوء العقيدة الإسلامية :

ولنا على دفاع الأستاذ الدكتور أحمد فخرى عن خوفو عدة ملاحظات :

أولا : ليس لدى الأستاذ الدكتور دليل على أن الناس فى مصر قد بنوا الهرم عن طيب خاطر ، وفى تصورنا أن الكبت لحرية الكلمة وتكميم الأفواه الذى اتصف به حكم الفراعنة هو الذى حرمنا من كلمة الحق ، ووجهة نظر الأمة فى إهدار أموالها فى مثل هذه البنايات ، ولنا فى عالمنا المعاصر شواهد تؤكد أن إرادة الأمة المسلمة الحقيقية غائبة عن توجيه أمورها ، بل كثيراً ما تزيف هذه الإرادة لتوافق أهواء الحكام الذين يملكون أجهزة تزييف الباطل ليبدو بصورة الحق ، فليس من المعقول أن الناس قد بنوا هذه المبانى الضخمة عن طيب خاطر ، وهم يرونها تلتهم أرزاقهم وأقواتهم وشبابهم .

ثانيا : حقيقة أن الفراعنة قد ادعوا الألوهية ﴿ **ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾ وادعوا الربوبية ﴿ **فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى** ﴾ لكنه مجرد ادعاء ، ولا يمكن أن يتحول الادعاء إلى حقيقة ، فالقول بأن الفرعون « كان إلها معبوداً من شعبه ، ولكنه رضى أن يعيش على الأرض لكى يحكمها وليسعد الناس بوجوده بينهم » ، قول مردود ولا يجوز ترديده بل من الواجب إذا قيل أن نُبين فساده حتى لا نكون كالذين قال الله عنهم ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ إن ماورد فى كلام الدكتور يدحضه رب العالمين ﴿ **وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد** ﴾ .

ثالثا : تبرير تصرفات خوفو الطاغية فى بنائه لمجموعته الهرمية ، من خلال قياسه على بناء مسجد يعبد فيه الله رب العالمين ، أمره مرفوض فى ضوء العقيدة الإسلامية فلا وجه للمقارنة بين عمل يعمله الناس لله رب العالمين يرجون به جنته ، وبين عمل يعمله الناس للطاغوت ، قسرا وخوفا .

رابعا : كان من الواجب قول كلمة الحق وهى أن بناء قبر ليثوى فيه جسد الفرعون بهذه الصورة غير جائز مطلقا ، وحدوثه دليل على عدم انضباط حياة حكام الفراعنة مع أحكام الله وشرعه .

كما كان من الواجب بيان القبر الشرعى وهو عبارة عن اللحد أو الشق ، واللحد أفضل على أن يسوى القبر بالأرض ، ولا يجصص حتى يرتدع أبناء فراعنة العصر الحديث الذين ما فتئوا يعلون من شأن الوثنيات وأصحابها فى كثير من بقاع الأرض ويجعلونها علما على بلادهم الإسلامية .

خامسا : لقد تأثر الناس بهذا التقويم فاختلت مفاهيمهم لدرجة أن إحدى نساء المسلمين قالت فى كتاب لها : إن الأهرامات كانت مساجد ذلك العصر فبناتها كانوا يتبركون ببنائها (أعيدوا كتابة التاريخ ، تأليف د . نعمات أحمد فؤاد دار الشروق ، ١٩٧٤ ، ص ٥٩ وهى تعتمد على كتاب الأهرامات المصرية ، تأليف أ . د . ماير وترجمة د . أحمد فخرى) .

وهكذا نرى فراعنة مصر يهدرون أموال الأمة فيما لا فائدة منه ،وهى من ملامح الانحراف فى حياة الأسرة الرابعة .

ولقد ذكر الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح : « أن الأهرام الضخمة ومعابدها وتماثيلها التى أسرف سنفرو وخوفو وخفرع فى إنشائها لأنفسهم ، وألحقوا بخدمتها الأعداد الكبيرة من الكهنة وأوقفوا عليها الأوقاف الواسعة والأتباع ، وزادوا عليها إنشاء الأهرام الصغيرة لزوجاتهم والمقابر الضخمة لأبنائهم مع متطلباتها من النفقات ، استنفدت كلها نصيبا كبيراً من إمكانيات البلاد ومواردها واستنزفت جانبا كبيرا من موارد الخزائن الملكية ومدخراتها » [1] .

وفى موضع آخر علق الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح على بناء الهرم بقوله :

بنى الهرم أساسا ليصبح ملجأ أمينا لجثة الفرعون ، ومقتنياته الخاصة ، وشاهدا على ثرائه وسعة سلطانه ، ووسيلة لخلود ذكره ، وذيوع شهرته ، ودليلا على رفعة شأنه فى الدنيا والآخرة ، وصورة من صور رقى العمارة والغنى فى عهده ، أى أنه لم يكن مجرد مقبرة فى

---

(١) الشرق الأدنى ، مصر والعراق ،ص ١٢١

حياته ، ولم يكن مجرد جبل من الأحجار يشهد بجبروت صاحبه ، وإنما كان ولا يزال عملا فنيا فى داخله وخارجه (الشرق الأدنى ، ص ١٠٥ـ ١٠٦) .

تعليق :

وهذا نموذج على سبيل المثال لا الحصر ، فالأمة كثيرا ما ترزأ بحكام يوجهون أموال الأمة فيما لا يعود على الأمة بالخير فى الدنيا أو فى الآخرة . لقد نسوا أنهم غير مطلقى الأيدى فى هذا المجال وأنهم سيحاسبون عليه أمام الله ، وأنه من غل يأت بما غل يوم القيامة .

ولنا على ما أورده الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح تعليق آخر : مما لا شك فيه أن بناء الهرم يعكس لنا تقدما معماريا ، ولكن يتحتم عدم الإعجاب به ، لأنه لا يجوز للمسلم أن يعجب بما خلفه الظلمة لأن الإعحاب بما خلفه الظلمة يعتبر إعانة للظالم على ظلمه والدليل على ذلك ماأورده البخارى .

أورد البخارى حديث تحت باب : نزول النبى ﷺ الحجر : حدثنا عبد الله بن محمد الجُعْفى. حدثنا عبد الرزاق أخبرنا مَعْمَر عن الزهرى عن سالم عن ابن عُمر رضى الله عنهما قال : لمَّا مر النبى ﷺ بالحجر قال : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين » ثم قَنّع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادى [1] . حدثنا يحيى بن بكر حدثنا مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله لأصحاب الحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم » .

فرسول الله ﷺ كان حريصا على أن لا يرى ماخَلّفه الظلمة أو الإعجاب به ولهذا فقد قنع رأسه وأسرع للسير حتى أجاز الوادى .

كان من الواجب بيان حكم الإسلام فى مثل هذا الذى قام به خوفو ، وبيان أن هذا غير حائز من الناحية الشرعية ، لأن فيه إهدار لإمكانيات الأمة وجهدها فى إقامة بناء غير مشروع ، وأن هذا صورة مكرورة لفراعنة عاد الذين قال الله فيهم ﴿ **أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله**

---

(١) صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٦ ، ص ٩ .

وأطيعون ﴾[1] .

إن فراعنة العصر الحديث قد فتنوا بما خلفه الفراعنة القدماء ، ولو ردّوا كل شيء إلى الله ورسوله ما فتنوا ، وما جعلوا آثار الفراعنة مزارات تدعو إلى الفخر والاعتزاز ، وما أخرجوا تماثيلهم ووضعوها فى الميادين والأسواق ، لأن ذلك يعيد البشرية مرة أخرى إلى عصر الوثنية .

نهاية الأسرة الرابعة :

النزاع على العرش بين أفراد الأسرة المالكة :

ولقد اتسم الوقت الذى تلى وفاة الملك خوفو ، بظهور الصراع بين الأبناء يساندهم بعض رجال البلاط وأمهاتهم لتولى العرش ، وقد تتابع بعضهم فعلا فى حكم البلاد ، إلى أن جاء إلى العرش الملك خفرع الذى زادت فترة حكمه إلى تسعة وعشرين عاما قام أثناءها ببناء مجموعته الهرمية إلى الخلف من هرم أبيه بالجيزة . وبعد وفاته ، نجح فرع آخر من الأسرة المالكة فى الوصول إلى عرش البلاد لفترة من الوقت ، ليعقبه الملك منقرع ابن خفرع . ويبدو أن البلاد قد عادت فى عهده الذى امتد إلى ٢١ عاما إلى حالتها الطبيعية من الاستقرار وإن كان لم يتيسر له إتمام مقبرته بالجيزة .

وتتميز الفترة الأخيرة من حكم الأسرة الرابعة بازدياد نفوذ كهنة الشمس ، الذى سوف يكون بداية لأحداث أخرى ذات أثر كبير[2].

(جـ) الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ ــ ٢٤٤٠ ق . م) :

انتهى النزاع على العرش بين أفراد الأسرة المالكة بزوال حكم الأسرة الرابعة ، ونجاح كهنة الشمس فى الاستيلاء على الملك . وقد روج رجال الدين من الكهنة لهذا التغيير عن طريق قصة طويلة تسمى خوفو والسحرة (بردية وستكار) ونسبوا حوادثها إلى عصر خوفو ، والتى فى نهايتها يأتى التبشير بأن الذى سيتولى عرش البلاد بعد خوفو وأبنائه بفترة طويلة : « ثلاثة أطفال » فى بطن زوجة لكاهن حملت بهن من الإله رع نفسه وأن الإله رع أخبرها بأنهم سيتولون عرش البلاد وأن أكبرهم سيكون الكاهن الأعظم فى مدينة

---

(١) الشعراء : ١٢٨ ــ ١٣١

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٤ .

« أيون » أى « هليوبوليس » [1] .

والدلالة المأخوذة من هذه القصة إقناع الشعب بأن تغيير السلطة الحاكمة واستيلاء كهنة الشمس على عرش إلبلاد كان مقدرا منذ عهد بعيد ، وأن الذين جلسوا على العرش كانوا أبناء الإله رع نفسه .

ومما لا شك فيه أن هذه القصة تشير إلى مدى استخفاف النظام الحاكم بعقول الجماهير ، كما تشير إلى أن السلطة الحاكمة كانت تحس فى أعماقها بعدم شرعية جلوسها فى مركز الحاكم رغم نجاحها فى الوصول إليه ، ولذلك كان لابد من شراء ذمم رجال الدين لينسجوا القصص التى تروج بأن جلوس العاهل على عرش البلاد هو بتقدير الإله .

ولقد استمرت الأسرة الخامسة تحكم من عاصمة البلاد منف ، ومن أهم ملوكها أوسركاف الذى عثر على كأس باسمه فى إحدى جزر بحر إيجه ببلاد اليونان . وساحورع . وقد حدث فى عهد الأخير محاولة لغزو البلاد من بعض القبائل الليبية ، فهزمهم ، كما قام ساحورع بتأمين حدود مصر الجنوبية ، وإرسال البعثات إلى الساحل الفينيقى وبلاد بونت (المنطقة الواقعة حول بوغاز باب المندب أى الصومال وأريتريا وجنوبى بلاد العرب) ، وقد عادت الرحلة الأخيرة ومعها كميات من البخور والذهب وأخشاب الأبنوس .

وتعتبر هذه الفترة كما يقول المؤرخون بداية لخروج مصر من عزلتها بدليل إرسال أسطولها التجارى إلى البحر المتوسط والبحر الأحمر وإرسال الحملات لتأمين حدودها الغربية والشرقية والجنوبية وذلك غير بعثاتها التجارية والتعدينية إلى بلاد بونت .

وآخر ملوك الأسرة الخامسة هو « أوناس » وترجع شهرته إلى « نصوص الأهرام » الذى استحدث كتابتها على جدران حجرة دفنه بهرمه بسقارة والتى أصبحت بعد عهده تكتب داخل أهرام الملوك والملكات أحياناً وقد زودتنا هذه النصوص بكثير من المعلومات عن عقائد المصريين القدماء [2] .

---

(١) وهذا يعكس لنا نموذجا لرجل الدين الذى باع نفسه للشيطان ، وأصبح مطية لحكام الفراعنة فاخترع قصة يبرر فيها الناس بمل هذه القصص الأسطورية وهذه صورة لما يجرى فى عالمنا المعاصر للحكام الذين يطلبون من العلماء أن يشيدوا بفضلهم وورعهم وتقواهم لأنهم يرون فى ذلك مساندة لهم لاستمرارهم فى موقع السلطة .

(٢) حضارة مصر الفرعونية ص ١١٣ وما بعدها

(د) الأسرة السادسة (٢٤٢٠ — ٢٢٨٠ ق . م) :

أول ملوك هذه الأسرة « تتى » ولقد اتجهت أعماله إلى الإعلاء من شأن بتاح إلـٰه مدينة منف ، وتقريب كهنته والانصراف عن كهنة الشمس بعد أن ازدادت سطوتهم وتلاه بعد موته ببيى الأول « ويبدو أن حياته العائلية لم تكن خالية من المؤامرات إذ أنه قد عين أحد وزرائه وهو المدعو « ونى » للتحقيق مع زوجته فى إحدى القضايا وإن كنا لا نعرف موضوع التحقيق .

وقد انتهج هذا الملك سياسة جديدة تقوم على عقد المعاهدات مع العائلات القوية لضمان مساندتهم . ومن أهم أحداث عهد هذا الملك ، هو ما سجله « ونى » من تكوين جيش وتوجيهه مع الأسطول المصرى لتأديب أولـٰئك الذين هددوا مصالح مصر فى فلسطين فى ذلك العهد . وقد سمتهم النصوص المصرية باسم البدو الذين كانوا يقطنون فوق الرمال .

وآخر ملوك هذه الأسرة هو « ببيى الثانى » الذى حكم أربعة وتسعين عاماً . ومن أهم أعماله تلك الحملات التى أرسلها إلى الجنوب (النوبة والسودان) تحت قيادة حكام الفنتين (أسوان) لاستكشافها وتأديب الخارجين على الحكم ، وإحضار منتجاتها وخيراتها .

وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يحفظ لنا التاريخ ، رسالة وجهها هذا الملك إلى أحد وزرائه ، يثنى عليه فيها ثناء عظيما لا يعادله ثناء .. لماذا .. سوف تتضح الإجابة عند قراءة نص الرسالة[1] :

« رسالة ملكية إلى الصديق الأوحد ، الكاهن المرتل ، رئيس الحملة حرخوف : فهمت نص خطابك هذا الذى بعثت به إلى الملك فى القصر لتحيطه علماً بأنك عدت سالماً من بلاد إيام مع حملتى التى كانت معك ، وذكرت فى رسالتك أنك أحضرت جميع الهدايا الكثيرة الجميلة التى قدمتها الآلهة حاتحور سيدة بلاد « إيام » إلى ذات ملك الوجهين القبلى والبحرى الملك نفر كارع (ببيى الثانى) عاش خالداً إلى الأبد . وذكرت فى رسالتك هذه أنك أحضرت قزما لأجل رقصة الإله من أرض الأرواح ، وهو شبيه بالقزم قائد السفينة « باوردد » من بلاد بونت ، فى عهد الملك « أسيسى » . وقلت لجلالتى : « لم يحدث أبداً أن جاء بمثله أى شخص آخر ذهب إلى بلاد إيام من قبل . لقد

(١) حضارة مصر فرعونية ، ١٢١ ، ١٢٥ .

أحسنت حقا بعمل ما يحبه سيدك ويشكرك عليه ، إنك تصبح وتمسى فى تحقيق كل ما يحبه ويريده ويأمر به مولاك ، وسيكافئك جلالته كثيراً وسيمنحك ما سيعتز به ابن ابنك إلى الأبد وسيقول كل من يسمع بما فعله جلالتى من أجلك : هل هناك مثيل لما عمل لأحل الصديق الأوحد حرخوف عندما سافر إلى بلاد إيام فأظهر يقظة فى تنفيذ ما يأمر به ويحبه ويمدحه مولاه ؟

تعالى إلى الشمال . تعالى سريعاً إلى القصر ، وأحضر معك هذا القزم الذى جئت به من أرض الأرواح حيا سالما وفى صحة جيدة ليرقص للإلـٰه ، ويدخل السرور آلاف المرات على قلب ملك الوجهين القبلى والبحرى الملك نفر كارع عاش إلى الأبد .

فإذا ما نزل معك إلى السفينة فعين أشخاصاً أذكياء على جانبيها لملاحظته حتى لا يقع فى الماء ، وإذا نام فى الليل فعين رجالاً أذكياء ليحرسوه فى حجرته وفتش (عليهم) عشر مرات كل ليلة لأن جلالتى يحب أن يرى هذا القزم أكثر من هدايا المناجم وبلاد بونت . فإذا وصلت إلى القصر ومعك هذا القزم حيا سالما وفى صحة جيدة فإن جلالتى سيعمل لأجلك أشيـاء كثيرة أكثر مما عمـل لأجـل قائـد السفينـة « باوردد » فى أيـام الملك « أسسى » لأن رغبة جلالتى هى رؤية هذا القزم .

وقد أعطيت الأوامر لحاكم المدينة الجديدة ، الرفيق ، المشرف على الكهنة ليأمر بإعداد ما يلزم من مأكل وشراب فى كل استراحة ملحقة بالمخازن وفى جميع المعابد بلا استثناء »[1] .

تعليق : تقويم تصرف أحد فراعنة مصر فى ضوء العقيدة الإسلامية :

لقد رُزأت مصر فى عهد حكم فراعنة الأسرة السادسة . بفرعون ، حكم صغيراً ، ولمدة طويلة ، هذا الفرعون هو بيبى الثانى الذى حكم أربعة وتسعين عاماً .

وقد وجه هذا الملك حملة إلى جنوب وادى النيل « النوبة والسودان » ، رجعت محملة بأعز شىء لدى هذا الفرعون ، هذا الشىء العزيز الأثير لديه هو « قزم لأحل رقصة الإله من

(١) هذا نموذج لحاكم من حكام الفراعنة تربع على عرش البلاد لمدة أربعة وتسعين عاما فى غياب الوجود الشعبى لجماهير المصريين ، واعتدى على سلطان الله فادعى الألوهية مستخفا بعقول مواطنيه ، وذهب الاستخفاف إلى أبعد مدى حينما ضيع أمانة الحكم وظن أنه سيظل خالدا فيه إلى الأبد

وتلك هى سمات المجتمع الذى يتمرد عن هدى الله سبحانه وتعالى ، ولا يدرك أن الحكم أمانة ، بها إيهم قيامة حزن وندامة إلا من أخذها بحقها . حضارة مصر الفرعونية ، ١٢٥ ومابعدها

أرض الأرواح على حد زعم الرسالة التى وجهها الملك إلى رئيس الحملة حرخوف ، ليشكره ، على عمله العظيم ويعطيه التعليمات بشأن المحافظة على هذا القزم .

ومتابعة نصوص الرسالة تعكس لنا العبث الذى كان يعيش فيه القصر الملكى ، تعكس لنا تضييعاً لأمانة الحكم بدلاً من تكريس الجهد والوقت لعبادة الواحد الأحد ، وتخفيف المعاناة عن الجماهير ، وحل مشاكلها ، وتتبع أحوالها ، نجد حكاماً اتخذوا منصبهم مطية لتحقيق رغباتهم وشهواتهم ونسوا واجباتهم حيال ربهم ، وواجباتهم حيال رعيتهم .

إن هذا الذى فعله بيبى الثانى من أجل قزم يرقص يفعله كثير من الحكام فى عصرنا الحديث ، ولكن بدلاً من القزم فهناك الفرق الراقصة والمغنية والموسيقية ، وكله تضييع لأمانة الحكم ونسوا واجباتهم حيال ربهم وتجاه رعيتهم .

إن الرسالة تعكس لنا صورة لحاكم ادعى الألوهية والربوبية ويأمل الخلود « عاش خالداً إلى الأبد » ، وتعكس لنا إهدارا لأموال الأمة ، فالملك يغدق بغير حساب من خزانة الدولة على أحد أفراده : « وسيكافئك جلالته كثيراً وسيمنحك ما سيعتز به ابن ابنك إلى الأبد ، وسيقول كل من يسمع بما فعله جلالتى من أجلك ، هل هنالك مثيل لما عمل لأجل الصديق الأوحد حرخوف .. فإن جلالتى سيعمل لأجلك أشياء كثيرة أكثر مما عمل لأجل ... » .

إن الرسالة تعكس إهدارا لأوقات الأمة وصرفها فى وجوه العبث ، لقد جهز فرعون حملة ، فحملة تسير من شمال الوادى إلى جنوبه وما تتكلفه من نفقات ، وأوقات لكى تحضر قزما : « حياً فى صحة جيدة ليرقص للإله ، ويدخل السرور آلاف المرات على قلب ملك الوجهين القبلى والبحرى الملك نفر كارع عاش إلى الأبد » .

هذه هى الأهداف العظام لملوك الفراعنة ، هؤلاء هم القدوة والأسوة وللأسف أن هذا الذى كانت تهدر فيه الأوقات وتوجه إليه الطاقات من آلاف السنين ، يحدث الآن بطريقة أخرى عن طريق الإذاعة المرئية والإذاعة المسموعة التى أهدرت وقت الأمة المسلمة ووجهت طاقاتها وإمكانياتها إلى الفساد ، بموافقة وتشجيع المسئولين عنها .

وفى الرسالة نلمح خطة وضعها جلالة الملك ، لقتال الأعداء ؟ أو للجهاد لنشر كلمة التوحيد ؛ لا والله إنها خطة لحراسة القزم . « فعين أشخاصاً أذكياء ليحرسوه فى حجرته وفتش (عليهم) عشر مرات لأن حلالته يحب أن يرى القزم أكثر من هدايا المناجم

وبلاد يونت .

هذه هى لمحة سريعة من سلوك أحد الفراعنة قدر له أن يحكم أربعا وتسعين عاماً ، وبعدها نتساءل كيف كان يمضى عمره ؟ وما أثر ذلك على البلاد والعباد. . مما لاشك أن الأثر كان سيئا . لا نعجب أن قامت ثورة كما يصور كتاب التاريخ أطاحت بالنظام الحاكم ، وعصفت بكل شىء فى المجتمع ، ولا عجب فى ذلك إذا كانت حياة الحاكم والمحكوم غير منضبطة بنظام الله وشرعه .

٣ ــ عصر الفترة الأولى
من الأسرة السابعة حتى نهاية العاشرة
(٢٢٧٠ ــ ٢٠٥٢ ق . م)

وتسمى هذه الحقبة بعصر الثورة الاجتماعية :

وقد صور لنا هذه الحقبة الدكتور أحمد فخرى بقوله :

« وصلت حالة مصر إلى الحضيض فى أواخر أيام الأسرة السادسة وعمت الفوضى فلما طفح الكيل لم يجد الشعب أمامه من طريق غير الثورة على تلك الأوضاع والانتقام لنفسه ممن كانوا عليه سوط عذاب . ومصادرنا عن تلك الثورة ووصف ما حدث فى البلاد، ينحصر فيما جاء فى برديتين إحداهما تسمى بردية « إيبوور » والثانية تسمى بردية « نفرروهو » وسنقصر حديثنا على ما ورد فى البردية الأولى : « بردية إيبوور » وقد كتبت على لسان شخص استطاع أن يصل إلى مقر الملك ويطلب منه العمل على إنقاذ البلاد مما تردت فيه ويصف له حالتها السيئة فى لغة بليغة ، « لقد انقلبت البلاد إلى عصابات ولم يعد الناس يحرثون حقولهم وأضرب الناس عن دفع الضرائب ، وتوقفت التجارة الخارجية وهجم الناس على مخازن الحكومة فنهبوها وعلى مكاتب الدولة فبعثروا محتوياتها . بل إن الملوك المدفونين قد اعتدى عليهم أيضاً وبعثروا أشلاءهم وأصبحت أهرامهم خالية مما كان فيها . وصب الشعب انتقامه على الأغنياء فنهبوا القصور وحرقوها وصار أصحابها محزونين يبكون ، بينما كان عامة الشعب يفرحون ويحتفلون . وأصبح الذين كانوا يملكون الرقيق يسيرون فى أسمال بالية وأولئك الذين لم يمتلكوا شيئاً فى حياتهم يرفلون فى ملابس من خير أنواع الكتان » . ويسخر الكاتب مما كان يراه فيقول : « إن الأصلع الذى لم يكن يستخدم

الزيت أصبح يمتلك الأوانى الملآى بخير أنواع العطور ، وإن الذى لم يمتلك صندوقاً صغيراً فى حياته أصبح مالكاً لصندوق كبير ، والفتاة التى كانت تذهب إلى الماء لترى وجهها أصبحت مالكة لمرآة » .

« وياليت الأمر وقف عند ذلك الحد فقد صب الناس نقمتهم على أطفال الأغنياء فصاروا يقذفون بهم الجدران ، وترك الناس أطفالهم الذين طالما تمنوا ولادتهم ألقوهم فى الطريق عساهم أن يجدوا من يمد إليهم يده .

حتى رجال الأمن الذين كان الناس ينتظرون منهم أن يوقفوا تلك الأحداث أصبحوا فى مقدمة الناهبين ، وانهارت الحكومة المركزية ، وأصبح الأغنياء فى حزن وغم بينما كان الفقراء فرحين . وكانت كل مدينة تقول « فلنطرد بعضاً منا » ومما زاد الحالة سوءاً أن عصابات من البدو الذين كانوا يسكنون على حدود مصر فى الشرق وربما أيضاً فى الغرب انتهزوا هذه الفرصة فأخذوا يتدفقون على قرى الدلتا وينهبون ما يجدونه مع الناس ، ولم يعد أح يثق فى أخيه أو صديق فى صاحبه » .

« إذن لقد انتقم الشعب ، وثار الفلاح الصابر المطيع عندما وجد الظلم قد ازداد ، وأن الأغنياء قد سلبوه كل شىء ، ثار ثورته الجامحة فلم يبق على شىء ولم يفرق وهو فى ثورته بين معبد الإلـٰه أو ديوان للحكومة ، أو قصر لغنى ، أو مخزن للدولة ، أو قبر دفنوا فيه حليا مع صاحبه » .

« ونحن لا نستغرب مثل هذه الأحداث فى مجتمع شرد عن هدى الله وادعى حكامه ما لله من صفات ، ورفضوا منهج الله وشريعته .. وضيّعوا أمانة الحكم .. فقد شاهدنا بيبى الثانى الذى تولى العرش طفلاً تحت وصاية أمه وخاله واستمراره فى الحكم لمدة تسعين عاماً وعدم وفائه بواجباته حيال ربه وشعبه وقد أدى ذلك إلى انهيار سلطان الملك وازدياد نفوذ حكام الأقاليم وكبار موظفى الدولة مما دفع الملك إلى تعيين وزيرين أحدهما للشمال وآخر للجنوب للإشراف على حكام الأقاليم والتقليل من حدة سلطانهم .

وفى وقت ما أفلت الزمام من يد الملك بيبى الثانى بعد أن استبدت به أمراض الشيخوخة ، فاستقل حكام الأقاليم بعد أن منعوا الضرائب والخراج من الصب فى خزانة العاصمة ، فانهارت السلطة المركزية الحاكمة ، وتفككت عرى البلاد وتعرضت حدودها الشرقية لهجمات من البدو القاطنين على الرمال ووصل سوء الحال إلى حد اشتراك رجال

الأمن فى القتل والنهب بعد أن عمت البلاد ثورة عارمة عصفت بكل المقدسات المتعارف عليها فى ذلك الوقت . وتطلع الأفراد إلى نظام صالح للحكم ، ومصير كريم فى الآخرة يفضل ما عرفه الأفراد من قبل ، وعقيدة صحيحة تلبى احتياجاته النفسية وتقول له إن الناس عبيد الله ، وأنهم جميعاً سواسية ولا معيار للمفاضلة بينهم إلا التقوى » [١] .

تقويم أحداث عصر الفترة الأولى فى ضوء العقيدة الإسلامية :

لقد أدى الطغيان الذى يمارسه الفراعنة ، دون أن يجدوا من يأمرهم بالمعروف أو ينهاهم عن المنكر إلى انتشار الفساد داخل المجتمع المصرى ، هذا الفساد الذى عبرت عنه كلمات الحكيم « إيبوور » أمام مليكه : فهذه كل بلد أجنبية (تجرأت علينا) وهذا ماؤنا (أمامنا) ، وهذه سعادتنا (فى أرضنا) ، ولكن ما الذى تستطيع أن تفعله من أجلها والكل آيل للدمار ؟ بل وقال له : إن ما يروى لك هو الباطل ، فالبلاد تشتعل والناس قد هلكوا .. ثم تجرأ الرجل على الملك وحاسبه قائلاً : لديك الوحى والبصيرة وأسباب العدالة ، ولكنك بعثت الفوضى فى البلاد مع أهل الفتن ، وقص عليه بلاء الناس ثانية ثم عنف عليه قائلا له « وليتك تذوقت بعض هذه المصائب وإذن لرّويت خبرها بنفسك » [٢] .

إن هذا الذى ترويه النصوص القديمة تصور لنا رجلاً من عامة الشعب استيقظ ضميره ولعله أدرك أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب ، فانطلق إلى حاكم الدولة يبين له أنه هو المسئول عن هذا الفساد الذى أنزل بالأمة .

إن هذه البردية تصور أحوال المجتمع المنهار على النحو التالى :

(١) تسلط الأجانب على شئون الدولة ، « أصبح الأجانب مصريين فى كل مكان » ... وأولئك الذين كانوا مصريين أصبحوا أغرابا وأهملوا جانباً .

(٢) عجز الحكومة عن كبح جماح الجنود المرتزقة فى جيشها والذين أصبحوا يعملون لمصلحة الأعداء بعد أن تعرفوا على عورات البلاد .

(٣) عجز الدولة عن صد هجمات الأجانب وهجمات الآسيويين والبدو الذين هاجموا

---

(١) مصر والعراق ، ص١٤٣ .

(٢) مصر والعراق ، ص ٣٦٠ .

حدود الدولة الشرقية وتسربوا إلى أراضى الدلتا وشاركوا المصريين معاشهم واعتبروا أنفسهم من أصحاب البلاد وخاصة أهلها .

(٤) افتقاد الأمن والطمأنينة ، وشيوع القتل والسرقة .

(٥) قلة المحاصيل والإنتاج : « فعز الغلال .. ومنتجات المصانع .. وتخربت المدن » .

(٦) رجال الأمن يشاركون فى النهب والسلب « قال حراس الأبواب (بعضهم لبعض) فلننطلق وننهب .

لقد جاء الوقت الذى عز الابتسام وما عاد أحد يبتسم وأصبح الحزن يسود البلاد ... أصبحت العاصمة فى خوف من العوز ، وأصبح الناس يأكلون الحشائش ويتبلغون بالماء ... فارقت النبالة الدنيا وأصبحت ربّات البيوت يقلن أنّى لنا ما نأكله ؟ وذبلت أجسادهن فى الأسمال وهاضت قلوبهن من ذل السؤال »[1] .

إن عقيدة المصريين فى ألوهية فراعنتهم كانت عقيدة زائفة عقيدة مفروضة بالحديد والنار ، والدليل : أنه حينما أتيحت فرصة التغيير الحقيقى لجماهير الأمة ، كفروا بهذه العقيدة ، أو بمعنى آخر حينما ضعف سلطان الفراعنة وخفت قبضة الطاغوت من على رقاب الناس انطلقوا يعبثون بكل شىء بما فى ذلك معابد الآلهة والأوثان والمقابر التى دفن فيها ملوكهم وفراعنتهم ، وأعوانهم من الملأ الظلمة .

وقد عبر عن هذه الحالة الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح بقوله : « نزع الثوار عن ملكيتهم القائمة ما تبقى لها من قداسة شكلية ، وأباحوا لأنفسهم أن يتقاسموا أملاكها ومواردها وأملاك أنصارها .... ولم تقتصر حملات الناقمين على الأثرياء الأحياء وإنما امتدت إلى مقابر الأثرياء الموتى الذين نعموا فى دنياهم بما لم ينعم به سواهم ثم رصدوا على أهراماتهم ومقابرهم ومعابدهم من الخيرات والأوقاف ما كان الأحياء من أفراد الشعب أولى بمثله »[2] .

وهذا دليل على أن الناس حينما بنوا أهرامات فراعنتهم ، لم يبنوها عن رضا وطواعية كما زعم الأستاذ الدكتور أحمد فخرى فى كتابه ، ولكن بنوها تحت سياط القهر والاستعباد

---

(١) مرجع سابق ، ص ٣٦١

(٢) مصر والعراق ، جـ ١ ١٩٧٣ ، ص ١٤٢ .

وحينما أتيحت الفرصة للتعبير الحقيقى ، وقالت كل مدينة : دعونا نقصى العتاة من بيننا ، استجابت القاعدة العريضة من أفراد المجتمع .

كلمة أخيرة : إن الذى حدث على أرض مصر ، ووصفته بردية « إيبوور » يمكن أن نفترض له تفسيراً فى ضوء السنن الربانية :

يقول محمد ﷺ « إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾[1] .

والفراعنة الذين حكموا مصر منذ عصر بداية الأسرات وحتى نهاية الأسرة السادسة على مدار ألف عام ظلموا أنفسهم بالشرك بالله ، وظلموا غيرهم من أبناء الأمة فكان لابد وأن يذوقوا من الكأس التى سقوا منها غيرهم ، فكان هذا الذى ذكرته بردية « إيبوور » حيث نلمح غضبة جماهيرية ضد ما كان سائداً فى مصر طيلة حكم فراعنة بداية الأسرات والدولة القديمة ، الذين ادعوا الألوهية والربوبية وتحكموا فى كل شىء وحرموا الناس من كل ما يتمتعون هم به فى حياتهم الدنيا . نلمح غضبة جماهيرية ضد الحكام الذين أهدروا أموال الأمة فى بناء الأهرامات والمعابد ووقف الأوقاف للصرف عليها .

نلمح غضبة جماهيرية ضد معابد الأوثان وكهنتها الذين تسلطوا على عقول الجماهير باسم الدين المزيف ، وضد الفكر المادى الذى يقول بأن السعادة الأخروية وقف على كل من يستطيع تزويد مقبرته بكل ما تحتاج إليه فى الحياة الأخرى .

تلك الغضبة عصفت بكل شىء ، ودمرت كل شىء وصدق الله القائل : ﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبنٰها حساباً شديداً وعذبنٰها عذاباً نكراً . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً . أعد الله لهم عذابا شديداً** ﴾[2] .

(أ) الأسرتان السابعة والثامنة [3] :

من المرجح أن عددا من كبار الموظفين وحكام الأقاليم قد تولوا زمام الأمور وسلطة الحكم فى العاصمة منف لعدة شهور فى أعقاب انهيار النظام الملكى فى الأسرة السادسة ويطلق على هذه الفترة الأسرة السابعة . وبعد ذلك نجح أحد فروع البيت المالك القديم فى

---

(١) هود : ١٠٢ . (٢) الطلاق : ٨ — ١٠ . (٣) مصر الفرعونية ، ص ١٢٩ — ١٣١ .

الوصول إلى حكم البلاد ـــ معتمدا على مناصرة بعض حكام الأقاليم الذين بدءوا يستقلون بأقاليمهم ـــ مكونا الأسرة الثامنة التى بلغ عدد ملوكها خمسة عشر ملكا .

(ب) الأسرتان التاسعة والعاشرة [1] :

أسس الأسرة التاسعة التى بلغ عدد ملوكها ثلاثة عشر ، الملك خيتى أو اختوى الأول ، الذى وصف بأنه كان ظالما وأنه قد أصيب فى أواخر أيامه بالجنون . وقد كان ملوكها يقيمون فى أهناسيا (عند مدخل الفيوم) واستمروا يخطبون ود حكام الأقاليم الأقوياء لمساندتهم فى حكمهم . أما ملوك الأسرة العاشرة الذين حكموا فى أهناسيا أيضا ويبلغ عددهم خمسا فقط منهم مرى ، ونفر كارع واختوى (واح كارع وهو صاحب بردية الوصية الشهيرة ، وخلفه على العرش ابنه مريكارع) .

وقد نشر كتاب التاريخ وثيقتين إحداهما أطلقوا عليها وصية الملك اختوى لابنه مريكارع ، والثانية هي بردية الفلاح الفصيح ، وهما من الآثار الفكرية الهامة لدراسة أحوال ذلك العصر .

١ ـــ وصية الملك اختوى لابنه مريكارع :

التى تعتبر من أهم المصادر القديمة لدراسة الحالة فى مصر فى أواخر أيام أهناسيا ، تلك البردية[2] التى تحتوى على النصائح والتوجيهات التى وجهها الملك اختوى الرابع (خيتى) إلى ابنه الملك مريكارع ، إذ أننا نرى فيها كثيرا من المعلومات الهامة عن ذلك العصر الغامض . يحاول أختوى أن يعطى خلاصة تجاربه لابنه حتى لا يقع فيما وقع فيه هو من أخطاء ويبدأ هذه النصائح ـــ بعد الديباجة التى فقدت الآن ـــ بتحذير ابنه من أى تابع له يكثر من الكلام وله أتباع كثيرون فإن هذا الشخص يسبب الانقسام بين الناس وينصحه بقوله : « اطرده ، اقتله ، امح ذكراه (هو) وأتباعه الذين يحبونه » .

ويوصى ابنه بعد ذلك بأن يكون فنانا فى الحديث لأن « اللسان كالسيف للإنسان » ، وينصحه بأن ينهج سبيل آبائه وأجداده ، وأن يكثر من قراءة ما خلفوه من

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(٢) حضارة مصر الفرعونية ، ١٣٨ وما بعدها ، وهذه البردية محفوظة فى متحف ليبجراد ومرقومة تحت رقم ١١١٦ ، والنسخة الحالية فى عصر الأسرة الثامنة عشرة .

كتب الحكمة وألا يفعل الشر ، وأن يتحلى بالصبر ويترك وراءه ذكرى حسنة من حب الناس له ، ويحذر اختوى ابنه من الطمع وينصحه بأن يعتنى بتثبيت حدوده ، وأن يعلى من شأن رجاله ويقويهم لأن الغنى فى غير حاجة للمحاباة ، أما الفقير فإنه لا يقول الحق الذى يؤمن به وإنما يحابى من يملك شيئا ويعطيه له ، ويقول لابنه : « ما أعظم الشخص العظيم عندما يكون رجاله المقربون عظماء ، وما أشجع الملك الذى يكون له رجال بلاط ، وما أعظم وأقوى الذى يكون له نبلاء كثيرون » ويكثر من نصح ابنه لاتباع جادة الحق وإقامة العدل ويحذره من ظلم الأرملة ويوصيه بألا يحرم شخصا من ثروة أبيه وألا يطرد الموظفين من وظائفهم ، ولكنه فى الوقت ذاته يوصيه وصية حازمة بقوله : « حاذر من أن تعاقب الناس دون خطأ جنوه ، لا تقتل فإن ذلك لا يجديك شيئا ، ولكن عاقب بالضرب والاعتقال فتنصلح الأمور فى البلاد اللهم إلا الثائر عليك الذى تتثبت من أمره » .

ولأول مرة فى تاريخ مصر نقرأ فى تلك النصائح عن وجود محكمة بعد الموت يقف أمامها الإنسان صاغرا ولا ينفعه أمام قضائها إلا العمل الصالح « فإن أعماله توضع مكدسة إلى جواره » ويشير أختوى إلى الشباب فينصح ابنه بالعناية بهم وتقريبهم منه ، وأن يمنحهم الحقول ويكافئهم بإعطائهم بعض الماشية ولكنه يحذره بشدة من أن يميز ابن شخص غنى على ابن شخص فقير بل يجب أن يقدر كل إنسان حسب كفاءته الشخصية .

ويوصيه بالإكثار من إقامة المنشآت الدينية وترتيب القرابين ، وأن يرضى الله فإن الله يعرف الذين يعملون من أجله ، ثم يتدرج بعد ذلك إلى ذكر ما كان حادثا فى مصر من انقسام فيقول لابنه : إنه لا يخلو أحد من وجود أعداء له وأن الأعداء فى داخل مصر لا يهدءون ثم يشفع ذلك بقوله : « إن القدماء قد تنبئوا بأن جيلا سيظلم جيلا آخر وأن مصر ستحارب حتى فى الجبَّانة وتهدم القبور . لقد فعلت ذلك وأصابنى ما يصيب من يعصى أمر الله » .

يشير أختوى بذلك دون ريب إلى حرب استعرت نارها بين الشمال والجنوب إذ ينصحه مباشرة بعد ذلك بأن يحسن علاقته بالجنوب وإذا لم تأت منهم جزية من الحبوب فيكفيه صداقتهم وينصحه بأن يكتفى بما لديه من خبز وجعة .

ويقول لابنه : إن الجرانيت يمكن الحصول عليه دون عائق ، ويحذره من الاعتداء على

آثار الآخرين وأنه يجب عليه الحصول على ما يلزمه من أحجار من محاجر طرة لبناء قبره وألا يأخذ أحجارا مما تخرب من قبور الناس .

كانت أيام اختوى مليئة بالحروب فلم يصطدم ببيت طيبة فى الجنوب بل نشط نشاطا كبيرا فى الدلتا واهتم اهتماما خاصا بالجزء الغربى منها وأخضعه تماما لأهناسيا ، ولكن الأمر لم يكن سهلا فى شرقى الدلتا وإن كانت ضرائبها ظلت تأتى إلى القصر . ويقول إنه أعاد تنظيم المنطقة من المنيا جنوبا حتى السويس وأنه أسكن فيها أناسا كثيرين انتقاهم من جميع أنحاء البلاد حتى يستطيعوا الدفاع عنها .

ولقد كان العدو الذى يخشاه ملوك أهناسيا وأقاموا الحاميات وشجعوا تعمير البلاد لصده هم عصابات الآسيويين حملة القوس ، الذين يلاقون الكثير من المتاعب فى بلدهم « بسبب الماء والأشجار والجبال » ويقول عن الآسيوى : « إنه لا يستقر فى مكان واحد ولكن ساقاه صنعا لكى يتجول ويذهب بعيدا . إنه يحارب منذ أيام حورس (أى منذ الأرل) وهو لا يقهر ولا يقهر ، إنه لا يحدد يوما للقتال ، إنه كاللص الذى يعمل فى عصابة » وهذه إشارة دون شك إلى عصابات من البدو[1] جاءت من الشرق وكانت تنتهز الفرص لنهب القرى الآمنة أو نهب المسافرين ، « ربما أمكنه أن ينهب شخصا (يسير) بمفرده ، ولكنه لا يهاجم مدينة فيها سكان كثيرون » .

وينبه ابنه مريكارع إلى أهمية منطقة البحيرات[2] المرة لحماية مصر من خطر البدو وينصحه بتحصين جزء منها وغمر الجزء الآخر بالمياه ويذكر ما قام به من تحصينات وعدد الذين جعلهم يقيمون هناك وكلهم مسلحون اللهم إلا الكهنة الذين يقيمون معهم . ويشير أيضا إلى تحصينه لمنف وإلى إنشاء قناة (أو ربما جسرا) تربط بينها وبين أهناسيا ، ويعيد الكرة فيحذر ابنه من محاربة الجنوب ويقول له بأن ذلك يعطى فرصة للبدو الآسيويين فيعيثون فسادا فى الدلتا . ويعود فيذكر ما جره عليه اصطدامه بالجنوب « انظر ! لقد حدثت نكبة فى عهدى . لقد تحطمت مناطق إقليم ثنى . حدث ذلك حقا بسبب مافعلت ولكنى لم أعلم به إلا بعد حدوثه . انظر ! لقد جوزيت على ما اقترفت » ويختم

(١) شبيه بهم الآن عصابات اليهود الذين اغتصبوا أرض الإسراء والمعراج تحت سمع وبصر المجتمع الدولى . وهم لايهددون مصر وحدها ولكن يهددون العالم الإسلامى كله .

(٢) وهى المنطقة التى احتل بها العدو اليهودى الثغرة فى عام ١٩٧٣ . وهذا دليل على أن أبناء العرب لايقرأون التاريخ ، ولو قرأوا لايستفيدون

بصائحه بحث ابنه على طاعة الله والخوف منه فهو يعلم السر وما يخفى ، ويذكره بألا ينسى آخرته ويعمل لليوم الآخر . ويقول له بأن يذكر دائما نِعَم الله ويقول عنه : « إنه هو الذى خلق أنفاس الحياة لخياشيهم (أى الناس) وأولئك الذين خرجوا من صلبه ليسوا إلا صورا له . إنه يشرق فى السماء ليلبى رغبتهم ، إنه خلق لهم النباتات والحيوانات والطيور والأسماك ليقتاتوا منها » وما أجمل قوله : « إن الله يقبل أخلاق الرجل المستقيم الضمير أكثر من قبوله للثور الذى يقدمه الشرير (كقربان للآلهة) » . وما أصدق عبارته التى يشير فيها إلى أن الله يوقع عقابه على بعض الناس لمصلحتهم : « إنه (أى الله) يقضى على من يملأ الشر قلبه بينهم (أى الناس) كما يضرب الأب ابنه إكراما لأخيه ، لأن الله يعرف كل إنسان » .

ـ بردية القروى الفصيح :

« ليست هذه البردية[1] قصة حقيقية وإنما هى قطعة أدبية ذات هدف خلقى أحسن فيها كاتبها اختيار تعبيراتها وصيغها ، وأظهر فيها مقدرته فى اللغة . تكون من مقدمة على صورة قصة لا تخلو من الطرافة وتسع شكاوى فى موضوع واحد وهو الحث على العدل وإعطاء الفقير حقه وحمايته من الغنى وأن يكون الحاكم سياجا وملجأ للمظلوم ويخشى من عقاب الله إذا انحرف عن الطريق السوى .

كان يعيش أحد القرويين واسمه « خو ان أنوب » فى وادى النطرون وأراد أن يأخذ بعض حاصلات تلك الواحة ليبيعها فى أهناسيا ثم يشترى بثمنها غلالا يعود بها إلى أهله . وطلب من امرأته أن تعد له زاد الطريق وحمل حميره وسار فى طريقه حتى أصبح على مقربة من العاصمة وكانت فى بلدة أهناسيا . وأثناء سيره رآه من بعيد شخص يسمى « تحوتى نخت » من أتباع « رنسى » بن « مرو » الذى كان رئيس مديرى القصر الملكى . فلما رأى « تحوتى نخت » ذلك القروى عزم على اغتصاب ما معه وكان بيته قريبا من جانب الطريق الضيق ، وكانت الحقول على أحد جانبى الطريق وعلى الجانب الآخر ترعة فيها ماء . وأمر « تحوتى نخت » أحد خدمه فأحضر له قطعة من قماش فرشها فوق الطريق فوصل أحد طرفيها الشعير المزروع فى الحقل بينما تدلى الطرف الآخر فى مياه قناة كانت هناك أى أن ذلك النسيج غطى عرض الطريق فلما وصل القروى حذره من أن تدوس حميره على النسيج فصدع القروى للأمر وأجابه سمعا وطاعة وساق حميره على حافة الجسر من ناحية الحقل

---

(١) حضارة مصر الفرعونية ، ١٤٢ وما بعدها .

وعند ذلك نهره سائلا عما إذا كان يريد أن يجعل من حقل شعيره طريقا لحميره فأجابه القروى بأنه لا يقصد سوءا فالطريق مرتفع وقد غطاه بالقماش ولم يعد هناك مكان يسير فيه إلا حقل الشعير . وفى أثناء تلك المناقشة مال أحد الحمير فأكل شيئا من الحقل وعند ذلك قال : « تحوتى نخت » أنه سيستولى على ذلك الحمار ثمنا لما أكله فصرخ القروى سائلا إذا كان من العدل أن يأخذ حماره مقابل قبضة من الشعير ملأ بها فمه ، وصاح قائلا : « إننى أعرف صاحب هذه الضيعة ، إنها ملك رئيس مديرى القصر رنسى بن مرو ، إنه هو الذى يقف فى وجه اللصوص فى كل أنحاء البلاد فهل أسرق فى ضيعته ؟ وعند ذلك نهره « تحوتى نخت » وأخذ فرعا من شجرة وأوسعه ضربا وأخذ كل حميره ، وساقها إلى الضيعة .

« وبكى القروى من آلامه بكاء مرا فلم يتركه « تحوتى نخت » وشأنه بل نهره وأمره بالسكون لأنه على مقربة من معبد « رب السكون » (أى أوزيريس) فصاح القروى : « إنك ضربتنى وسرقت متاعى وتأبى إلا أن تأخذ أيضا الشكوى من فمى !! يارب السكون رد إلى بضاعتى حتى لا أصيح .. » ! وظل القروى المسكين عشرة أيام كاملة يستسمح ظالمه دون جدوى . فلما يئس منه سار فى طريقه ليشكو إلى رنسى نفسه فى العاصمة .

ورآه عندما كان يهم بالخروج من باب بيته لينزل إلى سفينة ليعقد فيها جلسة المحكمة فقال له : « هل لى أن أرفع إليك أمرا ؟ أرجوك أن ترسل إلى تابعك الذى تثق فيه حتى يصل إليك عن طريقه ما أريد قوله » فأرسل رنسى إليه تابعه فشرح القروى له القصة بحذافيرها . وعند ذلك رفع رنسى قضية ضد « تحوتى نخت » أمام القضاة الذين كانوا معه فما كان من القضاة إلا أن قالوا هذا القروى لابد أن يكون أحد فلاحيه الذين تركوا العمل عنده وذهب ليعمل عند الآخرين ، وأن ما حدث له هو ما يستحقه أى قروى يفعل ما فعله وقالوا : « أعلى مثل ذلك يعاقب تحوتى نخت بسبب كمية تافهة من النطرون وشىء قليل من الملح ؟ أصدر إليه أمرك بأن يعوضه عنها وسيفعل ذلك » ولكن رنسى لزم الصمت فلم يرد على القضاة ولم يرد على القروى .

وجاء القروى مرة ثانية ليشكو وصاح مخاطبا رنسى ومذكرا له باليوم الآخر ويطلب منه أن يقيم العدل حتى ينال العدل بعد موته ، ويقول له : « إنك أبو اليتيم ، وزوج للأرملة ، وزوج المرأة المهجورة ، ودثار من لا أم له » . وذهب رنسى إلى الملك نيكارع آخر ملوك الأسرة العاشرة وكان يسمى أختوى أيضا) وقال له : « سيدى : لقد وجدت احدا من أولئك القرويين ، فصيحا بحق ، لقد تعدى عليه أحد رجالى وسرق ما معه وجاء

إلى يشكو من ذلك » فنصحه الملك بأن يجعل ذلك القروى يطيل إقامته ليستمر فى الشكوى وأمره أن يكتب كل ما يقوله وفى الوقت ذاته يعنى بأمر زوجته وأطفاله فيرسل إليهم ما عساه يكفى لقوتهم ، وأن يعنى أيضا بأمر القروى نفسه فيرسل إليه الطعام دون أن يعرف أنه هو الذى أمر بترتيبه له ! فرتبوا له كل يوم أربع أرغفة من الخبز وإناءين من الجعة . وجاء القروى مرة بعد أخرى وكان فى كل مرة يلقى شكواه بأسلوب فصيح يملؤه بالاستعارات والتشبيهات حتى بلغت شكاواه تسعا أبدع فيها كاتب القصة وكلها تدور حول العدل ومسئولية الحاكم عن الدفاع عن المظلوم ومساوىء الطمع والتكبر على الناس ، وفى آخر شكواه التاسعة يئس القروى وصمم على قتل نفسه فختمها بقوله : « انظر ! إنى أشكو إليك ولكنك لم تستمع فهل تريد منى أن أذهب وأشكوك إلى (إله الموتى) أنوبيس ؟ » وترك القروى مكانه وسار فى طريقه فأرسل رنسى وراءه اثنين فأعاداه . وظن المسكين أنهم سيعاقبونه على ما بدر منه ، فلما وقعت عيناه على رنسى ابتدره قائلا : « إنى تواق إلى الموت كما يتوق الظمآن عندما يقترب من الماء ، وكما يتوق فم الرضيع إلى لبن (أمه) » ولكن رنسى رد عليه قائلا : « لا تخف أيها القروى ... انظر ! إنك ستقيم معى » ولكن يأس القروى كان قد بلغ نهايته : « ولن آكل خبزك أو أشرب من جعتك ما حييت » . ولكن رئيس البيت الملكى قال له : « تعال من هنا حتى تستمع إلى ما قلته من شكاوى » وأمر أن تقرأ له من بردية سطرت عليها ، ثم أرسلها رنسى بعد ذلك إلى الملك ، وقال الملك لرئيس بيته أن يتولى هو الحكم فى القضية فأرسل اثنين من الشرطة لإحضار تحوتى نخت وأرضى القروى إذ عوضه عن كل ما فقده كما انتقم له ممن ظلمه دون وجه حق فأعطاه كل ما كان يمتلكه تحوتى نخت .

تقويم المعلومات التى وردت فى الوثيقتين عن أحوال مصر العقدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية :

الوثيقتان تعكسان إيماناً بالله ، وباليوم الآخر ، بالحساب والثواب والعقاب . لقد انجلى عصر الفترة الأولى عن قيم جديدة لم يكن للناس عهد بها فى عصر بداية الأسرات وعصر الدولة القديمة فإذا هم أمام حاكم يعترف ببشريته ولا يدعى الألوهية أو الربوبية .. حاكم يتحدث عن ضعفه وندمه كسائر البشر .. حاكم يقول بأن سعادة الإنسان فى آخرته تتوقف على عمله الصالح فى الدنيا ولا تتوقف على رضاء الملوك فقط ، حاكم يقول إن كل امرىء مهما كان مركزه سيحاسب على أعماله أمام محكمة الآخرة ، وأنه سيجد تلك الأعمال

مكدسة إلى جانبه بما فيها من خير وشر — وحاكم يقول إن السعادة فى الآخرة لم تعد تتوقف على قبر يبنى أو قرابين تقدم بانتظام لأن الله يعرف ما فى القلوب ويطلب من عباده أن تحسن نياتهم ويذرون وراءهم الطمع والشر فإن النيات الحسنة هى التى يقبلها الله ، وهى أقرب إلى قلبه من القرابين التى يقدمها المذنبون ليكفّروا بها عما اقترفوه من إثم . نلمح ذلك كله فى نصائح الملك أختوى لابنه مريكارع .

أما بردية الفلاح الفصيح فهى تعكس لنا جهود إنسان مظلوم ، كرّس وقته وجهده فى سبيل استعادة حقه المهضوم .. أخذ يدعو الحاكم أن يحمى الفقير من الغنى ، وأن يكون سياجا يحمى الضعيف من عسف القوى ، وألا يعتقد الموظفون أو الذين ينتمون إلى ذوى النفوذ من بين الحكام أنهم يستطيعون أن يظلموا القرويين المساكين دون أن تنالهم يد العدالة . ونرى فيها أيضا أمر الخوف من عقاب الله الذى لا تخفى عليه خافية .. يتضح ذلك مما ذكره القروى عند رئيس البيت الملكى بأنه هو المسئول عن نكبته ، وأنه سيقف يوما ليجيب عن مظلمته .. أنه لم يستمع إلى شكواه ولم ينصفه من تابعه .

إذن هذه الوثائق تعكس لنا إيماناً بالله الواحد الأحد ، وتعكس لنا إيمانا باليوم الآخر ، والبعث ، والحساب . كما أن فيها نهيا عن الظلم ، وحضا على العدل .

فى هذه الحقبة من التاريخ نلمح حثّا على مكارم الأخلاق ، ونهيا عن موبقات الأخلاق . فماذا يعنى ذلك ؟ ومن أين للمصريين بهذه الإيمانيات ؟ هل يمكن أن تكون من ابتداع عقول المصريين كما يزعم كتاب التاريخ ؟ لايمكن !! إذن ماهو التفسير لوجود هذه القرائن الدالة على الإيمان بالله فى حياة شعب مصر . يمكن أن نفترض عندما استشرى الظلم ، وزاد الطغيان ، واعتدى حكام الفراعنة على سلطان الله فى الأرض ، وادعوا الألوهية والربوبية ، وعبدوا الناس لأنفسهم ، وادعوا ما لله من صفات وأسماء .. وخفت صوت التوحيد وانتشرت الوثنية فى مصر ، وأصبح كهنة الأوثان سيوفا مسلطة على رقاب الناس باسم الدين .. ضاق الناس بذلك ذرعا وبعد أن استمرأت نفوسهم الذلة والاستكانة لفترات طويلة وعجزوا عن إزاحة الطغيان يمكن أن نفترض أن يد القدرة الإلهية قد تدخلت فأرسلت إلى هؤلاء القوم من يعيدهم إلى طريق الحق وطريق الهداية ويعبّدهم لربهم الواحد .. وبعد أن جاءهم الرسول ... وعرفوا ربهم !! وعرفوا أن الأخلاق ترتبط ارتباطا وثيقا بالعقيدة ، وعرفوا أن الموت حق ، وأن البعث حق ، وأن الله قد حرم الظلم وأنه سيعاقب

ويحطمون الأوثان وحماتها .. لكى يكون الناس كلهم عبيدا لله الواحد القهار .

٤ ــ الدولة الوسطى

الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة

٢٢٣٤ ــ ١٧٧٨ ق . م

(أ) الأسرة الحادية عشرة (٢٢٣٤ ـ ١٩٩١ ق . م) :

لقد تمخضت الأحوال فى عصر الفترة الأولى كما يقول كتاب التاريخ القديم[١] عن تيارات عقائدية آمن أصحابها بأن البعث هو حق لا شك فيه ، ولكنهم آمنوا فى الوقت نفسه بأن سعادة الفرد فى أخراه لا ترتبط ببناء المقابر الفخمة أو مواصلة تقديم القرابين وترتيل الدعوات وإقامة طقوس الدين ، بقدر ما ترتبط بأعمال الإنسان فى دنياه وإيمانه بعدل ربه فى أخراه .

كما تمخضت أحداث العصر أيضا عن استقلال حكام الأقاليم بحكم أقاليمهم وجعله وراثيا فى أبنائهم ، كما أصبحوا يتمتعون بسلطات إدارية ودينية واقتصادية واسعة . كما أصبح لكل إقليم جيش وأسطول خاص به .

ومن بين حكام الأقاليم الذين استقلوا بأقاليمهم بعد انهيار السلطة المركزية حكام طيبة ، ولقد سنحت لهم الفرصة ، أثناء حكم الأسرة العاشرة فى أهناسيا لتكوين اتحاد مع جيرانهم الأقربين ، ليخوضوا فى أعقاب تكوينه صراعا عنيفا ضد حكام أهناسيا وأعوانهم فى الشمال من أجل توحيد أقاليم مصر كلها تحت زعامتهم . وقد استمر ذلك النضال حوالى ٨٠ عاما حتى خلص الأمر نهائيا لحكام طيبة وأصبحوا يحكمون البلاد دون منازع مكونين ما يسمى بالأسرة الحادية عشرة أو أولى أسرات الدولة الوسطى .

ومؤسس حكم البيت الطيبى (أو الأسرة الطيبية نسبة إلى عاصمتهم طيبة) هو « انيوتف » الذى خلفه عدة أمراء أهمهم منتوحتب الثانى . ويعتبر هذا الفرعون أهم ملوك هذا البيت ، إذ أنه هو الذى نجح فى توحيد أقاليم مصر جميعها تحت حكمه بعد أن قضى على قوة أهناسيا ، ولذلك استحق أن يلقب بـ « ملك مصر السفلى والعليا » (عام ٢٠٥٢

(١) مصر الفرعونية ، ص ١٥٠ ــ ١٥٤ .

ق . م) وقد أعقب ذلك قيامه بحملات عسكرية لتأمين حدود مصر الشرقية والغربية ضد غزوات البدو القاطنين فوق الرمال وترك للأمراء الاستقلال فى حكم أقاليمهم فى مقابل الضرائب والولاء للحاكم الجالس على عرش مصر .

وقد اختار منتوحتب الثانى ، منطقة الدير البحرى « البر الغربى للأقصر » ليقيم فيه معبده الجنزى ومقبرته الأبدية ، وعلى جانبى الطريق الصاعد لهذا المعبد جهزت مقابر موظفى ذلك العهد الذى طال حتى بلغ ٥١ عاما ، وقد أعقب هذا الملك فى حكم مصر بعض الملوك منهم منتوحتب الثالث ومنتوحتب الرابع . وأهم الأحداث المرتبطة بأواخر هذه الأسرة هو إرسال بعثة من ١٠,٠٠٠ رجل بقيادة شخص اسمه أمنمحات إلى وادى الحمامات لقطع بعض الأحجار اللازمة للأعمال الإنشائية ، ثم يعقب ذلك بعض الأحداث التى تنتهى باستيلاء ملك جديد على عرش مصر وتأسيس أسرة جديدة نقلت العاصمة من الجنوب إلى الشمال .

(ب) الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ ـ ١٧٧٨ ق . م) :

تعاصر هذه الأسرة أحداثا عظاما وقعت على أرض الرافدين والشام ومصر والحجاز . ففى هذا العصر ولد إبراهيم عليه السلام تقريبا (١٩٤٠ ق . م) وبعث على أرض الرافدين ، وأثناءه أيضا نجى الله إبراهيم عليه السلام إلى بلاد الشام (١٨٥٠ ق . م) . تقريبا وفى أثنائها زار إبراهيم وزوجه سارة مصر ، حيث أخدمها حاكم مصر فى ذلك الوقت هاجر . وأثناءها رزق إبراهيم عليه السلام بإسماعيل عليه السلام ، وانطلقا مع هاجر إلى بلاد الحجاز إلى جوار بيت الله العتيق .

وقد ذكر الإمام الحافظ ابن كثير أن بعض أهل التواريخ قد ذكروا أن فرعون مصر الذى على عهده زار إبراهيم عليه السلام مصر كان أخا للضحاك الملك المشهور بالظلم وكان عاملا لأخيه على مصر . ويقال كان اسمه سنان بن علوان بن عبيد بن عويج بن عملاق بن لاود بن سام بن نوح [(١)] ، وهذه المعلومات تحتاج إلى تحقيق بالمقارنة مع ماورد من أسماء فراعنة هذه الأسرة .

كانت عاصمة البلاد فى « أثت تاوى » أى القابضة على الأرضين على مقربة من

---

(١) البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ٥٢ .

العاصمة القديمة منف ، ومؤسس هذه الأسرة هو :

أمنمحات الأول (حكم ٣٠ عاما) : لقد وجه هذا الملك جهوده إلى الاهتمام بالشئون الداخلية والخارجية للبلاد مع مد نفوذه إلى مصر حنوبا ، كما قام بتشييد الحصون على حدود الدلتا الشرقية والغربية . كما نشط فى عهده استغلال المناجم والمحاجر ، وكذلك نشطت التجارة الداخلية ، وقد أبقى هذا الملك لأمراء الأقاليم استقلالهم على أن يدينوا بالولاء للملك الجالس على العرش . وأن يمدوا خزانته بالضرائب والأموال اللازمة لعمارة البلاد وحمايتها من أى خطر أجنبى .

وقد اغتيل[1] هذا الملك فى قصره أثناء غياب ابنه وولى عهده وشريكه سنوسرت الأول فى حملة على ليبيا . وقد أقيمت مقبرته على هيئة الهرم فى منطقة اللشت بالقرب من الفيوم إحياء للتقليد القديم لملوك الأسرة الرابعة .

وقد أعقب هذا الملك عدة ملوك أهمهم :

سنوسرت الأول الذى حكم ٤٤ عاما ويرتبط بعهد هذا الملك ما نقله لنا الدكتور[2] صالح فيما يختص بما ذكره المؤرخون الإغريق والرومان هيرودوت وديودور واسترابون وبلينى عن قناة تصل بين النيل والبحر الأحمر وتبدأ من الفرع البوباسطى للدلتا شمالى الزقازيق بقليل ثم تمتد خلال وادى الطميلات حتى تنتهى إلى البحيرات المرة ، ونسب بلينى أقدم مشروع لهذه القناة على عهد الفرعون سيزُوستريس . ورأى البعض من المؤرخين المحدثين ومنهم جيس هنرى برستد أن سيزوستريس هذا لم يكن غير سنوسرت الأول وأن القناة بدأت فى أيامه .

ومن ملوك الأسرة الثانية عشرة أيضا أمنمحات الثانى ثم سنوسرت الثانى الذى كرس جزءا كبيرا من جهده لعمل مشروعات رى كبيرة فى مديرية الفيوم ، كما أقام مجموعته الهرمية باللاهون . ولم يزد حكم هذا الملك على تسعة أعوام ليعقبه على العرش ابنه سنوسرت الثالث الذى زادت فترة حكمه على ٣٨ عاما . وأهم أعماله هو حملاته الحربية لتأمين حدود مصر

---

(١) أمكن معرفة بعض تفاصيل هذا الخبر من بردية شخص يسمى سنوهى ، وبردية أخرى تعرف باسم وصايا أمنمحات لابنه ، وهى تشير إلى أن اغتياله ربما كان نتيجة للتنافس على العرش بين أفراد الأسرة ، مصر الفرعونية ص ١٧٠ وما بعدها .

(٢) الشرق الأدنى القديم ، ص ١٧٠ .

الجنوبية والشرقية ، وذلك بالإضافة إلى التقليل من نفوذ حكام الأقاليم الذين صاروا منذ عهده مجرد موظفين عاديين .

وخلف هذا الملك ابنه امنمحات الثالث الذى اتصف عهده بالرخاء والطمأنينة وقد بنى هذا الملك مجموعته الهرمية عند بلدة هوارة بإقليم الفيوم .

ولقد قامت السياسة الخارجية لعصر الأسرة الثانية عشرة على أساس تغليب علاقات الود مع الدول المجاورة فى الشام والعراق وجزر بحر إيجه .

أما السياسة الداخلية فقد قامت على أساس توطيد النفود وتوسيع الإشراف والاستثمار على امتداد الحدود فى الغرب والجنوب أى فى ليبيا والنوبة مع إيثار السلام المسلح القائم على اليقظة وتحصين الحدود .

وفى نهاية حكم هذه الأسرة تعرضت البلاد لكثير من الاضطرابات الداخلية والخارجية ، وبدأ عصر جديد تسميه مراجع التاريخ عصر الفترة الثانية .

٥ ــ عصر الفترة الثانية
من الأسرة الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة
(١٧٨٠ ؟؟ ــ ١٥٦٧ ؟؟ ق . م)

وأثناء هذه الفترة : كان يعيش إبراهيم ولوط عليهما السلام على أرض الشام ، وأثناؤها ولد إسحاق ويعقوب عليهما السلام ، وأثناؤها رزق يعقوب عليه السلام بأبنائه الاثنى عشر ، ومنهم يوسف عليه السلام الذى بعث إلى شعب مصر يدعوهم إلى الإسلام .

وسنعرض لما ورد فى مراجع التاريخ القديم عن هذه الفترة ، وهى تعالج تاريخ هذه الفترة بمعزل من التصور الإسلامى.

الأسرتان الثالثة والرابعة عشرة (١٧٨٠ ــ ١٦٨٠ ق . م) :

يطلق المؤرخون على هذا العصر أسماء منها : عصر الإقطاع الثانى ، وعصر الاضمحلال الثانى وعصر الانتقال الثانى وعصر اللامركزية الثانى ويعزى المؤرخون التغيير الشامل الذى أصاب البلاد إلى ظهور أعداء لمصر فى سوريا وفلسطين والسودان ، كما يعزيه البعض الآخر إلى ازدياد سطوة حكام الأقاليم ، وازدياد المؤامرات داخل البيت المالك على

العرش ، وذلك غير هجمات الشعوب الهندواوربية التى بدأت تجتاح بلاد الشرق الأدنى القديم منذ عام ٢٠٠٠ ق . م [١].

لقد أصبحت مصر فى ذلك الوقت مفككة الأوصال ، وادعى كل حاكم أحقيته بالملك ، وأنه حاكم الشمال والجنوب ، فقد كان هناك بيت حاكم فى طيبة ، وبيت حاكم فى قفط ، وآخر فى أسيوط ، ولكن أهمها هو البيت الذى حكم فى منف فى الشمال ، وهو مايطلق عليه اسم الأسرة الثالثة عشرة ومن ملوكها نحسى الذى كان يحمل لقبا « حبيب سيد أورايس » ، مما دفع البعض إلى القول بأنه كان ذا صلة بحكام الهكسوس الذين بدأوا فى الاستقرار فى شرق الدلتا فى أواسط أيام هذه الأسرة .

وفى عهد هذه الأسرة كانت حدود مصر الجنوبية تمتد إلى مابعد الشلال الثانى عند حصنى سمنة وقمة . وقد عثر على اسم أحد ملوكها وهو خع سخم رع (نفر حوتب) على بعض آثار وادى حلفا فى الجنوب ، كما عثر على نصب فى فينيقيا بالشام يصور يوناثان أمير جبيل جالسا أمام شخص عظيم تشير النصوص المتبقية إلى أن اسمه نفر حوتب .

أما ملوك الأسرة الرابعة عشرة فقد كان مقر حكمهم فى مدينة « سخا » فى غرب الدلتا ، وهناك احتمال أنها بدأت حكمها أثناء حكم ملوك الأسرة الثالثة عشرة ولكنها استمرت فترة أطول بمنأى عن سطوة الهكسوس الذين سيطروا على شرق الدلتا ، بينما استمر نفوذ البيوت الحاكمة فى طيبة وجزء كبير من الصعيد .

وأعقب تلك الحقبة ، الأسرة الخامسة عشرة وهى التى فيها اجتاحت مصر جموع الهكسوس .

شغل حكم الهكسوس وغطى حوالى مائة عام وثمانية ، وأن بدء حكمهم يقع بين أعوام ١٧٣٠ و ١٧٢٥ ق . م وقد سمى أحد حكامهم ساليتيس الذى اتخذ أفاريس فى شرق الدلتا عاصمة جديدة . ومن أسماء حكامهم أيضا « يعقوب حر » أى يعقوب آت [٢] .

وقد قسم المؤرخون ملوك الهكسوس إلى ثلاث أسرات : الخامسة عشرة والسادسة

---

(١) المعلومات مأخوذة عن حضارة مصر الفرعونية تأليف الأستاذ الدكتور أحمد فخرى ، ص ١٩٢ ومابعدها .

(٢) تراث العالم القديم ، حـ ١ ، ص ٣٣ .

عشرة والسابعة عشرة .

ولكن من هم الهكسوس؟

أقدم ما قيل عن أصل الهكسوس ــ كما يقول الدكتور أحمد فخرى ــ هو ما نقله المؤرخ اليهودى يوسيفوس [1] الذى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد عن مانيتون : « فى عهد الملك توتيمايوس ولا أدرى السبب فى ذلك ، أصابتنا ضربة من الله ، ودون أن نتوقع ذلك جاءنا غزاة من جهة الشرق من أصل مجهول ساروا تملؤهم الثقة فى النصر ضد بلادنا وتمكنوا بقوتهم من الاستيلاء عليها بسهولة دون ضربة واحدة ، وبعد أن تغلبوا على حكام البلاد ، حرقوا مدننا دون رأفة ، وهدموا معابد الآلهة من أساسها »[2] .

كما أشارت الملكة حتشبسوت فى معبدها فى بنى حسن إلى الهكسوس بقولها « لقد أقمت ما كان قد تداعى ، وكذلك ما كان قد تهدم ، فى الوقت الذى كان فيه الآسيويون يحكمون فى أواريس فى الشمال وكانوا بجحافلهم المتجولة يعيثون بين الناس فسادا محطمين ما كان قائما . إنهم كانوا يحكمون دون اعتراف بسلطان رع ، وكان رع لا تتعدى له إرادة إلهية حتى جاء عهدى العظيم » [3] .

ويضيف الدكتور فخرى « بأن فى أسمائهم يغلب الأسماء السامية ، وأن كلمة الهكسوس كلمة مصرية وهى تحريف للقب هو حقا خاسوت أى حاكم البلاد الأجنبية وكان لقبا يطلقه المصريون على زعماء القبائل البدوية التى كانت تعيش فى شرق مصر . ونراه مكتوبا فوق منظر مجيء البدو الساميين فى إحدى مقابر بنى حسن كما جاء أيضا فى قصة سنوهى أثناء حديثه عن إقامته بين بدو لبنان وسوريا . ولا جدال فى أن هؤلاء الهكسوس جاءوا من طريق فلسطين وربما كانت جحافلهم المختلطة مستقرة هناك قبل مجيئهم إلى مصر »[4] .

---

(١) ويذكر أن الهكسوس كانوا يهودا وأنهم كانوا ملوكا ذوى سلطان وجاه وحضارة وأنهم ذو تاريخ ومجد (مصر الفرعونية ، ص ٢٠٢) . وهذا الزعم لا دليل عليه ، وإن كان يشير إلى أن التاريخ قد عبث به المزورون لخدمة مخطط اليهود .

(٢) حضارة مصر الفرعونية ، ٢٠٢ .

(٣) حضارة مصر الفرعونية ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ ، ويذكر الدكتور أحمد فخرى أن لوحة كارنارفون (لوحة الكرنك الجديدة أو بردية ساليه رقم ١ تنعت الهكسوس بأنهم أسيويين) .

وتجمع المصادر المصرية أن الهكسوس أذلوا مصر وخربوا معابدها[1] ، وبالإضافة إلى ذلك فقد وردت كلمة لمستشارى الملك كامس — على لوحة من الحجر الجيرى (لوحة كارنارفون) — حينما طلب منهم الرأىَ فى رغبته طرد الآسيويين من قصره لأنهم يشاركونه السلطان ، وهو يريد أن ينفرد بالسلطان قالوا : « انظر ! إن منطقة الآسيويين تمتد حتى القوصية ، ثم حركوا ألسنتهم وقالوا بصوت واحد : ولكنا فى طمأنينة ونحكم مصرنا والفنتيننا بخير ، وجميع البلاد حتى القوصية إلى جانبنا والرجال يحرثون لنا أراضينا ، وترعى ماشيتنا فى الدلتا ، ويأتينا الشعير علفا لخنازيرنا . لم يأخذ أحد ماشيتنا غصبا ولم يعتد علينا معتد . إنه يتملك على أرض الآسيويين ونحن نتملك على أرض مصر أما إذا جاءنا أحد واعتدى علينا فإننا سنقاومه » .

ونخرج من العرض السابق بالملاحظات التالية :

١ — أن الهكسوس هم من البدو[2] الذين كانوا يشتغلون بالرعى إلى الشرق من مصر (بلاد الشام) .

٢ — أن هؤلاء الرعاة كانوا لا يعترفون بسلطان الوثن « رع » وأنهم خربوا معابد الأوثان .

٣ — أن ماأصاب مصر ، من تمكين الرعاة الأجانب ، وإذلال فراعنتها كانت ضربة من الله موجهة ضد حكام مصر .

٤ — أن هنالكَ حقبة من الزمان أحست فيها البلاد بالأمن وبالاستقرار والرخاء فى ظل حكم الرعاة ، بحيث لم يجدوا ضرورة للتحارب معهم .

وتعاصر الأسرة الأخيرة (السابعة عشرة) من ملوك الهكسوس ملوك طيبة الذين أخذوا على عاتقهم القضاء على نفوذ الهكسوس فى مصر .

وقد تحقق لفراعنة طيبة ما أرادوا على أيدى الملك سقنرع وأخيه أحمس اللذين نجحا فى طرد الهكسوس حتى مدينة شاروهن القديمة جنوبى غزة .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٤ الشرق الأدنى ، جـ ١ ، ص ١٨٨ .

(٢) وهذا يؤكد الافتراض القائل بأن رسالة يوسف عليه السلام وموضوعها الكفر بالطاغوت والإيمان بالله قد كانت فى عصر الفترة الثانية . إذ أنه جاء من « البدو » وأبوه وإخوته وأهله ، وترتب على قبول دعوته القضاء على سلطان الوثن « رع » ، ولا شك أيضا أن البلاد تحس بالاستقرار فى ظل القيادة المسلمة ، ولذلك فلا عجب أن يرفض شعب مصر قتال الملوك والرعاة .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٠٨ — ٢١٠ .

الفصل الثانى

بعثة يوسف عليه السلام

المبحث الأول

حالة المجتمع المصرى
من الناحية السياسية والعقدية والاجتماعية
في عهد الهكسوس (الملوك الرعاة)
وقبل بعثة يوسف عليه السلام
على أرض مصـــر

حينما وصل يوسف ــ عليه السلام ــ إلى أرض مصر وهو فتى صغير ، كانت مصر محكومة بمن أسماهم كتاب التاريخ « الهكسوس » ، وكان على رأس الدولة المصرية حينذاك ملك[١] ، يليه مباشرة رئيس الوزراء ، الذى أطلق عليه القرآن الكريم لفظة « العزيز »[٢] .

أما من الناحية العقدية فقد كان الشرك بالله متفشيا في المجتمع المصرى حينذاك ، وقد ترتب على ذلك الفساد في عقيدة الناس ، التوجه بالعبادة لأرباب من دون الله ، لا تنفع ولا تضر ، اخترع لها الناس أسماء من عندهم[٣] .

---

(١) والدليل على ذلك قول الله عز وجل : ﴿ **وقال الملك : إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يا أيها الملأ أفتوني في رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون** ﴾ يوسف : ٤٣ .

(٢) كما ورد في قول الله تعالى : ﴿ **وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حبا ، إنا لنراها في ضلال مبين** ﴾ . يوسف : ٣٠ .

(٣) نلمح ذلك في قول يوسف عليه السلام للفتيين المصريين (خباز الملك وساقي الملك) في السجن : ﴿ **يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل**

وقد ترتب على هذا الفساد في العقيدة أيضا انحرافات خطيرة ، في مجال السلوك والأخلاقيات ، لقد تغلغل الفساد في حياة المجتمع ، فالمرأة في ذلك العصر ، وهي زوج رئيس الوزراء ـــ المفروض أنه القدوة والأسوة ـــ لا ترى حرجا في الاختلاط بالرجال ، ولا حرج في أن تزين لأحدهم الفاحشة . ولقد جاء ذلك دليلا لا يقبل الشك ، على عدم انضباط الحياة مع نظام الله وشرعه ، لأن الإسلام يمنع الاختلاط ، ويمنع الخلوة بين الرحل والمرأة الأحنبية ، لأن ذلك مدخل من مداحل الشيطان إلى الزنا .

وهذا الأمر يعكس لنا تقصيرا من قبل رب الأسرة الذى كان من الواجب عليه أن لا يسمح بمخالفات شرعية تقع تحت سقف بيته ، وأن عليه أن يربي أهل بيته على الالتزام بأوامر الله . فها هي زوجة العزيز (رئيس ورراء مصر) تراود فتاها (يوسف عليه السلام) عن نفسه[1] ولم يقف الأمر عند هذا التصرف الشخصى من زوجة مسؤول كبر في المجتمع ، بل إن المحتمع المصرى ذاته لم يكن يستنكر هذه الجريمة، بدليل موقف نساء المجتمع لدى سماع دلك الخبر ، بل وموقف العزيز نفسه ، وكان في الإمكان أن يكون تصرف امرأة العزيز ـــ وهي زوحة أكبر مسؤول في الدولة ، وهو رئيس الوزراء ـــ نزوة عارصة في لحظة ضعف ، ثم تكون التوبة والندم . ولكن ما حدث يؤكد غير ذلك ، إن امرأة العزيز قد زين لها الشيطان الحرص على ارتكاب الفاحشة مهما كان الأمر ، ليس هذا فحسب ، ولكن الحرص أيضا على حر غيرها إلى هذه المعصية ، والأدهى من ذلك تبرير الفعلة داتها وعدم استنكارها « **إنه من كيدكن** » .

وحينما تحدث النسوة[2] عن هذه المحاولة من قبل امرأة العزيز أرسلت إليهن تدعوهن إلى وليمة لتوقعهن فيما وقعت فيه ، وقالت ليوسف : ﴿ **اخرج عليهن** ﴾[3] .. ﴿ **فلما**

= **الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ . (يوسف ٣٩ ، ٤٠) ، الجامع لاحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٦٢ ـــ ١٦٣ .

(١) ﴿ **وراودته التي هو في بيتها عن نفسه** ﴾ (يوسف : ٢٣) ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٦٢ ـــ ١٦٣ .

(٢) ﴿ **وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين** ﴾ (يوسف : ٣٠) .

(٣) ﴿ **فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئاً وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن** ﴾ . (يوسف : ٣١) .

رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذلكن الذى لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾[(١)] .

هكذا إصرار وخلع لجلباب الحياء ، وهي صورة مكرورة في مجتمعات كثيرة قديمة ومعاصرة ، بين نساء من يسمون بالطبقة الراقية في المجتمعات ، يحاصرن الرجال الأجانب ويلقين بأنفسهن بين أحضانهم ، بل وتلتقي الشفاه بالشفاه في غير حجل ولا حياء ، بل ووصل التدني ببني البشر في مجتمعات كثيرة معاصرة ، الى حد اعتبار الزنى والشذوذ نوع من الحرية الشخصية ، لأى شخص أن يمارسها ، تحت سمع وبصر الدولة ، بل وبتصريح منها . إنها ارتكاسة لا أقول إلى عالم الحيوان ، فالحيوان منه ما هو أشرف وأطهر ، ولكن أقول إلى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان : **﴿ إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا ﴾**[(٢)] .

وترتب على فساد العقيدة أيضا ، فساد آخر لا يقل خطورة عن الفساد الأول وهو غياب العدل عن حياة المجتمع ، فها هو يوسف عليه السلام يغيب في ظلمات السجون ، وهو برىء مما نسب إليه ، يدخل السجن بسبب طهارته ، وبسبب أمانته ، لقد كان حريصا على أن لا يدنس عرض سيده ، الذى أكرم وفادته ، والذى قال لامرأته : **﴿ أكرمي مثواه ﴾**[(٣)] ، ولكن المسألة في عرف الكبراء ، وفي عرف الملأ ليست مسألة العدالة وإنما المسألة ستر الظواهر : **﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾**[(٤)] ولا يهم أن يذهب شخص برىء مثل يوسف إلى السجن : **﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾**[(٥)] .

شيء عجيب ، لا نستغربه ، إذا فسدت عقيدة الناس ، وإن كان ما يحدث في عصرنا أعجب ، إن الإجرام لا يقف عند حد ملء السجون بالأبرياء ، ولكن يذهب إلى

---

(١) يوسف : ٣١ ــ ٣٢ . أورد الإمام القرطبي : « ذلكن الحب الذى لمتني فيه ، ثم أقرت وقالت **﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾** أى امتنع ، ثم راودته المراودة بمحضر منهن ، وهتكت جلباب الحياء ، ووعدت بالسجن إن لم يفعل ، وإنما فعلت هذا حين لم تخش لوما ولا مقالا » الجامع لأحكام القرآن ، حـ ٩ ، ص ١٨٣ ــ ١٨٤ .

(٢) الفرقان : ٤٤ .

(٣) **﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته : أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ﴾** . (يوسف : ٢١) .

(٤) يوسف : ٢٩ . (٥) يوسف : ٣٥

أبعد من ذلك ، وهو ملء بطن الأرض ، بالقتلى ظلما وعدوانا .

وإذا افتقد الناس العدل ، فهذا نذير بلاء شديدٌ ينزل بالأمة .

« إنّما أهلك من قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » (١) .

والشيء الذى يثير التساؤل والعجب ، أن يبقى يوسف في السجن ، دون محاكمة ، ودون أن يسأله أحد لماذا سجن ، أو يسأل عنه أحد أين هو ؟ ولماذا وضع في السجن ؟ وما هي جريمته ؟ وإلى متى يبقى ؟ وهى صورة لما وقع ويقع في عالمنا المعاصر ، كم من المسلمين الأبرياء يغيبون في ظلمات السجون أعواما وأعواما دون محاكمة ، ودون استشعار لرحمة ، ودون خوف من الله أو من الناس ، بل وتحت سمع وبصر الشياطين الكثيرين الذين يسمون ببني البشر ، بل وباسم قوانين وضعوها من عندهم تقنن الظلم ، وتُحَكِّم الإنسان في رقبة بني الإنسان .

وترتب على فساد العقيدة أيضا انحراف خطير وهو : عدم الغيرة على العرض ، أو الغيرة على الشرف ، وتعطيل الحدود ، فالزنا ، وعمل كل ما يؤدى إليه ، جريمة تستوجب إقامة الحد ، واتهام إنسان ظلما وعدوانا بجريمة حدها الرجم ، يعتبر قذفا دون بينة تستوجب إقامة الحد . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . فها هو عزيز مصر لا يجد فيما حدث من قبل زوجته ما يشكل جريمة ، تستلزم إقامة الحدود ، أو حتى التوبيخ أو الإنكار ، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك ، إنه برّر ذلك وأعزاه إلى الجنس : ﴿ **فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين** ﴾ (٢) .

وهنا نتساءل أين كان راعي الأمة ؟ أين الجالس على العرش ؟ أين الذى وُضع في عنقه مسؤولية رعاية الأمة ؟ ألم يكن من الواجب عليه تربية الأمة على الإسلام ، ألم يكن من

---

(١) متفق عليه .

(٢) يوسف : ٢٨ ـــ ٢٩ ، أورد الإمام القرطبي في التفسير : « وإنما قال : عظيم ، في قول الله تعالى : ﴿ **إن كيدكن عظيم** ﴾ ، لعظم فتنتهن واحتيالهن في التخلص من ورطتهن وقال مقاتل : عن يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ **إن كيد الشيطان كان ضعيفا** ﴾ . وقال : ﴿ **إن كيدكن عظيم** ﴾ » .

الواجب أن يُعرِّف الأمة معالم دينها ومعالم الحلال والحرام ، ألم يكن من الواجب عليه أن يتتبع أحوال الرعية ، ويبحث عن المظلوم فيرد إليه مظلمته ، ويبحث عن الظالم فيقتص منه ؟ ألم يكن من الواجب عليه أن يحاسب رئيس وزارته ، ألم يكن من الواجب أن يستنكر الرذائل المتفشية في المجتمع ؟ ألم يكن من الواجب أن يفتش على السجون ليرى البرىء والمظلوم ؟ هل نسي أن الحكم أمانة ، وأنهايوم القيامة خزى وندامة .

ولكن الرجال الأطهار الشرفاء ، رغم قسوة السجن وظلماته ، ورغم المعاناة كانوا يصرون على التمسك بمبادئهم ، لأنهم على ثقة مِن أن الله لن يتركهم وشأنهم نهبا للطواغيت ، وأنه لن يترك الطواغيت دون عقاب ، وأنه لابد وأن تأتي لحظة إن لم يكن في الدنيا ، ففي الآخرة ، يقتص الله للمظلوم ممن ظلمه ، حتى إنه ليقتص من الشاة القرناء للشاة الجلحاء .

إن الشرفاء ، يفضلون السجن وظلماته على الانغماس في الرذيلة ، أو ارتكاب الفاحشة : ﴿ **قال رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه** ﴾[1] .

ومن الانحرافات التي كان يعج بها المجتمع المصرى حينذاك ، « شرب الخمر » . لقد كان الخمر سلعة رائجة ، لا حرج في تحضيرها وبيعها وشرائها ، ورئيس الدولة يشرب الخمر ، والناس على دين ملوكهم ، بل والملوك حريصون على إغراق الناس في متاع فاجر لا حد له ، حتى لا يفيقون على هول ما يدبّر بشأنهم [2] .

وحينما زاد الفساد وفسدت العقيدة عز وجود الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، وإلا فأين الذين جرَّموا الزنى ، وأين الدين استنكروا الظلم الذى يقع على الأبرياء ، لا نجد لذلك أثرا ، حينما أُرْسِل شخص كيوسف ـــ عليه السلام ـــ إلَى السجن دُونَ ذنب جناه .

وحينما فسدت العقيدة أيضا ، فسد النظام الحاكم ، فالملك لا يحس بمعاناة الرعية ، ورئيس الوزراء سادر في غيه ، والرعية لا تأبه لما يحدث حولها .

وفي ظل هذه الظروف ، فيما يسمى بعصر الهكسوس وصل يوسف عليه السلام

---

(١) يوسف : ٣٣ .

(٢) ﴿ **ياصاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا** ﴾ يوسف : ٤١ .

إلى أرض مصر .

ولا يعني ذلك أن هذه الظلمات ليس لها من دون الله كاشفة ، فقد كشف الله الغمة ، وأنعم بالنعمة ، وبعث يوسف — عليه السلام — إلى مصر ، ليقذها مما هي فيه .

لقد تعرفنا على أحوال المجتمع المصرى ، حينما وصل يوسف عليه السلام إلى أرض مصر ، ولعل ذلك من قدر الله عز وجل أن يصل يوسف — عليه السلام — ويعاني منذ اللحظة الأولى لوصوله ، هذه المعاناة كانت ليؤحر ، وترفع درجته ، وليتعرّف على الأمراض التي يعانى منها المجتمع ، لأنه قد سبق في علم الله ، أنه سيكون معالجا لأمراض هذه الأمة ، والطبيب المعالج لابد وأن يتعرف على الداء ومسبباته ، ثم يسعى إلى تشخيص الدواء .

لقد أدرك يوسف عليه السلام أن الذى نزل بالأمة من بلاء كان نتيجة طبيعية لشركها بالله عز وجل ، واتخاذها أربابا من دون الله ، وعدم إخضاع الحياة لنظام الله وشرعه . ومن هنا كان تشخيص يوسف للدواء ، الذى يخلص الأمة من سقمها بإذن الله ، إن هي أقبلت على الله ، واستسلمت له في شؤون حياتها كلها ، الصغيرة والكبيرة .

لقد أعلنها يوسف عليه السلام مدوية : ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[1] .

لابد من الاستسلام الكامل لله عز وجل فى كل شيء : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة** ﴾[2] .

لقد بيّن يوسف عليه السلام أن علاج أمراض هذه الأمة يكمن في عودتها إلى ربها ، في صلاح عقيدتها ، في خضوع حياتها السياسية والاقتصادية والسلوكية والتعليمية والثقافية ، كلها لنظام الله وشرعه .. ﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾ في كل شيء .

ثم بيّن للأمة أن الإيمان بالله لابد وأن يسبقه الكفر بالطاغوت : ﴿ **إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾[3] .

---

(١) يوسف : ٤٠ .　　(٢) البقرة : ٢٠٨ .　　(٣) يوسف : ٣٧ — ٣٨ .

المبحث الثانى

رسول كريم يدعو شعب مصر إلى الإسلام

رسالة يوسف عليه السلام

فى عصر الملوك الرعاة [1]

إلى من ينتسب يوسف عليه السلام ؟ من أين أتى ؟ وأين كان ينزل ؟ بأى دين كان يدين ؟ كيف وأين نشأ ونما حتى أصبح نبيا رسولا ؟ وما هي الابتلاءات التي تعرض لها ؟ ما هو موضوع دعوته ؟ ما هو موقف القوم من دعوته ؟ كيف أصبح عزيزا لمصر ؟ وما هى المهمة التي أداها على الوجه الأكمل حينما كان في موقع المسئولية لشعب مصر والشعوب المجاورة ؟ وما هي حقيقة العلاقة التي كانت تربط مصر ببلاد الشام في ذلك الوقت ؟ وما هي الظروف التي وصل أثناءها والد يوسف عليه السلام وإخوته ؟ وما هي أهم المعالم التي ترسبها سيرة هذا النبي الكريم في حياة الأمة الإسلامية ؟

نسب يوسف عليه السلام :

يوسف عليه السلام نبي كريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم [2] كما وصفه نبى الله محمد ﷺ ، وهو ابن يعقوب (إسرائيل) بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، فهو من سلالة قدّر الله سبحانه وتعالى أن يكون منهم الأنبياء والرسل والملوك ﴿ **وجعلناهم أئمة ..** ﴾ [3] وأنعم عليهم بالكتاب والحكم والنبوة : ﴿ **أولئك الذين آتيناهم الكتاب**

(١) عصر الفترة الثانية فى تاريخ مصر منذ أقدم العصور .

(٢) قال رسول الله محمد ﷺ : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » . رواه البخارى ، وسئل رسول الله ﷺ : أى الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » . قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله » . رواه البخارى .

(٣) الأنبياء : ٧٣ .

والحكم والنبوة ﴾ [1] ، وجعلهم قدوة وأسوة ﴿ **أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده** ﴾ [2] .

ميلاده على الأرض المباركة :

وقد ولد يوسف عليه السلام على الأرض المباركة ، « بيت المقدس » وسورية وفلسطين « التي ولد عليها من قبل أبوه يعقوب وجده إسحاق ، عليهما السلام ، والتي وصل إليها جده الأكبر إبراهيم عليه السلام بعد أن أنجاه الله من محاولة قتله بالنّار . وكان ليوسف أحد عشر أخا بعضهم لأبيه وأحدهم لأمه ، **هؤلاء جميعا ومنهم يوسف كانوا يدينون بالإسلام** [3] .

وعلى أرض الشام ، وبجوار بيت المقدس ، وفي منتصف القرن السابع عشر قبل الميلاد تقريبا ، كان **يعيش يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام مع أبنائه** الاثنا عشر ، ومنهم يوسف عليه السلام .

يوسف يقص رؤياه على والده :

وذات صباح استمع يعقوب عليه السلام لابنه يوسف ، وهو يقص عليه رؤيا ، شاهد أحداثها في منامه : ﴿ **إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين** ﴾ [4] .

فبشر الأب ابنه ، بأن الله سبحانه وتعالى سيصطفيه ، ويعلمه من ﴿ **تأويل الأحاديث** ﴾ [5] ﴿ **ويتم نعمته** ﴾ عليه وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويه من قبل

---

(١) الأنعام : ٨٩ ، تفسير القرآن العظيم ، حـ ٢ ، ص ١٥٤ ــ ١٥٦ .

(٢) الأنعام . ٩٠ .

(٣) فإبراهيم عليه السلام : ﴿ **إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين** ﴾ . ويعقوب عليه السلام نبي مسلم : ﴿ **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ ، ﴿ **أم كنتم شهداء إذْ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون** ﴾ ، ويوسف عليه السلام نبي مسلم ﴿ **رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين** ﴾ .

(٤) يوسف ٤ .

(٥) أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد ، فهو إشارة إلى النبوة ، وهو المقصود بقوله . ﴿ **ويتم نعمته عليك** ﴾ أى .=

﴿ **إبراهيم وإسحاق** ﴾ .

وفي نفس الوقت حذر يعقوب عليه السلام ابنه يوسف من أن يقص هذه الرؤيا على إخوته فيكيدوا له كيدا بإيعازٍ من الشيطان اللعين : ﴿ **إن الشيطان للإنسان عدو مبين** ﴾[١] .

﴿ **إن ربك عليم حكيم** ﴾[٢] ، عليم بما يعطي العباد ، حكيم في فعله بهم . وفي يوم ما ، يجتمع إخوة يوسف — ويقررون الخلاص منه : ﴿ **إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين** ﴾[٣] .

واجتمع إخوة يوسف ، وطرحوا قرارهم بضرورة قتل أخيهم يوسف أو إبعاده عن البلاد ، والسبب — في تصورهم — أن يوسف أحب إلى أبيهم منهم ، ووافق الإخوة على الجزء الأخير من القرار ، وقرروا إلقاء يوسف فى بئر عسى أن يلتقطه بعض المسافرين فيصحبوه معهم بعيدا عن أرض الشام .

ولتنفيذ قرارهم تحايلوا على أبيهم ، ليسمح لهم باصطحاب أخيهم يوسف معهم ، ووافق الأب ، وخرج معهم يوسف ، فألقوه في الجب تنفيذا لقرارهم . وفي اللحظة التي

= بالنبوة . (الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٢٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٦٩) وذلك يعني أن النبوة اختيار واصطفاء من الله لعبيده .

(١) يوسف : ٥ (٢) يوسف : ٦

(٣) التفكير في قتل الأخ لأنه أحب إلى أبيهم منهم ، هكذا يلبس الشيطان الأمر على أبناء يعقوب عليه السلام ، المأخوذ عليهم العهد من أبيهم : ﴿ **فلا تموتن إلّا وأنتم مسلمون** ﴾ ، والعجيب أنهم يدبرون القتل ، ثم يتصورون بعد ذلك أنهم سيكونون قوما صالحين ، إنّ الحسد قد حجب عن ضمائرهم بشاعة الجريمة التي يقدمون عليها ، ولقد وعى رسولنا محمد ﷺ أهمية هذا التوجيه ، فرأى توجيه أمته إلى ذلك ، ففي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه سئل أي المسلمين أفضل ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : « المسلم أخو المسلم ، فلا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يَبِعْ بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره ، التقوى هاهنا — ويشير إلى صدره ثلاث مرات — بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه » .

ألقي فيها يوسف في البئر نزل عليه جبريل — عليه السلام — ليؤنس وحشته :

﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم[1] بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾[2] .

إخوة يوسف يكذبون على أبيهم :

وفي المساء رجع إخوة يوسف إلى أبيهم ، وهم يتصنعون البكاء : ﴿ **قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق [3] وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين** ﴾[4] ، كما قدموا لأبيهم قميصا ليوسف عليه دم مكذوب .

مادا يفعل الأب ؟ لقد كشف لهم عن فعلتهم ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمرا** ﴾ ، ثم أعلن استسلامه لله رب العالمين : ﴿ **فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون** ﴾[5] .

إنقاذ يوسف عليه السلام ، وبيعه إلى عزيز مصر :

وشاءت إرادة الله أن تمر ، بالقرب من البئر التي ألقى فيها يوسف ، رفقة مارة يسيرون من الشام إلى مصر ، فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه : ﴿ **قال يا بشرى هذا غلام ، وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون** ﴾ [6] .

وفي مصر ، ولقدر يعلمه الله عز وجل ، بيع يوسف عليه السلام : ﴿ **بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين** ﴾ [7] .

---

(١) رغم أن يوسف مبشر بالنجاة ، وبالتمكين إلا أنّه احتاج في محنته إلى التثبيت ، فنزل الوحي من السماء ليؤنس وحشته ويثبته .

(٢) يوسف : ١٥ ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٤٢ .

(٣) ذكر الإمام القرطبي رحمه الله : « أجمع المسلمون على أن السبق لا يجوز على وجه الرهان إلا في الخف والحافر والنصل ، قال الشافعي : ماعدا هذه الثلاث فالسبق فيها قمار » ، « وذكر القرطبي شروطا ثلاثة : أن المسافة لابد وأن تكون معلومة . الثاني أن تكون الخيل متساوية الأحوال . الثالث : ألا يسابق المضمر مع غير المضمر في أمد واحد وغاية واحدة . والخيل التي يجب أن تضمر ويسابق عليها ، وتقام هذه السنة فيها هي الخيل المعدة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين في الفتن »

(٤) يوسف . ١٧ ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٤٦ . ولهذا حذّر رسول الله ﷺ من الكذب فقال : « إيّاكم والكذب فإنّ الكذب يهدى إلى الفُجور وإنّ الفجور يهدى إلى النار » .

(٥) يوسف : ١٨ . (٦) يوسف . ١٩ . (٧) يوسف : ٢٠ .

وشاء الله سبحانه وتعالى أن يخفِّف عن هذا الغلام ، الذى أجبر على فراق أهله وعشيرته ، وبلده ، فرزقه بمشتر مصرى كريم ، قال لزوجه : ﴿ **أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** ﴾[1] . ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف في الأرض** ﴾ والكلام هنا لرب العالمين ، لكي يعلم أبناء آدم أن الأمور لاتؤخذ بظواهرها .

فظاهر الأمر هو بلاء يقع بيوسف عليه السلام ، ومثل هذا البلاء يصيب الإنسان بالجزع ، ولكنه من وراء هذا البلاء كان التمكين ليوسف عليه السلام : ﴿ **ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[2] . إذن فالأمور لا يجب أن تؤخذ بظواهرها : ﴿ **فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيرا** ﴾[3] .

ولما بلغ يوسف الحلم ، أنعم الله عليه بنعمة العقل والفهم والنبوة : ﴿ **وآتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين** ﴾ يعني المؤمنين ، وقيل: الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عليه السلام[4] .

يوسف عليه السلام ابتلى بامرأة العزيز :

في بيت عزيز مصر ، تعرض يوسف عليه السلام لابتلاء أشد قسوة ، وكأنَّ الابتلاء هو الوسيلة الربانية لإعداد أصحاب الرسالات الضخمة : ﴿ **وراودته التي هو في بيتها**

---

(١) يوسف . ٢١

(٢) يوسف : ٢١ . وهكذا نرى نتيجة الكيد والتآمر ، لقد أرادوا السوء بأخيهم ، وبالتالى بأبيهم الذى كان يحب يوسف حبا جما ، نسوا أرحامهم ، نسوا أخوتهم ، نسوا ربهم وتصوروا أنه لا يعلم سرهم ونجواهم ، فكان ما كان .

(٣) وفى هذا تحذير للمتآمرين الكائدين من أبناء العرب والمسلمين الذين يكيدون للإسلام وللحق وأهله ، ويسيرون فى ركاب المتآمرين من اليهود والنصارى والملحدين ، ونسوا أرحامهم ، ونسوا أوطانهم ، ونسوا إخوانهم ، إن الله من ورائهم محيط ، وسيبطل كيدهم وتدبيرهم طال الزمن أم قصر ، والتاريخ يشهد .

فقد حاول المتآمرون قتل محمد وصحبه : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ الأنفال : ٣٠ ، كما حاول المتآمرون قتل صالح وأهله : ﴿ **وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين** ﴾ النمل : ٤٨ ـ ٥١ .

(٤) يوسف . ٣٢ ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٦٢ .

عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ [1] .

وفي هذا توجيه للمؤمنين ، ألا يتعوذوا إلا بالله ، وألا يستحيروا إلا بالله ، وليدركوا أن الظلم عواقبه وخيمة .

ودخل عزيز مصر على زوجته وهي تحاول تحقيق رغبتها مع يوسف عليه السلام ، وحينذاك أسقط فى يدها ، فحاولت أن تجد لنفسها مخرجا ، فما كان منها إلا أن قالت : **﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾**[2] .

وكان في الإمكان أن يستر يوسف عليه السلام على سيدته ، لولا تزيين الشيطان الأمر لها ، فَرَمته بهذه التهمة ، وهي الرغبة في اغتصاب عرضها ، وهي من هي ، إنها زوجة العزيز الذى أكرم وفادة يوسف عليه السلام ، وفي هذا ، لو وقع ، خيانة للأمانة ، أمانة عرض العزيز الذى أوصى زوجه : **﴿ أكرمي مثواه ﴾** فلم يكن هنالك بد من أن يدافع يوسف عليه السلام عن نفسه : **﴿ قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال : إنه من كيدكن إن**

---

(١) يوسف : ٢٣ ـــ ٢٤ ، وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ . « قالت الملائكة : رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر بها فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرّاى » ، وفي الصحيح : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم به » الجامع لأحكام القرآن ، ج ٩ ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

ذكر الإمام القرطبي رحمه الله : « أن ابن عطاء تكلم يوما على يوسُف وأخباره ، حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه ، فقام رجل من آخر مجلسه ، وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة ، فقال : ياشيخ ! يا سيدنا ! فإذاً يوسف همّ وما تمّ ؟ قال : نعم ! لأن العناية من ثمّ » . ثم أورد القرطبي : « وإذا تقررت عصمته وبراءته بثناء الله تعالى عليه ، فلا يصح ماقاله مصعب بن عثمان : أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها ، فاشتاقته امرأة فامتنع عليها وذكّرها ، فقالت : إن لم تفعل لأشهرنك ، فخرج وتركها فرأى في منامه يوسف الصديق ـــ عليه السلام ـــ جالسا فقال : أنت يوسف ؟ فقال : أنا يوسف الذى هممت ، وأنت سليمان الذى لم تهم ؟ فإن هذا يقتضى أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوة ، وهو محال » (الجامع لأحكام القرآن) ، ج ٩ ، ص ١٦٨ ـــ ١٦٩ .

(٢) يوسف . ٢٥ .

كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾[1] .

وللحدران آذان ، وتناقل نسوة في المدينة الخبر : **﴿ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين ﴾**[2] .

والناس ما بين مبتلى ومعافى ، فكان من المفروض على النسوة أن يحمدن الله على العافية ، ويمسكن ألسنتهن عن الخوض في أعراض الآخرين ، ولكن الشيطان صدهم عن السبيل ، وبلغ الخبر امرأة العزيز فماذا فعلت ؟

﴿ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينهٰ أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذلكن الذى لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين ﴾ [3] .

وآثر يوسف عليه السلام السجن ، على الوقوع في المعصية : **﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾**[4].

يوسف عليه السلام يسجن ظلما :

﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ [5] .

أى حينما ظهر للعزيز وأهل مشورته : **﴿ من بعد ما رأوا الآيات ﴾** أى علامات براءة يوسف ، من قدّ القميص من دبر ، وشهادة الشاهد ، وحز الأيدى ، وقلة صبرهن على لقاء يوسف ، أن يسجنوه ، كتمانا للقصة ألا تشيع في العامة ، وللحيلولة بينه وبينها .

---

(١) يوسف : ٢٦ ــ ٢٩ . ــ (٢) يوسف : ٣٠ .

(٣) يوسف : ٣١ ــ ٣٢ .

(٤) يوسف : ٣٣ ــ ٣٥ . لقد ابتلي يوسف عليه السلام وهو غريب في أرض الله ، ماذا يفعل ، لقد اتجه إلى ربه ، إلى إلهه ، الذى يسمع ويبصر ، والذى يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ، فاستجاب له ، وصرف عنه الكيد الذى تعرض له من النسوة .

(٥) يوسف : ٣٥ .

يوسف عليه السلام يدعو إلى الإسلام :

﴿ ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾[1] .

هكذا يكون الداعية ، سمعة طيبة ، سلوكا طيبا ، قدوة وأسوة ، فنزلاء السجن لم يطلبوا التأويل من يوسف عليه السلام إلا حينما وثقوا به وأحبوه ، ورأوا فيه استقامة : ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ .

﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني[2] ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾[3] .

﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[4].

---

(١) يوسف : ٣٦ . يقول الإمام القرطبي : « أى أن يوسف لم يعبر لهم الرؤيا » « حتى دعاهما إلى الإسلام » ، وبين لهما أن الله قد خصه بهذا العلم (بتأويل الرؤيا) لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، يعني دين الملك » . (الجامع لأحكام القرآن ، ج ٩ ، ص ١٩٠ ، ١٩١) .

(٢) لهذا كان رسولنا محمد ﷺ يدعو : « اللهم إنى أسألك علما نافعا ، وقلبا خاشعا » ، فالمصدر الذى يتلقى منه ويطلب منه العلم هو الله رب العالمين ، والعلم النافع هو الذى يربط الإنسان بربه وخالقه سبحانه وتعالى ، والذى لا يصل الإنسان بربه علم فاسد .

ويبدو هنا أيضا قضية أخرى على جانب كبير من الأهمية ، وهي مفاصلة الكفر وأهله . ﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ ، فلا حب ولا مودّة ، وهذا مافعله يوسف عليه السلام ، فأنعم الله عليه بالعلم النافع .

(٣) يوسف : ٣٧ ــ ٣٨ .

(٤) يوسف : ٣٩ ــ ٤٠ . وهنا تتجلى قضية التوحيد كما يعرضها يوسف عليه السلام واضحة ، تبين للناس أن الإله الواحد الصمد هو المستحق للعبادة ، وأن الإله القهار الذى له الحكم هو المستحق للعبادة .

وذلك يعني أن الذين يشرعون للناس من عند أنفسهم ، اعتبروا أندادا لله سبحانه وتعالى ، وهذا شرك بالله العظيم رب العالمين

ويؤكد الرؤيا :

﴿ **أما أحدكما فيسقى ربه خمرا** ﴾ ، أى قال للساقي : إنَّك تُرَدُّ على عملك الذى كنت عليه من سقي الملك ، وقال للآخر : وأما أنت فتدعى إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك ، قال : والله ما رأيت شيئا ، قال : رأيت أو لم تر : ﴿ **قضي الأمر الذى فيه تستفتيان** ﴾ (1) .

﴿ **وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك (2) فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين** ﴾ (3).

ملك مصر يرى رؤيا :

﴿ **وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون** ﴾ (4).

﴿ **قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين** ﴾ (5)

يوسف عليه السلام يفسر رؤيا ملك مصر :

﴿ **وقال الذى نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبا (6) فما حصدتم فذروه في سنبله (7) إلا قليلا مما تأكلون (8) . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد (9) يأكلن (10) ما قدمتم (11) لهن إلّا قليلا مما تحصنون** ﴾ (12) .

---

(1) يوسف : 41 ، الجامع لأحكام القرآن ، ح 9 ص 193 .

(2 ، 3) يوسف : 42 ، في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ . « لا يقل أحدكم : اسق ربك اطعم ربك وضيء ربك ، ولا يقل أحدكم ربِّي وليقل : سيدي ، مولاي ، ولا يقل أحدكم : عبدى أمتي ، وليقل : فتاى علامي » . الجامع لأحكام القرآن ح 9 ، ص 164 .

(4) يوسف : 43 . (5) يوسف : 44 (6) متوالية متتابعة . (7) لئلا يتسوس ، وليكون أبقى .

(8) أى استخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة (9) يعني السنين المجدبات

(10) مجاز ، والمعنى يأكلهن كلهن . (11) أى ما ادخرتم لأجلهن .

(12) هكذا أيها الصديق ، فإنك قد أولت رؤياي وقد وفقت بحمد الله إني لم أجرب الكذب عليك ، وهكذا يجب أن يكون أصحاب الدعوات صديقين ، إسلاما يتحرك على الأرض لأن البشرية التائهة لن تقتنع بهذا الدين إلا إذا رأته واقعا حيا على الأرض .

﴿ **ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون** ﴾ [1] .

وهنا لابد من وقفة لبيان الدرس المستفاد :

الملك يرى رؤيا : ﴿ **وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات** ﴾ وطلب المشورة من الملأ : ﴿ **يا أيها الملأ أفتوني في رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون** ﴾ .

وجاء الرد عن الملأ ، المفروض أنّهم أفضل الأمة على الإطلاق : ﴿ **قالوا أضغاث أحلام** ﴾ ، وهو ردّ ينبئ عن جهل فاضح .

وهذا يظهر كيف يجرى الله سبحانه وتعالى أقداره ، فكل شيء مقدر ، ويجرى وفقا لسنته وتدبيره .

فإذا بساقي الملك الذى كان في السجن ، وبشره يوسف عليه السلام بخروجه ، وتوليه لهذه الوظيفة ، يتذكر ، بتذكر من ؟ يوسف الصديق الذى يؤول الرؤى .

لقد ذهب إليه ، وقال له : ﴿ **يوسف أيها الصديق أفتنا** ﴾ هذا هو سمته ، هذه هي صفته : أيها الصديق ، وهكذا يجب أن يكون الداعية إلى دين الله عز وجل : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ . وقص عليه الرؤيا وطلب التعبير .

ماذا فعل يوسف عليه السلام ؟ هل قال له : « أيها الساقي هل تذكر أنني طلبت منك أن تذكر مشكلتي عند الملك ، ولكنك نسيتني ولم تفعل ؟ هل قال : لن أفسر لك الرؤيا حتى تشترط خروجي من السجن ؟ لم يحدث شيء من هذا أبدا ، لقد فسر له الرؤيا ، ليس هذا فحسب ، ولكنه وضع للأمة ... للدولة ، خطة خمس عشرية : ﴿ **تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون** ﴾ . هذه الخطة تقوم على تنمية الموارد طيلة السبع سنوات ، مع الادخار وعدم الإسراف والتبذير .. اقتناص فرصة الرخاء والادخار لأيام الشدة ، لأن الأيام دول .. ولا يدرى الإنسان ما يخبئه الغد .. ثم تقوم على ترشيد الاستهلاك طيلة سنوات

---

(1) يوسف : ٤٩ ، هذا خبر من يوسف عليه السلام عما لم يكن في [illegible] ، ولكنه من علم الغيب الذى آتاه الله (الجامع لأحكام القرآن ج ٩ ، ص ٢٠٤) .

القحط ، وأيضا يوضع في الاعتبار ، أثناء الاستهلاك عدم الإتيان على المدخر .

وقد أضاف يوسف عليه السلام ، بشارة لم تكن في رؤيا الملك ، وهي أنه سيأتي في أعقاب الأربعة عشر عاما : ﴿ **عام فيه يغاث الناس ، وفيه يعصرون** ﴾ .

لقد قدم يوسف عليه السلام تفسيرا لرؤيا الملك ، ووضع له خطة لإنقاذ البلاد مما قد يتهددها ، بلا مقابل من متاع الدنيا ، لأنه يريد الأجر والثواب من الله . وهنا يظهر أهمية الإخلاص في القول والعمل ، وهكذا يجب أن يكون المسلم ، إنه سمو في الهدف ، في الغاية ، وهكذا يجب أن يكون المسلم .

الملك يأمر بإخراج يوسف من السجن ، ولكن يوسف عليه السلام يشترط !!!

﴿ **وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم** ﴾[١] .

ظهور براءة يوسف عليه السلام :

﴿ **قال ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾[٢] .

---

(١) يوسف : ٥٠ .

(٢) يوسف : ٥١ ، وروى الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم — قال — ولو لبثت في السجن ما لبث ، ثم جاءني الرسول أجبت — ثم قرأ — : ﴿ **فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك ، فاسأله مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن** ﴾ — قال — ورحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد إذ قال : ﴿ **لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد** ﴾ فما بعث من بعده نبيا إلّا في ذروة من قومه » . وروى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن مالبث يوسف لأجبت الداعي ، ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له ﴿ **أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى** ﴾ » وروى عن النبي ﷺ أنه قال : « يرحم الله أخي يوسف ، لقد كان صابرا حليما ، ولو لبثت في السجن مالبثه أجبت الداعي ، ولم ألتمس العذر » . وروى نحو هذا الحديث من طريق عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك ، في كتاب التفسير من صحيح البخاري ، وليس لابن القاسم في الديوان غيره . وفي رواية الطبري : « يرحم الله يوسف ، لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إليّ لخرجت سريعا ، إن كان لحليما ذا أناة » . وقال ﷺ : « لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين سأله عن البقرات : لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني ، ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب » . قال ابن عطية : كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة =

﴿ **ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين   وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم** ﴾[1] .

لقد صدر الأمر من الملك ، ويبدو أنه كان صاحب فطرة سليمة : ﴿ **ائتوني به** ﴾ . لقد أدرك الفارق بين بطانة السوء الذين قالوا له : ﴿ **أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين** ﴾ ، وبين بطانة الصدق التي لا تفتي إلا عن علم ، ولذلك طلب إحضاره في التو واللحظة .

وهنا يظهر أهمية البطانة الصالحة للحاكم ، هنا تظهر بطانة العلماء ، وليست البطانة التي تدعي العلم ، وهي لا تعلم ، فتفتي بغير علم ، فتضيع الأمة وتضيع نفسها في الدنيا والآخرة .

ماذا فعل يوسف عليه السلام ؟ هل هرول إلى حضرة الملك مطلقا ، لقد كان حريصا على إظهار براءته مما نسب إليه : ﴿ **فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إنّ ربي بكيدهن عليم** ﴾ .

لقد كان حريصا على إظهار نظافة ذيله وعفته ، وأمانته ، أمانته على عرض سيده الذى أكرم مثواه ، وإمساكه لسانه عن الخوض في أعراض النساء اللاتي قطعن أيديهن .

- وصبرا ، وطلبا للبراءة الساحة ، وذلك أنه — فيما روى — خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحا فيراه الناس بتلك العين أبدا ويقولون : هذا الذى راود امرأة مولاه . فأراد يوسف عليه السلام أن يبين براءته ، ويحقق منزلته من العفة والخير ، وحينئذ يخرج للإحظاء والمنزلة . فلهذا قال للرسول : ارجع إلى ربك وقل له : ما بال النسوة ؟ ومقصد يوسف عليه السلام إنّما كان :

وقل له يستقصي عن ذنبي ، وينظر في أمرى ، هل سجنت بحق أو بظلم ؟ ونكب عن امرأة العزيز حسن عشره ورعاية لذمام الملك العزيز له . فإن قيل : كيف مدح النبي ﷺ يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج ، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره ؟؟ فالوجه في ذلك أن النبي ﷺ إنما أخذ لنفسه وجها آخر من الرأى ، له جهة أيضا من الجودة ، يقول : لو كنت أنا لبادرت بالخروج ، ثم حاولت بيان عذرى بعد ذلك وذلك أن هذه القصص والنوازل هي معترضة لأن يقتدى الناس بها إلى يوم القيامة ، فأراد الرسول ﷺ حمل الناس على الأحزم من الأمور ، وذلك أن ترك الحزم في مثل هذه النازلة ، التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ، ربما نتج له البقاء في سجنه ، وانصرفت نفس مخرجه عنه ، وإن كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من الله ، فغيره من الناس لا يأمن ذلك ، فالحالة التى ذهب النبي ﷺ بنفسه إليها حالة حزم، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد » الجامع لأحكام القرآن ، ج ٩ ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(١) يوسف : ٥٣ .

واستحاب الملك ، وحقق فى القضية ، وكانت الأمانة قول الحق ولو على النفس : ﴿ **قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا علّيه من سوء** ﴾ . كلمة الحق ... الشهادة لله عز وجل حسن الخلق ، والصدق مع الله ومع النفس ومع الآخرين .

وهنا تبدو امرأة العزيز ، قمة في الخلق : ﴿ **الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم** ﴾ . وهنا يبدو موقف امرأة العزيز قمة في الخلق ، قول كلمة الحق والاعتراف بالخطأ ، ونسبة كل ذلك إلى النفس الأمارة بالسوء ، ثم التوبة ، واليقين بأن الله غفور رحيم .

وهذا توجيه لمن يسقطون أو يخطئون أو يأثمون ، إن باب التوبة مفتوح ، والله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر .

ومن هنا يجب التنبيه على الذين يتحدثون فى سيرة يوسف عليه السلام أن لا يتعدو اللفظ القرآنى في التعبير عن تصرف امرأة العزيز : ﴿ **وراودته التي هو في بيتها عن نفسه** ﴾ وليحذروا الشماتة ، وليحذروا الاستفاضة في الشرح ، وليحذروا منها النساء ، لأن الناس ما بين مبتلى ومعافى فليحمدوا الله على العافية .

الملك يقلد يوسف أمانة قيادة الدولة فيستوزره :

﴿ **وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين** (١) . **قال اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظ عليم** ﴾(٢) .

---

(١) يوسف : ٥٤ ، أى لما ثبت للملك براءته مما نسب إليه وتحقق في القضية أمانته ، وفهم أيضا صبره وجلده عظمت منزلته عنده ، وتيقن حسن خلاله قال : ﴿ **ائتوني به أستخلصه لنفسي** ﴾ (الجامع لأحكام القرآن ، ج ٩ ، ص ٢١٠) .

(٢) يوسف : ٥٥ ، أى حفيظ لما وليت ، علم بأمره . وقد ذهب القرطبي في تفسيره إلى استخلاص بعض الأحكام الفقهية ، منها : جواز أن يخطب الإنسان عملا يكون له أهلا ، فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال لى رسول الله ﷺ : « ياعبد الرحمن ، لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وُكِلْت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعِنْتَ عليها » . وعن أبي بردة قال : قال أبو موسى : « **أقبلت إلى النبي ﷺ ومعى** =

وهنا تأكد لملك مصر أن يوسف عليه السلام كان أمينا على عرض امرأة العزيز الذى آواه في منزله وأوصى به خيرا ، ومن كان أمينا على العرض كان أمينا على المال ، كان أمينا على كل شيء ، وأمثال هؤلاء يجب أن يتولوا أمر المسلمين .

ولأمانته ، وصدقه ، وعفته وطهارته ، قال الملك : ﴿ **ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾ .

أى ممكن مؤتمن ، فمثلك يُمَكَّنُ له ويؤتمن ، ﴿ **قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم** ﴾ .

= رجلان من الأشعريين ، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري ، فكلاهما سأل العمل ، والنبي ﷺ يستاك ، فقال : « ما تقول ياأبا موسى — أو ياعبد الله بن قيس — » قال : قال : والذى بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما ، وما شعرت أنهما يطلبان العمل ، قال : وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت ، فقال : « لن — أو — لا نستعمل على عملنا من أراده » وذكر الحديث ، أخرجه مسلم وغيره .

فالجواب :

أولا : أن يوسف عليه السلام إنّما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه ، فإنه لم يكن هناك غيره ، وهكذا الحكم اليوم ، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه ، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك ، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك ، كما قال يوسف عليه السلام ، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب ، لقوله ﷺ لعبد الرحمن : « لا تسأل الإمارة » . وأيضا فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه وأغراضه ، ومن كان هكذا يوشك أن تتغلب عليه نفسه فيهلك . وهذا معنى قوله عليه السلام . « وكل إليها » ، ومن أباها لعلمه بآفاتها ، ولخوفه من التقصير في حقوقها فرّ منها ، ثم إن ابتلى بها فيرجى له التخلص منها وهو معنى قوله : « أعين عليها » .

ثانيا : أنه لم يقل : إني حسيب كريم ، وإن كان كما قال النبي ﷺ : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » ولا قال : إني جميل مليح ، إنّما قال : ﴿ **إني حفيظ عليم** ﴾ فسألها بالحفظ والعلم ، لا بالنسب والجمال .

ثالثا : إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله تعالى : ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم** ﴾ .

رابعا : أنه رأى أن ذلك فرض متعين عليه ، لأنه لم يكن هنالك غيره ، وهو الأظهر ، والله الأعلم .

ودلت الآية أيضا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل . قال الماوردى : وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصله ، أو تعلق بظاهر من مكسب ، وممنوع منه فيما سواه ، لما فيه من تزكية ومراءاة ، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله ، فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله ، ولما يرجو من الظفر بأهله . الجامع لأحكام القرآن ، ج ٩ ، ص ٢١٥ — ٢١٧ .

هده هي صفات الأمناء ، صفات المستشارين ، صفات أهل الحل والعقد ، صفات البطانة الصالحة :

الأمانة ، الحفظ ، العلم ، الصدق ، وما ضيعت الأمة الإسلامية اليوم إلا بسبب غياب الأمناء والحفاظ والعلماء والصديقين عن موقع القيادة فيها .

التمكين ليوسف عليه السلام في الأرض :

﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[1] .

يوسف عليه السلام يستثمر تمكين الله له على أرض مصر في الدعوة إلى الإسلام :

ولما فوض المَلِكُ أمر مصر إلى يوسف عليه السلام تلطف بالناس ، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به ، وأقام فيهم العدل ، فأحبه الرجال والنساء ، ثم دخلت السنون المخصبة ، فأمر يوسف بإصلاح المزارع ، وأمرهم أن يتوسعوا في الزراعة ، فلما أدركت الغلة أمر بها فجمعت ، ثم بنى لها الأهراء ، فجمعت فيها في تلك السنة غلة ضاقت عنها المخازن لكثرتها ، ثم جمع عليه غلة كل سنة كذلك ، حتى انقضت السبع المخصبة وجاءت السنون المجدبة . وللجوع والقحط علامتان :

إحداهما : أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة ، ويسرع إليها الجوع خلاف ما كانت عليه قبل ذلك ، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية .

والثانية : أن يفقد الطعام فلا يوجد رأسا ويعز إلى الغاية[2] .

ويروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام في تلك السنين ، فقيل له : أتجوع وبيدك خزائن الأرض ؟ فقال : إني أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع[3] .

---

(١) يوسف : ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢١٨ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢١٩

القحط يصيب بلاد الشام ـــ أهل الشام (ومنهم إخوة يوسف) يمتارون من مصر :

﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون[١] . ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين . فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون . قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ﴾[٢] .

﴿ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾[٣] .

﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلاّ كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير ﴾[٤] .

﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل ﴾[٥] .

﴿ وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾[٦] .

---

(١) يوسف : ٥٨ ، أى لما أصاب الناس القحط والشدة ، ونزل دلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده للمبرة ، وداع أمر يوسف عليه السلام في الآفاق ، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته . (الجامع لأحكام القرآن ، حـ ٩ ، ص ٢٢٠) .

(٢) يوسف : ٥٩ ـــ ٦١

(٣) يوسف : ٦٢ ، بضاعتهم · أثمان ما اشتروه من الطعام .

(٤) يوسف : ٦٣ ـــ ٦٥ (٥) يوسف : ٦٦ .

(٦) يوسف · ٦٧ ، وقد علق الإمام القرطبي في شرح معنى هده الآية : « إذا كان هدا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرر من العين ، والعين حق ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إن العين لتدخل الرحل القبر والجمل القدر » وفى تعوده عليه السلام · « أعود بكلمات الله التامات من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة » . ما يدل على دلك . وروى مالك عن محمد بن أبى أمامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباه يقول : اغتسل أبي سهل بن حنيف بالخرار ، فنزع جبة كانت عليه ، وعامر بن ربيعة ينظر ، قال : وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلد ، قال : فقال : له عامر =

= بن ربيعة : ما رأيت كاليوم ولا جلد عذراء ، فوعك سهل مكانه واشتد وعكه ، فأتى رسول الله ﷺ فأخبر أن سهلا وعك ، وأنه غير رائح معك يا رسول الله ، فأتاه رسول الله ﷺ فأخبره سهل بالذى كان من شأن عامر ، فقال رسول الله ﷺ : « علام يقتل أحدكم أخاه ، ألا برّكت ، إن العين حق ، توضأ له » . فتوضأ عامر ، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس . وفى رواية « اغتسل » فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره في قدح ، ثم صب عليه ، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس . وركب سعد بن أبي وقاص يوما فنظرت إليه امرأة ، فقالت : إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكشحين ، فرجع إلى منزله فسقط ، فبلغه ما قالت المرأة ، فأرسل إليها فغسلت له . ففي هذين الحديثين أن العين حق ، وأنها تقتل كما قال النبي ﷺ وهذا قول علماء الأمة ، ومذهب أهل السنة ، وقد أنكرته طوائف من المبتدعة ، وهم محجوجون بالسنة ، وإجماع علماء هذه الأمة ، وبما يشاهد من ذلك في الوجود ، فكم من رجل أدخلته العين القبر ، وكم من جمل ظهير أدخلته القدر ، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال : ﴿ **وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله** ﴾ قال الأصمعي : رأيت رجلا عيونا سمع بقرة تحلب فأعجبه شخبها فقال : أيتهن هذه ؟ قالوا : العلانية لبقرة أخرى يورون عنها ، فهلكتا جميعا ، المورى بها والمورى عنها ، قال الأصمعي : وسمعته يقول : إذا رأيت الشيء يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني .

« واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يبرك ، فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة ، ألا ترى قوله عليه السلام لعامر ، « ألا برّكت » فدل على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا برّك العائن وأنها إنما تعدو إذا لم يبرّك . والتبريك أن يقول : تبارك الله أحسن الخالقين ، اللهم بارك فيه .

« العائن إذا أصاب بعينه ولم يبرّك فإنه يؤمر بالاغتسال ، ويجبر على ذلك إن أباه ، لأن الأمر على الوجوب ، لا سيما هذا ، فإنه يخاف على المَعِينْ الهلاك ، ولا ينبغي لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو ، ولا سيما إذا كان بسببه وكان الجاني عليه .

« من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعا لضرره ، وقد قال بعض العلماء : يأمره الإمام بلزوم بيته ، وإن كان فقيرا رزقه ما يقوم به ، ويكف أذاه عن الناس . وقد قيل : إنه ينفى ، وحديث مالك الذى ذكرناه يرد هذه الأقوال ، فإنه عليه السلام لم يأمر في عامر بحبس ولا نفي ، بل قد يكون الرجل الصالح عائنا ، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسق به ، ومن قال . يحبس ويؤمر بلزوم بيته . فذلك احتياط ودفع ضرر ، والله أعلم .

« روى مالك عن حميد بن قيس المكي أنه قال : دخل على رسول الله ﷺ بابني جعفر بن أبي طالب فقال لحاضنتهما : « ما لي أراهما ضارعين ؟ » فقالت حاضنتهما : يارسول الله ، إنه تسرع إليهما العين ، ولم يمنعنا أن نسترقي لهما إلا أنا لا ندرى ما يوافقك من ذلك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « استرقوا لهما ، فإنه لو سبق شيء القدر سبقته العين » . وهذا حديث منقطع ، ولكنه محفوظ لأسماء بنت عميس الخثعمية عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة متصلة صحاح ، وفيه أن الرقى مما يُستَدفع به البلاء ، وأن العين تؤثر في الإنسان وتضرعه ، أى تضعفه وتنحله ، وذلك بقضاء الله تعالى وقدره . ويقال : إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار ، والله أعلم .

« أمر ﷺ في حديث أبي أمامة العائن بالاغتسال للمعين ، وأمر هنا بالاسترقاء . قال علماؤنا : إنما يسترقى من العين إذا لم يعرف العائن ، وأما إذا عرف الذى أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة ، والله أعلم . (الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢٢٦ ـــ ٢٢٨) .

﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم[1] ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون[2] . ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ﴾[3] .

﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين . قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه[4] كذلك نجزى الظالمين ﴾[5] .

﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك[6] إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم ﴾[7] .

﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون . قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذا لظالمون ﴾[8] .

﴿ فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما

---

(١) أمرهم أبوهم · أى من أبواب شتى .

(٢) ودلت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذّر أخاه مما يخاف عليه ، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة ، فإن الدين النصيحة ، والمسلم أخو المسلم ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢٢٩ .

(٣) يوسف : ٦٨ — ٧٠ (٤) أى يستعبد ويسترق . (٥) يوسف : ٧٣ — ٧٥ .

(٦) يقول القرطبى : « وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل إذا لم تخالف شريعة ، ولا هدمت أصلا ، خلافا لأبي حنيفة في تجويزه الحيل وإن خالفت الأصول ، وخرمت التحليل » ، (الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢٣٦) .

(٧) كان حكم الملك الضرب والغرم ضعفين . (يوسف · ٧٦) .

(٨) يوسف . ٧٧ — ٧٩ .

علمنا وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية [1] التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون ﴾ [2] .

﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال ياأسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون ﴾ [3] .

إخوة يوسف للمرة الثالثة في مصر :

﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس [4] من روح الله إلا القوم الكافرون . فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر [5] .

---

(١) يريدون بالقرية مصر ، في هذه الآية من الفقه ، أن كل من كان على حق ، وعلم أنه قد يظن به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهم ، أن يرفع التهمة وكل ريبة عن نفسه ، ويصرح بالحق الذى هو عليه ، حتى لا يبق لأحد متكلم . وقد فعل هذا نبينا محمد ﷺ بقوله للرجلين اللذين مرّا وهو قد خرج مع صفية يقلبها (يردها) من المسجد : « على رسلكما ، إنّما هي صفية بنت حيي » فقالا : سبحان الله ، وكَبُر عليهما ، فقال النبي ﷺ : « إنَّ الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم ، وإنّي خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا » . رواه البخارى ومسلم . (الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢٤٦) .

(٢) يوسف : ٨٠ — ٨٢ .

(٣) يوسف : ٨٣ — ٨٦ . يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى : « الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ماله أن يتلقى بالصبر الجميل ، والرضا والتسليم لمجريه عليه وهو العليم الحكيم ، ويقتدى بنبي الله يعقوب وسائر النبيين ، صلوات الله عليهم أجمعين . وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال : ماس جرعتين يتجرعهما العبد أحب إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء ، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو . وقال ابن جريج عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ فصبر جميل ﴾ أى لا أشكو ذلك إلى أحد . وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « من بثّ لم يصبر » . وقد تقدم في البقرة أن الصبر عند أول الصدمة ، وثواب من ذكر مصيبته واسترجع وإن تقادم عهدها . وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : إن يعقوب أعطي على يوسف أجر مائة شهيد ، وكذلك من احتسب من هذه الأمة في مصيبته فله مثل أجر يعقوب عليه السلام .

(٤) أى أن المؤمن يرجو فرج الله ، والكافر يقنط في الشدة .

(٥) أى الجوع والحاجة ، وفي هذا دليل على جواز الشكوى عند الضر ، أى الجوع ، بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره ، أن يبدى حالته إلى من يرجو منه النفع ، كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم =

وجئنا ببضاعة مزجاة [١] فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين ﴾ [٢] .

﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق الله ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين . قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾[٣] .

﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون . قالوا تالله إنّك لفي ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون . قالوا يا أبانا استغفر [٤] لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم . فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ [٥] .

﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا [٦] وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى

= إلى الطبيب ليعالجه ، ولا يكون ذلك قدحا في التوكل ، وهذا ما لم يكن التشكي على سبيل التسخط ، والصبر والتجلد في النوائب والتعفف عن المسألة أفضل ، وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى . الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢٥٢) .

(١) المزجاة : الناقصة غير التامة . (٢) يوسف . ٨٧ ــ ٨٨ . (٣) يوسف : ٨٩ ــ ٩٣ .

(٤) « وإنما سألوه المغفرة ، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن مالم يسقط المأثم عنه إلّا بإحلاله .

وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالما له ، فإنه يجب عليه أن يتحلل له ويخبره بالمظلمة وقدرها ، وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا ؟ فيه خلاف ، والصحيح أنه لا ينفع ، فإنه لو أخبره بمظلمة لها قدر وبال ربما لم تطب نفس المظلوم في التحلل منها . والله أعلم . وفي صحيح البخارى وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢٦٢ .

(٥) يوسف : ٨٩ ــ ٩٩ فصلت العير : أى خرجت منطلقة من مصر إلى الشام .

(٦) يقول الإمام القرطبي : « هذا الانحناء والتكفي وقد نسخ عما قد صار عادة بالديار المصرية وعند العجم ، وكذلك قيام بعضهم لبعض ، حتى إن أحدهم إذا لم يقم له وجد فى نفسه كأنه لا يُؤبه به ، وأنه لا قدر له ، وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض ، عادة مستمرة ، ووراثة مستقرة لاسيما عند التقاء الأمراء والرؤساء . نكبوا عن السنن ، وأعرضوا عن السنن ، وروى أنس بن مالك قال : قلنا : يا رسول الله ، أينحنى بعضنا إلى بعض إذا التقينا ؟ قال : =

من قبل قد جلعها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إنّ ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ [1] .

﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما [2] وألحقني بالصالحين ﴾[3] .

معالم ترسيها سيرة يوسف عليه السلام :

لقد وسم الله قصة يوسف عليه السلام بأنها : أحسن القصص من بين سائر

= « لا » . قلنا : أفيعتنق بعضنا بعضا ؟ قال : « لا » . قلنا : أفيصافح بعضنا بعضا ؟؟ قال : « نعم » . خرجه أبو عمر في التمهيد فإن قيل : فقد قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم وخيركم » ، يعني سعد بن معاذ ؟ . قلنا : ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المعينة ، وقد قيل . إنما كان قيامهم لينزلوه عن الحمار ، وأيضا فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثر ذلك في نفسه ، فإن أثر فيه وأعجب به ورأى لنفسه حظا لم يجز عونه على ذلك لقوله ﷺ « من سره أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار » . وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجه أكرم عليهم من رسول الله ﷺ ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه ، لما يعرفون من كراهته لذلك

فإن قيل : فما تقول في الإشارة بالإصبع ؟ قيل له : ذلك جائز إذا بعد عنك ، لتعين له به وقت السلام ، فإن كان دانيا فلا ، وقد قيل بالمنع في القرب والبعد ، لما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من تشبه بغيرنا فليس منا » وقال : « لا تسلموا تسليم اليهود والنصارى ، فإن تسليم اليهود بالأكف والنصارى بالإشارة » . وإذا سلم فإنه لا يحني ، ولا أن يقبل مع السلام يده ، ولأن الانحناء على معنى التواضع لا ينبغي إلا لله . وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم ، ولا يتبعون على أفعالهم التي أحدثوها تعظيما لكبرائهم ، قال النبي ﷺ : « لا تقوموا عند رأسي كما تقوم الأعاجم عن رؤوس أكاسرتها » . فهذا مثله . ولا بأس بالمصافحة ، فقد صافح النبي ﷺ جعفر بن أبي طالب حين قدم من الحبشة ، وأمر بها ، وندبَ إليها ، وقال : « تصافحوا يذهب الغل » وروى غالب التمّار الشعبي ، أن أصحاب النبي ﷺ كانوا إذا التقوا تصافحوا ، وإذا قدموا من سفر تعانقوا . فإن قيل : فقد كره مالك المصافحة ؟ قلنا : روى ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعانقة ، وذهب إلى هذا سحنون وغيره من أصحابنا . وقد روي عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة ، وهو الذي يدل عليه معنى ما في الموطأ . وعلى جواز المصافحة جماعة من السلف والخلف . قال ابن العربي : إنما كره مالك المصافحة لأنه لم يرها أمرا عاما في الدين ، ولا منقولا نقل السلام ، ولو كانت منه لاستوى معه

قلت : قد جاء في المصافحة حديث يدل على الترغيب فيها ، والدأب عليها والمحافظة ، وهو ما رواه البراء بن عازب قال : لقيت رسول الله ﷺ فأخذ بيدي فقلت : يا رسول الله ، إن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم ؟ فقال : « نحن أحق بالمصافحة منهم ، ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودة بينهما ونصيحة إلا ألقيت ذنوبهما بينهما » . (الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢٦٥ — ٢٦٦) .

(١) يوسف : ٩٩ — ١٠٠ . (٢) أي إذا جاء أجلي توفني مسلما . (٣) يوسف : ١٠١ .

الأقاصيص ، لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة[1] .

وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين ، والجن والانس والأنعام والطير ، وسير الملوك والممالك ، والتجار والعلماء والجهال ، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا [2] .

الرؤيا حالة شريفة ، ومنزلة رفيعة ، قال ﷺ : « لم يبق بعدى من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو ترى له » . وقال : « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا » . وحكم ﷺ بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، وروى « من سبعين جزءا من النبوة » [3] .

يقول ابن عبد البر : اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس عندى اختلاف متضاد متدافع ــ والله أعلم ــ لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والدين المتين ، وحسن اليقين . فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد ، فمن خلصت نيته في عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه ، كانت رؤياه أصدق ، وإلى النبوة أقرب [4] .

روى البخارى عن أبي سلمة قال : لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت أبا قتادة يقول : وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول الله يقول : « الرؤيا الحسنة من الله ، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بها إلا من يحب ، وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدث بها أحدا فإنها لن تضره » . قال علماؤنا : فجعل الله الاستعاذة منها مما يرفع أذاها ، وزاد مسلم من رواية جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا ، وليتعوذ بالله من الشيطان ثلاثا ، وليتحول عن جنبه الذى كان عليه » [5] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٢٠ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٠ .
(٣) رواه مسلم .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٢٢ ــ ١٢٣ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٢٨ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٦٩ .

« والرؤيا معلقة برجل طائر مالم يحدث بها صاحبها فإذا حدث بها وقعت ، فلا تحدثوا بها إلّا عاقلا أو محبا أو ناصحا » . أخرجه الترمذى وقال فيه : حديث حسن صحيح (١) .

* وفى هذه الآية دليل على إباحة أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه ، ولا يكون داخلا فى معنى الغيبة ، لأن يعقوب عليه السلام ، قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدا . وفيها ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدا وكيدا ، وقال النبي ﷺ : « استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان ، فإن كل ذى نعمة محسود » (٢) .

روى البخارى عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لم يبق من النبوات إلّا المبشرات » قالوا : وما المبشرات ؟ قال : « الرؤيا الصالحة » . وهذا الحديث يدل على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك ، فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لا تسر رائيها ، وإنّما يريها الله تعالى المؤمن رفقا به ورحمة ، ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه ، فإن أدرك تأولها بنفسه ، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك . وقد رأى الشافعي رضي الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حنبل تدل على محنة فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك (٣) .

الله يصطفي لدعوته ـــ الإسلام هو الحل لمشاكل الناس جميعا :

وأتاح الله الفرصة بعد ذلك لنبيه الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام لكي يباشر دعوته ، ويدعو الأمة المصرية إلى الإسلام .

كان ذلك حينما طلب الملك من الملأ تفسير الرؤيا ، فعجزوا ولجأوا إلى يوسف عليه السلام .

« يوسف أيها الصّديق » لأن الصدق سمت المسلمين ، ولا يصدق في النصيحة إلا المسلم . مجتمع بأسره عجز أن يكون فيه نموذج ليوسف عليه السلام ، يلجأ إليه ويستفتيه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٦ ـــ ١٢٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

في الأمر ، وشاءت رحمة الله ، أن يقدم لهذا المجتمع ــ رحمة به ــ هذا المنقذ هو رسول من رب العالمين ، إنه يوسف عليه السلام ، النبي المسلم ابن النبى المسلم ابن النبي المسلم ابن النبى المسلم .

لقد طلب مه ساقي الملك الفتيا ، لأنها لا تطلب إلا من صادق : « **أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات** » .

وقدم يوسف التفسير :

ستمر عليكم سبع سنين مخصبات متتابعات يعقبهن سبع سنين مجدبات ، وما تزرعونه أثناء السبع سنين المخصبات المتتابعات « فما حصدتم فذروه في سنبله » ، قيل : لئلا يتسوس وليكون أبقى « إلا قليلاً مما تأكلون » أى استخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة .

ثم تأتي بعد ذلك سبع مجدبات ، يأكلن ما ادخرتم لأجلهن .

ثم أضاف : « **ثم يأتي من بعد ذلك عام ، فيه يغاث الناس ، وفيه يعصرون** » .

لقد قدم الإسلام الحل للمجتمع الذى سيواجه المجاعة **على مدار سبع سنين ،** لقد جاء هذا التنبيه من الله عز وجل ، رحمة منه بأهل مصر ، وتبيينا لهم لعلهم يتذكرون ولعلهم يرجعون إلى ربهم وسيدهم وخالقهم .

وهذا مثال نسوقه لدعاة المادية ، الذين تركوا دين الله وراء ظهورهم ، وأفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، فجاعوا وركبتهم الديون المهلكة التي جعلتهم مطية لأعدائهم ، وتصوروا وقد برحت بهم العلة ، أنهم يستطيعون بعقولهم القاصرة ، الخروج من هذه الأزمات الاقتصادية المتفاقمة عن طريق تحديد النسل ، أو عن طريق خطط التنمية ، أو عن طريق القروض ذات الفوائد المفروضة من أعدائهم .

إن الإسلام هو الحل ، إن الحُفَّاظ الأمناء الأقوياء هم الحل ، إن الأشراف الأطهار هم الحل ، فما أحوج الأمة في وقت الشدة إلى هذا .. إلى هذا الإسلام وهؤلاء الأمناء .

إننا نجزم ــ على سبيل المثال ــ أن مصر وغيرها من بلاد العالم لن تنصلح أحوالها ، إلا إذا أسلمت حياتها كلها لله رب العالمين ، يسيرها كما يشاء هو ﴿ **يا أيها الذين آمنوا**

ادخلوا في السلم كافة ﴾[1] . لن تنصلح أحوالها إلا إذا سلمت الأمانة أو دفة الحكم إلى الرجال الشرفاء الأطهار ، العلماء الذين يتورعون عن أكل أموال الناس بالباطل ، المحسنين ، الصديقين ، الأمناء الذين **يحافظون على أعراض الأمة ، على أبنائها وبناتها** ..

وبهؤلاء خرجت مصر من أزمتها :

لقد استجاب الملك لتوجيه الله عز وجل .

وفي هذا حض للأمة على الادخار ، وألا تسمح للحياة أن تلتهم مدخراتها أولاً بأول ، لأن الأيام دول . ولهذا فقد وجه رسول الله محمد ﷺ صحابيا أراد أن يتصدق بماله كله ، أن يتصدق بالثلث والثلث كثير ، رغم أن هذه صدقة ، أى أنها مدخرة عند رب السموات والأرض ، فما بالنا بمن يسرفون في كثير من وجوه الترف والمجون ، ومن هنا نستطيع أن نفهم توجيه الإله الحكيم : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا** ﴾[2] . كما أن رسول الله محمد ﷺ وصى أمته بأن تغتنم فرصة غناها قبل فقرها ، لأنه قد تأتي أيام تحتاج فيه إلى ماادخرته [3] .

وهذا هو الذى حدث ، لقد ادخرت مصر على مدار سبع سنوات ، ثم جاءت السبع سنوات الشداد ، أعوام الجفاف لتأكل هذا الذى ادخره العقلاء .

التكافل :

لقد كان ملك مصر في ذلك الزمان ، متفتح العقلية ، حريصا على مصلحة أمته ، بل على البشرية كلها .

إنه طلب من يوسف القادم من بلاد الشام أن يتولى المسؤولية كاملة : ﴿ **إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾ لم ينظر إلى لونه أو حسبه أو جنسه أو عصبيته ، بل نظر في دينه وتقواه ، فلما علم أنه رجل مسلم حقيقة ، سلمه مسؤولية الحفاظ على خزانة الدولة ، ومواردها الاقتصادية ومصروفاتها .

لم يقل له : إنّك من علماء الدين ، وعلماء الدين لا يصلحون .. لم يقل له : إنّك

---

(١) البقرة : ٢٠٨ . (٢) الإسراء : ٢٩ .

(٣) اغتنم خمسا قبل خمس ، ومنها : غناك قبل فقرك .

مسلم ، ونحن مطالبون بأن لا نولي مسلما ، أمراً من أمور الأمة ، على العكس لقد قال له : ﴿ **إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾ .

فقال يوسف عليه السلام : ﴿ **اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم** ﴾ .

هذا درس لمن يتولون مسئولية الشعوب في كل زمان ، لابد من الحفظ والعلم ، لم يقل له : ابن فلان ، أو عندى كذا ، ولم يقل له : أنا ابن المطرب أو الراقصة أو من المحاسيب ، ولكنه قال له : إن مؤهلاتي هي الحفظ والعلم ، فسلمه المسؤولية ، مسؤولية إطعام أمة بأكملها على مدار أربع عشرة سنة ، ولم تكن أمة واحدة ، بل شعوب لأن أهل الشام كانوا يأتون إلى مصر ليمتاروا منها أيام الجفاف ..

وهذا يبين لنا حقيقة التكافل الذى كان قائما في ذلك الزمان بين الجيران .

لم يقل الملك أو رئيس وزرائه ، هؤلاء أجانب وأقواتنا قليلة ، ولكنهما ومعهما شعب مصر فتحوا أذرعهم وقلوبهم لجيرانهم ، لإدراكهم أن الرزق بيد الله ، وإنما ترزق الناس وتنصر بضعفائها .

ويروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام في تلك السنين ، فقيل له : أتجوع وبيدك خزائن الأرض ؟؟ فقال : إنّي أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع ، وأمر يوسف طباخ الملك أن يجعل غداءه نصف النهار ، حتى يذوق الملك طعم الجوع ، فلا ينسى الجائعين(١) .

ومن المعالم التى ترسيها سيرة يوسف عليه السلام فى حياة الأمة ، أن الله سبحانه وتعالى قد تعهد شعب مصر وغيره من بنى آدم عليه السلام ، بالرسل يعرفونهم بربهم الحق ودين الله الحق وهو الإسلام ، أى أن الإسلام أصيل فى حياة شعب مصر منذ زمن طويل ، ولا عجب فى ذلك، فشعب مصر من ذرية المسلمين الذين نجوا مع نوح من الطوفان .

إن شعب مصر فى الأصل شعب مسلم ، والشرك والكفر الذى حدث بعد ذلك إنما هو طارئ عليه .

شعب مصر الإسلام عريق فى حياته ، دعاه إليه الرسل ومنهم يوسف عليه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢١٩ .

السلام ، قبل أن يولد الرسول المسلم عيسى عليه السلام بزمن طويل .

فى ضوء رسالة يوسف عليه السلام إلى شعب مصر ، وفى ضوء الإسلام الذى كان عليه أبناء مصر يمكن أن يعاد النظر فى دراسات التاريخ القديم التى قام بها المستشرقون ومن سار على نهجهم ، والتى تجاهلت دعوة الإسلام التى دعا إليها يوسف عليه السلام فى مصر .

فى ضوئها يمكن أن نجزم أن توحيد الله رب العالمين والإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار الذى كان يؤمن به شعب مصر ، وأثبتته الدراسات الأثرية ليست من اختراع العقل البشرى إنما هو نتيجة الرسالات السماوية التى حملها يوسف عليه السلام وغيره من الرسل إلى شعب مصر .

ويمكن أن نجزم فى ضوئها أيضا ، أن أرض مصر أرض إسلامية ، وهى للمسلمين ، وحينما جاء عمرو بن العاص إلى مصر بعد رسالة محمد ﷺ إنما أعاد شعب مصر إلى الإسلام الذى كان عليه الآباء والأجداد ، وإن كان لكل أمة على أيدى كل رسول شرعة ومنهاجا ...

ولعل هذه الحقيقة تكف ألسنة وأقلام هؤلاء الذين يصورون مصر على أنها غير إسلامية فها هو التاريخ المقترن بالوثائق كما بينا يؤكد حقيقة لا مراء فيها أن مصر إسلامية.

وبعد :

لقد عاشت مصر فى ظل يوسف الرسول والحاكم المسلم ، تنعم بالإسلام عقيدة وشريعة ، وجاءت أجيال ضعفت سلطان العقيدة ، وتفشى الظلم والانحراف فى حياتها ، فتسلط عليها الطغاة ، فأخرجوا من أخرجوا عن دينه ، وباتوا وأصبحوا يطاردون الموحدين فى كل مكان ، ومن هؤلاء الطغاة سنقنزع وأحمس وكامس الذين تحكى كتب التاريخ أنهم طاردوا الهكسوس أو الملوك الرعاة من مصر .

نهاية عصر الفترة الثانية :

يقول الأستاذ الدكتور أحمد فخرى فى كتابه مصر الفرعونية :

« أما عن الهكسوس فإن حرب أحمس فرقت شملهم ثم جاءت حروب تحوتمس فقطعت دابرهم ومحتهم محواً تاماً من صفحات التاريخ كقوة حربية أو كأمة لها كيانها » (١) .

وإن صح هذا الخبر ، فذلك يعنى أنه قد تسلط الفراعنة على بنى إسرائيل الذين كانوا فى مصر بعد وفاة يوسف عليه السلام . وتسلط المشركون على ذرية المسلمين ليس له إلا تفسير واحد فى ضوء السنن الربانية وهو أن بنى إسرائيل قد انحرفوا عن دينهم (الإسلام) ، فسلط الله عليهم من الفراعنة من طردهم من البلاد يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ . وهذا يفسر لنا الحملة الشرسة التى حمل لواءها فراعنة ماتسمى بالدولة الحديثة ، والتى بدأها سنقنرع وأحمس وكامس ضد الإسلام والمسلمين فى مصر وبلاد الشام .

(١) صفحة ٢١٦ ، ولا علاقة مطلقا بين الدولة التى تسمت باسم إسرائيل بعد أن قتلت وشردت أهلها واغتصبت أرضها ، وبين النبى الكريم المسلم إسرائيل عليه السلام — إنما هو التشابه فى الأسماء ، وهو التدليس لاغتصاب أرض الأنبياء والمسلمين .

الفصل الثالث

مايُسمى عصر الدولة الحديثة

عصر تنحية أبناء المسلمين عن موقع القيادة بعد انحرافهم عن دينهم

عصر التمكين للفراعنة الطغاة من باب الاستدراج

﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ [1]

المبحث الأول

الدولة الحديثة « الأسرات ١٨ ــ ٢٠ »

فى مراجع التاريخ القديم

(١٥٧٠ ــ ١٠٩٠ ق . م)

الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٠ ــ ١٠٩٠ ق . م) :

أحمس الأول (٢٢ عاما) :

أحمس هو ابن سنقنزع . ولقد بدأت مصر بحكم هذا الملك عهدا جديدا فى تاريخها ، إذ أنه أخذ على عاتقه استمراره فى مطاردة الهكسوس فهزمهم فى فلسطين [2] وذلك غير جهوده التى بذلها لتأمين حدود مصر الجنوبية والتى فى أثنائها حدثت ثورة من الموالين للهكسوس (؟) أو سلالتهم [3] (؟) فى مصر ولذلك فقد عاد وأجهز عليها .

---

(١) آل عمران : ١٩٦ ــ ١٩٧ .
(٢) حضارة مصر الفرعونية ص ٢٢٢ .

(٣) هم عالنا المسلمون من ذرية يعقوب وإخوان يوسف عليهما السلام ، والذين جاءوا من البلاد المجاورة إلى مصر .

ومن الشخصيات التى ارتبط ظهورها بذلك العصر ، وكان لها دور كبير فى الحرب ضد الهكسوس ، حث الملوك والشعب على القتال ، تتى شرى جدة الملك أحمس ، واعح حتب والدته ، وأحمس نفرتارى ، التى تزوجت من أخيها كامس ، ثم من أخيها أحمس[١] ، وقد خلدت الآثار ذكر هن ، التى تشير إلى أن الناس كانوا ينظرون إليهما نظرة عبادة واحترام كما يزعم كتاب التاريخ .

أمنحتب الأول (٢١ عاما) :

تولى العرش بعد وفاة أبيه أحمس ، وقد كان يافعا ولذلك تولت والدته أحمس نفرتارى مهمة توجيهه فى بداية حكمه .

ومن أهم أعماله خروجه على رأس جيشه للاطمئنان على ملكه فى سوريا وفى ليبيا ، وفى شمال السودان . وقد تمتعت البلاد فى عهده بالهدوء ، ولذلك فقد أخذ هذا الملك الشاب يوجه الجهود إلى تعمير المعابد والإكثار من الإنشاءات وقد توفى هذا الملك دون أن يترك ولدا يتولى عرش البلاد .

ويقول الدكتور فخرى أن امنحتب كان رفيقا برعيته[٢] .. ولأمر ما ظل عمال الجبانة فى طيبة قرونا عدة بعد وفاته يعبدونه ويقدمون له القرابين .

تحتمس الأول (٣٠ عاما) :

من المرجح أنه أحد أمراء البيت المالك وأنه قد اعتلى العرش وعمره أربعون عاما بعد أن تزوج من الأميرة صاحبة الحق فى تولى العرش .

ويعتبر هذا الملك هو أول من وضع اللبنة الأولى فى بناء صرح مملكة الفراعنة خارج الحدود المصرية . ولتحقيق هذا الهدف ، فقد قاد جيوشه لتأمين ومد حدود مصر الجنوبية حتى الشلال الرابع جنوبا ، وقد كان ذلك العهد بداية اصطباغ بلاد النوبة وشمال السودان بالصبغة المصرية ، وبعد ذلك اتجه بجيوشه إلى آسيا حتى وصل إلى نهر الفرات حيث قام باصطياد بعض الفيلة التى أرسل بعضا منها إلى معبد آمون فى طيبة وذلك كما تروى

---

(١) وإن صح هذا الخبر فهو دليل على الانحراف الذى أصاب حكام مصر فاستحلّوا المحارم ، وأشركوا بالله .

(٢) وهل الرفق بالرعية ، يبرر للناس عبادته من دون الله ؟ .

النصوص المصرية القديمة .

ومن أعمال هذا الملك أيضا ، المبانى الفخمة التى أقامها فى معبد [1] الكرنك وعلى الأخص المعبد الكبير الذى أقيمت أمامه مسلتان ولا زالت إحداهما حتى الآن .

وتعرف من نقوش ذلك العصر أن البلاد قد تمتعت فى عهده بالرخاء ، نتيجة لتدفق الضرائب وخيرات الأمم الأخرى على خزانة طيبة .

والجدير بالذكر أن الملكية فى هذا العصر استمسكت بما استمسكت به الملكيات القديمة من حيث الإصرار **على المركزية الواسعة وادعاء حق الحكم الإلهى والقول بالوراثة المقدسة والبنوة للآلهة الكبار**[2] .

تحتمس الثانى (٥ سنوات) :

هوابن تحتمس الأول من زوجته غير الملكية « موت نفرت » وهو أخ غير شقيق للملكة حتشبسوت المولودة من الزوجة الملكية « أحمس » ولذلك فقد كان طبيعيا أن يثور النزاع بين تحتمس الثانى وبين حتشبسوت بشأن الأحقية فى تولى الملك ، ولذلك فقد اضطربت الأمور ، وبدأت المؤامرات تأخذ سبيلها داخل البلاد وخارجها .

ولذلك نرى ثورة تقوم فى شمال السودان ضد الحكم المصرى فيرسل إليها الملك تحتمس الثانى جيشا هزم الثوار ، وأعاد الأمور إلى نصابها .

وهناك احتمال أن قبائل البدو التى كانت موجودة فى شرق مصر قد انتهزت هذه الفرصة وبدأت تقطع الطريق على القوافل فأدبها جيش تحتمس الثانى .

وبالإضافة إلى ذلك أظهر هذا الملك الكثير من الاهتمام بالبناء والتعمير .

---

(١) وهذا مايفعله الطاغوت فى كل زمان ، إقامة معابد للطاغوت ، والطاغوت هو كل مايعبد من دون الله ، فمعاهد الرقص والغناء والموسيقى والنحت وصناعة التماثيل ، كلّها معابد للطاغوت ، وفيها تهدر أموال الأمة ، وقــدرات الشباب ، أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ؟

(٢) مصر الفرعونية ص ٢٢٦ ــ ٢٢٨ ، وهذا شرك بالله ، كأنه ليس هناك استخلاف ، من الله للناس ــ وهم عبيد الرحمن فى الحكم ــ بشروط أهمها أن يقروا بالألوهية والربوبية لله الواحد الأحد ، ويقيموا شرع الله فى حياتهم ؛ وزعمهم أيضا بأنهم أبناء الإله . وهذا أيضا شرك بالله رب العالمين .

وبعد موت هذا الملك ، انفجر الصراع الشديد المتوقع بين حتشبسوت التى كانت قوية الشكيمة وورثت حب المجالدة عن والدها تحمس الأول وبين الملك تحتمس الثالث[١] .

الملكة حتشبسوت (١٨ عاما) :

لا يتسع المجال هنا لتناول موضوع الصراع ، ولكن كل ما يجب قوله أن حتشبسوت قد أتيح لها أخذ مقاليد الأمور فى يدها ، والاستئثار بحكم البلاد ، يدل على ذلك أنها بدأت تظهر فى رسومات المعابد وقد ارتدت زى الرجال ، واستخدمت الضمير المذكر فى الحديث عن نفسها . وذلك لإقناع الجماهير أن اعتلاءها عرش مصر لم يغير شيئا فى التقاليد المتبعة .

ويبدو أن هذا الموضوع ، لم يرق للجميع بدليل ما عمل لها من الدعاية السياسية التى تتمثل فيما حاكته هذه السيدة عن نفسها وسجل على جدران معبد الكرنك ومعبد الدير البحرى [٢] بأنها ليست من صلب أبيها ، ولكنها من صلب « آمون رع » الذى اختار أمها الملكة أحمس لتكون أما لابنة له تحكم مصر ، وذلك بالإضافة إلى تمسجيل مبايعة أبيها تحتمس الأول لها بالملك أثناء حياته .

وكانت سياسة حتشبسوت الخارجية تعتمد على توثيق صلاتها بالدول الإفريقية . ولم يعرف لهذه الملكة أى نشاط عسكرى ذو قيمة . ومن أهم إنشاءاتها المعمارية ، بخلاف معبد الدير البحرى ، صالة معبد الكرنك ومسلتيها وذلك غير معبد آخر من الجرانيت بالكرنك أيضا . ولا يعرف حتى الآن كيف انتهت حياة هذه الملكة التى لم يعثر على جثتها ويذهب المؤرخون إلى أن نهايتها كانت محزنة إذ أن الفرصة قد أتيحت لتحتمس الثالث لاستعادة عرش البلاد . وحينئذ لم يتوان لحظة فى إزالة اسمها من كل أثر وتحطيم مقابر أصفيائها وأسمائها كما صب جام غضبه على كل ما شادته وأقامته . فحطم تماثيلها .

هكذا انتهى حكم حتشبسوت بهذه الكارثة ، التى كانت كفيلة بإيقاظ الفتن داخل البلاد وخارجها ، كما تحكى مراجع التاريخ القديم .

---

(١) مصر الفرعونية ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

(٢) بناه المهندس سموت للملكة حتشبسوت فى الدير البحرى بالقرب من مقبرة منتوحب الثانى . ومن أهم نقوش هذا المعبد مناظر الرحلة البحرية التى أرسلتها الملكة إلى بلاد بونت لإحضار خيرات ومنتجات هذه البلاد . مصر الفرعونية ، ص ٢٢٩ — ٢٣٣ .

تحتمس الثالث (حكم ٥٤ عاماً) :

فى هذه الفترة التى كثرت فيها الفتن ، اعتلى عرش البلاد ملك هو تحتمس الثالث ، الذى أخذ يعد العدة للقضاء على الفتن والثورات التى شبت فى آسيا بهدف التحرر من الحكم المصرى .

وقد بلغ عدد الحملات التى قادها ستة عشرة ، أولها [1] كانت فى العام الثانى والعشرين من حكمه ، وقد كانت هذه الحملة فاتحة لبقية الحملات التى كانت كلها تتم أثناء الصيف ، على أن يعود الملك أثناء فصل الشتاء إلى مصر ، للإشراف على الأعمال الإنشائية والتعميرية .

وفى العام الحادى والثلاثين من حكمه قاد حملة سادسة للاستيلاء على قادش بعد أن أعد بعض الموانىء السورية لتكون قاعدة للأسطول المصرى ، ضامنا بذلك تعاون الأسطول مع القوات البرية .

---

(١) سجلت تفاصيلها على جدران معبد الكرنك وتحرك الجيش المصرى إلى فلسطين بقيادة الفرعون تحتمس الثالث من حصن ثارو ، شرق القنطرة الحالية ، فوصل إلى غزة ومنها تحرك فى طريقه إلى مجدو حيث نمى إلى علم تحتمس الثالث من رجال مخابراته أن أعداءه من زعماء سوريا وفلسطين بزعامة أمير قادش الذى يقال عنه أنه كان ميتانى الأصل أو على الأقل ممن استمالوا لهم قد جمعوا جموعهم عند مجدو (فى الناحية الشمالية الشرقية من جبال الكرمل) ومعناها الحصن ومكانها « تل المتسلم الحالى » وكان موقعها يسمح لها بالتحكم فى الممرات الجبلية التى تعترض طرق التجارة بين بلاد النهرين وسوريا من ناحية وبين فلسطين ومصر من ناحية أخرى وحينما وصل الجيش المصرى جبال الكرمل قرر تحتمس الثالث سلوك الطريق الصعب الذى يوصل مباشرة إلى مجدو ، بدلا من سلوك أى من الطريقين اللذين يدوران حول سفح جبال الكرمل ، وذلك على الرغم من نصيحة قواده من أنه ليس من الحكمة المخاطرة بسلامة الجيش .

وقد كان تحتمس الثالث يهدف من وراء سلوك هذا الطريق إلى مفاجأة العدو الذى كان يتوقع سلوكه للطريقين الآخرين ، واحتاز الجيش الطريق الوعر ثم عسكر عند مدخل وادى (قينا) حتى تم تجميع فرقه وأفراد قواته . وفى اليوم التالى هجم الجيش المصرى على مجدو فى هيئة نصف دائرة ، وما لبث المدافعون أن ولوا الأدبار للتحصن داخل المدينة وقد كان فى الإمكان أن يستولى الجيش المصرى على مجدو لولا أن شغل الجند بالغنائم مما أعطى الفرصة للأعداء للتحصن داخل المدينة وقد كلفتهم الغلطة حصارا دام سبعة أشهر قبل أن تستسلم لهم المدينة استسلاما تاما ، ويقدم كل من فيها الولاء لتحتمس الثالث ، ما عدا أمير قادش فر إلى خارج المدينة . وما إن فرغ الملك من الاستيلاء على مجدو حتى عاد إلى مصر . وقد غنم المصريون الكثير من الأشياء فى أثناء هذه الحملة التى من أهم نتائجها إعادة الاستقرار للحكم المصرى فى جنوب سوريا وهنا نتساءل ، هل كان من حق مصر فى ذلك الوقت أن تجبر غيرها على الانضواء تحت لوائها ؟ (مصر الفرعونية ، ٢٣٤ ـــ ٢٣٥)

وفى الحملة الثالثة ، استولى تحتمس الثالث على مدينة قرقميش وغيرها من مدن العراق مقيما على ضفة الفرات لوحة حدودية إلى جوار لوحة جده تحتمس الأول ، تذكر بحدود مصر التى وصلت إلى شمال غرب بلاد العراق القديم .

وبذلك يمكن القول أن نفوذ مصر قد امتد إلى غرب آسيا بدليل أن القوى التى كانت موجودة على هذا المسرح ، سواء الميتان أو الحيثيين أو الآشوريين أو البابليين ، بدأوا يخطبون ود الملك المصرى ويقدمون له الهدايا . كما أن موانىء الشاطىء السورى وفلسطين وجزر البحر المتوسط كانت تحت نفوذ مصر أيضا .

ولكن ذلك لم يكن يعنى استقرار الأمور نهائيا على هذا الوضع ، فقد اضطر الملك تحتمس الثالث إلى الخروج فى حملته السادسة عشرة لتأديب مدينه قادش التى كان يؤازرها الميتان ومدينة تونيب (بالقرب من حماة) . وقد سقطت قادش وبذلك انتهى كل أثر لمعارضة النفوذ المصرى هناك . وبذلك يمكن القول أن مملكة الفراعنة قد امتدت حدودها من جبل برقل عند الشلال الرابع جنوبا حتى أطراف مياه نهر الفرات بالعراق شمالا [1]

وتصور المصادر المصرية أن مصر قد نعمت فى أيام حكم تحتمس الثالث التى امتدت ١٢ عاما بعد حملته الأخيرة بعدالة اجتماعية وبرخاء اقتصادى نتيجة ضرائب وخيرات ومنتجات البلاد الأجنبية التى كانت تصب فى الخزانة المصرية من إفريقيا وآسيا وجزر البحر الأبيض ، كما تزعم مراجع التاريخ القديم .

ومن أهم وزراء ذلك العصر ، رخ مى رع وبويمرع وآمون مس وغيرهم الذين تعتبر مقابرهم فى البر الغربى بالأقصر (طيبة) مصدرا من مصادر معلوماتنا عن مدنيات الشعوب الأخرى ، والحياة الاجتماعية فى مصر فى ذلك الوقت .

وقد اقترن عهد هذا الملك بالكثير من المنشآت المعمارية ، فبنى المعابد والهياكل وأقام المسلات وتوفى تحتمس الثالث ، ليخلفه على العرش ابنه أمنحتب الثانى .

أمنحتب الثانى (حكم ٢٦ عاماً) :

تولى أمنحتب عرش البلاد وقد جاوز الثامنة عشر من عمره ، وذلك يعنى أنه قد

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

مع باطونه بالحبوس خرج ليملأ سمع الدنيا ويبصرها باستعراضات أبيه أثناء حياته ولقد أعد إعدادا عسكريا خاصا مع الكثير من أبناء ضباط أبيه وكبار رجال البلاد وأبناء أمراء آسيا فى مدرسة القصر[1] التى أسسها تحتمس الثالث فى طيبه .

ولقد كان هذا الملك مغرما بالفروسية والرياضة بأنواعها وعلى الأخص الرماية وتصور المصادر المصرية أن هذا الملك قد جلس على العرش وخزائن البلاد عامرة ، وشعوبها آمنة ، وفى أثناء توليه العرش ، انتهزت المدن السورية فرصة وفاة والده كى تستقل بنفسها عن الحكم المصرى فأغضب هذا الملك وعد ذلك استخفافا به وسار إلى سوريا على رأس جيشه حيث أنزل بهم أشد أنواع الانتقام

وكان ذلك كافيا لبث الرعب فى قلب كل من تحدثه نفسه بالخروج على الفرعون الجالس على عرش مصر ، وكان من نتيجة ذلك أن الميتان الذين ألبوا المدن السورية وكذلك مدينة قادش على الحكم المصرى استمرت فى إرسال هداياها إلى الملك المصرى ضمانا لحسن معاملته .

وقد قاد هذا الملك حملة تفتيشية فى فلسطين ، ويقال إن النفوذ المصرى امتد فى عهده حتى قبيل مدينة الخرطوم .

وقد أعقب أمنحتب الثانى ، ابنه تحتمس الرابع (الذى حكم ٩ سنوات) أحد أبنائه الخمسة الذين وصلوا إلى عرش مصر بعد نزاع دار بينه وبينهم ، والذى سار على نهج آبائه وأجداده . ومن الأحداث البارزة فى عصره زواجه من ابنة الملك الميتانى « ارتاتاما » ، والتى أصبحت فيما بعد أما للملك أمنحتب الثالث الذى تولى العرش بعد وفاة أبيه .

أمنحتب الثالث (حكم ٣٦ عاماً) :

لقد طرأ كثير من التغيرات على التقاليد الدينية والحياة الاجتماعية فى مصر نتيجة اتصال مصر بالشعوب المجاورة فى أعقاب الفتوحات المصرية .

وينعكس ذلك التغير فى آدابهم ولغتهم . كما يعكسه لنا زواج تحتمس الرابع من أميرة ميتانية تنجب له ولدا هو امنحتب الثالث الذى تربع على عرش مصر ، ويعكس ذلك أيضا

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٢ ـــ ٢٤٧ .

معاملة امنحتب الثالث لزوجته الملكة « تى » .

لقد كانت هذه الفترة ، فترة رخاء واسترخاء ، فالخزانة العامة تفيض بالأموال والمخازن تغص بالمؤن والمنتجات والثروات ، وكان على العرش ملك غير ميال للحروب فأخذ يبتنى المعابد الجميلة والقصور البادخة ، وأخذ يعيش حياة كلها ترف وبدخ فطبع البلاد بطابعه ، « والناس على دين ملوكهم » فانغمس الشباب فى حياة الترف والمجون ، ولم يكن هنالك مايحول بينه وبين الاندفاع وراء شهوته وملذاته ... ولقد كانت هذه بداية النهاية لتاريخ المملكة المصرية — كما سنرى فيما بعد .

لقد اتبع الملك امنحتب الثالث شهواته فأخذ يعيش حياته متمتعا بزوجاته والمئات من جواريه ، ناسيا أن هنالك رعية تحتاج إلى رعايته وأنه لا بد أن يكون قدوة طيبة لأبناء دولته .

وكما قلنا لقد انعكست هذه الملامح الفاسدة على المجتمع الذى غص بالأجانب ، سرات الحرب اللائى كن خير معوان على ذلك ، فكثرت حفلات الرقص والغناء فى منازل دبار الموظفين وامتدت إلى جميع الطبقات الأخرى ، بل وازداد الأمر سوءا عندما أقيمت مشارب الخمور حيث الفتيات والراقصات والمحترفات ، والتى كان يرتادها طبقات الشعب ، ومما لا شك فيه ، لقد كان ذلك بداية كافية لتحطيم الشباب وأخلاقه وإذا ما انهار الشباب وهو عماد الأمة ، فلا فائدة ترجى بعد ذلك ، ولكن ذلك لم يكن يروق للجميع فلا تحرم أمة من دعاة إلى التمسك بالأخلاق الفاضلة والقيم الفاضلة ممن أخذوا على عاتقهم التصدى للفساد وأعوانه ، ويتضح لنا ذلك جليا إذا ما قرأنا — على إحدى البرديات — أن أحد الأساتذة يحذر تلميذه من ارتياد أماكن شرب الخمور واصفا له ما يحدث بداخلها من أعمال تنافى والأخلاق الكريمة [1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٠ — ٢٥٧ . كان من الواجب على حكام مصر وقد أنعم الله عليهم بالرزق الوفير أن يشكروا المنعم سبحانه وتعالى : ﴿ **كلوا من رزق ربكم واشكروا له** ﴾ . وشكر المنعم سبحانه وتعالى يستوجب إفراده وحده بالعبادة ، وتصريف النّعم فى مصارفها الشرعية بدلا من تصريفها فى تحصيل المعاصى التى توجب غضب العزيز الجبار ومقته وعقابه . إن حكام مصر قد شحعوا الرذيلة — كما قرأنا — وطاردوا المسلمين الموحدين داخل مصر وخارجها منذ نهاية الأسرة السابعة عشرة لقد فسد حكام البلاد وبالتالى فسدت الرعية ، لأن الناس على دين ملوكهم .

والرخاء الذى نلمحه هنا فى ضوء السنن الربانى هو من باب الاستدراج ﴿ **فلما نسوا ماذكروا به فتحنا** =

ولقد سار فى هذا الاتجاه أصحاب الحرف والفنون وكذلك المعماريون ويؤكد ذلك عمارة معبد الأقصر وأفنيته وأعمدته ونقوشه ، وكذلك مقابر الأشخاص الذين عاشوا فى أيامه مثل « رع موسى » ، وذلك غير بقايا معبد أمنحتب الثالث الجنازى خلف تمثالى ممنون اللذين يمثلانه ، والقصر الذى بناه لزوجته[1] على الضفة الغربية للنيل .

ولكن لم يكن من الممكن أن تسير الأمور على هذا النسق لفترة طويلة ، فسرعان ما بدت علامات التصدع فى البنيان :

١ ـــ ملك دون الخمسين أنهكته الملذات وزوجته الملكة « تى » هى التى تسير شئون البلاد .

٢ ـــ حكام البلاد المجاورة للدولة المصرية لم يكن يكفيهم صلات الود والمصاهرة ، إذا أن الشعوب قد بدأت تحس بما يجرى على أرض مصر ، ولم يكن من الممكن أن يقبلوا ذلك حتى ولو وافق ذلك مزاج حكامهم .

٣ ـــ بدأ رجال الدين (كهان آمون رع) يأخذون على الملك ورعاياه التحرر من الديانات والتقاليد ، لأن ذلك يعنى انهيار سلطانهم الوثنى على النفوس .

ولذلك نرى الملك يتجه إلى تشجيع عبادة وثن آخر هو بتاح ليضرب به عبادة « آمون رع » حتى يتخلص من سطوة سدنة وكهان « بتاح » ذلك الوثن معبود منف ويعين ابنه كاهنا له [2] .

لقد كان كل شى فى مصر فى حاجة إلى إصلاح ملح وسريع ، استدراكا لبوادر هذا الانهيار ، لقد كانت الأحوال فى حاجة إلى منقذ رضى بالله ربا وبالإسلام دينا لقد كانت البلاد فى حاجة أن تعود حياتها كلها إلى منهج الله يسيرها كما يريد الله . ولكن ذلك لم

= عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ .

(١) لقد كانت له زوجات أجنبيات أخريات إذ تزوج من ابنة الملك الميتانى سوتارنا ابن خاله ، وقد جاءت هذه الأميرة إلى البلاد ومعها ٢١٧ من وصيفاتها . كن من نصيب رجال البلاط كما تزوج من الأميرة ابنة الملك توسراتا وذلك غير أميرات وآموريات وسوريات ، وهكذا كشف لنا كتاب التاريخ عن حاكم غرق فى الترف والمجون حتى أذنيه ، أحاطت به بطانة سوء كان همها أن تَعُبّ من الفساد عبًا .

(٢) هكذا صور لنا كتاب التاريخ القديم حكام مصر على أنهم يشركون بالله سبحانه وتعالى

يحدث فقد رقى عرش البلاد ، شاب حالم شاعر ذا إحساس مرهف عميق كما يزعم كتاب التاريخ هو أمنحتب الرابع زوج « نفرتيتى » .

أمنحتب الرابع (أخناتون) وما يسمى بالثورة الدينية [1] :

فساد الزعم القائل : أن أخناتون أول موحد فى التاريخ :

ذكر كتاب التاريخ أن أهم أحداث عصر هذا الملك ، الثورة الدينية التى قادها وأراد التصدى بها لتسلط وطغيان كهنة الوثن « آمون رع » واتجه بمشاعره إلى عبادة وثن آخر هو « آتون » الذى عبر عنه بالقوة الكامنة فى قرص الشمس ، وأقام له معبدا بالقرب من معبد الكرنك ، وغير اسمه إلى « أخ ـــ ان ـــ آتون » (أخناتون) كما بدأ يقف فى وجه كهنة آمون ، وكان من الطبيعى أن يتبع ذلك انقسام الناس منهم من يتبع ذلك الدين الجديد ومنهم من يبقى على القديم ، ويقال إن الأب أمنحتب الثالث لم يكن راضيا عن هذه الفتنة بالرغم أنه عين ابنه فى وظيفة « كاهن بتاح » ويبدو أنه قد بدأ يفيق على انهيار ملكهم فى آسيا ، واستقلال سوريا الشمالية وامتناع الضرائب والأموال عن الصب فى خزانة مصر .

ويبدو أن نزاعا قد شب بين الأب « أمنحتب الثالث » والأم « تى » والابن أخناتون الذى ترك العاصمة طيبة ورحل إلى الشمال حيث اختار مكانا على مقربة من تل العمارنة (مركز ملوى) حيث بنى عليه عاصمة جديدة أسماها « أخت أتون » وهنا أقام وزوجته ورجال بلاطه ، مقسما ألا يغادر أخت آتون مادام حيا ، ويبدو أن « أخناتون » كان حقده على « آمون » وكهنته لا حدود له فقد محا اسمه أين ما كان حتى ولو كان فى اسم أبيه وأمه ، وأقصى عن الحكم والإدارة من لم يتبعه فى دينه الجديد ، فولى شئون البلاد رجالا حديثى العهد بفنون الحكم وكان ذلك كافيا للإتيان على البقية الباقية من كيان الدولة .

فها نحن نرى الدولة الحيثية تغير على سوريا وتحتلها بلدة بعد أخرى كما أن عدة مدن فلسطينية بدأت تستقل بأمورها .

ارتفعت صيحات المخلصين من أهل الملك ، وأصدقائه فى أنحاء الدولة عسى أن

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٧ ـــ ٢٦٠ .

يثوب الملك إلى رشده ، لوقف الانهيار الذى بدأ يزحف على أوصال الدولة ولكنها لم تجد أذنا صاغية وصدق القائل سبحانه ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا** ﴾ .

راد الطين بلة التآمر على حياة الملك الذى كاد أن يقتل لولا يقظة حراسه ، فزاده ذلك عزوفا عن مخالطة الناس ، فانزوى فى قصره ، مقربا إليه المتملقين والمداهنين تاركا الأمور تجرى فى أعنتها .

وقد مات أخناتون تاركا على العرش « أخا له أو ابن أخ » هو « توت عنخ آتون » .

أهم الآثار الفكرية لعهد أخناتون :

بعض فقرات من تسابحه(١) :

« أيها الخالق لبذرة الحياة فى النساء .
إنك أنت الذى يجعل من البذرة السائلة إنسانا .
إنك أنت الذى يعنى بالطفل فى بطن أمه .
وأنت الذى يهدئه بما يوقف بكاءه .
لأنك تعنى به وهو فى الرحم .

---

(١) وقد زعم كتاب التاريخ ، المستشرقون ومن سار على نهجهم ، أن أخناتون أول موحِّد فى التاريخ وأنه قد وصل إلى ذلك من تلقاء نفسه ، وعنه أخذ الأنبياء الفكرة وأقاموا دياناتهم ، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة ، تأليف جيمس هنرى برستد ترجمة زكى سوس ، ص ٤٥٧ ــ ٤٥٩ ، الشرق الخالد ، تأليف د / عبد الحميد زايد ، ص ب ؛ مصر والشرق القديم تأليف د / محمد أنور شكرى ، ص ٢٠٧ .

وقد اعتمدوا فى زعمهم هذا على ماورد فى النشد الذى يسمى تسابيح أخناتون والذى أوردناه هنا .

وهذه المزاعم غير صحيحة ، فالكون كله مفطور على توحيد الله (الإسلام) وخلق الله آدم أبا للبشر جميعا موحدا مسلماً ، وبين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، وشعب مصر كان يدين بالإسلام فى فترات سابقة على عهد أخناتون ، ولذلك يمكن القول بأن ماورد فى تسابيح أخناتون من توحيد الله رب العالمين هو من آثار الرسالات السماوية السابقة على عهد أخناتون مثل رسالة يوسف عليه السلام الذى كان يعلم الناس التوحيد ويدعو إلى الإسلام ﴿ **أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ يوسف : ٣٩ ــ ٤٠ وسنفند هذه الشبهة تفصيلا إن شاء الله (انظر أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الرسالة الأولى ، الإسلام دين الله فى الأرض والسماء ، نشر دار الوفاء ــ المنصورة ــ مصر ؛ دار طيبة ــ الرياض .

أنت الذى يعطى النفس ليحفظ حياة كل من يخلقهم .
عندما ينزل (الطفل) من بطن أمه ليتنفس .
فى اليوم الذى يولد فيه .
تفتح فمه ، وتمده بكل ما يحتاج إليه .
وعندما يصرخ الفرخ (الكتكوت) وهو داخل البيضة .
فأنت الذى تمده بالنفس فى داخلها ليعيش .
وعندما تتم خلقه داخل البيضة ، تجعله يكسرها .
ويخرج من البيضة وهو يصوصو إذا ما حان موعده .
ويمشى على رجليه عندما يخرج منها .

* * *

ما أعظم (أعمالك) التى عملتها !
إنها خافية على الناس .
أيها الإله الأوحد الذى لا شبيه له !
لقد خلقت الدنيا كما شئت !
عندما كنت وحدك .
الناس والماشية والوحوش الضارية .
وكل ما على الأرض يسعى على قدميه .
وكل ما يرتفع (فى السماء) يطير بجناحيه .

* * *

« فى » بلاد سوريا والنوبة وأرض مصر .
تضع كل شىء فى مكانه .
إنك أنت الذى يمدهم بما يحتاجونه .
يحصل كل شخص على طعامه ، وسنوات حياته مقدرة له .
يختلف الناس فى لغاتهم .
كما يختلفون أيضا فى طبائعهم .
يمتاز لون جلودهم عن بعضهم البعض .

لأنك أنت الذى يميز أهل الأمم الأجنبية .
أنت الذى خلقت نيلا فى ذلك العالم الآخر .
وأنت الذى يأتى به عندما يشاء ، لتبقى على الناس .
وذلك لأنك أنت الذى خلقتهم لأجل نفسك .
وأنت سيدهم جميعا الذى يشغل نفسه من أجلهم ، سيد كل أرض الذى يشرف لأجلهم .
أنت آتون (شمس) النهار ، عظيم البهاء .

* * *

أنت الذى يعطى الحياة (أيضا) لكل البلاد الأجنبية البعيدة .
لأنك خلقت نيلا فى السماء .
لينزل لأجلهم ويحدث أمواجا فوق الجبال .
مثل (أمواج) البحر .
لتروى حقولهم التى فى قراهم .
ما أجمل أعمالك يارب الأبدية !
فالنيل الذى فى السماء (خلقته) للأجانب .
ولكل حيوانات الصحراء التى تسعى على الأقدام .
أما النيل (الحقيقى) فإنه ينبع من العالم الآخر لأجل مصر .
تغذى أشعتك كل مرج .
وعندما تشرق ، تحيا وتنمو لأجلك
وجعلت فصول السنة لتغذى كل ما خلقت .
فالشتاء يبرد أجسامهم .
والحرارة تجعلهم يحسون بك .

* * *

أنت فى قلبى .
أنت الذى صنعت الدنيا بيديك .

وخلقت (الناس) كما شئت أن نصورهم .

أنت فى قلبى ، وليس هناك من يعرفك .

غير إنك « نفر — حبرو — ر ع ، واع — ان — ر ع لأنك أنت الذى خلقته عالما بمقاصدك ومدركا (لقونك) .

أنت الذى صنعت الدنيا بيديك .

وخلقت (الناس) كما شئت أن نصورهم .

فهم يحيون عندما تشرق ، ويموتون عندما تغرب ،

إنك أنت الحياة نعمها .

ويعيش الإنسان (فقط) إذا أردت .

تتعلق العيون بالجمال حتى تغيب .

ويترك الناس أعمالهم عندما تغرب فى الغرب .

ولكنى عندما (تشرق) ثانية .[1]

يزدهر كل شيء لأجل الملك .

لأنك أنت الذى خلقت الأرض .

وأنت الذى خلقتهم (أى الناس) لأجل ابنك الذى ولد من صلبك ملك الوجه القبلى والوجه البحرى ... أخناتون .

وزوجة الملك العظيمة ... نفرتيتى .

عاشت ممتعة بالشباب دائماً وإلى الأبد » [2].

توت عنخ آتون (١٠ سنوات) :

وقد رزقت البلاد فى عهده برجلين أحدهما هو « آى » الذى حاول أن يصلح

---

(١) يلاحظ أن الكاتب المصرى (أخناتون) القديم قد صرف الكثير من صفات الله تعالى إلى الوثن آتون ، ومعرفة الكاتب أو أخناتون لصفات الله تعالى ؛ قد تحقق من معرفته برسالات الرسل الذين بعثوا إلى شعب مصر يدعونه إلى التوحيد والاستسلام لله رب العالمين ، كما بينا .

(٢) هذا النص منقول عن حضارة مصر الفرعونية ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

الأحوال الداخلية للبلاد « وحور محب » قائد الجيش الذى آثر ألا يتدخل فى الصراع — بين أتباع آتون وكهنة آمون — وبقى فى منف بعيداً عن « طيبة » وعن « تل العمارنة » وقد قام حور محب بقيادة القوات المصرية لإعادة الأمن إلى نصابه فى بعض مستعمرات مصر فى فلسطين وفينيقيا .

وقد بقى توت عنخ آمون ثلاث سنوات فى العمارنة ثم انتقل بعدها إلى طيبة ، حيث رضخ لسطوة وشروط كهنة آمون بعد أن غير دينه وهجر ديانة آتون وغير اسمه إلى توت عنخ آمون . وبدأ الكهنة يصبون جام غضبهم على كل من كان له صلة بديانة آتون . وكان على الملك الصغير الذى حكم وله من العمر ٩ سنوات أن ينصاع لمطالبهم ، فبنى المعابد وأقام التماثيل وعين كهنة ومرتلين لوثنة « آمون » وهكذا ارتكست حياة الناس فى الشرك .

ويعتبر ذلك العصر بداية تسلط الكهنة على الدولة فى محاولة جادة للوصول إلى سلطة الحكم . وبعد وفاة[1] هذا الملك جاء إلى العرش ملك يقال عنه أنه آخر غريب عن البيت المالك هو « آى » الذى أعقبه على عرش البلاد قائد الجيش « حور محب » .

حور محب (٣٠ عاماً) :

لقد كان ذلك الملك ذكياً ، قد صقلته التجارب ، فوجه كل جهوده للإصلاح الداخلى ، بدلا من إضاعة موارد البلاد فى حروب غير مضمونة النتائج ، ولذلك فإنه عقد معاهدة مع ملك الحيثيين مورسيل الثالث . ووجه همه إلى تطبيق الكثير من التشريعات للقضاء على تدهور الأحوال وما كان يقع من ظلم على المساكين والفقراء ، وما تفشى من رشوة بين الموظفين .

ولا شك أن البلاد قد عاودها هدوءها القديم ، وأن الأمور الداخلية عادت إلى أحوالها الطبيعية [2] .

---

(١) ترك لنا هذا الملك مقبرة فى وادى الملوك ، مزودة بجميع أنواع الأدوات التى كان يستعملها فى حياته اليومية من الحلى والأثاث والملابس وأدوات الزينة والأسلحة والعربات وذلك غير تابوته الذى يزن ١١٠ كيلو جرام من الذهب الخالص ، وذلك غير النقوش والنصوص الدينية التي زينت جدران مقبرته . مصر الفرعونية ، ص ٢٨٤ — ٢٨٧.
وهكذا أهدر الفراعنة الثروات فى بناء القبور وتزيينها وتأثيثها كما لو كانت قصراً من القصور الأبدية .

(٢) مصر الفرعونية ، ص ٢٨١ — ٢٩١ .

المبحث الثاني

تقويم تاريخ مصر العقدى والسياسى والاجتماعى والاقتصادى فى عصر الدولة الحديثة (الأسرة الثامنة عشرة) فى ضوء العقيدة الإسلامية « بعد موت يوسف عليه السلام وإسقاط حكم ملوك الرعاة »

إن العقيدة التى تدين بها الأمة المسلمة ، هي عقيدة الإسلام وعلى هذه العقيدة يقوم نظام وشرع يجب أن تخضع الأمة حياتها له .

والنظام السياسي أو نظام الحكم في الإسلام له سمت معين ، سمت معين لابد وأن يتوفر في رئيس الأمة ، وبطانته ومساعديه وفي النظم والتشريعات التي تحكم حياة الأمة ، راع ورعية ، هذه السمات أرساها في حياة المجتمع المصرى الله سبحانه وتعالى على يد يوسف عليه السلام .

فالحاكم الذى يحكم لابد وأن يكون مسلماً ، أى مستسلماً منقاداً طائعاً لله رب العالمين في الصغيرة والكبيرة ، وهو يقود الأمة التي ولاه الله أمرها ، وهكذا كان يوسف عليه السلام .

فالحاكم لابد وأن يكون متبرئاً من الشرك وأهله ، لا يوالي إلا أولياء الله ، ويحب في الله ويبغض في الله ، وهكذا كان يوسف عليه السلام : ﴿ **إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾ (1) .

والحاكم لابد وأن يخضع حياته وحياة رعيته كلها لنظام الله وشرعه ، وهكذا كان يوسف عليه السلام الذى أعلنها : ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ .

والحاكم في دولة الإسلام لابد وأن يكون محسناً ، يحظى بثقة رعيته ، وهكذا كان

---

(1) يوسف ٣٧ .

يوسف عيه السلام : ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ .

. والحاكم في دولة الإسلام لابد وأن يكون صادقاً ، لا كذابا ، وهكذا كان يوسف عليه السلام : ﴿ **يوسف أيها الصديق** ﴾ .

إن الحاكم في دولة الإسلام لابد وأن يكون عليما حفيظا ، وهكذا كان يوسف عليه السلام : ﴿ **اجعلني على خزائن الأرض ، إنى حفيظ عليم** ﴾ . إن الحاكم في دولة الإسلام لا يكون جاهلاً .

إن الحاكم في دولة الإسلام لابد وأن يكون أمينا ، فهذه المسئولية مسئولية الحكم ، لا يجب أن تكون في أيدى اللصوص والفسقة والمجرمين وغير العقلاء ، ولكن يجب أن تكون في أيدى الأمناء ، وهكذا كان يوسف عليه السلام : ﴿ **إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾ .

إن الحاكم في دولة الإسلام لابد وأن يكون عنده قدرة على الاجتهاد والاستنباط والترجيح والتخطيط لمستقبل الأمة ، وهكذا فعل يوسف عليه السلام : ﴿ **يوسف أيها الصديق أفتنا** ﴾ .

إن الحاكم المسلم لابد وأن يُعَوِّدَ الأمة الصبر على شظف العيش ، تعيش في حدود إمكانياتها ، ولا تمد يدها إلى أعدائها ، تستجدى طعامها وشرابها ، تماماً كما عوّد يوسف عليه السلام أمته .

إن الحاكم في دولة الإسلام ، لا يحكم بمزاجه ، أو طبقا لأهوائه ورغباته ، أو بقانون أو نظام من عندياته ، ولكنه يحكم بنظام الله وشرعه ، وهكذا كانَ يوسف عليه السلام .

إن الحاكم في دولة الإسلام يدرك أن الدعوة إلى الله واجبة ، وأن نصرة دين الله واجبة ، وهكذا كان يوسف عليه السلام ، الذى كرّس حياته من أجل نشر دين الله عز وجل .

إن الحاكم في دولة الإسلام لابد وأن يكون إسلاما يتحرك على الأرض ، قدوة عملية لغيره من بني أمته ، لأن الناس لا يعتنقون هذا الدين ، ولا يصدقونه إلّا أن يروه متمثلا بصدق في واقع الناس ، وهذا ما فعله يوسف عليه السلام .

إن الحاكم المسلم يتورع عن إلسطو على أعراض رعيته ، وهو حريص على طهارة

ذيله ، وهكذا كان يوسف عليه السلام : ﴿ **وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ .

إن الحاكم في دولة الإسلام لا يكون سليط اللسان ، بل يتعفف عن الكلمة البذيئة ، حتى ولو كان يعيش أشد اللحظات حرجاً وهكذا كان يوسف عليه السلام ، فرغم كونه سجينا مظلوما ، ففي رسالته إلى ملك مصر : ﴿ **ارجع فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم** ﴾(١) .

إن الحاكم فى دولة الإسلام ، ليس طاغوتا ، ليس متسلطا ، ولكنه عبد لله ، رحيما برعيته ، ليس جبارا ولا غشوما .

إن الحاكم في دولة الإسلام ، يخضع حياته وحياة أمته لنظام الله وشرعه ، ويدرك أن واجبه بالدرجة الأولى : « أن يعلم الأمة كتاب الله ، ويعلمها الحلال والحرام ، ويزكيها أي يربيها على الخلق الفاضل والسلوك السوى » : ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم** ﴾ .

إن الحاكم في دولة الإسلام لابد وأن يكون مجاهدا ، عاملا على نصرة دين الله ونشره بكل الوسائل المتاحة له .

إن الحاكم في دولة الإسلام حريص على أن لا ينفرد بتصرف في أى شأن من شئون الدولة دون مشاورة أهل الحل والعقد ، وهم أهل الاختصاص .

إن الحاكم في دولة الإسلام يخضع في سياسته لأمور الأمة للمراقبة والمحاسبة من قبل جماهير الأمة .

هذه هي المعالم التي أرساها الله سبحانه وتعالى في حياة شعب مصر على يد يوسف عليه السلام ، وغيره من الأنبياء والرسل عليهم السلام .

ولكن بعد وفاة هذا النبي الكريم بفترة من الزمان ، وقبيل عصر الأسرة السابعة عشرة رزئت مصر بحكام ، حطموا هذه القواعد ، وداسوها بأقدامهم . إننا نلمح شعب مصر في

---

(١) يوسف . ٥٠ .

مواجهة حكام طواغيت ، أغرموا بحب الزعامة ، والرغبة في الوصول إلى الحكم بأى وسيلة ، وحب السيطرة ، ومد الحدود وغزو الشعوب الآمنة في عقر دارها . ودليل ذلك ما نشرته كتب التاريخ عن الملك كامس الذى حاول أن يستثير قومية وعصبية شعب مصر ضد حكم الملوك الرعاة قائلا : « أريد أن أعرف مدى سلطاني » « إذا كان هناك حاكم في أواريس وآخر في كوش وأجلس شريكا بين آسيوى ونوبى » . وهكذا تبدو العصبية على لسان فرعون مصر ، يريد أن يتخذها تكأة ومطية لإعلان الحرب على إخوانه من بني البشر ، وإنهاك موارد الدولة الاقتصادية والبشرية ، ولكن الرعية كانت على قدر كبير من النضج والوعي فردوا عليه ردًّا ينطوى على الحكمة : « ولكننا في طمأنينة ، ونحكم مصر ونعيش بخير وجميع البلاد حتى القوصية إلى جانبنا ، والرجال يحرثون لنا أراضينا ، وترعى ماشيتنا في الدلتا ، ويأتينا الشعير علفا ، ... لم يأخذ أحد ماشيتنا غصبا ، ولم يعتد علينا معتد »(١) .

وهذه شهادة من الأمة على حالة الأمن والاستقرار التي كان يعيشها شعب مصر فى ظل حكم الإسلام ، الذى وطد أركانه يوسف عليه السلام على أرض مصر ، لكن يبدو أن كامس وإخوانه كانوا طواغيتا ، إذ سرعان ما أخفتوا صوت المعارضة ، وخرجوا يسقطون حكم الملوك الرعاة ، ويطمسون معالم الدولة الإسلامية التي أقام بنيانها يوسف عليه السلام .

لقد ضرب سقنرع وكامس وأحمس (آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة) ومن جاء بعدهم بإرادة الأمة عرض الحائط ، وقادوا شعب مصر في حروب امتدت لتشمل بلاد الشام وأرض الرافدين وجنوب مصر ، والهدف منها ترويع الآمنين ، ومد الحدود ، وبسط لواء السيطرة والزعامة .

لقد رزئت مصر بحكام أشركوا بالله سبحانه وتعالى وكفروا به ، وادعوا لأنفسهم ما لله من صفات ، وأقاموا المعابد لأنفسهم ولأوثانهم . والدليل ما ذكرته كتب التاريخ من **أن الملكة أحمس نفرتارى التي تزوجت من أخيها كامس ثم من أخيها أحمس** ، كان المصريون ينظرون إليها نظرة عبادة واحترام ، وأقاموا لها معبدا في طيبة وجعلوا منها ومن ابنها أمنحتب

---

(١) مصر الفرعونية ، ص ٢١٣ ـــ ٢١٤ .

الأول إلهين حاميين للجبانة ، كما أن الملك أحمس الأول قد أله المصريون »[1] .

كما أن هؤلاء الحكام الفراعنة قد أهدروا أموال الأمة في بناء القصور والمعابد ، والمقابر الضخمة ، وزخرفوها وزينوها بالنقوش الملونة ، وأقاموا بها التماثيل لأوثانهم ولأنفسهم ولأزواجهم وأبنائهم ، وصوروا على جدرانها مناظر الحياة اليومية والأخروية ، للفرعون وأعوانه ، تارة يستقبلون الوفود ، وتارة يشرفون على الحرث والزرع والحصاد ، وتارة يباشرون الصيد ، وتارة يشاهدون حفلات الصيد والقنص والرقص ، وتارة يتناولون الشراب ، وتارة يتقدمون بالقرابين إلى أوثانهم ، وتارة تصورهم بعد بعثهم . كما أن هؤلاء الفراعنة وأعوانهم قد زودوا مقابرهم ومعابدهم وقصورهم بكل ما يحتاجونه في حياتهم اليومية والأخروية في زعمهم ، وكل ذلك يعكس إهدارا لأموال الأمة وجهدها وقوتها ، ففي مقبرة توت عنخ آمون على سبيل المثال وهو الذى توفي في ريعان الشباب ولم يكن تجاوز العشرين من عمره ، ودفن في قبر أعد ، وملئت حجراته الأربعة بالأثاث ، وكل ما يحتاجه الملك في حياته اليومية ، ففيها نلمح تماثيل للملك بالحجم الطبيعي ، ونلمح الصناديق التي كانت تحوى ملابسه وأدواته ، ونلمح كرسيا صنع من خشب الأبنوس وغطى بصفائح من الذهب ، ونلمح العرش وقد صفح بصفائح الذهب ، وطعم بالأحجار الكريمة ، وقد صور عليه الملكة تضمخ زوجها بالعطور ، ونلمح الأسرة من الخشب ، وبعضها مغطى بصفائح الذهب ، بل إن جثة الملك الشاب عثر عليها في تابوت مصنوع من الذهب الخالص ، وزنه مائة وعشرة كيلو جراما .

ووضع هذا التابوت بدوره في تابوت آخر مصنوع من الخشب ومطعم بالأحجار الكريمة . والشيء الذى يثير العجب ، المصاغ والمجوهرات والحلي التي كان يرتديها الملك ، وهي معروضة في غرفة بأكملها في المتحف المصرى .

من أين لهؤلاء الملوك الفراعنة بهذه الأموال ، إنها أموال الأمة انتهبوها ووظفوها في التمتع بشهواتهم . فمما لا شك فيه أن هذا نموذج للمقابر ، فكيف كانت القصور والدور ؟ لقد كانت أفخم من ذلك بكثير !

والعجيب أن الفراعنة ـــ وهذا دليل على الاستهانة بأموال الأمة وثرواتها ـــ كانوا

(١) مصر الفرعونية ، ص ٢٢٠ ـــ ٢٢٢ .

يفتخرون بهذا الذى يقومون به ، فها هو أمنحتب الثالث يترك لنا نصا يقول فيه :

« وكان لا يسر قلب جلالتي شيء مثل إقامة المباني العظيمة ، والتي لم يبـن مثلها منذ خلق العالم » وقد أقام جلالته لأبيه آمون معبدا فخما في الجهة الغربية من طيبة فجعل منه حصنا خالدا . بناه بأجود أنواع الحجر الجيرى من كتل ذات حجم كبير ، وزين جميع أجزائه بالذهب ، وحلى أرضيته بالفضة ، وكانت أبوابه مغطاة بصفائح من الذهب . لقد زاد جلالته من حجمه وأكثر من أبهائه وأتمه ليبقى إلى الأبد ، ووضع فيه الكثير من التماثيل الملكية من جرانيت أسوان ومن الحجر الرملي الصلد ومن جميع أنواع الأحجار الجيدة ، وكانت أحجامها الكبيرة تضيء الوجود أكثر من السماء ، وكان انعكاس أشعتها في وجوه الناس مثل الشمس عندما تضيء في مطلع النهار »[1] .

هذا نموذج من نماذج تفوق الحصر ، وكلها تقدم دليلا على البلاء الذى نزل بالأمة حينما تولى أمانة الحكم ملوك استهانوا بمسألة الحلال والحرام ، فضيعوا الأمة وأضاعوا أنفسهم .

وما يجرى في عالمنا المعاصر ، من الإقامة للمتاحف ، وإقامة للتماثيل في الميادين وغيرها ، هو إهدار لأموال الأمة ، وعودة مرة أخرى بها إلى عهود الوثنية ، لأن الإسلام يحرم صناعة التماثيل فضلا عن إقامتها في الميادين والشوارع .

وقد ألحق الفراعنة بقصورهم ومعابدهم ومقابرهم تلك التي منحوها لوزرائهم وأعوانهم أعدادا ضخمة من الكهنة والموظفين والعبيد ، كما أوقفوا على هذه القصور والمعابد والمقابر الأوقاف الضخمة للصرف عليها وعلى العاملين بها . والثروات التي كانت تذخر بها ، وكيف أن حكامها قد أهدروها ووظفوها في غير الوجوه المشروعة نذكر نموذجا ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ الأوقاف التي أوقفها رمسيس الثالث أحد ملوك الأسرة العشرين على معبده في مدينة هابو ، الذى بنى أمامه مدخلا على شكل قلعة آسيوية ، وإلى جواره قصر لسكناه ، وأغدق عليه وعلى جميع معابد مصر الهبات من أرقاء وأراض ومال .

لقد كان للوثن آمون رع وحده ثروة طائلة ، إذ كان مجموع أراضيه نحو ١٠ ٪ من أراضي البلاد المزروعة . « كان لآمون ٨٦٫٥٠٠ من الأرقاء يعملون في أراضيه ، وكان له خمسة

(١) مصر الفرعونية ، ص ٢٥٣

قطعان من الماشية لا يقل مجموعها عن ٤٢١٠٠٠ رأس ، كما كانت له حدائق في طول البلاد وعرضها ، وكثير منها في الواحات ، كما كان له مناجم الذهب في النوبة ، وكان له تسع مدن في سورية تأتيه محاصيل أراضيها وضرائبها بانتظام . وعدا ذلك من الموارد وأهمها ما يقدمه أفراد الشعب وما يقدمه الملوك »[1] .

وهذا يعكس لنا مدى الثراء الذى كان عليه كهنة المعابد وسلطانهم الذى أصبح لا حد له .. ، ولم يكن في وسع أحد من الفراعنة أن يسقط منها شيئا ، بل كان كل منهم يبذل جهده لإرضاء الكهنة فيزيد عليها حتى يضمن مؤازرتهم وعدم تآمرهم عليه .

أين الأمانة ؟ أين الحفظ ؟ لقد ضيعت وأهدرت ، ولا عجب أن يحدث ذلك إذا غاب الإيمان بالله الواحد القهار من القلوب .

وفي ظل هؤلاء الحكام تفشت المظالم التي تعرضت لها طبقات عريضة من شعب مصر ، وخير ما يعطينا فكرة عن حالة مصر وتدهورها في هذه الفترة ، وما كان يقع على الفلاح المسكين من ظلم وما تفشى بين الموظفين من الفساد والرشوة ، المرسوم بالقوانين التي أصدرها حور محب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة [2] .

فمنها يتضح أن المجتمع كان يعاني من موظفي الحكومة الذين كانوا يسخرون الناس لخدمتهم دون رضاهم ، كما أن الجنود المناط بهم حفظ الأمن يتنكبون الطريق ويذهبون إلى الفلاحين ، ويستولون على بعض أمتعتهم ومحاصيلهم قسرا ودون وجه حق ، وموظفي الضرائب الذين كانوا يتفننون في جمع أكبر قدر من الضرائب من الناس ، ويأخذون محاصيل الفلاحين دون وجه حق باسم الملك .

لقد رزئت مصر في ذلك العصر بحكام كانت السلطة غاية تستحق أن تراق من أجلها الدماء ، ومن هنا كان الصراع عليها شديدا ، ومثال ذلك ما كان بين حتشبسوت وتحوتمس الثالث .

وبعد : لقد كان حكام مصر يحسون بأن وصولهم إلى السلطة لم يكن له صفة

---

(١) ورد ذكر ذلك في بردية هاريس ، مصر الفرعونية ، ص ٣١٨ .

(٢) مصر الفرعونية ، ص ٢٨٩ ، ٢٩١ .

الشرعية ، لذلك نراهم ينسبون أنفسهم إلى آلهتهم ، ويقوم الكهنة ورجال الدين بتلفيق الحكايات والأساطير التي تصور الملكات والملوك بأنهم من صلب الآلهة ، وبالتالي فإن وصولهم إلى العرش ، إنَّما هو مقدر منذ القدم . مثال ذلك ما ذكرته النصوص عن الملكة حتشبسوت .

فحتشبسوت « البذرة الممتازة التي خرجت من الآلهة » ، ونرى قصة حياتها منقوشة على جدران معبد الدير البحرى وفي نقوش معبد الكرنك التي تدعي فيها أنها ليست من صلب أبيها وإنما هي ابنة للإله آمون رع الذى احتار الملكة أحمس لتكون أما لابنة له تحكم مصر وقصت الملكة على جدار آخر قصة طويلة تتلخص في أن أباها تحوتمس الأول بايعها بالملك في حياته عندما كانت فتاة شابة وأن الكهنة وكبار رجال الدولة وافقوا على ذلك[1] « وحينما أراد تحوتمس الثاني ـــ أثناء حياته ـــ أن يعلن لابنه تحوتمس الثالث حق تولي العرش من بعده دبّر لذلك موضوع اختياره بواسطة الإله آمون رع في أحد أيام الأعياد »[2] .

ولا ندرى مدى اقتناع أفراد الأمة بهذه الحملة الإعلامية الضخمة ، التي تقدم دليلا لا يقبل الشك على الاستخفاف بالأمة التي تسلط علىها مجموعة من الطواغيت لا هم لهم إلا تبرير وجودهم فى موقع السلطة ، ودليل آخر على إحساس الحكام بأن وجودهم في موقع قيادة الأمة ليس له صفة الشرعية ، ومن هنا تم تلفيق هذه القصص والأكاذيب ، وهذا ما فعلته حتشبسوت في مكان آخر .

لقد كانت الملكة حتشبسوت تحس بأن ولاية أمر الأمة لا يجوز أن تكون فى النساء ، وأن جلوسها على عرش البلاد كان غير شرعي ، ولذلك فإنا نراها مرسومة على جدران المعابد وهي ترتدى زى الرجال ، وتستخدم ضمير المذكر في النصوص[3] ، وكان هذا كله قد حدث لكي توهم الناس أن التقاليد المتبعة لم يدخل عليها أى تغيير بوجود امرأة على العرش .

وكذلك فعل الملك تحوتمس الرابع الذى ترك لنا نصا منقوشا على لوحة يقص فيها على الناس أنه « كان يصطاد يوما من الأيام في صحراء الأهرام عندما كان أميرا وجلس في

---

(١) مصر الفرعونية ، ص ٢٢٩ ، ٢٣١ — (٢) نفس المرجع ، ص ٢٣٠

(٣) مصر الفرعونية ، ص ٢٣١

ظل تمثال حورآخت (أى تمثال أبى الهول) وغلبه النعاس ، فرأى بوضوح أباه الإله يبشره بأنه سيصبح ملكا في المستقبل وسيضع التاج على جبينه »[1] .

وهكذا شاهدنا رجال الدين قد باعوا أنفسهم للشيطان ، وكُتّاب التاريخ كانوا يروجون الحكايات والأساطير ليبرروا سرقة الزعماء والحكام للسلطة . وهكذا نشاهد بأن الطبقة المثقفة المفكرة فى الأمة وقد جرت فى ركاب حكامها وباعت أقلامها لأهل الباطل ، فدونت تاريخ الجاهلية وتاريخ الوثنية ، وجعلت من أصحابه عظماء وحكماء ..

لقد رزئت مصر بملوك فراعنة قادوا الأمة في حروب أنهكت موارد الأمة من أجل التوسع والسيطرة والزعامة ، وليست من أجل دفع ظلم وقع على مظلوم ، وليس من أجل تحقيق العدالة في حياة البشرية ، مثال ذلك الحروب التي خاضها تحوتمس الثالث في بلاد الشام وعلى أرض الرافدين[2] .

لقد رزئت مصر بحكام أغرم معظمهم بسفك الدماء ، دليل ذلك تصرف امنحتب الأول من أمراء المدن السورية الذين حاولوا التحرر من قبضة الحكم الفرعوني ، لقد كان انتقام أمنحتب من أعدائه شديدا ، لقد أحضر معه سبعة من أمراء المدن السورية إلى طيبة « وقد قتل منهم ستة أمام الإله آمون في طيبة » ، أما السابع فقد أرسله إلى ناتا ليشنق هناك أمام آمون سيد جَبَل برقل »[3]. وهكذا يكون الأمر إذا خلت القلوب من الإيمان بالله الواحد القهار .

لقد رزئت مصر بحكام كانوا يحيون حياة مترفة . مثال ذلك أمنحتب الثالث الذى ركن إلى حياة الاستمتاع بين زوجاته وجواريه وطلب من ملك ميتاني وكان اسمه سونارنا وهو ابن خال أمنحتب أن يزوجه إحدى بناته فأرسل إليه كيلوجيبا لتأييد المودة بين البلدين[4] .

وكأن هذا أصبح تقليدا جديدا ، إذ بعد أن مات سوتارنا تولى الملك بعده ابنه

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٣ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

(٤) مصر الفرعونية ، ص ٢٥٤ ، وهذه صورة مصغرة لما جرى فى عالمنا المعاصر

توشراتا فأرسل إليه أمرة صغيرة السن وهي تاوجيبا في الوقت الذى كان فيه أمنحتب مربضا طاعنا في السن .

ولم تقتصر مصاهرنه على بنات مصر[1] وبنات ميناني ، بل تزوج من أميرات بابليات وآشوريات ، وكان يرسل إليه حكام المدن السورية كل عام عشرات من الفتيات الجميلات اللاتي كن يرسلن إليه مع الجزية ، وكان يلح في طلبهن ، وهكذا انقلبت حياة هذا الملك[2] إلى حفلات يقيمها في قصره ، وأغرق نفسه إغراقا في نوع من الحياة لم يعرفها أحد ممن سبقوه .

ولكن أين الأمة ، أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ؟ أين نظام الإسلام وشرعه الذى يقيد سلطان الحاكم ؟ وينظم العلاقة بين الحاكم والأمة ؟

يبدو أن الأمة كانت منومة مخدّرة ، مقيدة ، لما ضعف سلطان العقيدة فى قلبها ، ونكص الناس عن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعطلت شريعة الله ونظامه ، لهذا كان لابد وأن يجرى فيهم سنة ربانية : ﴿ **وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون** ﴾[3]

(١) مصر الفرعونية ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥

(٢) « وكان أمنحتب الثالث فى أواخر أيامه شحصا مهدما محطم الصحة ، بالرغم من أنه كان دون الخمسين ، لأنه أفرط في ملذاته ، وكانت السلطة مركزة في يد زوجته « تي » والقليل من الموظفين الذين كانوا طوع إرادتها » . مصر الفرعونية ، ص ٢٥٦ .

(٣) الأنعام ١٢٩ .

الفصل الرابع

بعثة موسى عليه السلام إلى شعب مصر

الأسرة التاسعة عشرة

المبحث الأول

عصر بعثة موسى عليه السلام

الأسرة التاسعة عشرة

(١٣٢٠ ـ ١٢٠٥ ق . م ؟ ؟)

والمعلومات الواردة فى هذا المبحث مأخوذة من مراجع التاريخ القديم . ولا نملك تكذيبها أو تصديقها .

ومؤسس هذه الأسرة هو رمسيس الذى حكم مصر لمدة عامين . وأهم أعماله البدء فى إنشاء صالة الأعمدة الكبيرة بمعبد الكرنك . وقد خلفه على عرش البلاد ابنه سيتى الأول[١] .

سيتى الأول (١٣١٨ ـ ١٣٠١ ق . م) :

تنصب أعمال هذا الملك ، على إتمام الأعمال الإنشائية ، التى بدأها أبوه وخاصة صالة الأعمدة . وفى مجال النشاط العسكرى ، قام سيتى الأول بقيادة حملات حربية للقضاء على ثورة قامت ضد مصر فى فلسطين ، ولضمان بقاء مدن فينيقيا والجزء الجنوبى من سوريا داخل النفوذ المصرى . وقد جره هذا إلى الصدام ، ثم الصلح مع الحيثيين الذين قضوا على قوة الميتان فى أعالى الفرات ، وبدأوا يبذلون الجهود لتقويض نفوذ الحكم المصرى فى سوريا وفلسطين .

---

(١) . مصر الفرعونية ، ص ٢٨٧ ـ ٢٩١

رمسيس الثانى :

تولى الحكم فى سن الخامسة والعشرين ، لمدة ٦٧ عاما[١]، وكعادة من سبقوه اهتم بإتمام المنشآت المعمارية ، كما وجّه اهتمامه إلى استغلال مناجم الصحراء ، ويرتبط حكم هذا الملك بالنشاط المتزايد لمملكة الحيثيين التى ما فتئت تؤلب أمراء سوريا على الثورة والعصيان ضد الحكم المصرى لتقويض نفوذه فى آسيا ، ولذلك نرى رمسيس الثانى يخرج فى جيشه إلى آسيا ثلاث مرات ، الثانية فيها كانت لسحق جيوش الحيثيين التى تجمعت فى قادش ، وفى الطريق قبض جنود رمسيس على جاسوسين . أدليا بأقوال ملفقة لتضليل جيوش مصر : « إن جنود الحيثيين قد تركوا مدينة قادش وتقهقروا إلى حلب » ، والحقيقة أنهم كانوا مختبئين خلف تلال مدينة قادش ، وعبر الجيش المصرى نهر العاصى وعسكر شمال غرب مدينة قادش فى الوقت الذى قام الجيش بحركة التفاف منسحبا إلى ما وراء قادش ، ثم هاجم جيش رمسيس قبل أن يتجمع قواته كلها . فأذهلت المفاجأة رمسيس الثانى ، وانتهت المعركة فى اليوم الأول دون نتيجة حاسمة واستؤنف القتال فى اليوم التالى ، وانتهى إلى صلح بين الطرفين ، تعهد بمقتضاه كل طرف منهما أن يحترم حدود الآخر[٢] .

أما المرة الثالثة فقد خرج رمسيس فى جيشه للقضاء على ثورة قامت ضد الحكم المصرى فى فلسطين ، ويقال أنه قد نجح فى ذلك ، وأن هذه الحملة قد أعادت سيادة مصر على الشاطىء الفينيقى وربما بعض جزر البحر الأبيض .

وحينما بدأت قوة آشور تدخل مرحلة حاسمة فى تاريخها وأخذت تظهر كقوة يحسب حسابها ، آثر أحد أبناء[٣] الملك الحيثى بعد وفاة والده الارتباط برباط الصداقة مع مصر اتقاء لشر قوة آشور المتزايدة ولذلك نرى الملك رمسيس يرحب بذلك ووقعت معاهدة من الطرفين فى عام ١٢٨٠ ق . م لتؤكد هذه الصداقة[٤] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩٢ ، ومابعدها ، وهكذا نلمح أن فراعنة مصر كانوا يهدرون أموال الأمة فى بناء معابد الأوثان وهي أطول مدة حكمها فرعون من الفراعنة بعد بيبى الثانى ، وهى فترة تكفى لولادة موسى وبعثته .

(٢) يقول الدكتور أحمد فخرى : إن رمسيس قد هزم فى المعركة مدللا على ذلك بأن مملكة أمورو والتى كانت تحت الحكم المصرى قد أصبحت موالية لحكم الحيثيين بعد تلك المعركة (المرجع السابق ، ص ٣٠٣) والعجيب ــ رغم هذا ــ فإن الملك رمسيس الثانى بعد رجوعه من هذه المعركة أقام الاحتفالات وأشاع فى الناس أنه انتصر وهو كاذب

(٣) حاتوسيلى . (٤) المرجع السابق ٢٩٧ ــ ٣٠٣ .

واستمرت هذه الصداقة وتوطدت أواصرها حينما جاء الملك « خاتوسيلى » إلى مصر ليزف ابنته إلى رمسيس الثانى فى العام الرابع والثلاثين من حكمه .

ولقد قام رمسيس الثانى بإنشاء سلسلة من الحصون على حدود مصر الغربية للتصدى لهجمات الشعوب الهندوآرية [1] التى بدأت تجتاح مناطق الشرق القديم عن طريق البر والبحر لتستقر فى آسيا الصغرى وفى جزر بحر إيجه وفى بلاد اليونان وفى شمال إفريقيا .

ومات رمسيس الثانى تاركا أسرة كبيرة قوامها ما يزيد على تسع وخمسين بنتا وما يزيد على تسعة وسبعين من الأبناء ، وذلك غير العديد من الزوجات وليخلفه على العرش ابنه مرنبتاح (هذا ما يقوله كتاب التاريخ القديم) .

مرنبتـاح :

لقد تولى هذا الملك حكم البلاد وقد ناهز الستين من عمره ، فى وقت كثرت فيه هجمات الشعوب الهندوارية ، ولذلك فإنه فى العام الثالث من حكمه وجه حملة عسكرية إلى آسيا لإخماد بعض الثورات هناك .

وقد ترك لنا أخبار هذه الحملة مسجلة على لوحته المعروفة باسم لوحة إسرائيل أما حملته المهمة الأخرى فقد وجهت ضد هجمات بعض الشعوب الهندوآرية بقيادة أحد رؤساء القبائل الذين هاجموا حدود مصر الغربية وقد هزمهم مرنبتاح وقتل وأسر منهم عدداً كبيراً عند مكان يسمى بريد غرب الدلتا [3] .

ومات مرنبتاح بعد ثمانية سنوات من جلوسه على عرش مصر ولم يخلفه ابن من صلبه بل خلفه إخوة تطاحنوا من أجل العرش وتفككت البلاد بعد أن استقل حكام الأقاليم بأقاليمهم ، وحارب بعضهم البعض ووصلت الأمور إلى حالة سيئة من الفوضى والاضطراب

---

(١) لقد كانت مملكة حيثيا بآسيا الصغرى أولى الممالك التى هوت واندثرت تحت ضغط هذه الهجمات التى بدأت تدق أبواب مصر من ناحية سورية وفلسطين

(٢) مصر الفرعونية ، ص ٣٠٨ ــ ٣١٠ .

(٣) ذكرت اللوحة أن إسرائيل أبيدت ولن يكون لها بذرة ، وأصبحت حورو (أى فلسطين وما جاورها) أرملة لمصر ، المرجع السابق ص ٣٩ .

(هذا ما ورد فى كتب التاريخ القديم) .

فى أثناء حكم هذه الأسرة ــ بعد أن خفت صوت التوحيد ، وتسلط الظلمة على دولاب الحياة التى أسنت ، تدخلت قدرة الله الفاعلة لإنقاذ الأمر ، فأذنت فى ميلاد وبعثة الرسول المسلم موسى عليه السلام إلى شعب مصر حُكّاما ومحكومين .

المبحث الثانى

رسول من أولى العزم يدعو شعب مصر إلى الإسلام

تمهيـد :

بعثة موسى عليه السلام إلى شعب مصر ، خبر حفظه الله سبحانه وتعالى فى قرآن يتلى إلى يوم القيامة ، ليؤكد جملة حقائق يجب على البشرية أن تقف عندها وتتناولها بالدرس والتحليل ، عسى أن تدرك الغاية التى من أجلها خلقت ، فترجع إلى ربها وخالقها توحده ، وتعلن استسلامها لله رب العالمين .

وعلى أصحاب الدعوات أن يتناولوها بالدرس والتحليل ، والاستسلام لما ورد فيها من توجيهات من الله رب العالمين ويدركوا أن القضية الكبرى التى من أجلها خلق الله الكون ، واستخلف فيه الإنسان وأرسل الرسل — ومنهم موسى عليه السلام — مبشرين ومنذرين ، هى قضية لا إلـٰه إلا الله ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إلـٰه غيره** ﴾ .

وأن الدعوة إلى الله واجبة وهى أشرف الوظائف ، وأنها وظيفة الرسل عليهم السلام ، وأن المعروف الأكبر أن تكون شريعة الله حاكمة : ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ .

وأن الإسلام هو الدين الذى إليه دعا جميع الأنبياء والرسل ومنهم يوسف وموسى عليهما السلام ، وهو الدين الذى لايقبل الله من الأولين أو الآخرين غيره .

وأن الإسلام أصيل فى حياة شعب مصر قبل أن تولد اليهودية أو المسيحية وغيرها .

وأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل لتحرير بنى آدم من ربقة الطاغوت وتعبيدهم لله الواحد القهار .

ويدركوا أيضاً : قد يأتى وقت يخفت فيه صوت التوحيد ، ويعجز المسلمون المستضعفون أن يقيموا دين الله فى حياة بنى آدم ، فضلاً عن أن يباشروه فى حياتهم ، ويتعرضون لشتى أنواع الاضطهاد التى تتمثل فى قتل الأطفال الذين لا ذنب لهم بلا جريرة ، ويتمثل فى استحياء النساء أو قتلهن كما حدث لامرأة فرعون ، وماشطة بنت فرعون ، ويطول ليل الظالمين ، لدرجة يمكن أن تصيب غير المؤمنين بالله ، باليأس والاستسلام للطاغوت وأعوانه ، فى هذه اللحظة التى يصاب فيها أهل الحق بالعجز تجاه طغيان الباطل وأهله تتدخل يد القدرة القاهرة ، الله رب العالمين ، لتدمير الطاغوت وأعوانه ، وتمكين الحق وأهله .

إنه قد يأتى وقت . يصبح الإسلام غريباً والمسلم غريباً فى أرض الله ، وقد يأتى وقت يوسد الأمر لغير أهله ، ويخوّن الأمين ، ويؤمن الخائن ويصبح الظلم سمتا غالبا فى حياة البشرية ، ولا يعنى ذلك أن الله قد ترك العباد يظلم بعضهم بعضا ولا يحاسبهم أو يعاقبهم ، حاشا لله أن يحدث ذلك ، إنما هو الإملاء للظالم على سبيل الاستدراج ﴿ **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين** ﴾[1] « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾[2] .

موسى عليه السلام رسول كريم من أولى العزم يرجع نسبه إلى نبى كريم هو يعقوب (إسرائيل)[3] بن إسحاق النبى المسلم الكريم ، ابن إبراهيم النبى المسلم الكريم .

ولد موسى عليه السلام على أرض مصر فى ظل طغيان جارف كان يجتاح أرض مصر من أقصاها إلى أقصاها . ولد فى ظل حاكم طاغية فاسد (رمسيس الثانى) وظف جنده فى ذبح الأطفال واستحياء النساء ، ومزق الأمة وجعلها فرقا ، يتجسس بعضهم على البعض الآخر ، لحسابه ﴿ **وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين** ﴾[4] .

---

(١) القلم : ٤٤ ـــ ٤٥ .　　(٢) هود : ١٠٢ .

(٣) لا علاقة مطلقا بين يعقوب (إسرائيل) عليه السلام النبى المسلم ، وبين القراصنة الذين اغتصبوا أرض فلسطين ، وأطلقوا عليها اسم إسرائيل ، لأن ذلك من باب التدليس من الغاصبين ليوهموا المجتمع الدولى بأنهم ورثة هذا النبى وإسرائيل عليه السلام النبىّ المسلم يبرأ إلى الله من الغاصبين اليهود فى الدنيا والآخرة . (ذرية إبراهيم والمسجد الأقصى ، للمؤلفين دار الوفاء للطباعة والنشر)

(٤) القصص : ٤

ولكن كيف كان يسمح المجتمع ؟ كيف يسمح الرجال للنساء أن تستحيا ، وللأطفال أن تذبح ، وهم أحياء ، وهم وقوف ؟ أين الرجولة ، أين النخوة ، بل أين صراع الإنسان من أجل البقاء ، أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ؟ أين بنو آدم ، أين الشياطين الخرس الذين قبلوا أن يحدث كل ذلك وهم وقوف متفرجون ، هل سلبيتهم أطالت أعمارهم أو أطالت ملكهم ، أو كثرت رزقهم ؟ ولكن لماذا نذهب بعيدا إلى عهد موسى عليه السلام ونترك الطغيان الذى لف المجتمعات المعاصرة ، ألم يقتل قياصرة الروس والشيوعيون الروس إخواننا فى بخارى وسمرقند والدويلات الإسلامية ، ألم يقتل ولا يزال يقتل الروس وأعوانهم من الخونة إخواننا أبناء المسلمين وإخواننا وأخواتنا فى أفغانستان ، ألم تقتل اليهود ويشرد معظم شعب فلسطين ولايزالون ، بعد أن اغتصبوا دياره وأرضه وأمواله ،

ألم تقتل أوربا خمسة وعشرين مليوناً من أبناء أفريقيا وهى تغتصب أبناء أفريقيا فى تجارة العبيد . ألم تبد أوربا شعوباً بأكملها فى القارة التى أطلق عليها اسم أمريكا [1] ، وتغتصب أرضها وديارها .

أليسَ القتل والإبادة مخطط البشرية المتمدينة ؟؟ وينفذ ضد المسلمين فى الفلبين وأريتريا والصومال .

لماذا إذن نذهب بعيداً ؟ إذن أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر هل ماتت فيهم النخوة والرجولة ؟ هل نسوا واجبهم ؟ هل نسوا أنهم سيقفون بين يدى الله ويسألون عن سلبيتهم ؟ هل يتصورون أن ذلك يمد فى آجالهم ويوسع عليهم فى أرزاقهم ؟

فى مثل هذه الظروف ولد موسى عليه السلام على أرض مصر وعين الله ترعاه وتربيه وتنشئه وتعده لحمل رسالة الإسلام إلى فرعون ، وهامان وجنودهما وشعب مصر .

ولد موسى ، وأمه وجلة عليه ، تخشى أن يقع وليدها فى يد الطاغية أو أعوانه فيحرمونه من نعمة الحياة ، فإذا بالوحى الإلٰهى : ﴿ **وأوحينا [2] إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا** ﴾ [3] .

---

(١) نسبة إلى أمريكوس فيسبونشى الإيطالى الجنسية .

(٢) يقول الإمام الحافظ . « وهو إلهام وإرشاد » (تفسير القرآن العظيم) .

(٣) القصص ٠ ٧ ـــ ٨ .

سبحان الحفيظ ، الذى حفظ الطفل الرضيع من الغرق ، سبحان الواحد القهار الذى يجرى كـل شىء بقدر ، والذى علّم بنى آدم لا ينفع حذر من قدر ، ففرعون بنفسه هو الذى يربى موسى عليه السلام الذى سيكون على يديه بإذن الله هلاك فرعون الطاغية وجنوده .

أين حذره ماذا فعل إزهاق أرواح الأبرياء من الأطفال ، ماذا فعل حرمان الأمهات من فلذات الأكباد بمجرد ولادتهم ؟ هل حمى الفرعون ؟ هل مكّنه من الوقوف فى وجه قدر الله عز وجل ؟ بالطبع لا .

ولكى يتحقق قدر الله ، دفع سبحانه وتعالى بفرعون إلى رعاية موسى وأهله ..

لقد ألقى الله حب موسى فى قلب امرأة فرعون ، فوقفت حائلاً بين فرعون وقتل موسى بعد أن عرف أنه من بنى إسرائيل ، وهذا غاية التحدى من القدرة العلية قدرة الله ، فى مواجهة طغيان بنى البشر ومكرهم الذى تزول منه الجبال : ﴿ **وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون** ﴾[1] . سبحان الله ، لقد قتل الله سبحانه وتعالى فى فرعون الخائف على ملكه ونفسه ، الفزع من شبح الرسول الكريم ، وأذهب عنه الشعور ، بدور موسى عليه السلام ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ .

﴿ **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** ﴾[2] .

سبحان الله ، سبحانك يا قادر يا عظيم ، وهل كانت الأم تخاف إلا من وقوعه فى هذه اليد ، « يد آل فرعون » .

التقطته يد الطاغية ، تحـدٍّ من القادر العظيم ، لذلك الظالم ولكل الظلمة من بعده الذين يبطشون ويقتلون ، ويحسبون أنهم بذلك يحمون أنفسهم من كيد الله رب العالمين ...

وحينما عرفت أم موسى أن وليدها وفلذة كبدها قد وقع فى يد الطغاة فزعت : ﴿ **وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ، إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه**

---

(١) القصص : ٩ .　　(٢) القصص . ٨ .

المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ، ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ [١] .

نموذج عملى للرحمة من الرحمن الرحيم ﴿ **لولا أن ربطنا على قلبها** ﴾ لم يتركها لحزنها ، لم يسمح للفزع أن يسيطر عليها لفترة طويلة والهدف لتكون من المؤمنين ... ورغم أن أم موسى تعلم أن ابنها فى اليد التى تحميه اليد التى تحوطه ، يد الله رب العالمين ، إلا أنها أخذت بالأسباب ، لقد أرسلت أخته تتحسس خبره ، وردّ الله الطفل الرضيع إلى أمه ، إنها الرحمة إنه الحب من الله لعباده الصالحين ﴿ **وألقيت عليك محبة منّى ولتصنع على عينى** ﴾ [٢] .

﴿ **ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حُكماً وعلما وكذلك نجزى المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة** [٣] **من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته** [٤] **وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه** [٥] ، **فوكزه** [٦] **موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين** ﴾ [٧]

إن نفس موسى الأبية لم تطق أن نرى مظلوماً يستنجد به ، ولا يجيره ، مظلوماً يستغيث به ولا يغيثه ، فانطلق يعين أخاه المظلوم ، ويدفع الظالم : ﴿ **فوكزه موسى فقضى عليه** ﴾ إنه لم يكن يفكر لحظة واحدة أن يقتله ، لأنه يدرك أن قتل جندى من جنود الطاغوت ، أو قتل رأس الطاغوت ، لن يحرر بنى يعقوب (إسرائيل عليه السلام) لن يحرر شعب مصر من تسلط الفراعنة ، لن يقيم دولة الإسلام التى تصبح الحاكمية فيها لله رب العالمين فيأمن الناس فيها على أموالهم وأعراضهم وأولادهم ، إن قتل جندى من جنود الطاغوت أو حتى قتل الطاغوت لن ينهى المظالم التى يتعرض لها بنو البشر ، لن ينهى الغربة

---

(١) القصص : ١٠ ــ ١٣ .

(٢) طه : ٣٩ .

(٣) نصف النهار .

(٤) من بنى يعقوب النبى المسلم .

(٥) وكان كافرا مشركا بالله العظيم (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٢٤١) .

(٦) طعنه بجمع كفه .

(٧) القصص : ١٤ ــ ١٧ .

التى يعيشها الإسلام والمسلمون .. وأدرك موسى ما وقع منه ، ولكن المحظور قد وقع ، فماذا يفعل ، توجه إلى الله يعترف بذنبه ويطلب المغفرة من الله الذى يغفر الذنوب « يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفرونى أغفر لكم » .

وكان الاستغفار والعهد على النفس : ﴿ **قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين** ﴾ [1] ورغم ذلك فقد كاد موسى أن ينسى مرة أخرى حينما استجار به المشاغب ﴿ **فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه** ﴾ .

ووصل خبر القتيل إلى طواغيت مصر فتآمروا على قتل موسى عليه السلام : ﴿ **وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين** ﴾ [2] الحمد لله رب العالمين ، لقد قيض الله رجلاً ناصحاً ، يحمل إليه التحذير اخرج « لقد قرر الطاغوت التخلص منك » ... قبل التحقق من الخبر ، بدون عقد محاكمة عادلة ، وبدون معرفة الدافع إلى هذا الذى وقع ، وأن موسى عليه السلام لم يكن يقصد قتله ... ولكن الطاغوت المنتفش بقوته .. الذى لا يفكر بعقله ماذا فعل موسى ... ﴿ **فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين** ﴾ [3] لقد توجه وقد أحيط به ، واتضحت أبعاد المؤامرة على حياته ، توجه إلى الجهة التى تملك حياته ، وتملك حفظه ونجاته إلى الله رب العالمين « قال رب نجنى » فكانت النجاة وكان الحفظ من الله الحفيظ العليم .

﴿ **ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل** ﴾ [4] خرج مطارداً وهو لا يدرى أين يتوجه ولا إلى أين يذهب فعين الله تحميه وتحرسه ، وإذا بإرادة الله توجهه إلى سواء السبيل ، إلى مدين « حيث أنعم الله عليه بالأمن والأمان والطعام والشراب والسكن والزوجة الصالحة والصحبة الطيبة ﴿ **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير** [5] **. فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير . فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم**

---

(١) القصص ١٧ . (٢) القصص . ٢٠ . (٣) القصص ٢١ .

(٤) القصص . ٢٢ . (٥) وعذرهما فى الخروج ، أن أباهم شيخ كبير .

الظالمين . قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين . قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين . قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل ﴾ [١] .

وفى هذا تطمين لقلوب المضطهدين لدينهم فى سائر الأوطان ، تطمين لقلوب الذين يستشهدون ، أو يبتلون بتمضية أعمارهم وراء قضبان السجون ، مُخلِّفين وراءهم أطفالهم ونساءهم ... ، إن الله يرعاهم ويرعاكم فهو الكفيل بأرزاقهم وبإيوائهم ، فهو الكفيل بتدبير الكساء والمسكن والسكن لهم . تماماً كما فعل الله بموسى عليه السلام : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ [٢] ﴿ **سيجعل الله بعد عسر يسرا** ﴾ [٣] .

وفى هذا بيان ، للمرأة التى تنكرت لدينها وإسلامها ، فخرجت من بيتها ، تزاحم الرجال ، وتكشف عن عورتها ، للمرأة التى تمثل دور الشيطان فى إغواء بنى آدم ، إن الأصل فى المرأة ﴿ **وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن** ﴾[٤] .

إن الخروج لا يكون إلا لضرورة بالضوابط الشرعية ، أن لا يبدو منها شىء من عورتها .

وفى هذا بيان لمن عندهم فتيان وفتيات يبلغن سن الزواج ، إنه من الواجب الإحصان ، ولا بد من الاختيار ﴿ **ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم** ﴾[٥] ، ﴿ **ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم** ﴾[٦] .

وفى هذا بيان للرحمة التى تسود بكاملها المسلمين ﴿ **وما أريد أن أشق عليك** ﴾ وبيان لأهمية الوفاء بالعهود والعقود ﴿ **قال الله على ما نقول وكيل** ﴾[٧]

ومضت السنون والأعوام وتم إعداد الرسول الكريم للمهمة العظمى ، إلى أعتى ملوك الأرض فى زمانه ، فرعون مصر الطاغية .

﴿ **فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً ، قال لأهله**

---

(١) القصص : ٢٣ ـــ ٢٨ .
(٢) الطلاق : ٢ ـــ ٣ .
(٣) الطلاق : ٧ .
(٤) الأحزاب : ٣٣ .
(٥ ، ٦) البقرة : ٢٢١ .
(٧) يوسف ٦٦ .

امكثوا إنّى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبرٍ أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلمّا آتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين . اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملأه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾[1] .

إنه التكريم العلوى الجليل لبنى آدم ، الله سبحانه وتعالى فى عليائه يلقن عبده ورسوله موسى عليه السلام الأصل الأول من الأصول التى ينبغى على العبد معرفتها ﴿ إنى أنا الله رب العالمين ﴾ مالك العالمين .. المتعهد للعالمين بالإصلاح والتربية ، صاحب الحق وواضع النظام والشريعة التى يسير عليها البشر ... ﴿ إنني أنا الله لا إلٰه إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ﴾ [2] ... تعريف بالله وما ينبغى على العبد تجاه ربه من إفراده وحده بالعبادة رب العالمين الذى لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له وإن هذه الدنيا ليست بدار قرار وإنما الدار الباقية هى يوم القيامة التى لابد من كونها ووجودها . ﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ [3] .

﴿ وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ [4] . ﴿ اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء إلى فرعون وملأه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ [5] .

إذن هى النبوة وهى الرسالة إلى قوم فرعون وملأه .. ولابد من مؤيدات ، فهذه المؤيدات : حية تسعى ، يد تخرج بيضاء من غير سوء ، ومع ذلك سبع [6] آيات بينات . إلى من ؟ إلى أعتى ملوك الأرض فى زمانه وملأه الذين وصفهم القرآن بالفسق ، وهكذا يتضح أن مصر قد رزئت بحكام طغاة ، يعاونهم قوم فاسقون .

---

(١) القصص : ٢٩ ـــ ٣٢ . (٢) طه ١٤ (٣) طه : ١٥ ـــ ١٦ .

(٤) القصص ٣١ . (٥) القصص : ٣٢ .

(٦) وهى المبسوطة فى سورة الأعراف

وامتثل موسى لأمر الله ، ومع ذلك أبدى مخاوفه من بطش فرعون الطاغية : ﴿ **قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معي ردءاً[1] يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون** ﴾ [2] .

وكانت الاستجابة من رب الأرض والسماء تطميناً لقلب رسوله واستجابة لخلجات نفسه :

﴿ **سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون** ﴾ [3] .

هذا تطمين لأصحاب الدعوات ، أنهم فى حفظ الله ورعايته ﴿ **فلا يصلون إليكما** ﴾ ، وتطمين لأصحاب الدعوات ، لا يغرنكم قوة الطاغوت المنتفشة ، فإنها مقهورة ومغلوبة ، وأنتم الأعلون لأن الله معكم وناصركم .. وفيه توجيه لجند الحق يؤكد على أهمية الصحبة الطيبة ، السند ، العضد ، النصير فى الدعوة إلى الله .. وأن عصبة الخير ، عصبة الدعوة ، لابد وأن تحرص على أن تستمد العون فى مسيرتها وذلك لا يتأتى إلا إذا حسنت علاقتها بالله ، وعرفت الطريق لاستمطار رحماته ، والطريق هو الصلاة ، والذكر والتسبيح شكراً لله على آلائه .

وفى هذا بيان للبشرية أن الله سميع بصير ، وأنه مطلع على السرائر . إن المعركة بين أهل الحق وأهل الباطل هو الذى يديرها من فوق سبع سمٰوات ، وهو الذى يوجه أحداثها ﴿ **فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون** ﴾ .

﴿ **فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل** ﴾ [4]
وهنا انتفض الطاغية كأنما لدغته أفعى ، لقد تجرأ عليه من كشف حقيقة أمره أمام الناس أمام الحاشية .

---

(١) أى اجعله معينا وردءا ووزيرا يساعدنى ويعيننى على أداء رسالتك إليهم فإنه أفصح منى لسانا وأبلغ بيانا .

(٢) القصص : ٣٣ ـــ ٣٤ .

(٣) القصص : ٣٥ ، (سلطانا) أى برهاناً ، (فلا يصلون إليكما) أى فلا ينالون منكما مكروها بسبب قيامكما بآياتنا .

(٤) الشعراء ١٦ ـــ ١٧

وبدلاً من أن يستسلم فإذا به يوغل فى الجرأة على رب العالمين : ﴿ **قال فرعون وما رب العالمين** ﴾ (١) ؟ تناسى الطاغية رب العالمين الذى خلقه وهداه ورزقه . والذى يميته ثم يحييه .. تجاهل كل ذلك .. وقال فى بجاحة ﴿ **وما رب العالمين** ﴾ فرد موسى يعرف الطاغية بربه رب العالمين وهى أول المسائل التى ينبغى على العبد معرفتها : ﴿ **رب السمٰوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾ (٢) يعنى رب العالمين خالق هذه السمٰوات والأرض المشاهدة وما بينهما من المخلوقات المتجددة من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التى يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها ولابد لها من موجد ومحدث وخالق وخالقها هو الله الذى لا إلٰه إلا هو رب العالمين .

ولم يرعوى الطاغية ، وقال لمن حوله على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام : ﴿ **ألا تستمعون** ﴾ (٣) .

وكان من الواجب على بطانة السوء أن ترد ، وكان من الواجب على الشياطين الخرس أن يتكلموا ويقولوا نعم إنه يقول الحق ، فربنا هو رب العالمين ولست أنت يا فرعون .. ولكن ماتت فيهم المروءة وماتت فيهم النخوة والرجولة ...

واستمر موسى عليه السلام يعرف بربه : ﴿ **ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ (٤) .

ولكن فرعون وهو دأب كل طاغية فى كل زمان ، ومكان ، لم يستفق من رقدته ولا نزع عن ضلالته بل استمر فى طغيانه وعناده وكفرانه ﴿ **قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾ .

سبحان الله ، رسول يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ويقدم الدليل على صدق رسالته ، يقابل بهذه المقابلة السيئة ، اتهامه بالجنون(٥) .. هذا دأب الطاغوت ولكن لماذا ؟ لأنه حطم القاعدة التى يقوم عليها حكم الطاغوت .. لقد عرف الناس أن الذى يجب أن

---

(١) الشعراء . ٢٣ .
(٢) الشعراء : ٢٤ .
(٣) الشعراء : ٢٥ .
(٤) الشعراء : ٢٦ .
(٥) لقد أقام موسى وأخوه الحجة العقلية المعنوية والحسية على فرعون اللئيم وذلك أن فرعون قبحه الله أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى وزعم أنه الإله ﴿ **فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى** ﴾ ﴿ **وقال يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾ .. وهو فى هذه المقالة معاند يعلم أنه مربوب وأن الله هو الخالق البارىء المصور الإله الحق كما قال تعالى ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾

يعبد هو الله رب العالمين الخالق ﴿ **رب المشرق والمغرب وما بينهما** ﴾ . فالذى يخلق هو الذى يعبد .. وأن ملكهم وفرعونهم لا يملك خلقا ، ولا إحياء ولا إماتة .. ورغم إدراكهم لهذه الحقيقة فهم لا يتحركون ولا يقولون لفرعونهم ما جاء به موسى هو الحق لأنهم لا يستطيعون .

ولم تقف سفاهة الفرعون عند هذا الحد ، بل انطلق يهدد ويتوعد : ﴿ **قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين . قال أولو جئتك بشىء مبين . قال فأت به إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين** ﴾ (١) .

وقدم موسى عليه السلام كل الآيات الصادقات الدالة على صدقه ، فلم يزدد الفرعون إلّا عتوّا وكفراً .

﴿ **ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى . قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى . فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى . قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى** ﴾ (٢) .

إذن فرعون معاند مكابر فرغم أن الأدلة والبراهين التى عرضها موسى تؤكد أنه رسول من رب العالمين ، أصر فرعون على كفره ، ولم يقف عند هذا الحد بل اتهم موسى صاحب الرسالة بأنه ساحر وأنه يريد أن يقلب النظام الحاكم ويقضى على حكم الفراعنة (٣) ، ويقوم هو بحكم مصر وإيغالا فى التحدى زعم أنه سيفضح أمره وأنه سيأتى بسحر مماثل ويبطل به سحر موسى فى زعمه . وتحدد الموعد . يوم الزينة وهو يوم عيد من أعيادهم وتجمع لهم فى أول النهار .

واستطاع الطاغوت ـ وقد استخف بقومه ـ أن يحشد صفوفهم ﴿ **فأجمعوا كيدكم ثم**

---

(١) الشعراء : ٢٩ ـ ٣٣ . (٢) طه ٦٠ ـ ٥٩

(٣) وهكذا يتضح لنا أن الباطل حريص على الوقوف فى وجه دعوة الله بشتى الوسائل ، والتشكيك فيها وفى أصحابها وتوجيه التهم التى تخوّل للباطل قتلهم أو إبعادهم . مثلما ادعى فرعون أن موسى جاء ليقلب نظام الحكم : ﴿ **لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى** ﴾ وهذا دأب الطاغوت فى كل زمان ومكان .

ائتو صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ [(١)] .. ولكن أنى يعارض البهتان والسحر والهذيان خوارق العادات التى أجراها الديان على يدى عبده الكليم ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان الذى يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان [(٢)] .

﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾ [(٣)] .

وصدق الله القائل : **﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾**[(٤)] **﴿ قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا ، فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ﴾** [(٥)] تحذير من صاحب الدعوة ، تحذير من النبى الكريم لبطانة الفرعون من السحرة المستأجرين **﴿ لا تفتروا على الله كذباً ﴾** لقد وعظهم وزجرهم عن تعاطى السحر الباطل الذى فيه معارضة لآيات الله وكتبه ولكن المستضعفين الذين رضعوا الذلة والاستكانة لا يملكون إلا أن يطأطئوا رؤوسهم للطاغية وينفذوا أوامره .

﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ [(٦)] .

وهكذا شوه أهلُ الباطل ، صاحب الدعوة إلى الله ، وتناقل الناس هذا التشويه وهذه التهم ، لأن الباطل يمسك بناصية الأمور ، لأن الباطل يملك أجهزة الإعلام فسخرها لتشويه الإسلام وأهله ، وهذا دأب الباطل والجاهلية فى كل مكان . الدعاة إلى دين الله إلى الإسلام صورهم النظام الفرعونى الكافر أنهم سحرة ، صور موسى وأخاه بأنهما ساحران يتآمران على النظام الحاكم . ومرادهم أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة » .

سبحان الله نفس التهمة التى وجهها فرعون منذ آلاف السنين إلى الدعاة إلى الإسلام هى نفسها التى يوجهها الطاغوت إلى حملة هذا الدين فى عالمنا المعاصر .

﴿ قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . قال بل ألقوا فإذا

---

(١) طه ، ٦٤ .
(٢) البداية والنهاية جـ ١ ص ٢٥٥ .
(٣) طه : ٦٠
(٤) إبراهيم ٤٦ .
(٥) طه ، ٦١ .
(٦) طه : ٦٢ ـــ ٦٤ .

حبالهم وعصيهم **يخيل إليه من سحرهم**[1] **أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى** ﴾[2] فأمر الله تعالى ﴿ **لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق مافى يمينك**[3] **تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾[4] .

ألقى موسى عصاه وهو يردد ﴿ **ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين** ﴾ لابد وأن يكشف أمر الجاهلية أمر الذين يدجلون على الشعب الذين خدعوا أمتهم وزيفوا الحقائق ، لابد وأن يأتى يوم يعرف الناس الحقيقة ويدركون هذا الدين الذى لا يقبل من الأولين أو الآخرين غيره . ماذا حدث بعد ذلك ؟

﴿ **فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون** ﴾[5] .

لقد كشف الله عن قلوب السحرة غشاوة الغفلة وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها الغشاوة وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين وقالوا جهرة للحاضرين ، ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى : ﴿ **آمنا برب موسى وهارون** ﴾[6] وأسقط فى يد الطاغية ، وأتى من حيث لا يدرى ، فإذا أمره قد انكشف وسقطت الغشاوة عن كثير من الأبصار التى أعماها الغش والطغيان عن رؤية الحق واتباعه ، وحينما أتيحت الفرصة وتجلى الحق ، إذا بالقلوب التى فطرها الله على الإيمان بالله رب العالمين ، فتعلن كفرها بالطاغوت ، بفرعون وتؤمن بالله رب العالمين .

أما فرعون الطاغوت فقد رفض الانصياع لأمر الله بعد أن ظهر الدليل والبرهان ، يس هذا فحسب ، بل تهدّد الذين آمنوا بالله رب العالمين بمجرد ما تجلى لهم الحق من عند ربهم ﴿ **قال آمنتم له قبل أن آذن لكم** ﴾ وكأن الإيمان بالله رب العالمين يحتاج إلى إذن من الطاغوت ، وأردف ذلك باتهام آخر ﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾ ثم أتبع ذلك بالتهديد إما أن يرتدّوا وإما القتل .

---

(١) ﴿ **فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم** ﴾ .

(٢) طه : ٦٥ — ٦٧ .

(٣) ﴿ **فألقى موسى عصاه ، فإذا هى تلقف ما يأفكون** ﴾ ﴿ **فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون** ﴾ .

(٤) طه : ٦٨ — ٦٩

(٥) الأعراف : ١١٩ — ١٢٢ .

(٦) البداية والنهاية ، حـ ١ ، ص ٢٥٦

﴿ فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ﴾ سبحان الله . لماذا ؟ لأنهم آمنوا بالله رب العالمين وهل الإيمان بالله رب العالمين الخالق الرازق المحيي والممت جريمة ؟ ... نعم فى عرف الطاغوت جريمة لأن الناس بتحررهم من ربقة الطاغوت وإيمانهم بالله ، لن يجد الطاغوت من يستعبده ، من يرضى شهوته إلى الاستكبار والكبر ، لن يجد من يصفق له ، لن يجد من يجعله مطية لتحقيق رغباته وشهواته .

ومن هنا حاء التهديد بالقتل للمسلمين الذين استسلموا لله رب العالمين مع موسى عليه السلام وكفروا بالطاغوت .

ماذا فعل هؤلاء المسلمون لقد قالوهـا كلمـة سجلها لهم رب السماء وسجلتها لهم الدنيا كلها كنموذج يحتذى :

﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى . إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلي . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾ [1] .

لقد طلقوا تصورات الجاهلية بعد أن استبان لهم نور الحق ، واستهانوا بكل شيء من

---

(١) أورد الإمام الحافظ ابى كثير تعليقا على هدا الموقف :

« لما سحد السحرة رأوا مارلهم وقصورهم فى الحنة تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده ورلته لأن فرعون لمّا رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وشهدوا وذكروا موسى على هذه الصفة الجميلة أفزعه ذلك ورأى أمرا بهره وأعمى بصيرته وبصره وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة فى الصد عن سبيل الله فقال مخاطبا للسحرة بحضرة الناس ﴿ **آمنتم له قبل أن آذن لكم** ﴾ أى هلا شاورتمونى فى هذا الأمر الفظيع بحضرة رعيتى . ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد وكذب فأبعد قائلا ﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾ وقال فى الآية الأحرى ﴿ **إنَّ هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون** ﴾ .

وهذا الذى قاله من البهتان يعلم كل فرد عاقل مافيه من الكفر والكذب والهزيان بل لا يروج مثله على الصبيان فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم ير هؤلاء يوما من الدهر فكيف يكون كبيرهم الذى علمهم السحر . ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم حتى كان الفرعون هو الذى استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق وواد سحيق ومن هواجر بلاد مصر .

متاع الدنيا ، وحملوا رؤوسهم على أكفهم ابتغاء مرضات الله فى سبيل دينهم والهدف والغاية أصلا فى أن يغفر الله لهم ذنوبهم ، وما اقترفوه فى جاهليتهم ، أملاً فى أن يأخذ الله بأيديهم إلى الجنة التى جعل الله درجاتها العليا للمؤمنين الذين يعملون الصالحات . يقول الإمام الحافظ ابن كثير « والظاهر من هذه السياقات (الآيات القرآنية) أن فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم رضى الله عنهم ، قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير : كانوا من أول النهار سحرة فصاروا فى آخره شهداء بررة . ويؤيد هذا قولهم ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين** ﴾[1] ..

وسقط الشهداء وهذا هو طبيعة طريق أصحاب الدعوات ، ﴿ **الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون** ﴾[2] ، ولكن ذلك لم يوقف دعوة الله ، ولم يطفىء نور الله ونور الإسلام ، فها هى المسيرة تستمر بقيادة موسى ومن تبقى معه من المؤمنين الموحدين ولكن الطاغوت وأعوانه لا يطيقون الحق متحركا أو ساكنا أمام عيونهم ﴿ **وقال فرعون ذرونى أقتل موسى**[3] **وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد** ﴾[4] ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم « صار فرعون مذكرا » .

وهذا هو دأب الطاغوت فى كل زمان حرص على قتل الرسل وأصحاب الدعوات والمؤمنين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أو إخراجهم من الديار ﴿ **وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا** ﴾ .

---

(١) البداية والنهاية ، حـ ١ ، ص ٢٥٨ . الآية من سورة الأعراف : ١٢٦ .

(٢) العنكبوت : ١ — ٢ .

(٣) وتجاوب فرعون رأس الطاغوت مع صيحات الملأ الموتورة ﴿ **قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون** ﴾ .

وهذا هو موقف أعداء الإسلام المنتفشين بقوتهم ، سنقتل ونعتقل ، نقتل الأبناء ونعتقل النساء ولا يهمنا شىء وإنا فوقهم قاهرون : هكذا بكل يسر وسهولة لقد نسى الطاغية وعبيده من الطغاة قدرة الله الواحد القهار ، نسوا أن الله من ورائهم محيط .. ويقول الله تعالى : « من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب » .

إنه موقف المشركين من دعوة نوح عليه السلام ﴿ **لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين** ﴾ وموقف الفسقة من دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿ **فألقوه فى سواء الجحيم** ﴾ .

وموقف الكفرة من دعوة صالح عليه السلام : ﴿ **لنبيتنه وأهله** ﴾ وهو موقف أعداء الإسلام من محمد ﷺ ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك** ﴾...

(٤) غافر : ٢٦ .

ولابد وأن يقترن هذا التآمر على الصف المسلم ، بتبرير تحشد فيه الأكاذيب ، **أن يبدل** دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد . الذى يريد أن يحرر البشرية ويخرجها من الظلمات إلى النور ويقيم حكم الله فى الأرض ليأمن الناس على أعراضهم وأموالهم . يريد أن يظهر فى الأرض الفساد !

ماذا يفعل صاحب الدعوة إزاء هذا التهديد والتشكيك والتشويه لصورته أمام الناس ليس أمامه إلا الاعتصام بالله ﴿ **وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ [1] أى عذت بالله ولجأت إليه بجنابه من أن يسطو فرعون وغيره بسوء عذت بالله من كل جبار عنيد لا يَرْعَوى ولا ينتهي ولا يخاف عذاب الله وعقابه لأنه لايعتقد معاداً ولا جزاء .

ولم تكتف بطانة السوء بما أريق من دماء الشهداء ، فهاهم يؤيدون فرعون الطاغية :
﴿ **وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك** ﴾ .

سبحان الله .. موسى عليه السلام وقومه الذين كانوا يدعون إلى الإسلام الذين أرسلهم الله لتحريرهم من ربقة الطاغوت ، الذين كلفهم الله مهمة إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، مفسدون فى الأرض ! ! !

وتعاونت أقلام السلطة ، وتعانق المأجورون ، وتعاونت أجهزة إعلام الطاغوت فى تشويه صورة الدعوة وصاحبها وأتباعها وهذا هو نفس الموقف الذى تقفه جاهلية القرن الرابع عشر الهجرى من دعوة الإسلام والمسلمين ، إنهم مفسدون فى الأرض ، إنهم متطرفون ، إنهم يريدون أن يحرموا الأمة من كل شيء حتى الفن والرقص والغناء .

وهاهى بطانة السوء تنبرى لتكرر قول فرعون رأس الطاغوت : ﴿ **وقال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون** ﴾ نفس كلمة فرعون الطاغية ، يردّدُونها ليؤلبوا الناس على الدعاة .. على حملة هذا الدين . « فماذا تأمرون » .

وهذا دأب بطانة السوء فى كل زمان ومكان ، ولا غرابة فى هذا فهذه هى طباعهم وخلقهم الذى صوره الله أحسن تصوير ﴿ **إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ ، ﴿ **فاستكبروا**

---

(١) غافر : ٢٧

وكانوا قوما مجرمين ﴾ ، ولماذا يقفون هذا الموقف ؟ لأنهم يخشون على مكاسبهم الحرام التى حققوها ، يخشون على المال الحرام الذى جمعوه ، يخشون أن يطبق شرع الله فيقتص من الظلمة وأعوان الظلمة فيشملهم القصاص ، وهذا ما تخشاه بطانة السوء فى كل زمان ومكان .. ومن هنا ينبع تكاتفهم مع رأس الطاغوت لمنع إقامة دين الله فى الأرض .

ولكن المجتمع لا يحرم وجود أقوام صالحين ، فها هو رجل مؤمن من آل فرعون يشهد المؤامرة على الرسول موسى عليه السلام فلم يستطع صبراً ولم يملك نفسه فانطلق يدعو :

﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، أتقتلون رجلا أن يقول ربّى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب . ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ماأرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾[1] .

واستمر مؤمن آل فرعون فى تنبيه قومه إلى خطورة ماهم مقدمين عليه منكرا بما حل بالأمم السابقة :

---

(١) غافر : ٢٨ — ٢٩ .

إن هذا الرجل كان يكتم إيمانه ، فلمّا همّ فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام ، وعزم على ذلك وشاور الملأ ، خاف هذا المؤمن على موسى ، فتلطف فى ردّ فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب ، فقال على وجه المشورة والرأى وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » ، وهذا من أعلى مراتب هذا المقام فإن فرعون لأشد جوراً منه ، وهذا الكلام لا أعدل منه لأن فيه عصمة نبى : وقال : ﴿ **أتقتلون رجلا أن يقول ربّى الله** ﴾ أى من أجل أنه قال ربى الله ، فمثل هذا لا يقابل بهذا بل بالإكرام والاحترام والموادعة وترك الانتقام يعنى كأنه ﴿ **قد جاءكم بالبينات من ربكم** ﴾ أى بالخوارق التى دلت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله فهذا إن وادعتموه كنتم فى سلامة لأنه ﴿ **إن يك كاذبا فعليه كذبه** ﴾ ولا يضركم ذلك ﴿ **وإن يك صادقا** ﴾ وقد تعرضتم له ﴿ **يصبكم بعض الذى يعدكم** ﴾ أى وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء فيما يتوعدكم به فكيف بكم إن حلّ جميعه عليكم »

هذا الكلام فى هذا المقام من أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام ، وقوله ﴿ **ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض** ﴾ يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز فإنه ما تعرض الدول للدين إلا سلبوا ملكهم وذلّوا بعد عزهم وكذا وقع لآل فرعون . مازالوا فى شك وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله وما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور والنعمة ثم حولوا إلى البحر مهانين ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل سافلين ﴿ **فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا** »

﴿ وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد . ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد [١] . يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان آتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾[٢] .

﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب [٣] . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾[٤] .

﴿ وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبل الرشاد . ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلايجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار . تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أن ماتدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ماأقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ [٥] .

---

(١) يوم التناد بتشديد الدال أى يوم الفرار ويحتمل أن يكون يوم القيامة ويحتمل أن يكون يوم يحل فيه البأس فيودون الفرار ولات حين مناص ﴿ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ماأترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ﴾ .

(٢) غافر ٣٠ ــ ٣٥ .

(٣) طرقها ومسالكها وإنما كان مقصود فرعون أن يبعد الناس عن تصديق موسى عليه السلام وأن يحثهم على تكذيبه .

(٤) غافر ٣٦ ــ ٣٧ .

(٥) غافر ٣٨ ــ ٤٦

المبحث الثالث

قيام حكم الإسلام على أرض مصر على عهد موسى عليه السلام ومن معه من المسلمين

إن القضية الكبرى التى من أجلها خلق الله السمٰوات والأرض ، والتي من أجلها أرسل الرسل عليهم السلام ، هي قضية لا إلٰه إلا الله ، قضية الإسلام ، أى الاستسلام الكامل لله رب العالمين . هذه القضية كانت موضوع رسالة موسى عليه السلام إلى شعب مصر : ﴿ **وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾[1] .

وقد ورد في الحديث عن رسول الله محمد ﷺ : « انتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام ، فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان حتى عد تسعاً ، فمن أنت لا أم لك ؟ قال : أنا فلان بن فلان بن الإسلام . فأوحى الله لموسى أن قل لهذين المنتسبين : أما أنت أيها المنتسب إلى تسعة في النار فأنت عاشرهم ، وأما أنت أيها المنتسب إلى اثنين فى الجنة ، فأنت ثالثهما في الجنة »[2] .

ولقد بينا في الفصل السابق ، كيف كان استقبال فراعنة مصر لهذه الدعوة ، وكيف جرى الصراع ، وكيف حسمه الله سبحانه وتعالى ، فأغرق فرعون وهامان وجنودهما ، ومكن لموسى عليه السلام ومن معه من المسلمين : ﴿ **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون** ﴾ .

---

(١) يونس : ٨٤ .

(٢) القرآن العظيم ، حـ ٢ ، ص ٢٤٢   عالما بعد عصر الأسرة التاسعة عشر المصرية .

والدليل على ذلك التمكين الذى تحقق لموسى ومن معه من المسلمين قول الله تعالى :

أولاً : ﴿ **فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** ﴾[1] .

ثانيا : ﴿ **ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم . أن أدُّوا إلىَّ عباد الله إنّى لكم رسول أمين . وأن لا تعلوا على الله إنّى آتيكم بسلطان مبين . وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون . وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون . فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون . فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون . كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين . ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنّه كان عاليا من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين** ﴾[2] .

وبالنص القرآنى إيحاءات :

ـــ إن قوم فرعون قد أرسل فيهم رسول كريم وهو موسى عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام .

ـــ إن موسى عليه السلام قد قدم لهم بين يدى دعوته الآيات البينات والأدلة القاطعات .

ـــ إن الكبر هو الذى يمنع الفرد من الانقياد لأمر الله عز وجل ، وهو مرض يؤدى بصاحبه إلى النار : ﴿ **إنَّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين** ﴾[3] .

ـــ الإجرام سمت من سمات الكافرين ، ومن هنا دعا عليهم موسى عليه السلام :

(١) الأعراف : ١٣٦ ـــ ١٣٧ . يقول الإمام القرطبى : « الأرض هي أرض الشام ومصر . ومشارقها ومغاربها جهات الشرق والغرب بها » . (الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٧ ، ص ٢٧٢) .

(٢) الدخان : ١٧ ـــ ٣٣ . تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٤٠ ـــ ١٤١ .

(٣) غافر : ٦٠

﴿ **وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما** ... ﴾[1] .

ــ إن الكفر بالله يؤدى إلى سلب النعمة من الكافر ، بل ويدمر الله عليه ، كما أن الإيمان بالله يؤدى إلى فتح أبواب النعم على المؤمنين : ﴿ **فأخرجناهم من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين** ﴾ أى عيشة كانوا يتفكهون فيها . فيأكلون ما شاءوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد ، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة ، وفارقوا الدنيا ، وصاروا إلى جهنم وبئس المصير . واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية[2] بنو إسرائيل[3] كما قال تعالى : ﴿ **كذلك وأورثناها بني إسرائيل** ﴾[4] ، وقال في الآية الأخرى : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** ﴾ . وقال عز وجل هنا : ﴿ **كذلك وأورثناها قوماً آخرين** ﴾ وهم بنو إسرائيل المسلمون ، ولا علاقة مطلقا بينهم وبين مغتصبى فلسطين اليهود الذين انتحلوا اسم نبى كريم هو يعقوب عليه السلام .

ــ إن المؤمن إذا مات ، بكت لفقده السمٰوات والأرض ، والكافر إذا نفق لا يحزن لفقده شيء ، فعندما غرق فرعون وملأه : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض** ﴾ أى لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم ، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها ففقدتهم[5] ، فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٤١ ، المهم استقامة المسلم على أمر الله امتثالا لأمره : ﴿ **فاستقم كما أمرت** ﴾ ثم امتثالا لأوامر رسول الله ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم » .

(٢) وكلمة قبطى فى اللغة المصرية القديمة تعنى مصرى ، ولا تعنى مسيحى

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤١

(٤) كما قلنا لا علاقة مطلقا بين إسرائيل (يعقوب) النبى المسلم ومغتصبى فلسطين من اليهود

(٥) أورد الحافظ أبو يعلى الموصلي فى مسنده من رواية أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله فى السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله ، وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه » وتلا هذه الآية . ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض** ﴾ . ورواه ابن أبى حاتم

وقد أورد ابن جرير حديثا برواية شريح قال . قال رسول الله ﷺ . « إنّ الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما =

وإجرامهم وعتوهم وعنادهم[1] .

ومما لا شك فيه ، أن موسى عليه السلام كان إماماً على أرض مصر ، وأرض الشام بعد انهيار رمسيس الثانى ، وأنه أقام حكم الله وشرعه على أساس التوراة التي أنزلت ألواحها عليه .

والملفت للنظر ، أنّ مراجع التاريخ القديم تتجاهل فترة بعثة موسى عليه السلام وإمامته على أرض مصر بعد هلاك فرعون مصر الطاغية ، كما تجاهلت من قبل رسالة يوسف عليه السلام .

ولقد سبق وقلنا : إن المستشرقين الذين وضعوا مناهج التاريخ القديم التى تتجاهل الرسالات السماوية ، ينطلق من الحرص على طمس خط توحيد الله رب العالمين ، ومن هنا وجب علينا أن ننبّه إلى ذلك ونعيد دراسة تاريخ هذه الأمة فى ضوء الرسالات السماوية ، وبهذا تصبح الدراسات التاريخية منطلقة من العقيدة الإسلامية .

بدأ ألا لاغربة على مؤمن ، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض** ﴾ ، ثم قال : « إنهما لا يبكيان على كافر » .

كما أورد ابن جرير رواية عن سعيد بن جبير قال : «أتى ابن عباس رضي الله عنهما رجل فقال : يا أبا العباس أرأيت قول الله تعالى : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين** ﴾ فهل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ قال رضي الله عنه : نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله ، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذى كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه ففقده بكى عليه ، وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله عز وجل فيها بكت عليه . وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة ، ولم يكن يصعد إلى الله عز وجل منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض » .

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٤٢ .

المبحث الرابع

عصر إمامة موسى عليه السلام
وخروج موسى عليه السلام على رأس جيش
من المسلمين لتحرير بيت المقدس

فى الفترة ما بين الأسرة التاسعة عشرة والعشرين

هنالك حدث ضخم هَزّ منطقة الشرق القديم هزاً عنيفا ، وهو إهلاك قادة الدولة الفرعونية رمسيس الثانى وولى عهده مرنبتاح ووزراءه وجنده غرقا : ﴿ **فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم** ﴾ . وبعدها استخلف الله موسى عليه السلام ومن معه من المسلمين الموحدين ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها** ﴾ وهذا تحقيقا لوعد الله ﴿ **ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون** ﴾[1] .

ولكن كتب التاريخ القديم تجاهلت هذا الحدث ، تجاهلاً تاماً ، مع أنه ورد فى القرآن الكريم ، ولكن القرآن ليس مصدراً موثقاً لدى المستشرقين ومن سار على نهجهم من أعداء الإسلام والمسلمين !!!

وهناك أيضاً حدث ضخم تجاهلته أيضاً كتب التاريخ القديم وهو تسلط قوم جبارين على بيت المقدس ، وإعلان النفير العام ، وخروج جيش مصر الإسلامية بقيادة موسى عليه السلام لتحرير بيت المقدس التى كتب الله على المسلمين تحريرها وإقامة حكم الله عليها

---

(١) القصص : ٥ — ٦ .

وسكناها ﴿ **ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم** ﴾[1] .

---

(١) ارجع إلى كتابنا : الطريق إلى بيت المقدس ؛ ذرية إبراهيم والمسجد الأقصى ، طبعة دار الوفاء للطباعة والنشر بالمنصورة.

الفصل الخامس

تاريخ الأسرات

(من العشرين إلى الثلاثين)

مع التعليق على بعض الأحداث الواردة فى هذا الفصل فى ضوء العقيدة الإسلامية[1]

بخروج موسى عليه السلام على رأس جيش مصر الإسلامية لتحرير القدس ، انتهز الفراعنة الفرصة ووثبوا على السلطة ، مؤسسين ما تسمى بالأسرة العشرين .

ولا يفوتنا هنا أن ننبه ، أن مراجع التاريخ القديم ، قد زيفت تاريخ هذا الرسول المسلم (موسى عليه السلام) وغيره من الأنبياء المسلمين أمثال إبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان عليهم السلام ، فزعمت أنهم كانوا يهودا ، وذلك لخدمة مخطط اليهود فى اغتصاب فلسطين وبقية بلاد العالم العربى ، على اعتبار أنها ـــ حسب زعمهم وهم كاذبون ـــ ميراثهم عن هؤلاء الأنبياء ، وهذا هو السبب الذى من أجله انتحل اليهود اسم إسرائيل وأطلقوه على فلسطين المغتصبة ، ولقد كشفنا عن هذا التزييف والتشويه لتاريخ الأنبياء والرسل المسلمين الذين يبرأون إلى الله فى الدنيا والآخرة من اليهود قتلة الأنبياء ، فى مؤلفاتنا[2]، وليدرك القارئ أن المسلمين هم أولى الناس بإبراهيم وإسحاق ويعقوب (إسرائيل) وموسى وداود وسليمان عليهم السلام . وفلسطين هى ميراث الأمة المسلمة بعد

---

(١) والمعلومات الواردة هنا مستقاة من مراجع التاريخ القديم ولا تصمد أمام الجرح والتعديل ولا ينبنى عليها عمل . والهدف من سردها هنا لكى ننبه الأمة إلى خطورة استمرار إهدار أوقات الأمة فى دراسة وتدريس هذه المقررات فى المدارس والجامعات ، ولأسباب أخرى ذكرناها سابقا ، فى الوقت الذى تتجاهل فيه مراجع التاريخ القديم الرسالات السماوية التى كانت فى هذه المقترحات فى تاريخ الأمة .

(٢) ليس لليهود حق فى فلسطين ، الطريق إلى بيت المقدس ، دربة إبراهيم والمسجد الأقصى طبعة دار الوفاء للطباعة والنشر .

وفاة هؤلاء الأنبياء المسلمين .

الأسرة العشرون (١٢٠٠ ـــ ١٠٩٠ ق . م) :

أهم ملوك هذه الأسرة هو رمسيس الثالث الذى تولى الحكم بعد وفاة والده « سن نخت » ولقد كانت بداية سنوات حكمه فترة إصلاح شامل لعديد من جوانب الحياة المصرية . كما تصدت قوات الجيش فى عهده لهجوم من الشعوب الهندوآرية وحلفائهم من الليبيين على حدود الدلتا الغربية عندما كانوا فى طريقهم إلى منف ، وقد هزمتهم القوات المصرية وأسرت منهم عددا كبيرا .

وفى وقت آخر صدت القوات البرية المصرية وأسطولها البحرى غزوا من شعوب البحر الهندوآرية ـــ الذين كانوا فى طريقهم إلى مصر عن طريق الشرق ـــ وأنزلت بهم خسائر فادحة بهم ، وأنقذت البلاد وغرب آسيا من خطر محقق .

ودراسة الأحوال الاعتقادية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية لمصر فى ظل حكام الأسرة العشرين وخاصة عهد رمسيس الثالث ، تبين لنا مجتمعا شارداً عن هدى الله سبحانه ، فسدت فيه أحوال الناس والمجتمع نتيجة تسلط الحكام الفراعنة عليه ، وإغداقهم من أموال الأمة على معابد الأوثان ، لضمان تأييد سدنة المعابد وكهنتها للنظام الحاكم وقد أثر ذلك على اقتصاد البلاد ، وخير شاهد على ما نقول : ما نشره الأستاذ الدكتور أحمد فخرى عن الهبات والأوقاف التى أوقفها رمسيس الثالث على معبده بمدينة هابو بالأقصر .

« ونحن إذ نقرأ تفاصيل هذه الهبات فى بردية هاريس[1] ونعرف مدى ثراء كهنة المعابد وسلطانهم وما كان لديهم من أرقاء يعملون فى الأراضى الخاصة بالمعابد فإننا لا نملك أنفسنا من التفكير عن مدى أثر هذا الثراء على نظام الدولة من ناحية ، وعلى الدخل القومى من ناحية أخرى . فقد كان للإله آمون ـــ رع وحده ثروة طائلة . إذ كان مجموع أراضيه نحو ١٠ ٪ من أراضى البلاد المزروعة (جميع الآلهة الأخرى كانوا يمتلكون ٥ ٪ أخرى) وكان لآمون ٨٦٫٥٠٠ من الأرقاء الذين يعملون فى أراضيه ، وكان له خمسة قطعان من الماشية لا

(١) حضارة مصر الفرعونية ، ٣١٨ وما بعدها .

ولما كان خروج موسى عليه السلام ومن معه من أبناء يعقوب باتجاه بلاد الشام لتحرير بيت المقدس وأرض الشام من قوم جبارين غلبوا عليه ، يواكب عصر رمسيس الثالث ، فإن الاحتمال القائم ، أن القوم الجبارين هم من الشعوب الهندوآرية التى اجتاحت بلاد الشرق فى ذلك العصر .

يقل مجموعها عن ٤٢١٫٠٠٠ رأس كما كانت له حدائق فى طول البلاد وعرضها وكثيرا منها فى الواحات ، كما كانت له مناجم الذهب فى النوبة ، وكانت له تسع مدن فى سوريا تأتيه محاصيل أراضيها وضرائبها بانتظام ، وغير ذلك من الموارد ، وأهمها ما يقدمه أفراد الشعب وما يقدمه الملوك . فلا عجب إذا أصبح كهنة آمون هم القوة المسيطرة على شئون البلاد . ولم يكن رمسيس الثالث وحده هو المسئول عن إغداق هذه الثروة على الكهنة ولكنها كانت فى الحقيقة ، ثروة تكدست على المعابد منذ أجيال ، ولم يكن فى وسع أحد من الفراعنة أن ينتقص شيئا منها بل كان كل منهم يبذل جهده لإرضاء الكهنة فيزيد عليها حتى يأمن مؤازرتهم وعدم تآمرهم عليه »[1] .

« لم تكن هذه المسألة هى الحالة الوحيدة الشاذة فى البلاد ، كانت هناك حالات أخرى لا تقل عنها أثرا ومنها ابتداء تولى الأجانب وظائف الدولة العامة وبخاصة فى البلاط . ونعرف على سبيل المثال أنه كان حول رمسيس الثالث فى قصره أمناء أجانب عديدون لهم السلطان الأكبر عليه ، كما ملأوا قصره فى آخر أيامه بالفتيات الجميلات سواء من أسرى شعوب البحر أو من الآسيويات أو المصريات . وكان يقضى أوقاته بينهن كما نرى ذلك فى الصرح الأمامى المشيد أمام معبد مدينة هابو ، إذ نرى على جدرانه فى الطابق العلوى رسوماً تمثل رمسيس الثالث وهو يداعب فتياته أو يلاعبهن لعبة الداما وغير ذلك من ألعاب التسلية »[2] .

« وهكذا انصرف رمسيس الثالث عن تقوية ملكه واستمع إلى نصيحة من أحاطوا به من الأجانب والمتملقين حتى صار من بين الأحد عشر أمينا فى القصر الملكى خمسة غير مصريين أحب الاستماع إلى نصيحتهم له فى الإكثار من الاستعانة بالجنود المرتزقة الأجانب ليكونوا عونا له ضد المصريين الذين أخذوا يئنون من الحالة ، وخاصة من الأزمة الاقتصادية التى سببت ارتفاعاً كبيرا فى أسعار الحبوب بصورة لم يكن للشعب عهد بها من قبل .

(١) هذه صورة من الثروات التى كانت موقوفة على معابد ، نعبد فيها أوثان .. تماثيل من دون الله .. ومما لا شك فيه أن ذلك دليل على غياب الوعى الإسلامى عن المجتمع المصرى فى هذه الفترة . أو على الأقل لم يكن فى موقع السلطة التى تمكنه من تحطيم الوثنية وأعوانها .

(٢) كون الفرعون الحاكم لا يجد حرجا فى أن يمثل وهو يداعب فتياته ، أو يلاعبهن لعبة الداما وغير ذلك من ألعاب التسلية أمام الناس دليلا على فساد المجتمع من الناحية السلوكية وذلك دليل على غياب الإسلام عن حياة الحاكم والمحكوم (المرجع السابق ، ص ٣١٨ ـــ ٣٢٠) .

ساءت الحالة الاقتصادية حتى اضطر عمال الجبانة فى طيبة إلى الإضراب عن العمل لأن مقرراتهم لم تصرف لهم لمدة شهرين فى العام التاسع والعشرين من حكم الملك . توقف العمال عن عملهم وحاولوا أن يلفتوا نظر رؤسائهم إلى حالتهم دون جدوى . وفى اليوم التالى تجمعوا وهاجموا مخازن الرمسيوم وهم يصيحون بأنهم جائعون وعند ذلك اضطر كبار الموظفين إلى محاولة تهدئتهم . وتكرر الإضراب بعد ذلك مرات حتى اضطر أن يتدخل لإعطائهم ما يستحقونه . وتعطينا هذه الوثيقة فكرة عما آلت إليه حالة البلاد من فوضى . كما تعطينا أيضا فكرة عن مدى رحمة كهنة المعابد بالفقراء من الناس الذين كانوا على وشك الموت جوعا بينما تكدست الحبوب وأكوام الذهب فى مخازن آمون . كان الكهنة أول من يسمع صياحهم دون أن تتحرك فيهم ذرة من العطف ، بل إننا نعرف من هذه الوثيقة نفسها أن رجال الدين كانوا سوط عذاب على الفقراء . ففى أحد أيام الإضراب تجمع المتظاهرون خلف معبد مرنبتاح وأخذوا يصيحون « نحن جائعون » وتصادف أن مر عمدة المدينة فوعدهم بالمساعدة وأرسل إليهم خمسين غرارة من الحبوب ليسعفوا بها أنفسهم حتى يأمر الملك بصرف استحقاقاتهم لهم . ولكن بعد أيام قليلة وصلت شكوى ضد هذا العمدة ، من كبير كهنة آمون بأنه قد أخذ دون وجه حق من ممتلكاتهم[1] معبد رمسيس الثانى ليطعم المضربين ، ووصف كبير الكهنة عمله : « إن ما فعله جريمة كبرى » ، وهكذا كانت تسير الأمور ، فالكهنة يكدسون الأموال ويظلمون الشعب ، والموظفون يستغلون كل موارد الدولة لمصلحتهم ، والملك سادر فى ملذاته ، والأجانب يتحكمون فى شأن الدولة[2] . ولهذا لا ندهش إذا قام أحد وزراء رمسيس الثالث بثورة ضده فى الدلتا كان مركزها فى « أتريب » ولكن الثورة لم تنجح . وبالرغم من أنها كانت إنذاراً له فإنه لم يتعظ ولكن أسرة الملك أحست أن وجوده فى مركز الحكم أصبح خطرا على البلاد فدبروا قتله » .

« وقد عرفنا تفاصيل هذه المؤامرة من بردية هاريس . لقد دبرتها إحدى زوجاته لأنها

---

(١) هذه أخلاقيات كهنة الأوثان .. مجردة من العطف ، مجردة من الإنسانية .. خزائنهم وبطونهم ممتلئة حتى فاقت حد التخمة فى الوقت الذى يبيت فيه إخوانهم فى الوطن ، وعُبّاد أوثانهم .. على الطوى وهكذا يكون الحال فى المجتمعات التى يغيب فيها الإسلام عن حياة الناس ، ولا يحكم شرع الله وحده فى حياتهم ، ويتحكم فى رقاب الناس طواغيت لا يدينون لله وحده بالعبودية .

(٢) الراعى سادر فى ملذاته ، والمسئولون عن الرعية يستغلون موارد الدولة لمصلحتهم ، والأجنبى يتحكم فى شئون الدولة والناس يتضورون جوعا .. أين مسئولية الحاكم ؟ ولكن الفراعنة ادعوا الربوبية ، واعتدوا على سلطان الله فى الأرض أين الرعية التى يجب عليها التصدى لمن لا يخافون الله ، ويستحيون النساء ويذبحون الأبناء ويسومون الناس سوء العذاب .. ؟

أحست أنه لا يريد أن يجعل من ابنها « بنتاؤور » وليا للعهد ولهذا صممت على قتل الملك العجوز وإعلان ابنها ملكا ، وكان يعاونها فى تدبيرها اثنان من كبار موظفى القصر كانت مهمتهما جمع الأنصار فى البلاط وخارج القصر . ولسنا نعرف مدى نجاح المؤامرة فى الخارج ولكنا نعرف أنه بعد قتل الملك قبض على المتآمرين وكان مع الملكة « تتى » وبنتاؤور والموظفين الكبيرين فى البلاط عشرة آخرون من الموظفين وكذلك ست نساء كن واسطة بين الملكة وشركائها فى الخارج[1] .

ومن أوراق التحقيق فى هذه القضية نعرف كان من بين الأربعة عشر موظفاً الذين تكونت منهم المحكمة أربعة من الأجانب . وظهر أثناء نظر القضية أن ثلاثة من القضاة قضوا سهرة تناولوا فيها الخمر ومعهم ضابطان من الشرطة فى منزل أحد المتهمين حيث اجتمع نساء بعض المتآمرين ، كانت نتيجة هذه السهرة أن انتقل القضاة الثلاثة من كراسى القضاء إلى قفص الاتهام . أما الأحكام التى صدرت عليهم فإن الأمير بنتاؤور وثلاثة من المتآمرين حكم عليه بالإعدام ، وكانوا يتركون وحدهم فى غرفة المحاكمة لينهوا حياتهم بأيديهم . وبرئ أحد القضاة أما القاضيان الآخران وضابطا الشرطة فحكم عليهم بجدع الأنف وصلم الأذنين فانتحر أحد القضاة عندما سمع الحكم عليه أما المتآمرون الآخرون ومنهم الملكة « تتى » فلا نعرف العقاب الذى وقع عليهم » .

---

(١) هكذا يكون الأمر فى المجتمع الشارد عن هدى الله الذى رفض الإقرار بالألوهية والربوبية لله دون منازع ورفض الإسلام شرعة ومنهاجا ، وحينذاك يصبح الحكم غاية . والسلطة هدفا أسمى ، تحاك من أجل الوصول إليها المؤامرات ، وتراق من أجلها الدماء .

بينما فى ظل النظام الإسلامى يصبح الحكم تبعة ، يفر منها المكلف بها .. « ياليت أمك لم تلدك ياعمر ، « إنّا لا نوليها من طلبها » .. ولكن كيف يدرك ذلك حكام الفراعنة ؟ .

إن الله سبحانه وتعالى حينما حكم على الفراعنة بالشرك والضلال والعصيان والخروج عن شرع الله ومنهاجه ، لم يصدره عفوا أو جزافا لأنه هو الحكم العدل العليم الحكيم .

فها نحن نرى أنفسنا أمام رجال العدالة .. القضاة يمثلون فى الحقيقة صورة الرجال الظالمين الذين لا يعرفون الله ولا دينه . القضاة يسكرون ويزنون ويصدرون أحكاما مجافية للعدالة . لقد اتضحت حقيقة هؤلاء القضاة لأن القضية كانت تتصل باغتيال ذات الفرعون رمسيس الثالث ، ولكنها لم تكن لتتضح فى حالة عامة الناس الذين يذبحون ويعيبون فى المقابر دون أن يحس بهم أحد .. وهذا شىء طبيعى فى المجتمع الذى لا يدين لله الواحد القهار ، ولا تسير حياته طبقا للإسلام كما أن هذه القضية تشير إلى شرود المجتمع عن الهدى الإلهى فى مجال السلوكيات أيضا فالمتهمون لم يحاكموا لأنهم شربوا الخمر أو زنوا ولكن فقط لأن الخمر والنساء كانتا الوسيلة إلى استصدار حكم جائر .. وهكذا يفسد القضاء والقضاة فى كل مجتمع لا تسير حياته طبقا لتعاليم الإسلام وشرع الله ومنهجه .

والعجيب أن الدكتور أحمد فخرى بعد أن قدم هذه الوثائق التى تدين حكم الفراعنة أصدر حكما عجيبا ، قال :

« ولكن إنصافاً للرجل يجب ألا ننسى أنه كان فى صدر أيامه آخر الملوك العظام الذين حاربوا ولم يفرطوا فى الإمبراطورية ، وكان أيضاً آخر البنائين الذين تركوا آثاراً خالدة على الدهر ، فإن معبد مدينة هابو من خير ما شيده ملوك الدولة الحديثة .

لقد أنقذ رمسيس الثالث البلاد من فوضى كانت غارقة فيها ، وكانت الخمسة والعشرون عاماً الأولى من حكمه أيام مجد نسبى فى حياة مصر . ولن ينسى له التاريخ أنه أنقذ بلاد الشرق القديم ، وليس مصر فقط ، من خطر داهم كان كفيلا بالقضاء على جميع المدنيات مثل ما حدث فى خيتا وفى الهند ولكنه انتصر ودون انتصاره فكانت مناظر حروبه ومناظر المعركة البحرية وهى أول معركة بحرية كبرى فى العالم وأول معركة بين مصر وأوربا .

مات رمسيس الثالث عام ١١٦٤ ق . م ونفسه مملوءة بالحسرة على جحود الناس وتلاه على عرش مصر ابنه رمسيس الرابع » (١) .

لقد رأينا مبادئ الانهيار فى الجزء الأخير من حكم رمسيس الثالث فلا عجب بعد ذلك أن تسير الأمور من سيء إلى أسوأ ، وأن يظل سلطان الملوك يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى

---

(١) مصر الفرعونية ص ٣٢١ ، إن استعراضنا لأحوال المجتمع المصرى فى ظل حكم الفرعون رمسيس الثالث يؤكد أن المجتمع ــ حاكم ومحكوم كان شاردا عن هدى الله ، ولذلك لا ندرى ماهو السبب الذى مكن المؤرخ ــ رحمه الله ــ أن يقول « إن رمسيس الثالث كان آخر الملوك العظام » ؟ ما هى المقومات التى مكنته من الحكم لهذا الفرعون الطاغية بالعظمة ؟ إن العظمة صفة من صفات الله وليس لغيره سبحانه وتعالى أن يدَّعيها أو تسبغ عليه .. فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى** ﴾ ..

وعلى الجانب الآخر أن المعيار الذى يجب أن يقاس به الشخص .. هو مدى صلاحه أو تقواه ومدى خضوع حياته لشرع الله ومنهاجه .. ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ . وليس المعيار قطعة من الأرض تضاف إلى أملاك الدولة ، فقد تكون إضافتها قائمة على الظلم والطغيان وغصب حقوق الآخرين .

وبالإضافة إلى ما سبق يعتبر المؤرخ أن رمسيس ترك آثاراً خالدة ما هى هذه الآثار الخالدة ؟ إنها معبد للوثنية وللطغاة إن هذه الآثار فى نظر المؤرخ المسلم يجب أن تكون شاهدا على طغيان الفرعون لا شاهدا له على عظمته فمن أين له ذلك الفرعون تلك الأموال التى شيد بها تلك العمارات الضخمة ؟ إنها الأموال التى استخلفه الله فيها فأفسد وطغى فى الوقت الذى يتضور الناس جوعاً . ثم يختم الكاتب الحديث عن جحود الناس لفرعونهم الطاغية ماذا كان من المتصور أن يفعل الناس إذا مااستشرى الظالم والناس لا يكادون يجدون قوت يومهم ؟ .

أصبحوا ألعوبة فى يد الكهنة . وأخيراً حدث ما لابد من حدوثه وهو استيلاء الكهنة على العرش وتأسيسهم للأسرة الحادية والعشرين وإعلان كبير كهنة آمون وكان اسمه « حريحور » ، ملكاً على مصر .

« كان هؤلاء الملوك الرعامسة[1] متشابهين فى ضعفهم وفى خضوعهم لسلطان الكهنة وفى عجزهم عن مواجهة الأزمة الاقتصادية التى بدأت تطحن البلاد ، ومتشابهين أيضاً فى عدم استطاعتهم إيقاف الفوضى والانحلال فى جميع مرافق الدولة وظلم الموظفين للطبقات الفقيرة » .

« كان هؤلاء الملوك يعيشون فى قصورهم فى شرقى الدلتا تاركين إدارة شمال البلاد للوزير فى منف ، وكان هناك وزير آخر فى طيبة ولكن السلطة الحقيقية كانت فى يد كهنة آمون ، أما عن نفوذ مصر خارج حدودها فإننا نستطيع أن نقول إنه أخذ يقل تدريجياً فى آسيا حتى اقتصر على فلسطين ، ثم أخذ يتضاءل أيضاً حتى زالت هى الأخرى كبلد تابع لمصر ، ولكن ظل نفوذ مصر فى بلاد النوبة كما كان عليه من قبل ولم يتأثر بما كان حادثاً فى البلاد . ورغم إقامة الملوك فى الدلتا فإنهم ظلوا على عادتهم فى اتباع التقليد القديم وهو الدفن فى طيبة ، وظلت مدينة العمال فى دير المدينة على عمرانها ، وقد عثر فيها على كثير من الوثائق سواء من الملفات البردية أو الأوستراكا التى أمدتنا بالقبس الذى نعرفه عن هذا العصر المظلم » .

« ولم يكن الرعامسة الثمانية من رجال الحرب أو رجال الإصلاح ، ولهذا قلما نسمع عن أحد منهم خبرا اللهم إلا إشارات عابرة مثل ما تحدثت به بردية هاريس أو بردية مالت عن أعمال رمسيس الرابع وما قام به من إصلاحات وإنشاءات فى المعابد أو تصميم مقبرته فى إحدى برديات متحف تورين أو العمل فى محاجر الصحراء . ولكن أهم ما جاء من عهده هى البرديات التى تفيض بأنباء الفوضى والانحلال فى البلاد والسرقات والرشاوى فى إيرادات الدولة على السواء . وتلاه رمسيس الخامس فلم يكن خيراً من سابقه وأهم ما وصل إلينا من عصره بردية ولبور الشهيرة التى نعتبرها مصدراً هاماً لدراسة الضرائب وتقسيم الأراضى فى ذلك العهد بوجه خاص وفى عصر الدولة الحديثة بوجه عام » .

« وتلاه رمسيس السادس وأهم آثاره قبره فى وادى الملوك ومقبرة « بن توت » فى

---

(١) مصر الفرعونية ، ص ٣٢٢ ومابعدها .

عنيبة ببلاد النوبة ، وقد حكم هذا الملك أربع سنوات فقط ولكنه ترك اسمه فى كثير من بلاد مصر وشمال السودان . وتلاه كل من رمسيس السابع ثم الثامن ثم التاسع وكانت أيامهم جميعاً أياماً سوداء فى تاريخ مصر وإن كان رمسيس التاسع قد اشتهر فى التاريخ فإن ذلك بسبب برديات سرقات مقابر الملوك فى عهده ، وكان ذلك نهاية ما يمكن أن يصل إلى اضطراب »[1] .

« لقد رأينا بدء الأزمة الاقتصادية فى السنين الأخيرة من حكم رمسيس الثالث وكيف كان ارتفاع أثمان الحاجيات ، وبخاصة القمح ، سببا فى إضراب العمال إذ أن السعر العادى لغرارة القمح كان يعادل « دبن » من النحاس ولكن الأسعار ارتفعت فى ذلك العهد قليلا فكان هذا دليلا على اضطراب الحالة الاقتصادية فى بلد زراعى . وظل ارتفاع السعر بتلك النسبة القليلة حتى منتصف أيام رمسيس السادس ولكن منذ هذا العهد أخذت الأسعار ترتفع ارتفاعاً جنونياً فأصبح ثمن غرارة القمح ٢ دبن بعد أن كان ثمنها ١٫٥ دبن ثم ارتفعت مع مرور الوقت إلى ٤ دبن وكذلك ارتفع ثمن الشعير فأصبح ثمن الغرارة الواحدة منه ٨ دبن فى عهد رمسيس السابع ولكن القمح عاد مرة ثانية إلى ٥ دبن فى عهد رمسيس التاسع ، أى أصبحت البلاد فى حالة إفلاس وأضحى صغار موظفى الحكومة وعمالها فى حالة ضنك شديد لايجدون ما يسد رمقهم ، فلم يبق أمامهم إلا السرقة والرشوة اللتين أصبحتا القاعدة فى كل شىء خصوصا وأن المحاكم أصبحت لا قيمة لها إذ كانت الكلمة العليا فى كل شكوى هى ما يحكم به الإلـٰه فإذا اتهم أحد الناس شخصاً بسرقة فإن المتشاكيين يذهبان إلى المعبد ويضعان ورقة أمام تمثال الإلـٰه ويطلب الكاهن من ذلك التمثال أن يحكم بينهما ويبلغ الكاهن المتقاضيين بعد ذلك بما حكم به الإلـٰه وهو حكم نهائى لا رجعة فيه ، ولا يعتمد إلا على شىء واحد وهو الحصول على إقناع كهنة المعبد قبل التقدم بالشكوى أو عند عرضها . وكانت وسيلة ذلك واحدة لا تتغير فالإلـٰه يحكم لمن يستطيع أن يثبت أنه شخص تقى وذلك بتقديم مايستطيع تقديمه للكهنة . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، أى أن القضايا التى كان يفصل فيها الكهنة هى الشكايات أو المنازعات بين الأهالى[2] . بل

---

(١) هده هى الأحوال فى المجتمع الفرعونى الذى ادعى حكامه الألوهية ، وطغوا وتجبروا : فوضى ، انحلال ، فساد ، سرقات ، رشاوى . وكذلك يكون الأمر فى كل مجتمع نحى شريعة الله عن حياته ، وأسلم نفسه لمجموعة من الطغاة يسيرونها طبقا لقوانينهم الوضعية .

(٢) ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ العدالة يتلقاها الناس من وثن مصنوع من الحجر .. ماذا =

وصل الأمر بهم أن كان تعيين الموظفين فى وظائفهم ومحاكمة المذنبين منهم يرجع أخيرا إلى وحى آلهة المعابد وحكمهم ، وبعبارة أخرى لم يكن هناك ضمان للعدل فى وقت مضطرب كريه ، وكان فى استطاعة المرتشين السارقين أن يستمروا فى ذلك طالما كانوا مطمئنين إلى حسن صلتهم بكهنة المعبد أو المسيطرين عليه ، وكانوا يؤكدون صداقتهم من آن لآخر بما يقدمونه لهم من هدايا وغيرها » (١) .

« ولذلك لا يدهشنا أن نرى أثر هذا الانحلال يتسرب إلى جميع مرافق الدولة ، وكان من الصعب على العمال الجائعين الناقمين أن يناموا على الطوى بينما كان على مقربة منهم كنوز مكدسة من الذهب والفضة وغيرها من النفائس فى مقابر الأفراد ومقابر الملوك والملكات » .

« بدأت سرقات المقابر منذ عهد غير قصير ولكنها زادت جدا فى عهد الرعامسة وكانت فى البداية فى مقابر الأفراد ثم تعدتها إلى مقابر الملوك ولم يكن ما حدث فى البر الغربى سراً ، بل يحدث علنا لأن السارقين كانوا مطمئنين إلى أن المسئولين سيغمضون أعينهم طالما أنهم يأخذون ثمن إغضائهم وسكوتهم ، إلى أن لعب الحسد دوره بين حاكم شرقى طيبة وبين حاكم غربى طيبة الذى كان مسئولاً عن الأمن وصيانة المعابد والمقابر . كان كل من الرجلين يريد الحظوة لدى الوزير ولهذا لم يتردد « باسر » حاكم الشرق فى التقدم بتقرير للوزير ينبهه بالحالة السيئة التى وصلت إليها الجبانة التى يشرف عليها زميله « باورعا » . وكانت هناك تحقيقات أولية وعوينت المقابر فوجدت اللجنة أن ما قاله باسر غير حقيقى ، لأن تسعة مقابر من مقابر الملوك العشرة التى عاينها وجدت سليمة كما وجدت مقبرتان من مقابر الملكات الأربع سليمة . واعترف التقرير بأن محتويات مقابر الأشخاص كانت مبعثرة وملقاة على وجه الأرض . وتركزت نتيجة التحقيق فى أن باسر شخص كاذب ، واعتبر « باورعا » أن هذه النتيجة تبرئة له ولرجاله فاحتفلوا بذلك احتفالاً كبيرا وعبروا النيل إلى البر الشرقى وهتفوا هتافات عدائية أمام بيت باسر وحدثت مشادة كلامية قدم على أثرها « باورعا » تقريرا للوزير ضد « باسر » وفتح التحقيق من جديد فاكتشف المحققون هذه المرة أشياء

- دهى الناس لدرجة أنهم قبلوا على عقولهم أن تتقدم بشكاوى لتمثال ليحكم بينهم بالعدل .. إنه الفسق الذى ألم برجالات المجتمع الفرعونى .. الذين استمرأوا الذلة والاستكانة لفترة طويلة ولم يسعوا إلى تغيير الطغيان الحاكم الواقع عليهم بأية وسيلة

(١) مصر الفرعونية .

خطيرة واعترف بعض المتهمين تحت تأثير تعذيبهم بالحقيقة ، كما ذكر الشهود ما سمعوه أو رأوه وقد دون كل ذلك فى تلك البردية . ومن هذه البردية المعروفة باسم بردية « أبوت » نقف على كثير من تدهور الحياة الاجتماعية فى ذلك العهد ونظام التحقيق والقضاء ولكن أهميتها الكبرى هى فيما يمكن أن نقف عليه من معلومات عن المقابر التى سرقها اللصوص وموقعها فى الجبانة بالنسبة إلى بعضها وإلى المعابد الكبيرة ، وهى معلومات ساعدت وستساعد رجال الآثار فى أبحاثهم وحفائرهم فى هذه الجبانة الهامة »[١] .

« وأهم شخصية فى تحقيقات سرقة المقابر كانت شخصية كبير كهنة آمون أمنحتب الذى كان له النفوذ الأكبر فى طيبة ، وهو كبير الكهنة الذى نرى اسمه ظاهراً واضحاً فى معبد الكرنك والذى بدأ بتقليد جديد إذ نرى كبير الكهنة مرسوما على قدم المساواة مع الملك ، ولم يكن فى ذلك ما ينافى الحق فى شيء بل إن الملك كان بكل تأكيد أقل نفوذاً وجاهاً ومالاً من كبير كهنة أمون ، ولكن التقاليد كانت حتى ذلك الحين تجعل الملك مقدماً على كل من يحيط به وإليه ينسب كل فضل وإذا رسم على معبد أو على حائط قبر فهو مارد يتسامى فى طوله ، وكل من حوله يرسمون فى حجم صغير .

ولكن « أمنحتب » الذى كان يجمع إلى عمله ككبير للكهنة فى جميع المعابد المصرية أعمالاً هامة أخرى مثل إشرافه على خزانة فرعون ووظيفة حامل خاتم الملك لم يكن فى حاجة إلى هذا التملق ، فحصل لنفسه من رمسيس التاسع على حق جباية أموال آمون وضرائبه بواسطة كتبة المعابد وليس بواسطة موظفى الدولة ، وكانت هذه الإيرادات تدخل رأسا إلى خزانة المعابد ولا تمر بخزانة الدولة وهكذا وضع « أمنحتب » الأساس للسياسة التى ستنتهى باستيلاء الكهنة على العرش .

وخلف رمسيس التاسع بعد حكم طال ثمانية عشر عاماً رمسيس آخر وهو رمسيس العاشر ثم تلاه رمسيس الحادى عشر الذى طالت مدة حكمه حتى وصلت إلى سبعة وعشرين عاماً .

وفى ختام ذلك الوقت نرى كبير الكهنة « حريحور »[٢] أصبح ملكا لمصر . لقد كان حريحور من رجال الجيش ومن المرجح أنه كان من نسل الكهنة وفى الوقت ذاته ممن كانوا يتصلون بنسبهم إلى البيت المالك القديم ، وكان حريحور فى وقت من الأوقات حاكما

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢٥ وما بعدها . (٢) المرجع السابق ، ص ٣٢٧ .

للسودان ، وأخيرا وصل إلى الملك ، وليس من المستغرب أن يكون الكهنة قد وصلوا إلى الملك ولكن الأمر المستغرب أن يظل الكهنة فترة طويلة منذ عهد رمسيس التاسع حتى نهاية عصر رمسيس الحادى عشر دون اتخاذ هذه الخطوة .

ظلت الأسرة العشرون نحو مائة سنة وعشرة على العرش فقدت فيها مصر أملاكها فى آسيا ولكن نفوذها فى بلاد النوبة ظل كما كان من قبل ، لأن مناجم الذهب كانت ملكا لآمون ، وكانت خيراتها تأتى إلى معابده . وكان كبار كهنته يحسنون اختيار الحكام ويمدونهم بكل ما يكفل لهم السلطة فى أقاليمهم واشتهر من بينهم فى هذه الفترة العصيبة أكثر من فرد واحد مثل بانحسى الذى استدعاه الملك مرة لإخماد فتنة فى الشمال ومثل حريحور الذى أصبح مؤسس أسرة الكهنة فيما بعد .

وفى معبد خونسو بالكرنك نستطيع أن نرى بوضوح كيف تطور الأمر . فمنذ تعيين حريحور كبيرا للكهنة جمع إلى سلطته كمدير الخزانة وقائد الجيش جميع عناصر القوة فى البلاد . فنراه فى مبدأ الأمر يذكر اسم الملك باحترام على النقوش ثم نراه يضع اسمه إلى جانب اسم مولاه وبعد ذلك نراه يقدم اسمه على اسم الملك نفسه وينتهى الأمر بأن نراه وحده يحمل تاج الوجهين القبلى والبحرى على جبينه ويتسمى بألقاب الفراعنة . وهكذا انتهت الدولة الحديثة بانتهاء الأسرة العشرين ودخلت مصر بحق فى فترة اضمحلال وهى الفترة التى بدأت فى الواقع منذ أواخر أيام رمسيس الثالث » [١] .

---

(١) مصر الفرعونية .

العصر المتأخر

الأسرة الحادية والعشرون (١٠٩٠) حتى نهاية الثلاثين[١] (٣٤١ ق . م)

وقد أطلق عليه الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح « عصر التخبط والتداخل فى عهود الأسرات »[٢] .

الأسرة الحادية والعشرون :

لم تكن أمور البلاد مستقرة ، وانهار نفوذ مصر فى آسيا ولم يقم الحكام من جانبهم بإنقاذ البلاد مما تردت فيه وعلى كل فإن أسماء ملوك هذه الأسرة لم يتفق على ترتيبها فى تولى حكم البلاد حتى الآن .

وعلى الرغم من اعتبار حريحور مؤسسا لهذه الأسرة فى طيبة فإننا نجد هناك ملكاً آخر يحكم فى تانيس يدعى سيمندس ، ويمتد نفوذه من شرق الدلتا ليشمل مصر الوسطى حتى أسيوط .

وبعد موت حريحور خلفه ابنه بعنخى الذى اقتصر جهده على الاحتفاظ بلقب كبير كهنة آمون فى طيبة ، وعلى ألا يدعى ملك مصر ، ثم قام بمبايعة الملك الحاكم فى تانيس . وقد تتابع ملوك آخرون بعد ذلك فى حكم مصر .

ومن أهم أعمال الأسرة الحادية والعشرين إعادة تجميع ودفن جثث الفراعنة الذين اعتدى على مقابرهم فى إحدى المقابر القديمة بالدير البحرى بالأقصر .

الأسرة الثانية والعشرون (٩٤٥ ـــ ٤٥٧ ق . م) :

حينما توفى الملك سيمندس فى تانيس ، كان هناك شخص يسمى شاشانق[٣] يرنو ببصره إلى عرش مصر ، لم يتوان عن تنصيب نفسه ملكاً ، ولكن كهنة آمون فى طيبة ، اعتبروا ذلك عملاً غير شرعى ، ولذلك لم يبايعوه بالملك وترتب على ذلك حدوث صدام بينهم انتهى بفرار الكهنة جنوباً إلى السودان .

---

(١) مصر الفرعونية ، ص ٣٢٩ .

(٢) الشرق الأدنى القديم ، حـ ١ ، ص ٢٦٠ .

(٣) ينحدر من صلب أسرة ليبية مكثت وقتا طويلا فى الواحات البحرية (بصحراء مصر العربية) ثم تركتها إلى أهناسيا حيث استقرت فيها على مدى ستة أجيال .

وقد تركزت أعمال هذا الملك على الحد من نفوذ الكهنة بالتحكم فيهم عن طريق تعيين ابنه فى وظيفة كبير كهنة آمون ، وقام بحملات عسكرية تركت آثارها فى فلسطين ولبنان وكان من آثارها أن بدأ ولاة المدن الفينيقية يخطبون ود الملك المصرى[١] .

الأسرة الثالثة والعشرون :

فى هذه الأسرة كان هنالك ملكان ادعى أحدهما الملك فى شرق الدلتا وثانيهما فى غربها ، وبعد صدام بينهما ، آثر كل منهما التسليم للآخر بصفته ملكا ، وإن كان سلطانهما لم يمتد إلى بلاد مصر ، وقد أتاح ذلك الفرصة لتقوية شوكة حكام الأقاليم الذين ادعوا الاستقلال بأقاليمهم وكان لكل منهم بلاطه وجيشه الخاص .

الأسرة الرابعة والعشرون :[٢]

يعتبر « تف نخت » حاكم إقليم صان الحجر بغرب الدلتا مؤسسا للأسرة الرابعة والعشرين ، إذ أنه ادعى الملك وحاول توحيد البلاد كلها تحت سلطانه ، ولتحقيق ذلك ، وحد أقاليم الدلتا ، ثم اتجه إلى مصر الوسطى ليخضعها لملكه ، وفى هذه الأثناء لم ترض أسرة الكهنة فى السودان بهذا التصرف من جانب نخت ، وأرسلت جيشا بقيادة ابن بعنخى نفسه لإيقاف تقدم نخت جنوبا . وكان لا بد من الصدام الذى انتهى بهزيمة تف نخت وانتصار جيوش الكهنة بقيادة بعنخى وتأسيس أسرة ملكية جديدة هى الأسرة الخامسة والعشرين .

والشىء الغريب الجدير بالملاحظة أنه فى أعقاب انتصار بعنخى ، ترك حكام الأقاليم ومنهم تف نخت يحكمون البلاد باسمه ورجع قافلا إلى نباتا (السودان) ولذلك لا غرابة أن نرى تف نخت يستمر فى اعتبار نفسه ملكا على مصر كلها لمدة عشر سنوات على الأقل . تلاه ابنه « باك ان رنف »[٣] بعد موته الذى حكم ست سنوات ، ويرتبط بعصر هذا الأخير ظهور خطر الآشوريين الذين بدأوا يسيطرون على سوريا وفلسطين ويدقون أبواب مصر .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣٩

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤٥ .

(٣) معروف عند اليونانيين باسم بخوريس .

الأسرة الخامسة والعشرون (٧٢٠ ــ ٦٦٣ ق.م) :

مصر فى قبضة آشور :

لقد بقى بعنخى فى طيبة بعد عودته إليها وقنع فى كون طيبة والصعيد تحت سيطرته وسيطرة أسرته بعد وفاته ، وقد خلفه ابنه شاباكو الذى آثر أن يعيد الأمور إلى نصابها فى الشمال ويوحد البلاد تحت حكمه بعد قضائه على « باك ان رنف » ثم بدأ يخطب ود ملك الأشوريين سرجون الثانى بإرسال الهدايا إليه مما جعل الأخير يتصور أنه أصبح سيد بلاد آسيا دون منازع .

ومن أهم الملوك الذين خلفوا شاباكو طهارقا ، الذى فضل الإقامة فى صان الحجر ليرقب الهجمات التى تتعرض لها حدود مصر الشرقية وسوريا وفلسطين من قبل الآشوريين ، وينظم الثورات والمقاومة ضدهم ، ولكن المسئولية كانت أكبر من أن يتحملها طهارقا ، فقد تمكن الملك الآشورى إسارهدون من غزو مصر حيث سقطت منف فى يده .

ولكن مصر لم تكن تطق صبرا على ذلك الاحتلال الآشورى للدلتا ، ونظمت المقاومة صفوفها بقيادة « نخاو » ابن « باك ان رنف » ــ فى صان الحجر ـ وأمير طيبة ، وعاد طهارقا مرة ثانية ليطرد الحامية الآشورية ويستعيد منف ولكن القوات الآشورية عاودت هجومها بقيادة آشور بانيبال ، ليعيد الاستيلاء على منف ويطارد طهارقا حتى طيبة جنوبا . وقد غادرها الأخير إلى نباتا حيث مات هناك[1] .

الأسرة السادسة والعشرون (٦٦٣ ــ ٥٢٥ ق . م) :

وجاءت الأسرة السادسة والعشرون بحفيد لـ « تف نخت » يسمى بسمتيك الذى تمكن بفضل مساعدة صديقه جيجس ملك ليديا من طرد الآشوريين وتوحيد الدلتا والوجه القبلى كلهما تحت حكمه واستمرت فترة حكمه حوالى ٥٠ عاما (٦٦٣ ــ ٦٠٩) ، كانت مسرحا لنشاط إصلاحى ضخم وأصبح لمصر أسطول ضخم وجيش كبير كان قوامه الجنود المرتزقة ومما يؤخذ على هذا الملك سماحه للجنود المرتزقة والتجار اليونان بالحلول محل

(١) المرجع السابق ، ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

الجنود المصريين والتجار الوطنيين . وقد خلف هذا الملك « نيكاو الثانى » (٦٠٩ ـــ ٥٩٤ ق . م) وفى هذه الأثناء بدأت تظهر قوة الميديين فى إيران التى تحالفت مع قوة بابل لتدمير عاصمة الآشوريين « نينوى » واحتلال ممتلكاتهم ، ويبدو أن نكاو أراد أن يحقق وجوده فأرسل جيشا لمعاونة الآشوريين ضد بابل ولكن جيش بابل هزمه ورده إلى الدلتا .

ومن أهم أعمال نكاو إنشاء أسطولين أحدهما فى البحر الأبيض والآخر فى البحر الأحمر ، ويقال إنه أرسل سفنا لاكتشاف ساحل إفريقيا وقد نجحت فى ذلك ، كما تقترن بحكمه فكرة حفر قناة ترتبط بالبحر الأبيض عن طريق النيل بالبحر الأحمر ويقال إنه قرر صرف النظر عن تنفيذ المشروع بعد البدء فيه .

وقد خلف هذا الملك شخص آخر (٥٩٤ ـــ ٥٨٨ ق . م) ازدهرت فى عهده تجارة اليونانيين فى نوكراتيس ، وكثر عدد الجنود اليونانيين فى البلاد . وبعد وفاة هذا الملك جاء إلى عرش البلاد « واح ـــ اب ـــ رع » أثناء حكم نبو ختنصر فى بابل . وقد قام الأخير بتدمير القدس والاستيلاء على كثير من ثروتها ـــ كما تقول كتب التاريخ التقليدية ـــ وبذلك أصبحت فلسطين تحت رحمة بابل بينما كانت مدن الشاطىء تحت رحمة الأسطول المصرى . ويقترن حكم واح ـــ اب ـــ رع أيضا بتدفق اليونانيين على ليبيا بعد إنشائهم مستعمرة قيرينة هناك عام ٦٣١ ق . م [1] .

ولقد استنجد الليبيون بفرعون مصر لإنقاذهم من هؤلاء اليونانيين وقد أرسل الفرعون جيشا مصريا وقع فى كمين نصبه له الأعداء ، فازداد عداء المصريين لليونانيين مما أدى إلى ثورة ضد الملك وضد تسلط اليونانيين على البلاد . وكان يقود هذه الثورة أحمس الثانى [2] (٥٦٨ ـــ ٥٢٥ ق . م) الذى تمكن من الاستيلاء على العرش معلنا نفسه ملكا على البلاد كلها .

وقد استطاع أن يرضى مشاعر المواطنين ، وأن يقضى على مسببات ضجرهم من اليونانيين ـــ إلى حد ما ـــ كما أن هذا الملك قام بتحصين حدود مصر الغربية والشرقية ، ولكن الخطر بدأ يظهر من قبل دولة بابل الكلدانية ، ولذلك فقد استعد له باحتلال أسطوله لجزيرة قبرص ، كما تحالف مع ملك ليديا بآسيا الصغرى ، وأنهى صراعه مع

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٦٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧١ .

مستعمرة قيرينة اليونانية بشمال إفريقية . مات هذا الملك ليخلفه بسمتيك الثالث .

بدأت الأحداث فى غرب آسيا تأخذ مظهرا آخر ، إذ اختفت قوة بابل (عام ٥٣٩ ق .م) تحت مطارق الغزاة الفرس بقيادة كيروش الحاكم المطلق فى إيران ، والذى قام بالاستيلاء على ليديا وأصبح سيدا على غرب آسيا دون منازع . وبعد وفاته خلفه ابنه قمبيز الذى جهز جيشا لغزو مصر وقد نجح فى احتلالها عام ٥٢٥ ق . م رغم استبسال المصريين فى الدفاع عن بلدهم [١] .

الأسرة السابعة والعشرون (٥٢٥ ـ ٤١٠ ق . م) :

لقد أساء الفرس معاملة المصريين ، وخربوا الكثير من منشآتها المعمارية ، وحينما رحل القائد الفارسى عن مصر ترك نائبا من قبله ، وبعد ذلك جاء ابنه داريوس إلى مصر عام ٥١٨ ق .م ليتم حفر القناة التى بدأها نكاو الثانى .

ولكن مصر لم تكن لتصبر على هذا الاحتلال . وكانت تنتظر اليوم الذى تتخلص فيه من ظلم الفرس ، ولذلك كانت تؤيد من كل قلبها نضال اليونانيين فى حروبهم ضد غزوة الفرس التى بدأت تأخذ شكلا خطيرا . وقد هزم الفرس أمام اليونان فى موقعة ماراثون عام ٤٩٠ ق . م مما دفعهم إلى سحب بعض قواتهم من مصر . ولقد انتهز المصريون هذه الفرصة وقاموا بثورة فى شرق الدلتا سببت خسائر فادحة بين ماتبقى من قوات الاحتلال الفارسى .

ومات داريوس وخلفه اكسركسيس ، الذى سار إلى مصر ، وقضى على الثورة ونكل بأهلها ، وبعده جاء ابنه ارتاكسركسيس الذى تفجرت فى عهده الثورة المصرية بقيادة أميرين من أبناء مصر . فأرسل ملك الفرس قوة من ٣٠٠ ألف جندى لإخماد هذه الثورة ولكن المصريين حاصروها فى منف وأخذوا يقاتلونها لفترة طويلة .

وفى عام ٤٤٩ حينما تصالحت أثينا مع فارس ، حاول ابن الملك الفارسى أن يحسن العلاقات مع المصريين ، ولكن المصريين رفضوا أى شكل من أشكال المصالحة وأصبحت الثورة شاملة وعاتية عام ٤١٠ ق . م وانتهت بتحرير مصر من قبضة الاحتلال الفارسى [٢] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٧٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧٤ ومابعدها .

الأسرة الثامنة والعشرون (٤١٠ ـ ٣٩٨ ق . م) :

يقترن تاريخ هذه الأسرة بالثورة المصرية التى اتخذت حرب التحرير ضد الاحتلال الفارسى منذ عام ٤١٠ حتى ٤٠٤ ق . م وهو تاريخ استقلال مصر .

وقد كان يقود هذه الثورة « أمون ــ حر » الذى أصبح بعد طرد الفرس ملكا على البلاد كلها ومؤسسا للأسرة الثامنة والعشرين (١) .

الأسرة التاسعة والعشرون (٣٩٨ ــ ٣٧٨ ق . م) :

أثناءها انتقل العرش إلى أسرة من مدينة « مندس » بالدلتا ، ربما كان مؤسس هذه الأسرة من زعماء المصريين فى حرب التحرير ، وقد اعتلى العرش لمدة ست سنوات . وأهم ما قام به هو مساعدته لإسبرطة ضد الفرس . ومات هذا الملك ليخلفه « هكر » (٣٩٢ ــ ٣٨٠ ق . م) . الذى لم يأل جهدا فى معاونة أتينا فى نضالها ضد الفرس .

وقد أعقب هذا الملك آخرون ، إلى أن شاءت الأقدار أن يتولى بعدهما حكم مصر أمير قوى يسمى « نخت نبف » الأول مؤسس الأسرة الثلاثين (٢) .

الأسرة الثلاثون (٣٧٨ ــ ٣٤١ ق . م) :

مؤسس هذه الأسرة هو « نخت نبف » . وهى الفترة التى ظهرت فيها نوايا الإغريق السيئة تجاه مصر ، إذ أن الجيش الفارسى حاول غزو مصر فى عصر نخت نبف وكان بذلك الجيش حوالى ٢٠٫٠٠٠ جندى يونانى ، وإن كان هذا الجيش قد اضطر للتقهقر بسبب خطر الفيضان .

وخلف نخت نبف ابنه الذى كان غير رأى أبيه فى الإغريق رغم ما تكشف من سوء نيتهم ومعاونتهم للفرس ضد مصر ، ولذلك نراه يكون جيشا من ٩١٫٠٠٠ مقاتل مصرى ويستعين فيه بالأثينيين والإسبرطيين وذلك لسحق قوة الفرس فى آسيا ، وكاد أن ينجح هذا الملك فى مهمته لولا خيانة أخيه .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٧٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨١

وأعقب هذا الملك ابنه نختبو الثانى (٣٥٩ ـــ ٣٤١ ق . م) ، الذى ترك الشمال وفر إلى الجنوب أمام جحافل الغزو الفارسى . وبهذا دخلت مصر مرة أخرى تحت سيطرة الاحتلال الفارسى الذى استمر منذ عام ٣٤١ إلى ٣٣ ق . م .

ولم تتخلص مصر من سيطرة الفرس إلا على يد الإسكندر الأكبر الذى هزم الملك دارا الثالث الفارسى فى معركة إسوس (١) .

وبذلك دخلت مصر مرحلة جدبدة من تاريخها ، ترزح فيها تحت نير الاحتلال اليونانى المقدونى ثم البطلمى .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨٢ ومابعدها .

حالة مصر وبلاد الشرق الأدنى السياسية فى العصر المتأخر

(الأسرات ٢١ ــ ٣٠)

بعد خروج موسى عليه السلام وبني يعقوب عليه السلام من مصر

فى ضوء العقيدة الإسلامية

لله في حياة الأمم والشعوب سنن لا تتغير ولا تتبدل ، منها :

أولا : التمكين في الأرض للمؤمنين الموحدين ، الذين يعبدون الله ولا يشركون به شيئا : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا** ﴾ (١) .

ثانيا : تعذيب وتدمير الأمم التي تمرق من دين الله مع تنحيتها عن موقع القيادة : ﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا** ﴾ (٢) .

﴿ **فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد** ﴾ (٣) .

وهنا قد تبدو شبهة ، وهي أن هنالك أمما كافرة ممكن لها في الأرض ، مثال ذلك « روسيا » و « الصين » وعباد البقر في الهند ، وأمم ممن يسمون أهل الكتاب أيضا مثل

---

(١) النور : ٥٥ . (٢) الطلاق ٨ ــ ٩ (٣) الحج . ٤٥

أوروبا وأمريكا ، ولم يدمر عليها ، والرد على ذلك نلمحه في قول الله تعالى :

﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ... ﴾ [(١)] .

فالتمكين هنا من باب الاستدراج ، لأن الله « يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » **﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين ﴾** [(٢)] .

وهذه سنة ربانية أخرى ، لا تتعارض مع السنن الأخرى ، وذلك يعني أن الأمم التي تشرك بالله ، وتحاد الله بالمعصية ، إن لم تسرع بالعودة إلى الله ، سيدمر الله عليها . متى ؟ علم ذلك عند رب العالمين .

ثالثا : تولية الظالمين على الظالمين : **﴿ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون .... ﴾** [(٣)] .

فالظالم سيف الله في الأرض ، يؤدب به الظلمة ، ثم يقتص منه .

وإذا نظرنا إلى منطقة الشرق الأدنى منذ القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، نجد حركة عارمة ، ممثلة في جيوش تتحرك من مصر إلى أرض الشام ، ومن أرض الرافدين إلى أرض الشام ومصر ، ومن أرض آسيا الصغرى صوب بلاد الشام ، ومن إيران إلى أرض الرافدين ومنها إلى بلاد الشام ومنها إلى مصر ... هذه الجيوش يقاتل بعضها بعضا ، ويريق بعضها دماء البعض ، من أجل الزعامة ، ومن أجل الاستحواذ على الأرض ، وغصب الثروات ، وكما قلنا : من باب تسليط الظالمين على الظالمين .

كما نلمح أيضا داخل كل بقعة من هذه البقاع صراع على السلطة بين أبناء الوطن الواحد ، مثلما حدث بين أبناء مصر في عهد الأسرات الحادية والعشرين والرابعة

---

(١) الأنعام : ٤٢ ـــ ٤٥ . (٢) القلم : ٤٤ ـــ ٤٥ . (٣) الأنعام : ١٢٩ .

والعشرين .

ولذلك سلط الله عليهم عدوا خارجيا ، هم الآشوريون ، الذين غزوا مصر واحتلوها على عهد ملكهم أسارهدون ، وعلى عهد آشور بانيبال ، وحينما حاولت مصر على عهد بُستميك أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين التحرر من قبضة العدوان الآشورى ، نلمح ظهور قوة أخرى هي قوة الميديين في إيران التي تحالفت مع قوة بابل ، لتسقط حكم الآشوريين وتدمِّر عاصمتهم نينوى في أرض الرافدين ، وفى نفس الوقت نلمح جيوش بابل الكلدانية ، على عهد ملكها نبوختنصر تتحرك صوب بلاد الشام لتغتصب مدينة القدس عام ٥٣٥ ق . م .

واستمرت الأحداث تتوالى على مسرح الشرق الأدنى ، فإذا قوة غاشمة تظهر على أرض إيران هي قوة فارس بقيادة مليكها قورش ، تقوم باغتصاب أرض الرافدين وتسقط البابليين عام ٥٣٩ ق . م ، ثم تتوجه إلى آسيا الصغرى فتقوض حكم مملكة ليديا ... ولما تولى مُلْكَ الفرس « قمبيز » قاد حملة احتل بها مصر عام ٥٢٥ ق . م .

ولقد أساء الفرس معاملة المصريين وخربوا الكثير من منشآتهم المعمارية ، وكما قلت : لعل هذا من باب تسليط الظالمين على الظالمين .

وظلت مصر فى قبضة الاحتلال الفارسي ، ولم تتخلص منه إلا لتقع في يد مغتصب آخر هو الإسكندر المقدوني عام ٣٣٢ ، ق . م ، وظلت بعد وفاة الإسكندر في قبضة الملوك البطالمة حتى قدّر لها أن تقع مرة أخرى في يد أسوأ أنواع الاحتلال وهو الاحتلال الأوروبي (الرومي) عام ٦٤ ق . م ، وظلت هكذا واقعة في قبضة المغتصب الأوروبي إلى أن قدر الله سبحانه وتعالى لها أن تتحرر على يد محمد ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم بعد سبعة قرون ، من الاحتلال الرومى لها .

الفصل السادس

شبهات حول الإسلام
أثارها كتاب ما يسمى بالتاريخ القديم من المستشرقين
ومن نهج نهجهم عن وادى النيل (مصر)

المبحث الأول

الله ــ الدين ــ الرسل ــ الإيمان بالبعث وبالحساب والعقاب والجنة والنار
فى وادى النيل (مصر)
من خلال ما كتبه المستشرقون ومن نهج نهجهم
مع دحض الشبهات التى أثاروها والرد عليها
فى ضوء العقيدة الإسلامية
ثم فى ضوء النصوص المصرية القديمة

تمهيـــد :

أثبتنا أن كُتَّاب مايسمى بالتاريخ القديم من المستشرقين ومن نهج نهجهم ، ينطلقون فى كتاباتهم لتاريخ الأمة الواحدة من منطلقات فكرية معادية للدين على وجه العموم ، وللعقيدة الإسلامية على وجه الخصوص ، من هذه المنطلقات الحرص على هدم الدين ، وطمس خط توحيد الله رب العالمين فى حياة بنى آدم . ولذلك فإنهم يتبنون مفاهيم فاسدة لخدمة مخططاتهم منها :

(أ) **حيوانية الإنسانية** ، فمعظم الذين كتبوا ويكتبون تاريخ البشرية من كتاب التاريخ القديم ينظرون إلى البشر على أنهم من نسل قردة مذنبين ، وبمعنى آخر أن تاريخ

البشرية لا يبدأ عند كتاب التاريخ القديم بآدم عليه السلام . وقد بينا فساد هذه النظرة وأثبتنا أن تاريخ البشرية يبدأ بخلق آدم عليه السلام الإنسان المخلوق المكرم بنفخة من روح الله سبحانه وتعالى .

(ب) **التجاهل والتجهيل** بالبداية الحقيقية لتاريخ الأمة المسلمة فكتاب التاريخ عموما ، والتاريخ القديم على وجه الخصوص يعتبرون تاريخ الأمة المسلمة يبدأ **فقط ببعثة** محمد ﷺ متجاهلين بضعة آلاف الأعوام من تاريخ الأمة المسلمة مطلقين عليها اسم التاريخ القديم ، وقد بينا فساد تصور كتاب التاريخ القديم وقدمنا عرضا لتاريخ الأمة المسلمة منذ أقدم عصورها بداية بآدم وزوجه وبنيه الدين شكلوا المجتمع المسلم الأول .

(جـ) **تبنى مايسمى بمنهج مقارنة الأديان** ، وجعلوه علماً ، وهذا المنهج يزعم أصحابه أن الدين من اختراع العقل البشرى وأنه قد تطور من الوثنية والتعدد إلى التثنية ثم التوحيد . وأن اخناتون هو أول موحد فى التاريخ ، وعنه أخذ إبراهيم عليه السلام وأقام دينه ، وذلك لكى يضللوا البشرية ويوهموها بأنه لا إله ولا دين ولا نبوة ولا وحى ولا رسالات سماوية وإنما الأنبياء رجال إصلاح اخترعوا ما جاءوا به من أديان وأن اللاحق كان يستعين بالسابق ويأخذ عنه ، وأصحاب هذا المنهج يصورون محمدا ﷺ على أنه مؤسس دين .

(د) **إنكار أو تجاهل أية رواية** تاريخية تعتمد على مصدرى القرآن والسنة ، فمثلا الخبر التاريخى الذى يروى سيرة آدم ونوح والعشرة الأجيال التى كانت على الإسلام وسيرة يوسف وموسى عليهما السلام وبعثتهما إلى شعب مصر اعتماداً على المصدرين السابقين (القرآن والسنة) ــ ليس خبراً موثقاً طالما لم تعضده أدلة أثرية ...

(هـ) **الحرص على التجاهل والتجهيل بتاريخ** الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه علبهم أجمعين ، بل ذهب الأمر إلى حد اعتبار وجودهم أسطورة .

(و) **تقويم أحداث التاريخ من وجهة النظر القومية** ، التى تحرص على إحياء النعرة العصبية بهدف تفتيت وحدة المسلمين وتفكيك آصرة العقيدة التى **تجمعهم** .

(ح) **الحرص على طمس خط** توحيد الله فى حياة البشرية ، **فكلّما** أسفرت الأبحاث

الأثرية والتاريخية عن قرائن جديدة تؤكد أن البشرية من أقدم عصورها ، والله يتعهدها بالرسل يعرفونها بربها ودينها الحق ، نجد حرصا على طمس هذه القرائن من قبل المشتغلين بهذه الأبحاث .

والدليل على ذلك ، النتائج التى أسفرت عنها كتابات التاريخ القديم التى كتبها المستشرقون ومن نهج نهجهم فيما يتصل بالله والدين والرسل عليهم السلام ، فها هو أدولف أرمان[1] يزعم بأن دراسة الديانة المصرية القديمة ، تتيح له تتبع « حلقات التطور الدينى المتصلة » ، وأن هذه الديانة فى نشأتها تتمثل فى تخيل الإنسان الإله ماردا أو كائنا رهيبا ، وكيف تصور الشعب آلهته البدائية وجعل منها كائنات حية قدسها بطريقة ساذجة ثم كيف بنى المعابد الضخمة لآلهته .

وذهب الأستاذ أرمان إلى أن الشعور الغريزى بالخوف والفزع عند الحيوان من كل ما هو مجهول سببا دفع الإنسان إلى احترام كل القوى التى تؤثر فى حياته دون أن يتعرف كنهها ومن هذا الشعور بعينه نشأت الديانة التى لم تكن إلا الاعتقاد المسيطر على ذهن الإنسان من أن هناك قوى تحيط بالإنسان وتؤثر فيه[2] . وهكذا نلمح المستشرق يزعم أن الإنسان قد خلق ولم يكن يعرف له رباً فاختار له آلهة على قدر نضوجه الفكرى ، وأن الإنسان قد تأثر بالحيوان فى اختراعه للدين .

وزعم الكاتب أيضا أنه ليست للأخلاق صلة بالدين فى أساسها ، وزعم أن اخناتون هو ابن الإله ، وأنه كان موحدا ، ويتبنى نفس المنهج جمس هنرى برستد [3] حيث يذكر فى كتابه :

«الطبيعة تهيئ أقدم الآلهة ، الإمراطورية ومذهب سياسة عالمية يؤثران على الدين حتى تبرز فكرة العالمية وتتيح مذهب التوحيد (يقصد مذهب اخناتون) ولأول مرة فى التاريخ انبثق فجر مذهب التوحيد ولم يكن البحر المتوسط قد نضج بعد لتقبل دين عالمى » ثم يضيف : « هذا هو مشهد تطور الدين والفكر فى مصر » ويصل فى نهاية كتابه :

---

(١) ديانة مصر القديمة ترجمة د . محمد عبد المنعم أبو بكر ، ود . محمد أنور شكرى .

(٢) نفس المرجع ، ص ١ ـــ ٤

(٣) تطور الفكر والدين فى مصر القديمة ، تأليف برستد وترجمة زكى سوس ، صفحة ٢٥ ، ٢٦

« إن الدين من اختراع العقل البشرى وأنه تطور من التعدد إلى التوحيد ، وأن ما أسماه الأديان السماوية ما هو إلا امتداد للديانة المصرية القديمة ، والإيمان بالبعث عرفه المصريون من تلقاء أنفسهم ، والإيمان بالآخرة والحساب والجنة والنار هو من تصور الإنسان » .

ويتبنى نفس المنهج جون ولسون فى كتابه انتصار الحضارة [1] .

ويتبنّى نفس المنهج أساتذة التاريخ القديم من أبناء العرب والمسلمين ، وليس شرطا أن يكونوا يهدفون إلى ما يهدف إليه المستشرقون ، بل إننى أجزم بيقين مثلا أن سعادة الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح بارك الله فى عمره ونفع به لا يهدف إلى ذلك .

ونختار هنا بعض النماذج لمعالجة قضايا الدين والعقيدة فى كتابات التاريخ التى قام بها أساتذة التاريخ القديم من أبناء العرب والمسلمين لنبين أن منهجهم فى الكتابة هو منهج المستشرقين ، علّهم يراجعون ما كتبوا ويصححونه فى ضوء عقيدة الإسلام ولهم الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى .

١ ـ رأى الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح :

« عقائد الدين والآخرة » :

أولا : عقائد التأليه ـ نشأتها :

أخذت الديانة المصرية حين نشأتها وفى مراحل طويلة من تاريخها بتعدد المعبودات شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من الديانات الوضعية القديمة . ولكنها ظلت أغنى من غيرها فى وفرة نصوصها ، ووضوح قضاياها ، وثباتها على مبادئها ، ورقى تصوراتها التى انتقلت فيها من عقائد التعدد إلى صور مختلفة من أفكار التوحيد ولو أن شيئا من ذلك لن يصرفنا عن حقيقة واقعة ، لنكون صادقين مع منطق التاريخ فيها ، ألا وهى أن البحث فى ظروف نشأتها يعتمد فى أغلب أمره على الحدس والاستنتاج ، أكثر مما يعتمد على نصوص مبكرة محدودة . ومن هذا القبيل ما نأخذ به من تفسير جوهر العقيدة فى هذه الديانة بحرص أهلها على أن يردوا كل ظاهرة حسية تأثرت دنياهم بها إلى قدرة علوية أو علة خفية تحركها

---

(١) ترجمة د . أحمد فخرى .

وتتحكم فيها وتستحق التقديس من أجلها ، الأمر الذى أفضى إلى تعدد ما قدسوه من العلل والقوى الربانية المتكفلة بالرياح والأمطار وظواهر السماء ، وبجريان النيل وتعاقب الفيضان ، وتجدد خصوبة الأرض ونمو النبات ، وخصائص الخصب النوعى فى الإنسان والحيوان ، بل والمتسببة فيما اتصفت به كل بيئة محلية فى أرضهم من صفات ، والمقدرة لما تميزت به حضاراتهم فى مجملها من خصائص سمت بها عن بقية الحضارات ، خصائص التبكير بالكتابة والحساب والحكمة والفنون وما يشبهها من آيات أكبروها فردوا خلقها ورعايتها إلى قدرات علوية سامية فاقت قدرات البشر .

وبشىء من خشية الإسراف فى التعبير يمكن أن نترجم عن ذلك كله بصورة قريبة إلى تعبيراتنا الحديثة ، ألا وهى أن مفكريهم حين رأوا المعانى المجردة وآيات الربوبية المعجزة مجسدة فيما حولهم من مظاهر الطبيعة وكائناتها ، أكبروها واعتبروا كل واحدة منها أهلا للتقدير والتقديس فى حد ذاتها . بيد أنه سواء ظهرت هذه الفكرة فعلا مع نشأة الديانة أم تأخرت عنها ، فالذى لا شك فيه هو أن جمهرة المصريين قد ربطوا بين تصوراتهم العقائدية الذهنية وبين علامات كثيرة من عالم الواقع والمحسوسات ، فرمزوا إلى قوة عليا وعلة خفية تخيلوها ، برمز يعبر عن سر من أسرارها ويحمل صفة من صفاتها ، والتمسوا أغلب رموزهم هذه فيما عمر بيئتهم من حيوانات وطيور وأشجار وزواحف ، لاحظوا أنه يتأتى عن بعضها كثير من الخير ويتأتى عن بعضها كثير من الشر ، ويظهر أثر البعض منها فى جهات بعينها وفى ظروف بعينها أكثر مما يظهر أثر بعضها الآخر ، وهو الأمر الذى لم يكن يخلو من إعجاز كبير فى نطاق تصوراتهم القديمة التى كانت فى عصورها الأولى لا تزال قليلة التجارب محدودة الآفاق . وبوحى هذه التصورات رمزوا بحيوية الكبش الطلوق إلى أرباب الإخصاب الطبيعى والنوعى ، ورمزوا بقوة الفحل إلى شىء من ذلك وإلى قوة البأس فى مجملها ، ورمزوا بنفع البقرة ووداعتها إلى حنو السماء وأمومتها ، ورمزوا بقسوة السباع واللبؤات إلى أرباب الحرب ورباتها ، ورمزوا بفراسة القرد واتزان طائر أبى منجل إلى إله الحكمة ، ورمزوا بالحيات والضفادع إلى أرباب الأزل ، ورمزوا بخصائص الصقر إلى رب الضياء وحامى الملكة ، وهلم جرا .

والواقع أن أمثال هذه الرموز المبنية على أسس من التشبيهات المادية والمعنوية ومن الملاحظة والتدبر ، لم تكن الموجهة وحدها إلى الربط هكذا بين قوى الإبداع والفاعلية فى دنيا المصريين ، وبين الأليف ، والوحشى من صنوف الكائنات التى عرفتها بيئتهم ، وإنما

شاركتها وربما سبقتها من حيث الزمن ومن حيث الغرض أيضا ، عوامل أخرى ارتبطت فى أذهان طوائفهم البدائية الأولى بصورة فطرية من الرغبة والرهبة والخيال . كالرغبة فى استمرار النفع والاستزادة من الخير من أجناس معينة من الحيوان والطير عن طريق تقديس القوى الخلقية التى تخيلوها تتولى أمرها وتوجهها لغاياتها . ثم صور الرهبة المختلفة : رهبة الخوف ورهبة العجب ، ورهبة الاستعظام ، التى كانوا يستشعرونها أمام أجناس معينة من الحيوان والطير ، وبالتالى المتمثل فى إيمان عامة الناس بالمعجزات والكرامات وحرفية الأساطير . (ص ٢٩٨ — ٢٩٩) .

« منطقها : ترتب على تعدد مبررات التأليه وأسبابه بين المصريين ، أن تنوعت قضايا الدين عندهم واختلفت مفاهيمها باختلاف المستويات الفكرية بين طوائفهم واختلاف المستويات الحضارية بين عصورهم ، فبينما نشأت عقائد الدين فى عصورها المبكرة نشأت محلية ضيقة ، وبناء على ظواهر مادية وتصورات جزئية فطرية تخيلتها جماعات متفرقة من أهالى القرى والمدن عن : السماء وما يصدر عنها أو يعيش فيها ، والأرض وما يجرى عليها أو يقوم فيها ، اتسع مدى هذه العقائد فى ظل وحدة الحكم والحضارة النامية فى العصور التاريخية واتجهت بقضاياها شيئا فشيئا إلى العموميات والمعنويات .

ومرة أخرى بينما اعتمد أهل الفكر المتنورون على تبرير وجهات نظرهم فى الديانة بالمنطق والتشبيه ، اكتفى عامة شعبهم فى ممارسة أمور دينهم بالخضوع لحكم العادة والتقليد وإيحاء الملابسات والإيمان بالكرامات والأساطير . (ص ٣٠١) .

« فى سبيل الترابط : افترض المصريون أواصر القربى والتشابه بين بعض معبوداتهم وبعض آخر ، بناء على دوافع عدة وهذه يمكن تخمين أقدمها زمنا بما مر به مجتمعهم القديم من ظروف الاتصال المكانى والترابط المعيشى ، وإيحاءات السياسة ، ثم اتساع آفاق التفكير . وعلى هذا يمكن أن نفترض أن أولى خطواتهم للربط بين معبوداتهم قد بدأت عندهم منذ أدت دوافع السلم والحرب بقراهم وبلدانهم القديمة المتفرقة إلى الالتحام مع بعضها البعض على هيئة أقاليم عدة خلال فترات متقاربة من فجر تاريخهم القديم ، الأمر الذى شجع الفريق الأقوى فى كل إقليم على أن يسود معبوده ، كما يسود حاكمه ، على بقية الجماعات المشتركة معه فى نطاق إقليمه ، وعلى أن يجعل هذا المعبود ممثلا لإقليمه ورأسا لمعبودات قومه فى آن واحد . وعندما أدت الظروف مرة أخرى إلى ترابط مجموعات الأقاليم

على هيئة ممالك صغيرة تحت تأثير تقارب المصالح حينا وتحت ضغط القوة والغلبة حينا آخر ، تكررت العملية السابقة بصورة تلقائية ، فكفل الفريق الحاكم فى كل مملكة نوعا من الهيمنة لمعبوده على من سواه من معبودات الأقاليم الخاضعة للواء مملكته ، ولما أفضت الحوادث إلى انتظام هذه الممالك المتفرقة فى ظل مملكة واحدة ، لفترات متقطعة فيما قبل الأسرات ، ثم للمرة الأخيرة منذ بداية العصور التاريخية ، أصبح لمعبود الملك فى المملكة المتحدة سيادته الواسعة على بقية معبودات دولته » . (ص ٣٠٣ ــ ٣٠٤) .

« فى سبيل التوحيد : جنبا إلى جنب مع التطورات البطيئة السابقة ظلت فكرة الوحدانية تراود أذهان المفكرين المصريين من حين إلى حين . وقد بدأت معهم على صورة الإيمان بوحدة الخالق . ثم انتقلوا بها إلى الاعتقاد بوحدة الربوبية وأرهصوا بعدها بما يشبه عقائد الحلول والتشبيه ثم انتهوا أخيرا إلى الإيمان بوحدة المعبود[1] » (ص ٣٠٥) .

ثانيا : عقائد البعث والخلود :

طمعت أغلب شعوب العالم القديم فى الخلود واستئناف الحياة بعد الممات ، كما طمع المصريون سواء بسواء . ولكن بينما رتبت هذه الشعوب طمعها فى الخلود على الأمل وحده ووقفت عنده ، رتب المصريون طمعهم فيه على المنطق والعمل والأمل والعقيدة فى آن واحد ، وكانوا أول أمة آمنت بالبعث والخلود من تلقاء نفسها وأصرت عليها[2] .

« ومرة أخرى ، نعترف بأن البحث فى المسببات الأولى لإيمان المصريين بعقائد البعث والخلود وتمسكهم بها يعتمد على الحدس ومنطقية الاستنتاج أكثر من غيرهما ، شأنه فى ذلك شأن البحث فى مسببات نشأة عقائد الألوهية ونستطيع أن نفترض أنهم حينما رتبوا أملهم فى الخلود على مبررات مقنعة ، وجدوا فى خصائص بيئتهم ما يوحى لهم بمنطقية فكرته ويشجعهم على طلبه . فقد اعتادت أغلب أجيالهم منذ فجر تاريخهم على أن يدفنوا موتاهم

---

(١) أى أن يكون توحيد الربوبية من اختراع العقل البشرى ، وهذا يتعارض مع المعتقد الإسلامى كما سنرى فيما بعد إن شاء الله .

(٢) وهذا القول يتعارض والعقيدة الإسلامية ، لأن الإيمان بالآخرة والبعث ، هو يقين تلقته البشرية عن رسل الله الكرام عن الله عن طريق الوحى منذ بداية تاريخها ، منذ خلق جدها الأول آدم عليه السلام وجدها الثانى نوح عليه السلام .

فى الحواف الصحراوية (والغربية منها بخاصة) ، لينأوا بمقابرهم عن رطوبة الأرض الطينية ، ويتركوا الأرض الطمية للزراعة ، ويوفروا أراضى القرى لأحيائها . وشيئا فشيئا تبينوا أن مقابرهم الصحراوية تحفظ جثث موتاهم بحالة لا بأس بها لفترات غير قصيرة . وعندما اختلطت هذه الظاهرة بأحاسيسهم الدينية لم يردوها إلى جفاف الصحراء وحده ولا إلى دور الرمال فى امتصاص رطوبة الجسد وحده ، وإنما ردوها أساسا إلى قدرة ربانية حانية ، وقدروا أنهم إذا استرضوا صاحب هذه القدرة وقدسوه زاد من رعايته لجثثهم » (ص ٣١٤ ـــ ٣١٥) .

الخلاصة :

يرى الدكتور عبد العزيز صالح :

١ ـــ أنه فى ذلك العصر القديم من تاريخ مصر ، نشأت لدى المصريين رغبة فى التدين ، ولما لم يجدوا من يرشدهم إلى حقيقة الله سبحانه وتعالى ، فإنهم تصوروا إلههم ومعبودهم على قدر نضوجهم العقلى .. وأن هذا التصور ظل يترق ويتطور من عقائد التعدد إلى صور مختلفة من أفكار التوحيد حتى وصلوا إلى التوحيد . وهو الوقت الذى قال فيه مفكرو المصريين بوحدة المعبود وهذا الاستنتاج قد جانبه الصواب :

٢ ـ أن المصريين أول أمة آمنت بالبعث وبالخلود من تلقاء نفسها وهذا أيضا قد جانبه الصواب .

٢ ـــ رأى الدكتور سليم حسن فى كتاب تاريخ الحضارة المصرية[(١)] :

« الحياة الدينية وأثرها على المجتمع . الديانة المصرية القديمة وأصولها . البيئة المصرية وأثرها فى الدين .

« سبب نشأة الدين » :

أظن أن العقيدة السائدة لدى علماء الأديان أن الأسرة كانت الركن الأول فى نشأة الدين ، فوالد الأسرة كان يُحب لأنه كان حاميها ، وكان يرهب لأنه صاحب القوة والبأس عليها ، وعلى مر الأزمان تطرف الأقدمون الذين نشأوا على الفطرة إلى عبادة قوى الطبيعة

---

(١) الجزء الأول ، ٢٠٦ وما بعدها .

من حيوان ونبات وجماد وما هو جدير بالعبادة كأجدادهم لقوته أو للخوف منه . والواقع أن الأقوام الأولى كانوا يمجدون آلهتهم لأحد أسباب ثلاثة ، إما لفائدة ترجى أو لخوف من شيء يراد اتقاؤه أو الإعجاب بعظمة فيهم لا يمكن إدراكها ، ولا شك أن حب المعبود لذاته لم يأت إلا بعد تطورات كبيرة حدثت فى بنى البشر . وفى اعتقادى أن العوامل التى ذكرناها هنا هى التى بنيت عليها كل أركان الديانات فى أول نشأتها وفى تمام نضجها »[1] .

والديانة المصرية القديمة كانت بلا ريب تخضع لهذه العوامل ولا غرابة فى ذلك ، فإن المصرى الفطرى كان يرى هذه الصفات المعنوية فيما حوله من قوى المخلوقات الطبيعية ، فكان مثلا يعبد الثعبان اتقاء لدغته المميتة ، كما أنه كان يرى حاجته إلى الأشجار المثمرة الوارفة الظلال فيسجد أمامها إجلالا لما تغدقه عليه من ثمر وما تضفيه عليه من ظل وارف فى بلاد حرها لافح .. إلخ .

« الحياة الآخرة والشعائر الدينية » :

هذا وقد شجع المصرى على الاعتقاد فى الحياة بعد الموت رؤيا الأموات فى الأحلام ومحادثتهم له[2] .

« المعتقدات الدينية فى الدولة الحديثة » :

« ولكن من الوجهة الخلقية نجد أن الفصل ١٢٥ يعد أهم وثيقة وصلت إلينا من العالم القديم عن مقدار ما كان عليه الإنسان من رقى من الوجهة الخلقية ولا نبالغ فى أن هذا الفصل كان الأساس الذى بنيت عليه كل ديانات العالم التى أتت بعده ، إذ نجد فى كلمات هذا المتن أن المصرى أخذ يشعر فيه بالآخرة بصورة تدل على نموه العقلى وانبثاق فجر الضمير فى صدره » .

---

(١) نفس المرجع السابق ٢٢٩ ــ ٢٣٠ ، وهكذا يتبنى أحد أبناء المسلمين منهج أن الدين هو اختراع العقل البشرى ، ويجزم (وهذا أمر يتعارض وعقيدة الإسلام) بأن هذه العوامل هى التى بنيت عليها كل أركان الديانات (ومنها الإسلام بطبيعة الحال) فى أول نشأتها وفى تمام نضجها .

(٢) وقد قدمنا دراسة لهذه الافتراءات فى دراستنا التى بين يديك . والخطورة أن هذا الفكر غير الصحيح يتربى عليه أبناؤنا فى المدارس والجامعات ويترتب عليه بلا شك تربية أجيال لا تعرف لها ربا ولا ترتضى لها دينا .

الخلاصـــة :

١ ـــ فى وقت ما من تاريخ مصر ، كان الناس حيارى لا علم لهم بدين ، ولا معرفة لهم بإله لعدم وجود من يرشدهم إلى الدين الذى يجب أن يعتنقوه وربهم الذى يجب أن يعبدوه .

ولذلك فقد تصوروا لهم أربابا وآلهة ، أوحت إليهم بها أوضاعهم الأسرية ، والرغبة فى النفع ، واتقاء الضرر .

٢ ـــ نشأة الاعتقاد بالبعث عند المصرى نتيجة لرؤيا الأموات فى الأحلام .

٣ ـــ إن الأخلاق انبثق فجر ضميرها لدى المصرى نتيجة تطوره ورقيه الطويل ، وأنها هى الأساس التى بنت عليها كل ديانات العالم التى أتت بعده وكلها استنتاجات فاسدة .

٣ ـــ رأى الدكتور عبد الحميد زايد فى كتابه الشرق الخالد[١] :

« لم يكن التوحيد الذى ظهر فى الشرق هو من أسمى العبادات المفضلة فقط ، بل هو طريق الحياة الصحيحة . آمن المصريون بالإله الواحد ، ولم تكن تلك الدعوة رسالة من السماء[٢] ، وربما ظهرت فى وقت لم يكن قد استعد فيه الإنسان بعد لنبذ تعدد الآلهة»[٣].

« ومما لا جدال فيه أن تعدد الآلهة قد سرى من مصر إلى أقطار الشرق الأدنى أو العكس ، ومما لا جدال فيه أن عقيدة التوحيد قد نبتت فى مصر ، وانتقل ظهورها من وادى النيل فى صورة من الصور إلى بلاد الشرق ، حيث ظهرت دعوة إبراهيم للوحدانية وجاء من ورائه نبوات أخرى (ص أ ـــ ب) » .

(١) دار النهضة المصرية ، القاهرة ص أ ــ ب .

(٢) لست أدرى مادا يقصد الكاتب بالسماء ، إن السماء ليست اسما من أسماء الله ، لأن الله له أسماء عددها تسع وتسعون من أحصاها دخل الجنة وليس من بينها السماء ، وبالإضافة إلى ذلك أن هده الفرية لا يجوز للمسلم أن يقول بها ، لأن الله مند أن خلق الإنسان وقد أخذ عليه العهد أنه ربه ومالكه وسيده وفى هذا يقول المولى عز وجل : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا** ﴾ وشعب مصر جزء من ذرية آدم من ذرية الناجين من الطوفان أى المسلمين الموحدين ، فإذا عثر على قرائن تؤكد إيمان المصريين مند أقدم عصورهم بالله الواحد الأحد ، فهذا دليل على أنهم من ذرية قوم مسلمين وأمة لله قد تعهدهم بالأنبياء والرسل يعرفونهم بربهم ودينهم .

(٣) إن إرسال الرسل لايرتبط باستعداد الإنسان أو عدمه لنبذ عبادة الطاغوت ، وإنما الله أرسلهم طبقا لسنته .

« ولكننى سأتعرض فى كثير من الأحيان إلى ما جاء فى كتب السماء ، ذلك لأن طبيعة دراسة بعض فترات تاريخ الشرق الأدنى القديم تحتم علينا النظر فيما نزل من السماء من كتب مصدقة » .

« وفى مصرالفرعونية قدست بعض الأشجار وظهرت بعض الآلهة تخرج من شجرة . ولا زال بعض أهالى القرى فى مصر الحديثة يتبركون ببعض الأشجار ويربطون فيها بعض قطع من ثياب تبركا ، كل ذلك رواسب من الماضى البعيد ظلت عالقة بأذهان الناس . فورثوها عن أجدادهم دون أن يدركوا معناها .

كل هذه العبادات خاصة بالمياه والشجر ، كان الأصل فيها أن الناس قد عبدوها وقدسوها لما تدره عليهم من خير ، وجاء فى كتاب الله الكريم أن الله جعل من الماء كل شيء حى ، كما جاء كذلك أن عرشه على الماء ، أما الأشجار فإنها ترمز لكل شيء من الفواكه والحبوب والنباتات الطبيعية » . (ص ٢٩٦ — ٢٩٧) .

« ولكن ما هى الأسباب التى دعت الناس فى العصور القديمة أن يتخذوا من الجبل متعبدا ومقرا ومقاما لهذه الآلهة ، وكانت هذه الصخور تتخذ شكلا مخروطيا مهذبة جوانبها قليلا وسميت الواحدة منها فى اللغة السامية بيتيل ومعناها بيت الإله وأشهرها فى فينيقية ما وجد فى معبد بيبلوس . وقد ظهر على أحد العملة الرومانية وكان عبارة عن صخور مخروطية الشكل بها تمثيل طفيف للرأس والذراعين وأحيانا على هيئة أقماع السكر إذن ما هو السر فى هذه العبادة التى نجدها فى بلاد كنعان قديما وعلى سبيل المثال فى بلدة (جزر) بين يافا والقدس ، وكذلك وجدت فى مكة فى الحجر الأسود قديما . ذكر بعض المؤرخين أن لها أصلا قديما سماويا » . (ص ٢٩٧) .

« أما من ناحية الحجر الأسود الذى لم يهذب فقد كان الحجر معروفا من قبل رسالة محمد ﷺ ، وقد قام عليه الصلاة والسلام بوضعه فى مكانه الحالى وقبله ، وسار المسلمون من ورائه على ذلك وأصبح من مناسك الحج . وكذلك فى رمى الجمرات فى (منى) إذ يلقى المسلمون بحصى معدودة على نصب من صخر لم يهذب ترمز إلى الشيطان . كل ذلك من مناسك الحج التى فعلها الرسول وأمر المسلمين باتباعها . وكما نرى فقد كان لها جذورها فى الماضى البعيد .

أما عن تقديس ينابيع المياه وانتشار عبادتها فى غير أمة الفينيقيين ، فنجد

الإسرائيليين يقدسون ينابيع المياه ، فقد قدسوا بئر سبع ، وغيرها ولا زال المسلمون حتى اليوم يقدسون بئر زمزم فهو جزء من مناسك الحج والارتواء بمائه من سنن الإسلام »[1] (ص ٢٩٨) .

« رعاية دور العبادة » :

« والوظائف الكهنوتية شرفية خاصة ببعض الأسر ، ولا زال ذلك موجودا عند الإسرائيليين وعند الصوفية فى مصر الإسلامية ، وكان موجودا فى قرطاج ، كذلك كان هناك الرقيق المقدس ذكورا وإناثا وكانوا يقومون بالبغاء المقدس »[2] (ص ٣٠٠) .

« وكان المصريون القدماء يقولون عن الميت : عندما رحل إلى الرفيق الأعلى . وإنى أرى أن هذه المعتقدات التى ظهرت عند الآراميين عن الحياة بعد الموت واتصال الملك فى الحياة الأخروية بالإله لم يكن له تأثير حثيا وأنا أرى فيه تأثيرا حثيا فرعونيا »[3] (ص ٣٧١) .

---

(١) إن الكاتب هنا يقول قولا يتعارض مع المعتقد الإسلامى إنه يبرر الوثنية والشرك واتخاذ أرباب من دون الله ، من خلال مناسك الحج بما فيه رمى الجمرات والطواف وتقبيل الحجر الأسود . الخ — فما رأى علماء المسلمين ؟ لقد كان من الواجب أن يبين الكاتب ، حكم الله فى عبادة وتقديس المياه والحجر والشجر ، وأن ذلك شرك بالله رب العالمين .

كما كان من الواجب عليه أن لا يقوم بتبرير هذه الوثنية بالمقارنة ببعض مناسك الإسلام كالحج والمسلمون لايقدسون ولا يعبدون الحجر الأسود أو ماء زمزم إنما هم يستقبلون الحجر الأسود اقتداء بفعل رسول الله ولعلنا نذكر قولة عمر رضى الله عنه : « إنك حجر لا تنفع ولا تضر ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ماقبلتك » .

والمسلمون يشربون من زمزم ويعلمون ويؤمنون يقينا أن الله هو الشافى ﴿ **وإذا مرضت فهو يشفين** ﴾ والشرب من زمزم ليس من أركان الحج أو واجباته .

أما فيما يتصل برمى الجمرات فهى من الواجبات التى ترجع إلى عهد إبراهيم عليه السلام حينما عرض له إبليس وهو فى طريقه لإنفاذ أمر الله ﴿ **إنى أرى فى المنام أنى أذبحك** ﴾ فى محاولة لصرفه عن تنفيذ أمر الله فضربه بالجمرات ، فهى إنفاذ لأمر الله ثم اقتداء بإبراهيم عليه السلام ، إذن جذور هذه المناسك جذور إسلامية وليست جذور وثنية وليست من اختراع العقل البشرى ، ثم جاء الإسلام وجعلها من العبادات .

(٢) هل فى شريعة الإسلام شىء اسمه البغاء المقدس ، هنالك بغاء « زنا » وهو جريمة ، من الذى قدسه ؟ وكيف يسوغ للكاتب من أبناء المسلمين أن يضفى على البغاء صفة القدسية إن الله يقول : ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا** ﴾ وحد الزنا الرجم .

(٣) ولماذا لا يكون ذلك نتيجة معرفة على أيدى رسل الله الكرام ، من رواسب خط التوحيد ، ولكن الكاتب يصدر فى ذلك عن منهج أن الدين من اختراع العقل البشرى وأنه تطور وأن المصرى سبق رسالات السماء إلى التوحيد .

الخلاصة :

يرى الدكتور عبد الحميد زايد أن دعوة إبراهيم والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه إلى عبادة الله وحده دون شريك ، قد أخذها عن التوحيد الذى وصل إليه الفكر المصرى من تلقاء نفسه . أى أنها من نتاج الفكر البشرى وليست وحيا من عند الله ، وهذا غير صحيح .

خلاصة آراء المؤرخين عن الجانب الاعتقادى فى حياة المصريين منذ القدم :

نخلص من العرض السابق إلى أن الذين كتبوا عن الجانب الاعتقادى فى حياة المجتمع الفرعونى ، من المستشرقين ، ومن سار على نهجهم من أبناء الأمة المسلمة دأبوا على تصوير هذه القضية على النحو التالى :

أولا : أن الله سبحانه وتعالى ، خلق الإنسان ، وتركه حائرا ، لا يرتضى له دينا ، ولا يعرف ربا ، وبسبب ذلك الإهمال من جانب الله تعالى للبشرية ، بدأ الإنسان يتصور له معبودا وربا يتقدم إليه بالشعائر التعبدية ... أى أن الإنسان اخترع لنفسه دينا ... وأن هذا الدين قد تطور من الوثنية والتعدد إلى صور قريبة من التوحيد ثم إلى التوحيد .

ثانيا : أن المصرى قد توصل إلى الإيمان بالبعث من تلقاء نفسه (١) .

ثالثا : أن إبراهيم أبو الأنبياء ، والأنبياء الذين أتوا من بعده وأنبياء بنى إسرائيل قد استقوا معرفتهم عن توحد الألوهية أثناء تواجدهم وتعرفهم على فكر اخناتون التوحيدى فى مصر أو من فكر الوحدانية الذى عرفه المصريون من تلقاء أنفسهم وانتقل منهم إلى بلاد الشرق . وذلك للوصول إلى نتيجة نهائية وهى أن الدين من اختراع العقل البشرى ، وليس وحيا من عند الله ، أرسل به رسله الكرام . وهذه الاستنتاجات التى يعتبرها كتاب التاريخ من المستشرقين ومن سار على نهجهم بديهيات ، كلها استنتاجات غير صحيحة كما سنرى فى ضوء الكتاب والسنة .

---

(١) إن الإيمان باليوم الآخر والإيمان بالبعث جزء من عقيدة الإسلام التى بلّغها الرسل جميعا على مدار تاريخ البشرية بداية بآدم عليه السلام ونهاية ببعثة محمد ﷺ ، وإيمان شعب مصر بالبعث جاء نتيجة الرسالات السماوية فى شعب مصر كرسالة يوسف وموسى عليهما السلام ، ونتيجة كون شعب مصر من سلالة آدم عليه السلام النبى المسلم ونوح عليه السلام ومن ذرية المسلمين الناجين من الطوفان . إذن الإيمان بالبعث ليس من اختراع العقل المصرى .

رواسب خط توحيد الله رب العالمين فى حياة شعب مصر

إن النصوص المصرية القديمة ، تؤكد لنا أن الله سبحانه ونعالى قد تعهد شعب مصر منذ القدم بالرسل يعرفونه بربه الحق ، وبدينه الحق (الإسلام) ، وبالحلال والحرام ، وبالقيم والمبادئ والخلق والسلوك الحسن ، وأن الموت حق ، والبعث حق ، وأن هنالك يوم حساب ، سيقف الإنسان فيه بين يدى الله عز وجل ، ثم يصير الإنسان إمَّا إلى الجنة وإما إلى النَّار ، وهذا ما أثبتته المصادر الإسلامية كما بينا .

فالأدب المصرى القديم يذكر أن المصريين كانوا يعتبرون كل ما يقع من تقدير الله عز وجل « ما يحدث هو أمر الله » ، وأنَّ الله هو الذى يوفق الإنسان أو لا يوفقه « صائد الطيور يسعى ويكافح ، ولكن الله لا يجعل النجاح نصيبه » ، وأن الزارع هو الله « ما تزرعه وما ينبت فى الحقل هو عطية من عند الله » ، وأن حب الله يعنى طاعة أوامره « من أحبه الله وجبت عليه الطاعة » ، وأن الله عليم بما تخفى النفوس الشريرة « الله يعرف أهل السوء » ، والشكر على النعمة حق الله على عباده « إذا جاءتكم السعادة ، حق عليكم شكر الله »[1] ...

كما ورد فى النصوص المصرية القديمة ما يؤكد أن الجنة وقف على الصالحين الذين لا يقتلون ولا يحرضون على القتل ولا يسرقون ولا يغشون ولا يزورون ولا يزنون « أن مملكة الإله

---

(١) هذه الكلمات أوردها أدولف ارمان فى كتابه ديانة مصر القديمة ، ص ٧٠ ثم يعلق عليها : « هؤلاء القوم الذين كان هذا هو شعورهم وحديثهم لم يكونوا بمنأى عن العقيدة الحقة ولو أنهم فى واقع الأمر تعلقوا أيضا بدينهم الموروث وبقوا عابدا أسماء لآلهتهم » .

وكان بودنا لو أضاف الكاتب إضافة بسيطة كالتالى : لم يكونوا بمنأى عن العقيدة الحقة « وهى الإسلام الذى دعا إليه الرسل جميعا من لدن نوح عليه السلام إلى عصر محمد ﷺ . وأن تصورهم عن هذا الإله العظيم ، لم يصلوا إليه من تلقاء أنفسهم . ولكنه من بقايا الرسالات السماوية التى كانت فى شعب مصر » .

لا يدخلها إلّا المطهرون ، وعلى كل واحد أن يثبت أمام القضاة أنه لم يرتكب جريمة قط .

وقد ورد فى الفصل الرابع عشر من كتاب الموتى ، بيان تفصيلى بأنواع الجرائم التى يحرم أصحابها من دخول الجنة . ففى مقدمتها : القتل والتحريض عليه والسرقة والغش والتزوير والفسق والزنا ...

ثم يضاف إلى ذلك واجبات أسمى ، حتى يؤهل لدخول الجنة ، فعلى الإنسان ألا يكذب ، وألا يغتاب ، وألا يتجسس من وراء الأبواب ، وألّا يأكل قلبه ـــ أى لا يهلك نفسه فيما لا يجدى من أسى ، وألا يأخذ اللبن من فم الرَّضع حتى لا يجوعوا ولا يبكوا » [١] .

ومن نقوش المقابر القديمة وآداب الدولة الوسطى : « المرء يفخر قبل كل شيء بعمل الخير ، يعطى الخبز للجائع ، والماء للظامىء ، والملبس للعارى »[٢] .

« الرجل الطيب هو ابن للمسنين ، وأخ للمطلقة وزوج للأرملة ، وأب لليتيم . هو كساء لمن يقرصه الصقيع ، ملجأ من الريح ، هو للمريضُ مرضع أو مُمَرِّضٌ » ...

« ويفخر أحد العظماء بأنه لم يغبن الأرملة أبدا ، ولم يستغل ابنة رجل من العوام ، ولم يسبب الضيق لمزارع أو راع . وفي أيام الفاقة ساعد الشعب ولم يفرق بين صغير وكبير وقد حاول بصفته قاضيا أن يجعل المتخاصمين يخرجان مسرورين من المحكمة »[٣] .

« ويذكر الوزير بتاح حتب وزير الملك أسسى (حوالى ٢٥٠٠ ق . م) كيف يجب على الرجل الشريف والموظف الصالح أن يعيش ، وعليه أن يكون دائما متواضعا وكتوما ، وأن يجتنب ذكر الألفاظ النابية ، وألا يتكبر بسبب علمه ، وألا يحتقر الوضيع »[٤] .

« وقد وصلنا من الدولة الحديثة كتاب يعتبر من أمتع ما خلفه لنا الأدب المصرى القديم ، وقد كتبه رجل يدعى « آني » ولنكتف بتقديم مقتطفات منه » .

كن كريما ، ولا تأكل خبزا حين يكون هناك آخر يتضور جوعا . احترس من المرأة الأجنبية الغير معروفة فى بلدها ، لاتبادلها النظرات ولاتظهر أنك تعرفها فإن هذه خطيئة

---

(١) ديانة مصر القديمة ، ص ١٧٩ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٧٩ وهو يعتمد على Sinouhe , 96.

(٣) ديانة مصر القديمة ، ص ١٧٩ .

(٤) وهو يعتمد على Hatnoub , 829.

عظمى حتى إذا لم تتحدث هي بذلك ... من الخير أن يبكر فى الزواج وأن يكون للشخص أطفال كثيرون ، عامل زوجتك برعاية إذا كنت تعرف عنها أنها ممتازة ، ولا تقل لها : أين هذا ؟ هاته ، إن كانت وضعته فى مكانه الصحيح » .

« أعِدّ لأمك كل ما فعلته من أجلك ، أعطها المزيد من الخبز واحملها كما حملتك . إنّها حملتك ثقلا وحين ولدت بعد تمام شهورك حملتك على عنقها ، وظل ثديها في فمك ثلاث سنوات » .

« لا تكثر الكلام وكن حذرا حين تتكلم ، لأن اللسان يسبب للناس النكبات ، الفضيلة الرئيسية للمرء هي الحشمة والحياء » [١] .

« وفيما خلفه ناظر القمح والأملاك « آمون أم أوبى » (٩٠٠ ق . م) يوجه لابنه ثلاثين حكمة للسلوك الطيب في الحياة » نجد إشارة إلى أن الله هو الذى خلق الإنسان من طين :

« قضية أن الإنسان من تراب وقش ... وأن الإله هو الذى صنعه » ...

« لا تغمس قلمك فى المحبرة حتى تؤذى شخصا آخر ، ولا تغش فى المقاييس والأوزان ، ولاترتشى ، اقض بعدل ، لا تظلم الضعيف لصالح الغنى .... لا تغش فى جباية الضرائب ، ولا تكن قاسيا كذلك » .

« إن جميع ما تفعله فى غير عدالة لن يجلب لك بركة ، إذ أن مكيالا واحدا يعطيه الإله خير من خمسة آلاف مكيال بغير حق » [٢] ..

الفصل ١٢٥ مما يسمى بكتاب الموتى :

يعكس لنا إيمانا بالله سبحانه وتعالى .

« لك الحمد أيها الإله العظيم ، يارب الحقيقتين ...

---

(١) ديانة مصر القديمة ، ص ١٨٠ ـــ ١٨١

(٢) ديانة مصر القديمة ، ص ١٨٣

هأنذا أجىء إليك ، أحلب الحقيقة وأطرد الإثم .. » .

ويحاول المتوفى أن يبدو أمام الإله بصورة المبرأ من الإثم « إنى لم أقترف إثما ضد البشر .. ولم أفعل شيئا يمقته الله .. ولم أسع بأحد عند رئيسه ، ولم أجوع أحدا ، ولم أدع أحدا يبكى ، ولم أقتل ، ولم أدع إلى قتل ، ولم أسبب لأحد ألما ، ولم أُقَلِّل في المعابد الطعام ، ولم أسلب طعام المجدين ، ولم أفسق فى المكان الطاهر لإله مدينتى ، ولم أطفف مكيال الحب ، ولم أنقص مقياس الزراع ، ولم أزيف في مقياس الحقل ، ولم أتقل فى مثاقيل الميزان ، ولم أسلب اللبن من فم الطفل ، ولم أسرق الماشية من مرعاها .. ولم أسد على الماء الجارى ، ولم أعترض الإله فى شىء من إرادته » [1] .

ومن هذا يذكر لنا كتاب الموتى ، أن المبرّأين ، يدخلون جنات تنمو فيها الزروع والفواكه والثمار ، ويتطلعون كما يشاءون فى ملكوت السموات والأرض فهو يتمنى : « أن آكل الثمر ، وأن أصعد إلى السماء ... وأهبط إلى الأرض ، لا يعترض عائق فى الطريق ، ولا تُحبَس روحى ، وأن أكون بين أهل الثناء الموقرين » .

ومن النصوص المصرية القديمة ما يعكس أنهم كانوا على يقين بأن لكل أجل كتاب :

« ولا يعلم أحد متى يأتيه مثل هذا الرسول » ، وذلك على نحو ما قال أحد حكماء الدولة الحديثة : « فكر فى الموت لأن رسولك يأتى إليك ... لا تقل لا أزال شابا ، ذلك لأنك لا تعرف موتك ، إن الموت يحضر ويقود الطفل ، الذى لا يزال فى حجر أمه ، كما يقود الرجل الذى أسن » [2] .

---

(١) ديانة مصر القديمة ، ص ٢٥٧

(٢) ديانه مصر القديمة ، ص ٢٦٩ .

الفصل السابع

الشبهات التى أثارتها مراجع التاريخ القديم
مع الردّ عليها ودحضها
فى ضوء العقيدة الإسلامية

اللّه رب العالمين تعهّد آدم وذريته ومنهم شعب مصر منذ بداية الخلق بالرسل ، يعرفونهم بربهم رب العالمين وبدين الإسلام الذى لا يقبل الله من الأولين أو الآخرين غيره .

ويعرفونه بالغاية التى من أجلها خلقوا والوسيلة لتحقيق هذه الغاية ويؤكدون أن الموت والبعث حق ، والحساب حق والجنة حق والنار حق .

رسالتان سماويتان ـ على الأقل ـ فى شعب مصر تدعوان إلى الإسلام :

الأولى : رسالة الرسول المسلم يوسف عليه السلام .

والثانية : رسالة موسى عليه السلام .

كان يكفينا لإهدار الآراء التى رددتها كتابات التاريخ القديم فيما يتصل بالدين والرسل والإيمان بالبعث ، والتى أوردنا نماذج منها ، قول كتابها « إنها تقوم على الحدس والاستنتاج وكلاهما لا يكفيان لإعطاء أحكام قاطعة فى قضية من أخطر القضايا وهى قضية الكفر والإيمان » ولكننا آثرنا أن نكرر ما سبق وأوردناه فى كتابنا هذا من قرائن وبراهين يقينية مستقاة من كتاب الله القرآن الكريم وحديث رسول الله محمد ﷺ وهى تؤكد :

أن الله سبحانه قد خلق الإنسان وهو آدم عليه السلام ، وارتضى له الإسلام دينا ، وعرفه بربه وخالقه وسيده وعرّفه بأنه قد خلق للعبادة بمفهومها الشامل ، وأنه سيكون خليفة فى الأرض مؤسسا لأول مجتمع على سطح الأرض يرضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبآدم نبيا ورسولا ، وعلم الله آدم كل ما يعينه على أداء واجب العبادة ، ويعمر الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، وعلّمه كل ما يتعلق بمسائل العقيدة ، وأنه لابد من الموت ، ولابد من البعث

النشور والحساب ، والإنسان إما إلى جنة وإما إلى نار . وهذه هى عقيدة الإنسان الأول كما يؤكدها كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ .

ومسح الله على ظهر آدم فخرج من ظهره كل نسمة قدر الله أن تكون إلى يوم القيامة ، وأخذ عليها العهد :

﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ .

وقامت على سطح الأرض عشرة قرون ، عشرة أجيال على الإسلام ، وفى أعقابها حدث الانحراف ، وبدأ الشرك يتسلل إلى حياة البشرية ، وعبدت الأوثان فى الأرض ولذلك فقد تعهد الله بنى آدم بالرسل يعرفونهم بربهم الحق ودينهم الحق ، وباليوم الآخر والبعث والنشور والحساب والعقاب .

يقول ربنا رب العالمين **﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾** .

﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ .

ومن هؤلاء نوح وإبراهيم ويونس الرسل المسلمين الذين بعثوا فى أرض الرافدين يدعون فيها ، ومن هؤلاء يوسف وموسى اللذين بعثا فى شعب مصر يدعوان إلى الإسلام ، ومن هؤلاء هود وصالح وشعيب وإسماعيل الذين بعثوا فى جزيرة العرب يدعون أهلها إلى الإسلام ، ومن هؤلاء إبراهيم ولوط وداود وسليمان الذين بعثوا فى بلاد الشام يدعون إلى الإسلام .

إذن شعب مصر وغيره من الشعوب المجاورة فى الأصل هو من سلالة الناجين من الطوفان مع نوح عليه السلام ، أى من ذرية قوم مسلمين ، وتوحيد رب العالمين الذى عُرفوا به وإيمانهم باليوم الآخر والبعث ، والجنة والنار ، الذى دونوه وسجلوه فى نصوصهم وعلى حدران مقابرهم ومعابدهم ، هو نتيجة الرسالات السماوية التى كانت فيهم وليست من اختراع عقولهم ، وذلك يعنى أن تسابيح التوحيد التى تركها اخناتون فى ثنايا نشيده الذى

يوجهه إلى قرص الشمس آتون ، إنما هو من رواسب خط توحيد اللّه فى ختام خطاب الأمة نتيجة الرسالات السماوية السابقة عليه ، ومنها رسوله يوسف عليه السلام والتى عرضناها فى كتابنا هذا أيضا .

نشيد أخناتون يثبت أنه لم يكن موحدا لله رب العالمين ـــ عقيدة توحيد الله رب العالمين مفطور عليها الكون والإنسان وبها كان يشهد ـــ الأنبياء والرسل قبل أخناتون بزمن طويل وإليها يدعون

وفيما يتصل بأخناتون فقد أورد كتاب التاريخ مزاعم على جانب كبير من الخطورة ، التسليم بصحة هذه المزاعم تقوض بنيان العقيدة الصحيحة فى قلب المسلم ، فقد زعم دى بورج أن أخناتون كان يسعى لإقامة عبادة إله واحد . وزعم جيمس هنرى برستد[١] :

« للمرة الأولى فى تاريخ الدنيا ظهرت فكرة إله واحد للعالم كله له سلطان إمبراطورى وتلك هى أقدم صورة فى التاريخ لفكرة التوحيد كما وصلت إليها خبرة الشرق » ويستمر فى قوله : « لم نر أحداً قبل أخناتون عرف الصورة الصحيحة للإله الواحد الرحيم »[٢]. ويقول بنفس الرأى أدولف أرمان [٣] . وذهب الدكتور محمد أنور شكرى إلى أبعد من ذلك فاعتبر دعوة أخناتون إلى عبادة قرص الشمس آتون الحقيقة والدين الصحيح[٤] .

وذهب الدكتور[٥] أحمد فخرى إلى أن عبادة أخناتون كانت الصيحة الأولى المعروفة فى تاريخ البشرية التى تقترب من التوحيد الذى جاءت به الكتب السماوية فيما بعد . وزعم الدكتور عبد الحميد زايد[٦] أن دعوة أخناتون كانت دعوة إلى الوحدانية ، وأن دعوة التوحيد نبتت على أرض مصر وانتقلت إلى بلاد المشرق حيث ظهرت دعوة إبراهيم للوحدانية .

وأخناتون لم يكن موحداً لله رب العالمين ، والدليل على أنه لم يكن موحداً هو كلمات من تسابيحه أو نشيده الذى اتخذه كتاب التاريخ دليلا على زعمهم ، نوردها بعد الكلمة التالية .

---

(١) فى كتاب تطور الفكر والدين فى مصر القديمة ص ٤٥٧ ـــ ٤٥٩ .

(٢) انتصار الحضارة ترجمة د أحمد فخرى ، ص ٩٤ ، ٩٥ ، ١١٩ ، ١٣٧ .

(٣) كتاب ديانة مصر القديمة ، ص ١٤٠ ـــ ١٤١ .

(٤) مصر والشرق القديم ، ص ٢٠٧

(٥) حضارة مصر الفرعونية ، ص ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٣٩٠ ، ٣٩٦ .

(٦) الشرق الخالد ، ص ب .

وأخناتون هو أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة المصرية ، وقد جلس على عرش مصر عام ١٢٦٧ قبل ميلاد المسيح عليه السلام . وأخناتون من ذرية آدم عليه السلام ، وقد سبقه أنبياء ورسل كثيرون بعثهم الله سبحانه وتعالى إلى بنى آدم يدعونهم إلى توحيد الله الواحد القهار : ﴿ **وماأرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ . ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾ .

وآدم عليه السلام جد البشرية ، ونوح عليه السلام أبو البشر الثانى والذين سبقوا أخناتون بآلاف السنين كانوا موحدين لله رب العالمين ، يفردونه وحده بالعبادة وإليه كانوا يدعون الناس . بل إن دعوة أخناتون قد سبقها دعوات أخرى جاء بها الرسل عن الله عز وجل ، تدعو إلى توحيد الله الواحد القهار وإفراده بالعبادة ومنها دعوة هود وصالح وشعيب وإبراهيم ويوسف وغيرهم من الأنبياء والرسل عليهم السلام . فلو سلمنا جدلا ــ وهذا غير صحيح ــ أن أخناتون كان موحداً ، فبالتأكيد هو ليس أول الموحدين .

وأخناتون كما قلنا جلس على عرش مصر عام ١٢٦٧ بينما إبراهيم عليه السلام ولد على أرض الرافدين وهاجر إلى بلاد الشام ومصر والحجاز أول عام ١٨٩٢ قبل ميلاد المسيح عليه السلام أى قبل مولد أخناتون بسبعة قرون على الأقل ، فكيف يزعم الزاعمون أن إبراهيم عليه السلام [١] قد تأثر بدعوة أخناتون ؟ ؟ ؟ .

إذن فكيف نفسر وجود بعض صفات الله سبحانه وتعالى فى نشيد أخناتون ؟ .

أخناتون جاء بعد عصر يوسف عليه السلام ، الذى بعث فى عصر الفترة الثانية أى قبل مولد أخناتون بمئات السنين ، ويوسف عليه السلام هو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، وقد ابتعثه الله إلى شعب مصر يدعوهم إلى الإسلام وتوحيد الله رب العالمين ﴿ **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليّى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين** ﴾ [٢] .

وهذا هو السبب فى وجود بعض ملامح التوحيد فى نشيد أخناتون ، أى أنه تأثر

---

(١) معاصرة الأسرة الثانية عشرة المصرية .

(٢) يوسف : ١٠١ .

بعقيدة الدعوة إلى توحيد الله رب العالمين التى خلَّفها يوسف عليه السلام على أرض مصر وكان يدين بها كثير من الناس وبدعوات الرسل من قبله .

دليل من كلام أخناتون يؤكد أنه لم يكن موحداً بل مشركا :

« أنت تطلع ببهاء فى أفق السماء يا آتون الحى (يا) بداية الحياة .
عندما تبزغ فى الأفق الشرقى تملأ كل البلاد بجمالك .
أنت جميل ، عظيم ، متلألىء ، وعلى فوق كل بلد .
وتحيط أشعتك بالأراضى كلها التى خلقتها .
لأنك أنت « رع » وتصل إلى نهايتها ، وتخضعها لابنك المحبوب .
وبالرغم من أنك بعيد فإن أشعتك على الأرض ،
وبالرغم من أنك أمام أعينهم فلا يعرف أحد خطوات سيرك .
وعندما تغرب فى الأفق الغربى ، تسود الأرض كما لو كان حل بها الموت » [1] .

وهكذا يتضح لنا أن أخناتون لم يكن موحِّداً ، بل إن هذه الكلمات تعكس لنا شركا بالله سبحانه وتعالى ، لأنها تقول بأن لله ولداً ، كما أنها تصرف بعض صفات الله إلى قرص الشمس (آتون) ، كما أنها تتحدث عن هذا الإله بأنه يغرب فى الأفق ، وهذا يخالف عقيدة الإسلام فالله حى قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم .

إذن أخناتون كما يبدو من تسابيحه ـــ لم يكن موحدا لله رب العالمين .

---

(١) حضارة مصر الفرعونية ، ص ٢٦٣ ـــ ٢٦٤ .

وثائق خلق آدم عليه السلام وزوجه من القرآن الكريم وكتب التفسير ، ومن حديث رسول الله محمد ﷺ وما كتبه علماء السلف

أورد الإمام الحافظ ابن كثير الآيات القرآنية الخاصة بخلق آدم [(١)] :

قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو . ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [(٢)] . وقال تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم

(١) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٦٨ ، باب خلق آدم عليه السلام ص ٦٩ ، ٧٠

(٢) البقرة : ٣٠ ـــ ٣٩ .

قال له كن فيكون ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ [2] كما قال : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [3] . وقال تعالى : ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ [4] الآية . وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين . قال أنظرنى إلى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين . قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوآتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ [5] . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ [6] . وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجآن خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال ياإبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ

---

(1) آل عمران : ٥٩ . (2) النساء : ١ . (3) الحجرات : ١٣

(4) الأعراف : ١٨٩ . (5) الأعراف : ١١ ــ ٢٥ . (6) طه : ٥٥ .

مسنون . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط علىَّ مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا . قال أرأيتك هذا الذى كرمت علىَّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ومايعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى . فقلنا ياآدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولاتضحى . فوسوس إليه الشيطان قال ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ (٤) . وقال تعالى : ﴿ قل هو نبأ عظيم . أنتم عنه معرضون . ماكان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين . إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال

---

(١) الحجر : ٢٦ ــ ٤٤ .
(٢) الإسراء : ٦١ ــ ٦٨ .
(٣) الكهف : ٥٠ .
(٤) طه : ١١٦ ــ ١٢٦

يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم . قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين . قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾[1] .

ولنذكر ههنا مضمون ما دلت عليه هذه الآيات الكريمات وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة فى ذلك عن رسول الله ﷺ . والله المستعان .

فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلا لهم ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضا كما قال ﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض** ﴾ فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الاعتراض والتنقص لبنى آدم والحسد لهم كما قد يتوهمه البعض ... ؟

صفة خلق آدم عليه السلام :

أورد الإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه أحاديث عن صفة خلق آدم عليه السلام منها[2] :

« حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا ثم قال : اذهب فسلم على أولئك من الملائكة ، فاستمع ما يُحَيُّونَك ، تحيتك وتحية ذريتك ! فقال : السلام عليكم . فقالوا : السلام عليكم ورحمة الله ، فزادوه : ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الْخلق ينقص حتى الآن »[3] .

---

(١) ص : ٦٧ — ٨٨ .

(٢) فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٦٢ (كتاب أحاديث الأنبياء) ، وفي حديث آخر عن أهل الجنة : « وأرواجهم الحور العين على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء » . المصدر السابق ، ص ٣٦٢ .

(٣) (فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن) أى أن كل قرن يكون نشأته في الطول أقصر من القرن الذى قبله ، فانتهى تناقص الطول إلى هذه الأمة واستقر الأمر على ذلك ، وقال ابن التين : قوله (فلم يزل الخلق ينقص) أى كما يزيد =

وقد ذكر المصنف ما رواه الترمذى والنسائي والبزار وصححه ابن حبان عن طريق سعيد المقبرى غيره عن أبي هريرة مرفوعا : « إن الله خلق آدم من تراب فجعله طينا ثم تركه ، حتى إذا كان حمأ مسنونا خلقه وصوره ثم تركه ، حتى إذا كان صلصالا كالفخار كان إبليس يمر به فيقول : لقد خلقت لأمر عظيم ، ثم نفخ الله فيه من روحه . وكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه ، فعطس فقال : الحمد لله . فقال الله : يرحمك الله » . الحديث .

وفي الباب عدة أحاديث : منها حديث أبي موسى مرفوعا : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض » . الحديث أخرجه أبو داود والترمذى وصححه ابن حبان .

ومنها حديث أنس رفعه : « لما خلق الله آدم تركه ما شاء أن يدعه ، فجعل إبليس يطيف به ، فلما رآه أجوف عرف أنه لا يتمالك » . رواه مسلم وأحمد[1] .

« والمعنى أن الله تعالى أوجد آدم على الهيئة التي خلقه عليها[2] ، لم ينتقل في المنشأة أحوالا ولا تردد في الأرحام أطوارا كذريته ، بل خلقه الله رجلا كاملا سويا من أول ما نفخ فيه الروح » .

وروى ابن أبي حاتم بإسناد حسن عن أبي بن كعب مرفوعا : « أن الله خلق آدم رجلا طوالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق »[3] .

وقال بعض العلماء في قول رسول الله محمد ﷺ : « فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن » . قالوا : معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام . وهذا مناسب ، فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة ، ونفخ فيه من روحه ، فما كان ليخلق إلا أحسن الأشياء .

وقد ورد الحديث المروى في الصحيحين وغيرهما من طرق أن رسول الله ﷺ قال :

= الشخص شيئا فشيئا ، ولا يقص ذلك فيما بين الساعتين ولا اليومين حتى إذا كثرت الأيام تبين ، فكذلك هذا الحكم في النقص ، المصدر السابق ، ص ٣٦٧ .

(١) المصدر السابق ، ص ٣٦٤ .

(٢) أى لم يشاركه في خلقه أحد (المصدر السابق ، ص ٣٦٦) .

(٣) فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٦٧ .

« إن الله خلق آدم على صورته »[1] .

الله سبحانه وتعالى يعلم آدم أسماء كل شيء :

يقول الله عز وجل : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ [2] .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم** ﴾[3] .

يقول الإمام الحافظ ابن كثير : « وفيها التنبيه على ابتدائه خلق الإنسان من علقة ، وأن من كرمه تعالى أنْ علم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذى امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة ، والعلم تارة يكون في الأذهان ، وتارة يكون في اللسان ، وتارة يكون في الكتابة بالبنان : ذهني ولفظي ورسمي . والرسمي يستلزمهما من غير عكس ، فلهذا قال : ﴿ **اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ . وفى الأثر : « قيدوا العلم بالكتابة » وفيه أيضا : « من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يكن يعلم » [4] .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٩٧ — ٩٨

(٢) قال البخارى فى تفسير هذه الآية فى كتاب التفسير فى صحيحه :حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا هشام عن قتادة عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال — وقال لى خليفة : حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس ابن مالك أن رسول الله ﷺ قال — : « يجتمع الناس يوم القيامة فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون : أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول : لست هناكم ويذكر ذنبه ، فيستحى ، ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . فيأتونه فيقول : لست هناكم ، ويذكر سؤال ربه ماليس له به علم فيستحى . فيقول : ائتوا خليل الرحمن فيأتونه فيقول : لست هناكم فيقول : ائتوا موسى عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة فيأتونه فيقول : لست هناكم ويذكر قتل النفس بغير نفس فيستحى من ربّه فيقول : ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه فيأتونه فيقول : لست هناكم ائتوا محمداً عبداً غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، فيأتونى فأنطلق حتى استأذن ربّى فيأذن لى فإذا رأيت ربّى وقعت ساجدا فيدعنى ما شاء الله ثم يقال : ارفع رأسك وسل تُعْطه وقُلْ يُسمَع واشْفَع تُشفَّع ، فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لى حدّا فأدخلهم الجنة ثم أعود إليه فإذا رأيت ربى مثله ثم أشفع فيحد لى حدّا فأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة ثم أعود الرابعة فأقول مابقى فى النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود » فدل هذا على أن علّمه أسماء جميع المخلوقات ، ولهذا قال : ﴿ **ثم عرضهم على الملائكة** ﴾ يعنى المسميات (تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، صـ ٧٣) .

(٣) العلق : ١ — ٥

(٤) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٢٥٧ — ٥٢٨ .

الله سبحانه وتعالى خلق حواء :

أورد الإمام ابن حجر أحاديث عن خلق حواء منها :

حدثنا أبو كريب وموسى بن حزام قالا : حدثنا حسين بن علي عن زائدة عن ميسرة عن الأشجعي عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خُلِقَتْ من ضِلْعٍ ، وإن أعوج شيء من الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء » (١) .

وفي الحديث إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من أمهن الكبرى ، وأن ذلك من طبعهن فلا يفرط في لوم من وقع مِنْها شيء من غير قصد إليه أو على سبيل الندور ، وينبغي لهن أن لا يتمكن بهذا في الاسترسال في هذا النوع ، بل يضبطن أنفسهن ويجاهدن هواهن والله المستعان (٢) .

الله سبحانه وتعالى ينزل آدم الجنة ، ثم ينزله إلى الأرض بعد أن خالف أمر الله وأكل من الشجرة :

« يقول الله تعالى إخبارا عما ألزم به آدم ـ بعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا ، إلاَّ إبليس ـ : أنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء ، ويأكل منها ما شاء رغدا ، أى هنيئا واسعا طيبا (٣) .

وقد نهى الله ـ عز وجل ثناؤه ـ آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع دليلا على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة (٤) .

ولما أكل آدم وزوجه من الجنة ، أخرجهما الله مما كانا فيه ، أى من اللباس والمنزل

---

(١) فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٦٣ حديث رقم ٣٣٣١ ، وفيه إشارة إلى أن حواء قد خلقت من ضلع آدم الأيسر وقيل : من ضلعه القصير ، (نفس المصدر ، ص ٣٦٨) .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦٨ .

(٣) روى الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث محمد بن عيسى الدامغاني حدثنا مسلمة بن الفضل عن ميكائيل عن ليث عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال : قلت : يارسول الله ، أرأيت آدم أنبيا كان : قال : « نعم نبيا رسولا يكلمه الله قبيلا » . يعني عيانا ـ فقال : ﴿ **اسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾ . وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم ، أهي في السماء أم في الأرض ، فالأكثرون على الأول ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٧٨ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٧٩ .

الرحب والرزق الهنيء والراحة ، وأمرهما بالنزول إلى الأرض لتكون لها قرار وأرزاق وآجال إلى حين ــ أى إلى وقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة [1] .

الله سبحانه وتعالى يقبل توبة آدم عليه السلام ، ويبين له طريق الهداية وعاقبته وطريق الضلال ونهايته :

﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنَّه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [2] .

« يقول الله تعالى مخبرا عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حيث أهبطهم من الجنة ، والمراد الذرية ، أنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل ، فمن أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿ **فلا خوف عليهم** ﴾ أى فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿ **ولا هم يحزنون** ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا ، والذين كفروا منهم فهم مخلدون في النار لا محيد لهم عنها ولا محيص) [3] .

كم من الوقت أمضى آدم وزوجه في الجنة ؟ :

« يقول ابن عباس رضي الله عنهما : « ما أسكن آدم الجنة إلا مابين صلاة العصر إلى غروب الشمس » [4] .

خلق آدم يوم الجمعة :

قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٢) « وقال السدى عمن حدثه عن ابن عباس : (فتلقى آدم من ربه كلمات) قال : « قال آدم عليه السلام : يارب ألم تخلقني بيدك ؟ قيل له : بلى . ونفخت فى من روحك ؟ قيل له : بلى وعطست فقلت : يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له . بلى . وكتبت عليّ أن أعمل هذا ؟ قيل له : بلى . قال : أرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة ؟ قال : نعم » . وهكذا رواه العوفي وسعيد بن جبير وسعيد بن معبد عن ابن عباس بنحوه ، ورواه الحاكم في مستدركه من حديث ابن جبير عن ابن عباس ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٨١

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٤) رواه الحاكم ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه

وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها »[1] .

آدم عليه السلام يعمرّ ألف سنة على الأرض وكان نبياً مرسلا :

ما رواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر قال : قلت : يارسول الله ، كم الأنبياء ؟ قال : « مائة ألف وأربعة وعشرون » . قلت : يارسول الله كم الرسل ؟ قال : « ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير » . قلت : يارسول الله ، من كان أولهم ؟ قال : « آدم » . قلت : يارسول الله نبى مرسل ؟ قال : « نعم خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ثم سواه قبَلا » .

وآدم عليه السلام فى السماء الدنيا لما ورد فى حديث الإسراء الذى فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لمّا مرّ بآدم وهو فى السماء الدنيا قال له : مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح قال : وإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة . فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى . فقلت : ياجبريل ما هذا ؟ قال : هذا آدم وهؤلاء نسم بنيه فإذا نظر قبل أهل اليمن وهم أهل الجنة ضحك وإذا نظر قبل أهل الشمال وهم أهل النار بكى[2] .

وفاة آدم عليه السلام :

وقد توفى آدم يوم الجمعة وجاءت الملائكة بحنوط وكفن من عند الله عز وجل من الجنة ، وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثاً عليه السلام . وقيل : إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه : أى بنى إنى أشتهىَ من ثمار الجنة قال : فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفوس والمساحى والمكاتل فقالوا لهم : يابنى آدم ماتريدون وما تطلبون أو ماتريدون وأين تطلبون ؟ قالوا : أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة . فقالوا لهم : ارجعوا فقد قضى أبوكم فجاءوا فلمّا رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم فقال : إليك عنى فإنما أتيت من قبلك فخلى بينى وبين ملائكة ربى عز وجل فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه وحفروا له ولحدوه وصلوا عليه . ثم أدخلوه قبره ووضعوه فيه . ثم حثوا عليه . ثم قالوا : يابنى آدم هذه سنتكم[3].

---

(١) روه مسلم والنسائى ، تفسير القرآن العظم ، حـ ١ ص ٨٠ .

(٢) فتح البارى جـ ٦ ص ٣٧٤ ؛ البداية والنهاية ، حـ ١ ، ص ٩٩ .

(٣) البداية والنهاية ، حـ ١ ، ص ٨٩ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية

- لقرآن الكريم .
- **البداية والنهاية** : للإمام أبى الفداء الحافظ ابن كثير ، الرياض وبيروت ١٩٦٦ م .
- **تاريخ الرسل والملوك** : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، دار المعارف ، القاهرة .
- **تفسير القرآن العظيم** : للإمام الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى ت ٧٧٤ هـ ، دار الفكر .
- **جامع البيان عن تأويل آى القرآن** : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ت ٣١٠ هـ ، دار الفكر ، بيروت ١٩٨٤ م .
- **الجامع لأحكام القرآن** : لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .
- **صحيح البخارى** .
- **صحيح مسلم بشرح النووى** .
- **صفوة التفاسير** : للشيخ محمد على الصابونى ، دار القرآن الكريم ، بيروت .
- **فتح البارى بشرح صحيح البخارى** : للإمام أحمد بن على بن حجر العسقلانى ، دار المعرفة .

*** مراجع يجب أن تخضع للجرح والتعديل قبل الاعتماد على ما ورد فيها من معلومات :**

- **الله** : عباس محمود العقاد ، القاهرة .
- **تاريخ الحضارة المصرية** : محمد شفيق غربال وآخرون ، القاهرة .
- **تاريخ الشرق الأدنى القديم** : أنطون مورتكات ، ترجمة : توفيق سليمان وعلى أبو عساف وقاسم طوير ، دمشق .

- **تاريخ العالم** : أشرف على إعداده ج . هامرتن ، ترجمة : محمد بدران وآخرين ، ط٢ ، مكتبة النهضة المصرية .
- **تاريخ مصر من فجر التاريخ** : أ . شارف ، ترجمة : د. عبد المنعم أبو بكر .
- **تراث العالم القديم** : و . ج دى بورج ، ترجمة : زكي موسى ، مراجعة : د. يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٦٥ م .
- **تطور الفكر والدين فى مصر القديمة** : ج . هـ . برستد ، ترجمة : زكى سوس ، القاهرة .
- **الجغرافية التاريخية عصرما قبل التاريخ وفجره** : د. محمد السيد غلاب ، ود. يسرى الجوهرى ، القاهرة .
- **حضارة مصر والشرق القديم** : د. إبراهيم رزقانة ود. محمد أنور شكرى وآخرون ، القاهرة .
- **حضارة مصر الفرعونية** : ا.د أحمد فخرى ، القاهرة ١٩٥٧ م .
- **الحضارات السامية القديمة** : س. موسكاتى ، ترجمة : د. السيد يعقوب بكر .
- **ديانة مصر القديمة نشأتها وتطورها** : أ.د إرمان ، ترجمة : د. محمد أنور شكرى ود. محمد عبد المنعم أبو بكر ، القاهرة ١٩٥٢ م .
- **شجرة الحضارة**: دالف لنتون ، ترجمة : د. أحمد فخرى ، القاهرة ١٩٥٠ م .
- **الشرق الأدنى القديم مصر والعراق** : أ.د عبد العزيز صالح ، القاهرة ١٩٧٣م .
- **الشرق الخالد** : أ.د عبد الحميد زايد .
- **فجر الضمير** : ج . هـ . برستد ، ترجمة : سليم حسن ، القاهرة .
- **قصة الحضارة** : ديورانت ، ترجمة : محمد بدران وآخرين ، القاهرة .
- **مصر** : ج . فانديه : ترجمة : عباس بيومى ، القاهرة ١٩٥٠ م .
- **مصر والحضارة المصرية فى العصور القديمة** : ترجمة: محمد عبد المنعم أبو بكر ، ومحرم كمال ، القاهرة ١٩٥٣ م .
- **مصر والشرق الأدنى القديم** : نجيب ميخائيل ، ط ٣ ، دار المعارف .
- **معالم تاريخ الإنسانية** : أشرف على إعدادها هـ . ج . ولز ، وقام على ترجمتها

د. عبد العزيز توفيق جاويد ، ط٣ ، القاهرة .

ـ **موجز تاريخ الإنسانية** : ج . ولز .

ـ **موسوعة تاريخ العالم** : أشرف على إعدادها لانجر ، وترجمها د. مصطفى زيادة .

ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية

- Braidwood, R.J. The World's First forming Villages .
- Baumgartel, The Cultures of Prehistoric Egypt .
- Breasted, J.H. Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, London 1912 .
- Breasted, J.H. TheDawn of Conscience, 1933 .
- Breasted, J.H. Ancient Records. A History of Egypt from the Earliest times to the persian conquest .
- Childe,V.G. New light on the Most Ancient East .
- Cyrit, A. Egypt to the End of the old Kingdom .
- Dhorme,Paul Choix des textes religieux assyro - Babyloniens .
- Frankfort, H. The birth of civilisation in the Near East, 1951 .
- Gardiner, A.H. Egypt of the pharoahs .
- Hall, H.R. The Ancient History of the Near East .
- Heidel, A. The Gilgamesh Epic and the old Testament Parallels .
- Hooke, H. Babylonian and Assyrian Religion 1953 .
- Honon,L.L. Sennacherib's invasion of Palestine .
- Jean, C. Archives royales de Mari .
- Jequier, Considerations sur les religions egyptiennes, 1946 .
- Kantor, H.J., The Early Relations of Egypt with Asia .
- King, L.W. A History of Sumer and Akkad, New York .
- King, L.W.The letters and Insciriptious of Hammurabi .
- Lagrange, Marie Joseph Etudes sur les Religions semetiques, Paris .
- Labat, R. La poeme babylonien de la creation .
- Lambert, W.G. Babylonian Wisdom literature, Oxford, 1960 .
- Woolley, Geonard Carchemish .

- Lueas, A. Ancient Egyptian Materials and Industry, 1948 .
- Luckenbill, D. Ancient Records of Assyria and Babylonia .
- Luckenbill, D. the Annals of sennacherib .
- Maspero, G. Les enseignements d'Amenehait ler, 1914 .
- Massaulard, E. prehistoire et Protohistoine d'Egypte, 1940 .
- Moret, Caracteres religieux de la Royalite pharaonique, Paris .
- Moret, A. Le jugement du Roi dans les Textes des pyramides .
- Moscati, S. The face of the Ancient Orient .
- Petrie, W.F. Prehistoric Egypt .
- Saggs, H.W.F. The greatness that was Babylon, London .
- Speiser, E.A. ...Akkadian Myths and Epies .
- Speiser, E.A. Ancient Mesopotamia .
- Revue d'Assyriologie et d'Archeologie orientale .
- Vandier, J. La Religion Egyptienne, Paris .
- Vandier, J. Manuel d'Archeologie Egyptienne, Paris 1952 .
- Woolley, C. Leonard Ur Excavations, The Royal cemetry , 1934 .

* * * * *

فهرس الموضوعات

الباب الأول

أخبار القرون الأولى

(عصر ما قبل آدم عليه السلام)

الباب الثانى

تاريخ الأمة الواحدة المسلمة

فى أرض الرافدين (دجلة والفرات)

الموضوع | الصفحة

الباب الثالث

تاريخ الأمة الواحدة (المسلمة)
فى وادى النيل (مصر)
فى المصادر الإسلامية ومراجع التاريخ القديم

الموضوع	الصفحة

اقرأ فى سلسلة أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ :

- منهج كتابة التاريخ الإسلامى . لماذا ؟ وكيف ؟ .
- الإسلام دين الله فى الأرض وفى السماء .
- جزيرة العرب – الجزء الأول .
  (سيرة هود وصالح وشعيب ولوط وسليمان وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل) .
- جزيرة العرب – الجزء الثانى .
  (سيرة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام وتاريخ حرم الله الآمن) .
- استخلاف أبو بكر الصديق رضى الله عنه .
- إفريقيا التى يراد لها أن تموت جوعاً .
- الطريق إلى بيت المقدس (القضية الفلسطينية). جزءان .



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت. ٣٤٢٧٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت. ٣٤٧٤٢٣ ص . ب ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

تطلب جميع منشوراتنا من :



دار النشر للجا[illegible]ية - مكتبة الوفاء

٤١ ش شـريف [illegible] / ٣٩٣٤٦٠٦